

عظمة معجزات القرآن - شهادة العالم بإعجاز القرآن - دراسة أسلوبه البياني

إعجازه العلمي والتشريعي والخلقي - آثاره في اللغة والأدب - نقضه مزاعم المستشرقين

تأليف

الدكتور حسن ضياء الدّين عتر




المعجزة الخالدة

الطّبعَة الثالثَة
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

قامت بطباعته وإخراجه دار البشائر الإسلاميّة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥-١٤ ويُطلب منها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

" سُورَة الإسراء : ٨٨ "

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

" سُورَة المائِدَة : ١٥-١٦ "

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ؛ الرحمن الرحيم ؛ أنزل القرآن العظيم هادياً شافياً وضاءً ، شفت براهينه أعيناً عمياً فأبصرت ، وقرعت حججه آذاناً صماً فسمعت ووعت ، وأضاءت أنواره قلوباً غلفاً فتفتحت واهتدت . نحمدك اللهم أن أنزلت القرآن الحكيم علىٰ خاتم المرسلين ؛ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وجعلته أبلغ دلائل نبوته وأجلَّ آيات صدقه ، فأقام في الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسراجاً منيراً . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه والهادين بهديه إلىٰ يوم الدين .

أما بعد :

فإنَّ الأدب السامي الرفيع عامل هام من عوامل نهضة الأمة وعنصر فعّال في توجيهها اتجاهاً قويماً وفي تقدّمها وازدهارها وسلامة نظرتها إلى الحياة والمجتمع . والقرآن إلى جانب صفته الدينية فهو النموذج الأدبي الأمثل الذي عمل بفاعلية رائعة في نفوس الصحابة وتابعيهم في القرنين الأولين ، ولا يزال تهوي إليه أفئدة الأدباء ويحط الرحال عنده المنصفون العقلاء . لقد قام القرآن العظيم بدور بليغ عميق في اللغة العربية وأدبها وبلاغتها وفي النقد الأدبي عند العرب . فإن المعجزة القرآنية الباهرة استعلت على جميع المواهب الأدبية العريقة ، ونشرت أنوارها في أرجاء الجزيرة العربية جميعاً ، وبزغت علىٰ شعوب العالم فأدتْ إلى امتداد

واسع للغة العربية ؛ وإلى رقي بارز في أدبها وبلاغتها وفي النقد الأدبي فيها .

وإن هذا البحثَ يعرض لدراسة القرآن المجيد ، الكتاب الذي أخرج العرب من أغوار الوثنية السحيقة إلى ذُرىٰ الإيمان الشامخة ، وألَّفَ بين قلوبهم ، بعد أن استبدت بهم ضغائن وأحقاد وثارات لو أنفقت لها ما في الأرض جميعاً ما تآلفت قلوبهم . فجمع الله بالقرآن شملهم بعد فرقة ، وخطَّ لهم منهج الدولة والنظام بعد القبلية والفوضى ، وبوَّأهم عرش العزة بالله ؛ بعد دأبهم على التبعية ، حتى مزقوا أعظم امبرطوريتين في العالم . فالقرآن كتاب أنشأ دولة سادت العالم كله ، ونهض بالإنسانية من عميق سباتها ، فأحيا موات القلوب وسما بها في معارج النور والكرامة . وحفز القرآن المسلمين إلىٰ بناء حضارة إنسانية نبيلة ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون ، حتى صارت بحق فخر الإنسان على مر الزمان .

فأردت بهذه الدراسة أن نكتنه من أسرار القرآن العظيم ما يُعرفنا لماذا انبهرت به أبصار الأدباء والبلغاء ، وأخذ العجب منه عقول الفلاسفة والعلماء ، حتى ملكت روعته الأفئدة وعقدت الدهشة منه ألْسنة الخطباء والشعراء !!؟ وأن نستبين كيف أطلَّ علىٰ الجميع من عليائه ، يُشع نوراً وهداية ، ويفيض رقة وعذوبة ، ويتدفق جزالة وجلالة ، وينساب في حنايا الضلوع ، ويتغلغل إلى أغوار النفوس غضاً طرياً . . . حتى يمسك بنواصي الأفكار والأحاسيس . . .

ذاكم هو إعجازُ الأدبِ وأدَبُ الإعجاز !!

خاطب الله به العقل والفكر والقلب والوجدان ، وتحدىٰ به البشرية جمعاء . فأبانت دراستنا للعيان أنه معجزة أدبية وعقلية خالدة ، تقرع مسامع الدهر كل نهار ، تثبت إعجازه بأسلوبه البياني وبمحتواه

الفكري والروحي علىٰ حد سواء .

لقد انغمس العرب في جاهلية جهلاء ، وأوغلوا في عقائد وموبقات دكناء ، وفرطوا بعقولهم وأفئدتهم ، وعاشوا في جوانب من حياتهم عيش الهوام على هامش الحياة ، يتجبر بعضهم على بعض ، ويتضرع بعضهم بذل الاستكانة لبعض ، ثم يقفون جميعاً ؛ جبابرة وصاغرين في صعيد واحد ؛ تعنو وجوههم بعبودية حجارة نحتوها بأيديهم يبتغون منها جلب النفع ودفع الضر . أجل ! إنها أصنامهم صماء بلهاء لا تعي ولا تجيب ، ولا تبدي قدرة ولا حراكاً . . !! فهل تعاسة أشنع وأمرُّ من تلكم التعاسة ؟؟ ثم ماذا بعد . . !!؟؟

سطعت عليهم شمس القرآن المبين . . باغتهم القرآن بأسلوب رائع خلّاب . . وأصلت علىٰ رؤوسهم قوارع التحدي أن يأتوا بمثله ، وأن يحشدوا لذلك كل مواهبهم مستنصرين بمن شاؤا من الإنس والجن . . وظل يتنزل معهم حتى تحداهم بسورة واحدة من مثله . . !!

ها هم أساطين الفصاحة والبلاغة يتبارون فيبذ بعضهم بعضاً ، وقد حشدوا مواهب فذة لم يعرف تاريخ الأدب لها نظيراً . لكن أسلوب القرآن الفريد الفائق قد فاجأهم فبهتهم وحيرهم وأربكهم . . فلم يُحروا تجاه عنف التحدي جواباً !! فهل تحداهم بفن غريب لم يألفوه !؟ كلا ! إنما جاءهم بجنس ما نبغوا فيه وزعموا أنهم بلغوا غايته ! فقد لبسوا تاج البلاغة وأمسكوا بصولجان اللَّسَن ! لكن القرآن المجيد قد بهرهم ضياؤه وفتنهم لألاؤه ، واجتذبتهم آياته وملكتْ أَزِمَّةَ خواطرهم علومه وفنونه وأساليبه تدارسوا أمره فيما بينهم للمكر به . . أزجىٰ زعماؤهم القول عفواً يشيدون بعظمته ، ويُذكِّرون بروعته وجلاله وسطوته ، ويُقرُّون بربانية مصدره والعجز إلى الأبد عن مثله !!؟ .

جليلة كثيرة هي مزايا القرآن ، ومِلاكها أنه هو الرسالة الإلٰهية

ومعجزاتها الخالدة وهو الدعوة وبراهينها الدامغة ، أجل إنه الشمس وضياؤها ، ولا غرو ! فقد اتحد فيه الدليل والمدلول عليه أقوى من اتحاد الروح بالجسد . فالقرآن هو نفسه الوحي الإلٓهي المنزل ، وهو الخارق المعجز للخلائق الدال علىٰ إلهية مصدره ، فشاهد صدقه في عينه لا ينفك عنه مهما توالت العصور وانقضت الدهور !! يقيم للأجيال المتعاقبة براهين دامغة لا تجدُ الألبابُ القويمةُ والأذواق الرفيعة والفِطرُ البريئة سبيلاً إلاَّ سبيل الإيمان به والتسليم بنبوة مُبلّغه محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وهذا زمان شقي فيه أكثر الناس بأهوائهم وشهواتهم ، حتى طُبع على قلوبهم فاعتنقت من الأفكار الزائغة والتفلسفات الزائفة ؛ ما لا داعي إلىٰ عده وحصره !! لا غرابة ! فهو عصر تتفجر فيه العلوم بالمكتشفات والمخترعات ، فيخدعُ بريقُها كثيراً من البسطاء والسطحيين وأنصاف المتعلمين المغرورين ، خاصة عندما يتخذها الخبثاء والمتحكمون مطية للمكر بهم . لكن أصحاب العقول الراجحة يبلغون بالتأمل المستنير سلامة البحث والاستنتاج ، ويتلمسون في القرآن الحكيم الحقيقة الكاملة والعقيدة الحقة ، ويلحظون أن كل براهين الحق البليغة إنّما تزداد ؛ بنمو العلوم الحديثة وتطورها ؛ نصوعاً وضياءً وجاذبية وإشراقاً ، لتثبت وتؤكد مراراً وتكراراً أنه رسالة الله ، بعث بها إلىٰ البشرية نبيه محمداً عليه أفضل الصلاة وأتم السلام . ومن ههنا تتجلىٰ خطورة دراسة إعجاز القرآن من جميع وجوهه في الدعوة الإسلامية الحديثة ، ابتغاء إنارة العقول ببراهين الوحي الإلٓهي وترسيخ الإيمان بالله وبكتاب الله وبرسول الله على المحجة البيضاء الناصعة إزالة لكل وهم والتباس . **وهذا ما حفزنا في هذه الدراسة إلى التماس أوجه الإعجاز الساطعة وبراهين الوحي الدامغة في صورة الأسلوب القرآني ومضمونه على حد سواء** . ولما بعدت الشقة في زماننا بين عامة الناس وبين لغتهم الفصحى وتذوق بيانها والتمييز بين

مراتب أساليبها ؛ رأيتُ أنْ أبذل مزيداً من العناية في عرض أوجه الإعجاز الأخرى كالاخبار عن الغيب والإعجاز العلمي . . . إلىٰ جانب الإعجاز البياني . فإن معظم شبابنا يتفهمون تلك الأوجه علىٰ نحو أمثل . فالتزمت الإسهاب في بحثها نسبياً ؛ حرصاً علىٰ إبراز أوضح دلائل تثبيت نبوة محمد ﷺ وأسرعها قبولاً لدى معظم الناس في أيامنا هذه .

ومن مزايا أبحاث كتابنا هذا :

١ ـ جمع أطراف الموضوع من مصادر متفرقة في مختلف العلوم :

لقد مرَّ البحث في الإعجاز القرآني في أدوار تاريخية ، وتصدى للبحث فيه ثلاث طوائف : الطائفة الأولى المفسرون ؛ والثانية علماء الكلام والمعتزلة منهم خاصة ؛ والثالثة علماء اللغة والأدب . فرجعت إلىٰ أمهات المصادر ـ المخطوطة والمطبوعة ـ مع التمحيص والنقد . فوجدتُ أطراف هذا البحث متناثرة في أرجائها . إذْ أُشبعت المؤلفات الأدبية بأبحاث صرفة عن البلاغة والأدب وبمناقشات انقضى أوانها وعفا عليها الزمن ، مما شتت البحث وأخلَّ بنظامه . أما مصنفات علم الكلام « كالمغني في إعجاز القرآن ؛ للقاضي عبد الجبار » فقد انفرط عقد البحث فيها ، وانتظم في سلك مناقشات فلسفية طويلة عظم فيها الجهد وتضاءل منها النفع . وأرسلت ناظريَّ إلىٰ المصنفات الحديثة فوجدت أشهرها يقوم علىٰ أسلوب الخطابة وحسن البيان بتطويل زائد دون أن يوفي البحث حقه من الوجهة الموضوعية ، **فاستقيت مواد البحث من المصادر الأصيلة ، وكونت من متناثر الأفكار كُلًّا متجانساً وصيغة جديدة متكاملة عن إعجاز القرآن** ، أبرزت فيها ما خلصت إليه من الرأي ونقدت ما لم يوافق البرهان الصحيح .

٢ ـ الدرس التطبيقي المبتكر على نصوص القرآن : وقد وجدتُ

في كتب التفسير فوائد جمة وأفكاراً هامة لم تتعرض لها كتب الاعجاز وعلوم القرآن ، فتقصيتُ آيات القرآن العظيم وتفسيرها ، فكان عماد الكتاب المنهج القرآني في الإعجاز على طريقة « التفسير الموضوعي »[1] فزوَّد ذلك الكتابَ بشواهد وأفكار جديدة ، وأمده بسيل دافق من النفحات الروحية القرآنية ؛ ووفرة من الدلائل العقلية البليغة المفحمة ، التي تورث المتأمل يقيناً صادقاً وإيماناً راسخاً بنبوة محمد ﷺ . وهذا أبدع وأبلغ أسلوب ينهجه الباحث في العقيدة الإسلامية ، وعليه عوَّل في نهاية المطاف أفاضل العلماء وأجلُّ الفلاسفة . وقد نبّه إليه الإمام الرازي فقال في آخر مصنفاته « نهاية العقول » :

(نهاية إقدام العقول عِقالُ   وأكثرُ سعيِ العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفدْ من بحثنا طول عمرنا   سوى أنْ جمعنا فيه قيلَ وقالوا

لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهجَ الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً . ورأيتُ أقربَ الطرق طريقة القرآن . اقرأ في الإثبات ﴿ إليه يصعد الكلمُ الطيب ﴾ ﴿ الرحمن علىٰ العرش استوى ﴾ واقرأ في النفي ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ . . .

وقال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)[2] .

٣ ـ اعتماد أساس موضوعي سليم يصون البحث عن الزلات : إذْ افتتحتُ البحث بإيضاح معنى « المعجز » وخصائصه المميزة ، فاستبان في ضوء ذلك الإعجاز القرآني ووفرة المعجزات القرآنية . وعرَّفتُ معنى « الوجه المعجز في القرآن » لأول مرة ، وحددت أوجه الإعجاز القرآني بالاستناد إليه . وبذلك خلا البحث من تداخل أوجه الإعجاز مع بعضها

---

(١) بينت منهجه في « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص : ١٥ ـ ١٧ .
(٢) النبوات ص ٥٢ وغيرها .

بعضاً ومن تكرار بعضها أو إغفاله أو حشر ما لا يصلح أن يُعدَّ وجهاً فيها . وهذه مآخذ ما تكاد تجد بحثاً في الإعجاز تبرَّأ عن شيء منها . فنبهتُ علىٰ جميع ذلك ، ونقدت مذاهب العلماء في أوجه الإعجاز ، وقدمت ما اهتديت إليه منها علىٰ أساس موضوعي سليم .

٤ ـ دحض تخرصات جديدة للمستشرقين : لقد عُني بعض المستشرقين باصطناع الدسائس وتعمُّلِ الشبهات علىٰ أصلَيْ الدين الإسلامي الحنيف : القرآن الحكيم والسنة المطهرة ؛ ابتغاء تشكيك المثقفين في دينهم وإضعاف يقينهم بكتاب ربهم ورسالة نبيهم . وهذا أخطر وأنكى كيد يكيده عدوهم بهم . فكشفت أخطر دسائس المستشرقين وأحدثها ، مستنداً إلى الدليل القاطع والشواهد الناطقة بالحق[١] .

٥ ـ العناية بدراسة الشكل والمضمون : نشأت خلافات حامية في المذاهب النقدية العربية والأوروبية حول أولوية الاهتمام بالصورة أو المحتوى ، فتمايزت المذاهب الأدبية ؛ في جملة ما تمايزت به ؛ بالانحياز إلى اللفظ أو المعنى أو مدى مراعاة التلاؤم بينهما . وفي معترك الخلاف بين أصحاب الدراسات القرآنية ، ذهب بعضهم إلى الاقتصار على تلمس ملامح الاعجاز في أسلوب القرآن البياني فحسب ، وذهب آخرون إلى اعتماد أوجه إعجاز أخرى من مضمون القرآن المبين . لكن بعض الباحثين في عصرنا انحازوا إلى الفريق الأول معتمدين في نقد المذهب الثاني على ضعف وجدوه في أشياء أوردها أصحاب ذلك

---

(١) وأما شبهاتهم الأساسية في الحديث النبوي فانظر نقضها في كتاب « منهج النقد في علوم الحديث » لشقيقي العلاّمة الدكتور نور الدين عتر رئيس قسم علوم القرآن والسنة في جامعة دمشق . فقد صاغ فيه قواعد المحدثين في نظرية نقدية شاملة ، يسرت هذا العلم وأوضحت تكامله ، وقد أبان في دراسته زيف مطاعن المستشرقين المتعلقة بعلوم الحديث .

المذهب ومغالاتهم بحشر أمور في الاعجاز لا يمكن أن يُعتد بها فيه .

فذهبتُ في هذه الدراسة إلى تلمس ملامح الجمال في أسلوب القرآن البياني والاستدلال على إعجازه ، ثم عمدتُ إلى استشفاف ما في طياته من معان وحقائق علمية ، لاستجلاء معالم الروعة والعظمة التي فجرت ينابيع الاعجاز في القرآن المجيد ، مشيراً في كل وجه إلى سر الاعجاز ودلالته باستدلال ملزم .

وهكذا استهدف البحث تقديم دراسة أصيلة وافية عن إعجاز القرآن في كل من الشكل والمضمون على أساس أدبي علمي مكين ، لتتجلى للباحث الصورة المشرقة عن إعجاز الأدب وأدب الاعجاز في القرآن العظيم .

وهكذا سعيتُ إلى تقديم دراسة أدبية شيقة في حسن العرض وتسلسل التبويب والترتيب ، فتجلى الاعجاز القرآني من خلال دلالات آيات الكتاب المبين في تصنيف جديد جامع ، نسَّق أفكار البحث وسلسلها وألان عرضها ، فجاءت سلسبيلاً شافياً ، وأبرزتُ إحكام الوثائق في كافة مناحي البحث بين إعجاز القرآن وبين غرضه الأساسي وهو إثبات نبوة محمد ﷺ ، ليزداد القارىء يقيناً وإيماناً على يقينه وإيمانه كلما تواردت عليه دلائل الاعجاز ، تقيم الأدلة القاطعة تلو الأدلة القاطعة على نبوة مبلِّغ القرآن سيدنا محمد ﷺ ، وليستقر في خلده أن القرآن المجيد أعظم براهين نبوته في كل زمان ومكان .

والحق أن هذا الموضوع جليل عظيم ، كلما توالى البحث العلمي عليه أظهر للأبصار آفاقاً جديدة واسعة ما عرفتها فيه من قبل . وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في كشف الجديد من المعجزات القرآنية الخالدة وإبانة المزيد من روعتها وسموها وجلالها ، كي أقدم للشباب المثقف نبراس هدى وضياء . والله ولي التوفيق .

البَابُ الأَوَّلُ

المُعجزة في القُرآن الكريم

الفصل الأول : خصائص المعجزة وتَميُّزها .

الفصل الثاني : معجزات رسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .



الفصل الأوّل

خصائص المعجزة وتميّزها

● حكمة الله في تعريف الخلق بالرسول الحقّ .

● تعريف المعجزة وذكر شروطها .

● أهم خصائص المعجزة في القرآن :

١) المعجزة من خلق الله تعالى .

٢) استحالة معارضة المعجزة .

٣) المعجزة تخالف قوانين الطبيعة .

● كرامات الأولياء في القرآن :

ـ إثبات الكرامة .

ـ وقائع الكرامة .

ـ منزلة الكرامة من المعجزة .

● الفرق بين المعجزة والمخترعات العلمية .

● السحر :

ـ حكمة الله تقتضي توفير الأدلة للرسل .

ـ حقيقة السحر .

ـ اشتهار صدق النبي وافتضاح كذب الدعيِّ .

ـ تبرئة القرآن محمداً ﷺ من السحر .

حكمة الله في تعريف الخلق بالرسول الحقّ

إن أي إنسان راشد إذا أرسل إلى جماعة رسولاً قدر على تزويده بعلامة خاصة تُطمئن نفوس المرسل إليهم وتُوثِّقه عندهم ، فالله سبحانه على هذا أقوى وأقدر . وإذا كانت حكمة العبد تقضي أن تكونَ العلامةُ قوية التعريف بصدق سفيره ؛ لئلا يختلط عليهم موفَده الصادقُ بالدعيِّ المُزوِّر المنتحل ؛ فالله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين أبلغ إحكاماً لذلك .

والعلامة الإلّهية هنا أن يُجري الله علىٰ أيدي الرسل أمراً بديعاً هو من خصائص ربوبيته ، ويعجز الخلق عن مثله فيعلمون يقيناً أن هذا لا يفعله إلَّا الله ، وأنه تعالى ما أجراه على أيدي الرسل خاصة إلَّا تصديقاً لهم وتثبيتاً لرسائلهم . وهذا ما نسميه : المعجزات . فظهور المعجزة على يد الرسول أمر قضت به حكمة الله وعدالته ، فهو بالتالي سنة الله وعادته في رسله . فمن خصَّه الله بتلك الخصائص فميَّزه بها عن غيره ، عُرف أنه من ذلك الصنف المخصوص وهم الأنبياء . فإن عادة الله وسنته المطردة في خلقه أنه لا يجعل تلك الآيات إلَّا مع النبوة . فعادته وسنته لا تتبدل وأفعاله جاريةٌ على وجه الحكمة والعدل . **فالمعجزات دلائل يقينية عظيمة على نبوة النبي وتلقيه الوحي عن الله جلَّ شأنه** .

فالحديث عن المعجزات أمر إلزاميٌّ لدى البحث في نبوة محمد ﷺ في القرآن الكريم ، فهي من دلائل نبوته . وقد أشار إليها القرآن

عـامة : ﴿ **قـل إنمـا الآيـاتُ عنـد الله** ﴾[1] وأشـار إلى بعضهـا خـاصـة ﴿ **اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ** ﴾ . وتمييزاً للمعجزة عن خـوارق أخرى يجـريهـا الله على أيـدي بعض الصـالحين يتحتم عليّ أن أتحــدث عن « الكـرامة » ومنـزلتهـا من المعجـزة . ولنفس الغـرض ؛ ورداً على تُهم المشـركين للرسول بـأنه سـاحـر ؛ وتثبيـاً للمعجـزة تُجـاه شكـوك بعض المشاهدين للعجائب السحرية ؛ وجب التعرض للسحر وبيان الفرق بينه وبين المعجزات :

تعريـف المعجــزة :

المعجزة اسم فاعل مأخوذ من العجز ، وهو مقابـل القدرة . وفي القـاموس : معجـزة النبي ما أعجـز به الخصم عنـد التحـدي ، والهـاء للمبالغة .

قال الفخر الـرازي : « المعجزة عـرفاً أمـر خارق للعـادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة » .

وقال ابن حمدان : « المعجزة ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداء ، بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها ولا على ما يقاربها » .

وذكر بعض العلماء أنه يكفي أن يظهر التحدي بقرينة الحال .

ونقدم ؛ بالاعتماد على شروط المعجزة وخصائصها ؛ تعريفـاً لها أكثر ملائمة لأفهام مثقفي العصر ، فنقول :

« المعجزة : أمر يجريه الله على يـد النبي ، يفوق طـاقات البشـر

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٩ وسورة العنكبوت : ٥٠ ، وانظر سورة الرعد : ٣٨ وسورة غافر : ٧٨ وسورة الإسراء : ٥٩ .

ويخرق قوانين الطبيعة وخواص المادة ، يتحدى النبيُّ به الناس فلا يقدر أحد على معارضته » .

أما تسميتها : فإن علماء الكلام قد أطلقوا عليها اسم « المعجزة » لأن خصم النبي يعجز عن الاتيان بمثلها . قال ابن حجر: « **وسميت المعجزة لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها ، والهاء فيها للمبالغة** »[1] .

وذكر ابن تيمية رحمة الله عليه أن الله تعالى سماها : آية وبيِّنة وبرهاناً . فقال : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾[2] وقال لموسى : ﴿**فذانك برهانان من ربك** ﴾[3] عن معجزتي اليد والعصا . وسماها آية في مواطن كثيرة من القرآن . (قال ابن تيمية روَّح الله روحه في كتابه « الجواب الصحيح » : الآيات والبراهين الدالة على نبوة نبينا محمد ﷺ كثيرة متنوعة . وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء . . . ويسميها النُظَّار معجزات ، وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة ونحو ذلك . وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب ولا في السنة ، وإنما فيه لفظ الآية والبيّنة والبرهان)[4] .

فلم يفرق ابن تيمية بين المعجزات وبين دلائل النبوة عامة . ولكنا

---

(١) لوائح الأنوار البهية : ٢ : ٢٧٧ ـ ٢٧٨ والأربعين في أصول الدين ص ٣٨٨ وانظر فتح الباري جـ ٦ ص ٣٧٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٣) سورة القصص : ٣٢ .

(٤) لوائح الأنوار البهية ـ للسفاريني : ٢ :٢٧٨ وانظر النبوات : ص ٢٨ و١٥١ ـ ١٥٣ و١٩٣ و٢٠٧ .

سندرج على تسميتها بالمعجزة نظراً لدلالة اللفظ اللغوية ولاشتهاره اصطلاحاً قديماً وحديثاً . وبذلك نميز المعجزة عن دلائل النبوة الأخرى التي لا تحدي فيها ولا اعجاز . وقد أوردنا من تلك الدلائل قدراً مباركاً في الكتاب الأول « نبوة محمد ﷺ في القرآن » وخير تمييز بين دلائل النبوة ومعجزاتها ما ذكره ابن حجر في شرح (باب علامات النبوة) من صحيح البخاري ، إذْ قال : (العلامات جمع علامة ، وعبر بها المصنف لكون ما يورده من ذلك أعم من المعجزة والكرامة . **والفرق بينها أن المعجزة أخص** ، لأنه يشترط فيها أن يتحدى النبيُّ من يكذبه . . . ويشترط أن يكون المتحدى به مما يعجز عنه البشر في العادة المستمرة . وقد وقع النوعان للنبي ﷺ في عدة مواطن)[1] .

شروط المعجزة :

يشير تعريفا المعجزة السابقان إلى شروطها وهي سبع :

الأول : **أن يحصل ذلك الأمر بإنجاز الله تعالى** ، فلا يقدر الخلق على الإتيان به بالاسلوب الذي جرى على يد الرسول . وإنما عبّر الرازي عن المعجزة أنها « أمر » ليشمل القولَ كالقرآن الكريم ، والفعلَ كانفجار الماء من بين أصابع النبي ﷺ ، ويشمل الترك « عدم الفعل » كعدم احراق النار سيدنا إبراهيم عليه السلام .

الثاني : **أن يخرق ذلك الأمر العادة المألوفة في الكون** فيحصل ذلك من غير ارتباط المسبَّبات بأسبابها المناسبة .

الثالث : **أن تتعذر معارضته بمثله** ، فإن ذلك حقيقة الإعجاز .

الرابع : أن يظهر على يد من يدعي النبوة .

---

(١) فتح الباري ـ ابن حجر : ٦ : ٣٧٥ . وراجع ص ٢٣٥ من كتابي « نبوة محمد ﷺ في القرآن » .

الخامس : أن يأتي ذلك الأمر موافقاً للدعوى ، فلو قال : معجزتي أن أُحيـي ميتاً فحصل على يده خارق آخر لم يدل على صدقه .

السادس : أن لا يكون الأمر الخارق مكذباً له . فلو قال : معجزتي أن ينطقَ هذا الضب ، فنطق فقال : إنه كاذب . لم يدل ذلك على صدقه بل انكشف كذبه وافتضح أمره .

والسابع : أنْ لا يجيء ذلك الأمـر متقدماً على الدعوى ، بل مقارناً لها ، لأن المعجز تصديق من الله لرسوله ، فلا يعقل مجيء التصديق قبل دعوى النبوة[1] .

أهم خصائص المعجزة في القرآن

١) المعجزة من الله تعالى :

ليس للرسول إلَّا الدعاء وليس بيده سبب حقيقي لإيجاد المعجـز . إنما السبب الحقيقي في المعجز أن الله الـذي خلق نواميس الـوجود هـو الذي يخرقها ليدلّ الناس على الحق الذي أنزله إليهم . فالرسـول عاجـز عن تقديم خارق إلَّا بأمر الله **تعالى** وقدرته ومشيئته . قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ **ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم أني أخلقُ لكم من الطينِ كهيئةِ الطير فأنفخُ فيـه فيكونُ طيـراً بإذنِ اللهِ ، وأبرىءُ الأكْمه والأبرصَ وأُحيـي الموتى بإذنِ الله وأُنبئكم بما تأكلونَ وما تدَّخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾[2] .

---

(١) انـظر المواقف في علم الكـلام ـ عبد الـرحمن الأيجي ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ مـطبعـة العلوم بمصر ، وشرح المواقف ـ علي بن محمد الجرجاني جـ ٨ ص ٢٢٣ وما بعدها ـ مطبعة السعادة بمصر ـ ومذكرات التوحيد ـ للسنة الرابعة بكلية أصول الدين للشيخ محمود أبـو دقيقة . مطبعة العلوم ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ . ولوائح الأنوار البهية جـ ٢ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

(٢) آل عمران : ٤٩ . وانظر المائدة : ١١٠ .

فالمعجزة إنما تتم بأمر الله وقدرته ، فقد جعلها الله علامة دالة على صدق رسوله . فليس للرسول قدرة على إيجادها ، لذلك قيَّد الإحياءَ بقوله : (بإذنِ الله) فإنه من الله تعالى وحده وليس لعيسى خصوصية تُؤثر في الطين فَتحييه . إنما حصل الاحياء من الله تعالى . وكذلك جميع معجزات الرسل فالمؤثر الفعال في إيجادها وتكوينها هو الله تعالى : ﴿ **وما كانَ لرسول أن يأتي بآية إلَّا بإذن الله** ﴾ ﴿ **قل إنما الآياتُ عند الله** ﴾[1] .

دعا الله نبيّنا محمداً ﷺ إلى الصبر على تكذيب المشركين وإيذائهم ، وحضَّه عليه تأسياً بالمرسلين قبله ، إذْ تذرعوا بالصبر على صنوف الأذى في تبليغ رسالات الله حتى أتاهم نصر الله[2] . ثم بين تعالى أنْ ليس في وسع خاتم المرسلين وأكرمهم على ربه أن يأتي بمعجزة من لدن نفسه ، فقال تعالى : ﴿ **وإنْ كانَ كَبُرَ عليكَ إعراضُهم ؛ فإنْ استطعتَ أن تبتغي نَفَقاً في الأرض أو سُلَّماً في السماء فتأتيَهم بآيةٍ ، ولو شاءَ اللهُ لَجَمَعهم على الهدى ، فلا تكونَنَّ من الجاهلين** ﴾[3] .

وجّه الله الخطاب إلى نبيه محمد ﷺ : إنْ كانت المكابدةُ في دعوتهم قد عظمت عليك ، وشق عليك كفرهم ، فإن سنة الله جارية فيهم وإن الله لم يمنحك من المعجزات ما تُساير به شططهم في تطلب المعجزات . فإن أردتَ غير الصبر عليهم ، فاتخذ - إن استطعتَ - سرباً في أعماق الأرض أو مصعداً إلى السماء لتأتيَهم بمعجزة !! وما دمتَ غير قادر على الإتيان بها فاصبرْ على شدائدهم وتكذيبهم وإقفالهم عقولهم . والله قادر على هدايتهم ، لكن حكمته تعالى تأبى ذلك لِعلمه بسوء

---

(١) سورة الرعد : ٣٨ وسورة غافر : ٧٨ وانظر روح المعاني جـ ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩ وانظر سورة العنكبوت : ٥٠ والانعام : ١٠٩ .

(٢) انظر سورة الأنعام : ٣٣ - ٣٤ .

(٣) سورة الانعام : ٣٥ .

اختيارهم وفساد استعدادهم . فلا تكن ممن جهلوا دقائق شؤون حكمة الله تعالى[1] .

قال ابن تيمية رحمه الله : « **لكن آيات الأنبياء لا تكون مما يقدر عليه العبد، كما قال** : ﴿ **قل إنما الآياتُ عندَ اللهِ** ﴾ والملائكة إنما هي سبب من الأسباب كما في خلق المسيح من غير أب . فجبريل إنما كان مقدوره النفخ فيها « مجرد بذل السبب » وهذا لا يوجب الخلق ، بل هو بمنزلة الإنزال « للمني » في حق غير المسيح . وكذلك المسيح لما خَلق من الطين كهيئة الطير إنما مقدوره تصوير الطين . وأما حصول الحياة فيه فبإذن الله فإن الله يحيي ويميت . وهذا من خصائصه تعالى ، ولهذا قال إبراهيم الخليل « عليه السلام » : ﴿ **ربي الذي يحيي ويميت** ﴾ وفي القرآن في غير موضع ﴿ **يُخرجُ الحيَّ من الميتِ ويُخرج الميِّتَ من الحيّ - وكنتم أمواتاً فأحياكم - ويحيي الأرضَ بعد موتها - والله يُحيي ويميت** ﴾[2] .

ومن هنا تدرك أن الملائكة لا تخلق المعجزات ، فهي مخلوقات تأتمر بأمر الله تعالى ﴿ **لا يَعصونَ اللهَ ما أمرهم ويفعلونَ ما يُؤمرون** ﴾[3] . إنما تبذلُ السببَ إذا أذِنَ الله تعالى لها ، والله سبحانه هو الخلاق العليم ﴿ **إنَّما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكونُ فسبحانَ الذي بيدِهِ ملكوتُ كلِ شيء وإليه تُرجعون** ﴾[4] فآيات الأنبياء فوق مقدور الذين أُرسل إليهم الأنبياء ، وهم الإنس والجن ، إذْ يعجزون عن الإتيان بمثل آياتِ الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ **قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على**

---

(١) للتوسع في تفسير الآية انظر روح المعاني : ٧ : ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) النبوات لابن تيمية ص ٢٧٨ وانظر فيه ص ٢٨٢ .

(٣) سورة التحريم : ٦ .

(٤) سورة يس : ٨٢ - ٨٣ .

أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولوْ كانَ بعضُهم لبعض ظهيراً ﴾(١) .

٢) استحالة معارضة المعجزة إلى الأبد :

اشترط المتكلمون في الفعل المعجز الذي يقدمه الرسول عدم إمكان ظهور نظير له على يد إنسان آخر ، لأن هذا إنْ حصل فقد دلّ على أنَّ الفعل الجاري على يد الرسول فعلٌ عاديٌ لا يُعجز الناس . وبالتالي لا دلالةَ فيه على صدق دعوى صاحبه ، فلا يُقطع حينئذ بأنه آية خصه الله تعالى به . لذلك قضت الحكمةُ الإلٓهية بأن تجيء آية الرسول على نحو يستحيل على الإنس والجن أن يعارضوها بمثلها . فقد اتهم فرعونُ موسى بأنه ساحر وطلب إلى السحرة أن يعارضوا ما جاء به عليه الصلاة والسلام . فإنهم إذا عارضوه لم تبق له حجة خاصة تثبت نبوته . فلما استرهبوا الناس وسحروا أعينهم وألقوا عصيهم وحبالهم فخُيّل للناس من سحرهم أنها تسعى ، ألقى موسى عصاه فانقلبتْ حيّةً رهيبةً لقفتْ سحرهم فأصبح أثراً بعد عين . فعلم السحرة أنَّ هذا ليس من جنس مقدورهم فآمنوا بالله رباً وبموسىٰ رسولاً إيماناً جازماً ، فخرُّوا لله ساجدين ، وقالوا : ﴿ **آمنا بربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون** ﴾(٢) فاضطرمتْ نيرانُ الغضب في فرعون وغلت مراجل حقده ﴿ **قال : آمنتم له قبل أنْ آذنَ لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلأُقَطِعنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خلافٍ ولأُصلّبنكم في جذوع النخلِ ولَتَعلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى . قالوا : لن نُؤْثِركَ على ما جاءَنا من البَيِّنات والذي فطرنا ؛ فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفرَ لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ،**

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) سورة الأعراف : ١٢١ ـ ١٢٢ . وانظر فيها ١٠٩ ـ ١٢٩ .

والله خير وأبقى ﴾[1] .

لقد أدركوا ـ لشدة تبحرهم في السحر ـ أن الذي جاءَ به موسى عليه الصلاة والسلام جنس آخر مغاير جنس عملهم تماماً فلا يقدر عليه إلَّا خالق الأكوان ، وأنه مختص بموسىٰ رسول الله ؛ فدل على صدق دعواه . وقوم فرعون بين معاند مكابر لم يذعن ؛ وبين جاهل استخفه فرعون فاستذله ﴿ **فاستَخَفَّ قومَهُ فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾[2] .

٣) مخالفة المعجزة قوانين الطبيعة :

لا أشك أن مراد علماء الكلام بهذا التعبير « خارق للعادة » أن تجيء المعجزة مخالفة لسنن الكون وقوانين الطبيعة وخواص المادة . فالمعجزة بالتالي تأبى الخضوع لقانون الأسباب والمسبَّبات المعهود للناس . لذلك ضربوا مثلاً فقالوا : إن ما كان معتاداً كطلوع الشمس في كل يوم وبدوّ الأزهار في كل ربيع فإنه لا يدل على صدق المدعي . بل يستوي في الاستدلال به الكاذب والصادق[3] . فجعلُ الأمر الجاري على يد النبي خارقاً للعادة شرط لا بد منه لحمل الناس على التصديق .

إن المعجزة ليست من اكتساب الرسل ، وإنما يجريها الله على أيديهم بغير أسباب يعرفها البشر . **فيجب فهمُ عبارة « خرق العادة » بمعنى مخالفة سنن الطبيعة وخواص المادة وقوانينها . وهذا عندي تحقيق المراد من تعبيرهم** . فليس ما يصنعه السحرة أو يأتي به علماء المادة خارقاً للعادة ، لأن له أسباباً يُمكن تعلمها ، فمَن أخذ بها وأحسن الانتفاع منها **حقق أعاجيب تلفت النظر** . وقد استقر ابن تيمية على هذا المعنى فقال :

---

(١) سورة طه : ٧١ ـ ٧٣ .

(٢) سورة الزخرف : ٥٤ وانظر الآيات التي تحكي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون في سورة الأعراف : ١٠٣ ـ ١٣٧ وسورة طه : ٤١ ـ ٧٦ .

(٣) شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٢٣ .

(فصل في معنى خرق العادة لعادة غير الأنبياء مطلقاً، بحيث تختص بالأنبياء ، فلا توجد إلّا مع الإخبار بنبوتهم . أما أخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة لإخبار الشياطين لهم بذلك وسحر السحرة . . . مما هو بإعانة الشياطين ، **فهذا أمر موجود في العالم كثير معتاد يعرفه الناس . ليس هذا من خرق العادة ، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس** . . .)[1] .

ثم قال : (كما يحذق الرجل في صناعة من الصناعات ، وكما يحذق الشاعر والخطيب في شعره وخطابته وعلمه ، وكما يحذق بعض الناس في رمي النشاب وعمل الرمح وركوب الخيل . فهذه كلها قد يأتي الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد بل أهل الأقليم . لكنها مع ذلك **مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة** . قد فعل مثلها أناس آخرون قبلهم أو في مكان آخر . **فليست هي خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقاً** . **بل** توجد معتادة لطائفة من الناس وهم لا يقولون إنهم أنبياء ولا يخبر عنهم أحد بأنهم أنبياء . .)[1] .

فأنت تراه يبين أن منتجات النبوغ العلمي والسحر والكهانة مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة . ومعنى خرق المعجزة للعادة أنها لا توجد مرة واحدة ولا أكثر إلّا للنبوة . فالعادة تثبت هنا بمرة واحدة . فهو يصف أوصافاً ويحد حدوداً لمعنى (خرق العادة) يوصله إلى ما ذكرنا وإن لم يصرح بلفظه[2] ، وهو « **خرق سنن الطبيعة وقوانين المادة من غير اعتماد**

---

(١) النبوات ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ . لقد ثاب ابن تيمية في معنى (خرق العادة) إلى هذا التفسير ، لكن بعد اضطرابه فيه ، واعتباره فعل الساحر أيضاً غير معتاد « خارقاً للعادة » ، وهذا خطأ . انظر النبوات ص ١١ و١٢ و١٤ .

(٢) النبوات : ص ١٩٨ وقال أيضاً عن المعجزات : (لا بد أن تكون مما لا يقدر عليها الانس والجن) النبوات : ص ٢٩٨ .

على الأسباب الممكنة للإنس والجن » . ويستدعي هذا كله اعتماد شرط أساسي في المعجزة ، هو أن المعجزة من فضل الله تعالى ، وهو الشرط المذكور أولاً .

ولعلك تلاحظ أن تعريف المعجزة الذي قدمته آنفاً ، قد امتاز بإعرابه عن هذه المعاني والخصائص بوضوح لا يقبل اللبس والاحتمال .

كرامات الأولياء أثبتها القرآن الكريم

يجري على يد بعض الصالحين والعارفين بالله تعالى أعمالٌ خارجة عن سنن العادات المألوفة ، من غير أن يبذلوا في تحصيلها أسباباً مادية ملائمة . وإنما هي منح إلٰهية يهبها الله لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء . مثالها : تكثير الطعام أو الشراب القليل ، وعدم الاحتراق بالنار ، وضرب الجسم بآلة جارحة في موطن خطر دون أن يُعقبه ضرر إلى غير ذلك مما هو مشاهد ومعروف حتى عصرنا هذا .

أقول : « الكرامة : أمر خارق للعادة يجريه الله على يد أحد أوليائه ، يثبت صحة دينه وصدق رسوله الذي يتّبعهُ » .

وقد ذكر ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح أن أهل الكلام يسمون ذلك كرامة ، وأنه لا يُسمى عندهم معجزة إلَّا ما جرى على يد أحد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أما السلف كالإمام أحمد وغيره رحمهم الله فكانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء إنها معجزات إذا لم يكن في سياق الكلام ما يخصصها بالأنبياء . وربما سموا الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولي [1] .

---

(١) انظر لوائح الأنوار البهية : جـ ٢ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ . وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦ ، ط . دمشق .

إثبات الكرامة :

لقد درج العلماء سلفاً وخلفاً على تبيانها وذكر أدلتها ووقائعها الكثيرة الوفيرة المتجاوزة للحد . وشذَّ عن ذلك فأنكرها وأنكر السحر معظم المعتزلة وأبو محمد بن حزم وحُكي إنكارها أيضاً عن أبي إسحاق الاسفراييني وأبي محمد بن يزيد ، وكأن في الحكاية عنهما غلطاً . **لكن السلف الصالح كالإمام أحمد وغيره وأكثر المتكلمين وأبي الحسين البصري من المعتزلة يثبتونها**[1] .

قال الجرجاني في **إمكانها عقلاً** : (أما جوازها فظاهر على أصولنا ، وهي أن وجود الممكنات مستند إلى قدرته « تعالى » الشاملة لجميعها ، فلا يمتنع شيء منها على قدرته . ولا شك أن الكرامة أمر ممكن ، إذْ ليس يلزم من وقوعها محال لذاته)[2] .

فالكرامة ممكنة عقلاً ثابتة نقلاً بنص القرآن المبين ، كما وردت وقائعها في آثار صحيحة تعطي في مجموعها تواتراً معنوياً .

لقد استدل المثبتون بوقوعها للسيدة مريم العذراء في أمور منها : أنها وُجد عندها الرزق بلا سبب . فكانت تتنعم بفواكه الصيف في الشتاء وفواكه الشتاء في الصيف ، قال تعالى : ﴿ **كلما دَخلَ عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريمُ أنى لكِ هذا ؟ قالتْ : هو من عندِ الله ، إنَّ الله يرزقُ من يشاء بغير حساب** ﴾[3] . وأنَّ مريمَ قد حملت بدون رجل ، وتساقط عليها الرُّطب من النخلة اليابسة . لكن النافين جعلوا

---

(١) انظر الأربعين في أصول الدين للرازي : ص ٣٨٤ ـ والنبوات : ص ٢ و٢٨ وشرح المواقف للجرجاني : جـ ٨ ص ٢٨٨ . وانظر لوائح الأنوار البهية : جـ ٢ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢) شرح المواقف للجرجاني : ٨ : ٢٨٨ .

(٣) سورة آل عمران : ٣٧ .

ذلك معجزة لزكريا أو إرهاصاً لعيسى[١] .

أقول : إنك ترى أن زكريا نفسه متعجب من وجود الرزق عند مريم ، مما يدل على أنه ليس ذا صلة بالأمر . ثم انه انتفع من مشاهدته الرزق عندها . إذْ ذكر عظيم كرم الله وحسن صنيعه بأحبابه ، فدعا ربه أن يرزق امرأته العاقر ولداً . يدلك على هذا أن الله قد أعقب الآية السالفة بقوله تعالى : ﴿ **هنالكَ دعا زكريا ربَّهُ قال ربِّ هبْ لي من لَدنْك ذرية طيبةً إنك سميعُ الدعاء** ﴾[٢] ولا أرى أن الرزق إرهاص بعيسى ، لأن سياق الآيات يشير إلى أنه سابق على الحمل به فضلاً عن ولادته بوقت غير قليل . ويبدو أن القرآن ساق قصة الرزق عند مريم ليبين أهليتها للمكانة التي أحلها الله فيها ، ويدل على براءتها وصدقها . فالآية في صدد تعداد فضل الله على مريم لقوله قبلها : ﴿ **فتقبَّلها ربُّها بقبولٍ حَسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وكفَّلها زكريا كلما . .** ﴾ .

واحتج المثبتون أيضاً بقصة أصحاب الكهف فإن الله سبحانه وتعالى أبقاهم ثلاثمائة سنة وتسعاً ، نياماً أحياءً بلا آفة، وظلوا بقوتهم العادية دون أن يتناولوا طعاماً ولا شراباً ، ولم يكونوا أنبياء إجماعاً ، فلم يكن أمرهم معجزة وتعين أنه كرامة[٣] .

ودلّت السنة المطهرة على الكرامة بأحاديث صحيحة ، أهمها ما ورد في الصحيحين وغيرهما :

١ـ تكليم الرضيع لجُريج الراهب ، فشهد على مسامع القوم ببراءته من الفاحشة ، وحديث الثلاثة الذين تكلموا في المهد معروف[٤] .

---

(١) الارهاص : الأمر الخارق للعادة يظهر قبل بعثة النبي ؛ توطئة وإعلاماً .

(٢) سورة آل عمران : ٣٨ .

(٣) شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٨٩ والأربعين في أصول الدين ص ٣٨٦ وتفسير الرازي جـ ٢١ ص ٨٤ .

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب الأنبياء ـ باب واذكر في الكتاب مريم: ٤/١٤٠ وصحيح مسلم ـ كتاب البر ـ باب تقديم بر الوالدين : ٤/١٩٧٦ الحديث ٢٥٥٠ .

٢ ـ انفراج الصخرة عن الثلاثة ؛ الذين حُبسوا في الغار ؛ بفضل دعائهم متوسلين إلى الله بإخلاصهم في أعمال هامة قاموا بها من قبل[١] .

٣ ـ تكثير طعام أبي بكر رضي الله عنه أمام ضيوفه حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان عليه قبله .

٤ ـ قول رسول الله ﷺ عن عمر : إنه من المحدَّثين[٢] .

٥ ـ وجود عنقود من العنب في غير أوانه لخبيب الصحابي الأسير في يد المشركين لما أرادوا قتله . وقد رواه البخاري[٣] والبيهقي وأبو نعيم وابن أبي شيبة . وقد حصل للصحابة كرامات كثيرة . وقد ذكر الفخر الرازي وغيره طرفاً منها[٤] .

٦ ـ قوله ﷺ : « رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرَّهُ » رواه الإمامُ أحمد ومسلم والترمذي وصححه . قال بعض العلماء : لوْ لم يكنْ في الكرامة إلَّا هذا الحديث لكفى في الدلالة عليها[٤] .

وقائع الكرامة ودلالتها :

أنكر ابن تيمية رحمة الله عليه على الذين يجحدون كرامات الأولياء تكذيبهم بها وهي متواترة ، ثم قال : (والمنازع لهم يقول : **هي « الكرامات » موجودة مشهودة لمن شهدها ، متواترة عند كثير من الناس**

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب إجابة دعاء من بر والديه : ٧/٦٩ وصحيح مسلم ـ كتاب الذكر ـ باب قصة أصحاب الغار : ٤/٢٠٩٩ الحديث ٢٧٤٣ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل أصحاب النبي ـ باب مناقب عمر بن الخطاب : ٤/٢٠٠ . وصحيح مسلم ـ فضائل الصحابة ـ باب من فضائل عمر : ٤/١٨٦٤ الحديث ٢٣٩٨ .

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب ١٠ ـ جـ ٥/ ١١ ـ ١٢ .

(٤) الفتاوى الحديثية ! أحمد بن حجر الهيثمي ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ـ المطبعة الميمنية ـ بالقاهرة ١٣٠٧ هـ وانظر تفسير الرازي جـ ٢١ ص ٨٤ ـ ٩٧ ففيه إسهاب جميل حول الكرامة . والحديث أخرجه مسلم ـ كتاب البر ـ باب فضل الضعفاء : ٤/٢٠٢٤ الحديث ٢٦٢٢ .

أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء . وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء ، فكيف يكذبون بما شهدوه ويصدقون بما غاب عنهم ؟ ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره . . ؟)[1] .

أما وقائعُ الكرامة فكثيرة ، منها ما ظهر على أيدي الصحابة والتابعين رضي الله عنهم : فهذا أبو مسلم الخولاني من التابعين لما قال له الأسود العنسي : أتشهد أني رسول الله ؟ فقال له : ما أسمع . وقال الأسود : أتشهد أن محمداً رسولُ الله ؟ قال : نعم . فألقاه في النار فصارتْ عليه برداً وسلاماً . وحمد الخليفة الصديق الله تعالى على ما جرى ، إذْ جعل في أمة محمد ﷺ من ينال تكرمة سيدنا إبراهيم عليه السلام . وقد شرب خالد بن الوليد السم فلم يصبه أذى . وقد نادى عمر رضي الله عنه وهو على منبر الجمعة في المدينة هاتفاً باسم قائد جيشه : يا سارية الجبلَ الجبلَ . فلما رجع الجند تحدثوا أنهم سمعوا صوت عمر يناديهم يا سارية الجبل الجبل . فصعدوا الجبل فكتب الله لهم النصر[2] .

ووقائع الكرامة معروفة قديماً وحديثاً عن كثير من الصالحين بما لا يدع مجالاً للتوهم فيها[3] .

إن آيات الأولياء دليل قاهر على نبوة النبي الذي اتبعوه . فهم دعاة إلى دينه ، ولهذا السبب وحده يختارهم الله تعالى ليُجري على أيديهم نموذجاً مصغراً من المعجزات . فيدل ذلك قطعاً على صدق نبيهم وصحة دينهم الذي أنزله الله عليه .

---

(١) النبوات : ص ١٠٧ .

(٢) رواها البيهقي في الدلائل . قال ابن حجر : إسنادها حسن . ورواها ابن مردويه وأبو نعيم وقد صححها ابن تيمية . وفيها كرامة لعمر وسارية . (انظر النبوات ص ٢ والفتاوي الحديثية ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ وانظر ترجمة سارية بن زنيم في الإصابة لابن حجر فقد ذكر عدة أسانيد للقصة وحسن بعضها) .

(٣) النبوات ص ٢٠٤ و٩ ـ ١٠ وص ٤ ومواطن أخرى .

فكراماتُ الأولياء من آيات الأنبياء . وقد خص الله بها أُناساً ممن شهدوا بنبوتهم ، فتجيء كراماتهم لازمة الدلالة على صدق شهادتهم لأنبيائهم[1] .

فكرامات الصالحين من أمة محمد ﷺ دلائل قاطعة على صحة الإسلام وإلّهية مصدره ، ودلائل قاطعة على صدق محمد بأنه رسول الله ومصطفاه ﷺ[2] .

منزلة الكرامة من المعجزة :

لا شك أن الله فضّل المرسلين على الناس أجمعين . فهم أرفع درجة من أصلح أتباعهم . فالمؤمنون يشاركون رسلهم في بعض عباداتهم وطاعاتهم ، ولكنهم لا يبلغون درجاتهم في الفضيلة والثواب . وكذلك الأمر بالنسبة لما يجري على أيديهم من كرامات ، فإنها دون معجزات أنبيائهم . وقد اختلف العلماء في اعتبار الكرامة ، فعدها معظم المتكلمين كالرازي وغيره قسماً من الخوارق مستقلاً عن المعجزة[3] . وقد حقق كثير من فحول العلماء كالإمام أحمد وغيره[4] أن الكرامات من جملة معجزات الأنبياء . وقال ابن تيمية رحمه الله : (وقد ذكر غير واحد من العلماء أن **كرامات الأولياء معجزات لنبيهم ، وهي من آيات نبوته . وهذا هو الصواب**)[5] .

وما استصوبه ابن تيمية هو الصواب الذي نقول به ، لأن هؤلاء الصلحاء ما كانت لتجري لهم تلك الخوارق لولا اعتصامهم بالاتباع

---

(١) النبوات ص ١٤٢ .

(٢) ص ٥ و ٩ و ٢٠٤ .

(٣) الأربعين في أصول الدين ص ٣٨٧ .

(٤) لوائح الأنوار البهية : ٢ : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٥) النبوات ص ١٢١ ومواضع أخرى كثيرة .

الكامل لنبيهم عليه الصلاة والسلام وقيامهم بدعوته حق القيام .

إن الله منح الأنبياء آيات كبرى وصغرى شاهدة على صدقهم . ومع أن الكرامات من آيات الأنبياء غير أنها نماذج صغيرة من معجزاتهم . قال ابن تيمية : (وأما كرامات الأولياء فهي أيضاً من آيات الأنبياء ، فإنها إنما تكون لمن يشهد لهم بالرسالة . **فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة** . وأيضاً فإن كرامات الأولياء معتادة من الصالحين ، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك . فانشقاق القمر والإتيان بالقرآن وانقلاب العصا حية وخروج الدابة من صخرة لم يكن مثله للأولياء . وكذلك خلق الطير من الطين . ولكن آياتهم « الأنبياء » صغار وكبار ، كما قال تعالى : ﴿ **فأراه الآية الكبرى** ﴾ فللّه تعالى آية كبيرة وصغيرة . وقال عن نبيه محمد ﷺ : ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ **فالآيات الكبرى مختصة بهم « بالأنبياء » وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين** مثل تكثير الطعام . فهذا قد وُجد لغير واحد من الصالحين ، لكن لم يوجد كما وجد للنبي ﷺ أنه أطعم الجيش من شيء يسير . فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وُجد لهم ، لكن لا يماثلون في قدره . **فهم « الأنبياء » مختصون إما بجنس الآيات** ، فلا يكون لمثلهم[1] كالإتيان بالقرآن وانشقاق القمر وقلب العصا حية وانفلاق البحر وأن يخلق من الطين كهيئة الطير ، **وإما بقدرها وكيفيتها** كنار الخليل ، فإن أبا مسلم الخولاني وغيره وقد صارت النار عليهم برداً وسلاماً . لكن لم تكن مثل نار إبراهيم في عظمتها كما وصفوها ، فهو مشارك للخليل في جنس الآية ، كما هو مشارك في جنس الإيمان : محبة الله وتوحيده . ومعلوم أن الذي امتاز به الخليل من هذا لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله)[2] .

ويستفادُ من كلام العلماء أن الكرامة لا تكون مقرونة بدعوى

---

(١) والظاهر أنه يريد : « فلا يكون لغيرهم » .

(٢) النبوات ص ١٩٨ وانظر أيضاً ص ١١٥ ـ ١١٦ وص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ وص ٢٨٢ .

النبوة ، ولا يشترط فيها التحدي أو السلامة عن المعارضة[1] .

لقد احتج المعتزلة وغيرهم كابن حزم في إنكار الكرامة بقولهم : « إن آيات الأنبياء مختصة بهم ، وما خصهم الله به لا يكون لغيرهم » .

وهذا القول في حد ذاته صحيح ، لكنه لا يتناول نفي الكرامة بالمفهوم السليم الذي أوضحناه . فإن كرامات الأولياء هي أيضاً آيات للأنبياء وإن جرت على أيدي غيرهم . فإنها إنما ظهرت على أيدي بعض الصلحاء المؤمنين بمناسبة دعوتهم إلى الإيمان بالرسل واتباع رسالاتهم ، فهي آيات لرسلهم أظهرها الله على أيدي بعض الصلحاء والدعاة تثبيتاً لدعوة الحق .

إن منزلة الكرامة من المعجزة كما بيّنا . وإن هناك معجزات خاصة بالأنبياء مطلقاً كالعصا واليد وانفلاق البحر لموسى ؛ وكخروج الناقة من الأرض لسيدنا صالح عليه الصلاة والسلام ؛ وكانشقاق القمر ونزول القرآن وتفجير الماء من الأصابع لرسولنا محمد ﷺ . بل لقد اختص كل واحد من هؤلاء الرسل عليهم صلوات الله بالمعجزات التي ذكرناها . فلم توجد لغيره من الأنبياء ولا لغيرهم[2] .

لا عصمة للأولياء :

ولكن هل كل ما يصدر عن الولي ـ صاحب الكرامة ـ هو صواب أو موافق للشرع ؟ إن الرسول معصوم ولكن الولي غير معصوم عن ارتكاب الخطأ والوقوع في الذنب أحياناً . وأيضاً هل تجب طاعة الولي دائماً وفي كل حال ؟ ما دام يُحتمل منه الخطأ والذنب فإن طاعته فيما لا ينص عليه شرع الله ليست واجبة . قال الرازي : (إن ظهور الكرامات عليه لا يوجب

---

(١) النبوات ص ٣ ـ ٤ ومواطن أخرى ؛ والأربعين في أصول الدين ٣٨٨ .

(٢) النبوات ص ١٠٧ و ٢٠٤ ـ ٢٠٧ .

كونه صادقاً « يعني مصيباً » في جميع الأمور ، فلا جرم يجوز مطالبته بالبيِّنة)[1] .

ومن هنا ضلّ النصارى وغيرهم من الأمم . فإنهم لما رأوا كرامات الحواريين وغيرهم ، توهموا أن ذلك يستلزم عصمةً لهم كعصمة الأنبياء ، فأوجبوا على أنفسهم طاعتهم ومتابعتهم في كل صغيرة وكبيرة مما يقولون ويأتون به . وكان عليهم أن يدركوا أن الكرامة ليستْ دليلاً لصاحبها ذاته ، إنما هي دليلٌ على صدق نبيه وصحة دينه ، فلا يلزم أن يكونَ التابعُ ـ صاحب الكرامة ـ معصوماً عن كل ذنب وخطأ . وإنما يُستدلُ على صلاحه بتأسيه بنبيه عقيدةً وخلقاً وعملاً ، وليس بالخوارق فحسب . وإن من فضل رسولنا محمد ﷺ على أمته أن وفقه الله إلى تبيانِ المنهج السليم ، فلم يكلهم إلى أنفسهم ولا إلى الطاعة العمياء لكبرائهم وصلحائهم . إنما وثق عروتهم بأصل الإسلام . وقد ألزمهم الله في كتابه العزيز بطاعة الله وطاعة رسوله مراراً وتكراراً . وقال رسول الله ﷺ : **« تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه »**[2] .

فالمسلمون يمتازون عن كافة أهل الملل والنحل بأنهم أتباع للمبادىء الربانية التي تضمنها القرآن المجيد والسنّة المطهّرة ، فلا يتأثرون بالهفوات الشخصية لعلمائهم أو كبرائهم . فإذا ظهر ممن يُظن فيه الصلاح والتُّقى ما يخالفهما ؛ نبذ المسلمون فعله وضربوا به عرض الحائط ، وتمسّكوا بكتاب الله وهدي نبيه وعضوا عليهما بالنواجذ .

الفرق بين المعجزة والمخترعات العلمية

لقد كشف العلم الحديث في تقدمه الدائم عن كثير من المواد وعن

---

(١) الأربعين في أصول الدين ص ٣٨٨ .

(٢) رواه الحاكم وأصله في صحيح مسلم ـ كتاب الحج ـ باب حجة النبي ﷺ .

خصائصها ، كما عرَّف الإنسانَ بكثير من سنن الطبيعة ونواميسها ، فمكَّنه بذلك من الانتفاع من المواد الطبيعية بوجوه لم يعهدها الإنسانُ القديم ، كما ساعده على استغلال ظروف الطبيعة وأجوائها للحصول على فوائدَ جَمّة توفر له ألواناً من المُتع وضروباً من الرفاه . وكل فن من فنون العلم الحديث له أخصائيون اضطلعوا بدراسته على وجه الدقة والموضوعية ، فأماطوا اللثام عن مبادئه وقوانينه ودساتير الأجناس المتصلة به . وقاموا إلى جانب دراستهم النظرية بالتجارب التطبيقية في مجالات كثيرة فأثمرت جهودهم ثماراً تنعمت بها الإنسانية في كافة مرافق الحياة . حقاً إنه نتاج بارع رائع يلذ للمرء مشاهدة كل مستجدٍّ منه والانتفاع به . وإن هؤلاء العلماء يشكلون نسبة ضئيلة من سكان البسيطة . لكنَّ كافة الناس قد علموا أن أي امرىء موهوب يقدر على تنمية مواهبه وميوله فيما تنزع إليه من علوم وفنون فيبلغ شوامخ قمم العلم . وقد يبزُّ أقرانه ويحوز قصب السبق على أساتذته بالذات ، فيقدم من المنتجات والمخترعات ما لم يُسبق إليه ، مما يدهش ويعجب ويستدر الثناء كل الثناء . لكن رقيه تلك المنزلة ليس متوقفاً على صدقه وصلاحه وحُسنِ خلقه . **فالبرّ والفاجر في اعتلاء كرسي العلم والصناعة سواء .**

وليس بخافٍ عليكَ وعلى عامة الناس العقلاء أن تلك المخترعات ليست خارقة للعادة ، وأنها أمور كَسبية لها قوانينها ومبادئها ، مَنْ تعلمها وتفرغ لها حقق نتائجها . أما المعجزة فإنها خارقة للعادة ليست تعتمد على قوانين الطبيعة ولا على خواص المادة . فهي منحة من الله لرسوله يُثبِّتُ بها قدمه ويقيم له الحجة على صدقه ، لينشر رسالته التي أرسله بها . وكذلك الكرامة مخالفة لسنن الطبيعة وخصائص موادها ، فلا تظهر إلَّا على أيدي صلحاء المؤمنين بالله ؛ تكرمة لهم وإثباتاً لصحة طريقهم وقبول الله أفواج السالكين فيه .

الســحـر

تميُّزُ الأنبياء عن الأدعياء بأدلة إلَهية :

إن عقلاء البشر الذين يسبرون أغوار المشكلات الإنسانية يوقنون أن الله لا يسـوي بين الصادق والكـاذب في الدلائـل ،بل يميّـز هذا من ذاك بالدلائل الكثيرة . فهو يميز بالأولى بين النبي والدَّعيّ ، فإن مقتضى عدله وسنّتـه التي لا تتبـدل وحكمتــه التي تنـزَّه عن نقيضهــا ؛ أن يُسـوي بين المتمـاثلات ويفـرق بين المختلفات . فكيف يسـوي بين أفضـل النـاس وأكملهم صدقاً ، وبين أرذل الناس وشرهم كذباً ؛ فيما يتوقف عليه صلاح البشر أو فسادهم في الأديان والأعراض والحقوق وفي دنياهم وآخرتهم ؟؟

قال ابن تيمية رحمه الله : (**فإنه يمتنع في حكمة الرب وعـدله أن يُسـوي بين هؤلاء خيار الخلق وبين هؤلاء شـرار الخلق** ، لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته ولا في سلطان النصر والتأييد « فحسب » ، بل يجب في حكمته أن يظهر الآيات والبراهين الدالة على صدقِ هؤلاء وينصـرهم ويُؤيدهم ويُعزهم ويُبقي لهم سلطان الصدق ، ويفعل ذلك بمن اتبعهم . وأنْ يُظهر الآياتِ المبيِّنة لكذب أولئك ويُذلهم ويُخزيهم ويفعل ذلك بمن اتبعهم ، كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء . **وقد دل القرآن على الاستدلال بهذا في غير موضع**)[1] .

---

(١) النبوات ص ٢٤٣ وانظر ١٢٤ ـ ١٢٥ فهناك ورد قوله: (والتحقيق أن إظهار المعجزات الدالة على صدق الأنبياء على يد الكاذب لا يجوز . لكن قيل لامتناع ذلك في نفسـه ؛ كما قاله الأشعري ، وقيل لأن ذلك يمتنع في حكمة الرب وعدله . وهذا أصح فإنه قادر على ذلك ، لكن لو فعله بطلت دلالة المعجز على الصدق) .

حقيقـة السحـر[1] :

لا بد أن يتضح في الذهن أولاً ؛ أنَّ ما يـأتي به السـاحر والكـاهن وأصحاب الحيل والشعبذة وجميع الذين لا يقتدون بـالأنبياء **ليس خـارجاً عن قـدرة الإنس والجن . . وما يقـدر عليه الجن هـو من جنس مقـدور الإنس وإنما يختلفون في الأسلوب ، كلٌّ حسب طبيعته ووسائله** . فالجِن قد تطير في الهواء أو تطفو على الماء أو تحمل الأجسام الثقيلة . كما قال العفريت لسليمان في إحضار عرش بلقيس : (أنا آتيك به قبل أن تقومَ من مقامك . .) وقد تضرّ الجن إنسـاناً في جسـده وحركتـه أو في إحساسـه وإدراكـه . لكن الجنّ مخلوقات ضعيفـة لا تضاهي أفعـالهم المعجـزات النبوية . بل الجنّ والإنس في صعيد واحد مدعوون للإيمان بالرسل ﴿**يـا معشـرَ الجن والإنس ألمْ يـأتكم رسـلٌ منكم يقصـون عليكم آيـاتي وينـذرونكم لقاء يـومكم هـذا** ﴾[2] فـلا بـد أن تتفـوق المعجـزات على مقدورهم تفوقاً عظيماً ، بحيث يعجزون عن مثلها عجزاً واضحاً ، فيظهر لهم الدليل وتقوم عليهم الحجة[3] .

إن كلًا من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين في استـطلاع بعض الأخبـار وإنزال بعض الضـر بالنـاس ، قال تعـالى : ﴿ **واتبعـوا مـا تتلوا الشيـاطينُ على مُلْكِ سليمانَ ومـا كفـرَ سليمـانُ ولكنَّ الشيـاطينَ كفـروا يُعَلِّمون الناسَ السحر** ﴾[4] .

قـال الراغب في المفـردات : الكاهن : هـو الذي يُخبـر بالأخبـار

---

(١) أنكر المعتزلة وابن حزم ظهور الخوارق دون مباشرة سبب مادي على أيدي غير الأنبياء من ولي أو كاهن أو ساحر . (النبوات ص ٢٨ وص ١٠٢ وغيرهما) .

(٢) سورة الانعام : ١٣٠ .

(٣) النبوات ص ٧ و ١١٤ ـ ١١٥ .

(٤) سورة البقرة : ١٠٢ . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٧ ـ ٥٠٩ .

الماضية الخفية بضرب من الظن . والعراف : الذي يُخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك . ولكون هاتين الصناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطيء ويصيب قال عليه الصلاة والسلام : « **من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر بما أُنزل على أبي القاسم** »[1] .

فالسحر هو استعانة الآدميين بالشياطين « الجن الكافرين » في إظهار العجائب أو إيذاء الناس . قال تعالى : ﴿ **ويومَ يحشرهم جميعاً يا معشر الجنِّ قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتعَ**

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ـ للراغب الأصفهاني ـ مادة « كهن » . وقد روى الحديث الإمام أحمد في المسند جـ ٢ ص ٤٢٩ عن أبي هريرة بلفظ : « من أتى كاهناً أوْ عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » . ورواه الحاكم في المستدرك ـ كتاب الايمان جـ ١ ص ٨ ثم قال : هذا حديث صحيح على شرطهما جميعاً من حديث ابن سيرين ولم يخرجاه .

لكنه في رواية حكيم الأثرم عن أبي تميمة عن أبي هريرة بلفظ : « من أتىٰ حائضاً ، أو امرأة في دبرها أو كاهناً . . . » وذلك في : مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٤٠٨ و ٤٧٦ وسنن أبي داود ـ كتاب الطب ـ باب في الكاهن ـ جـ ٤ ص ١٥ حديث ٣٩٠٤ ، وجامع الترمذي ـ كتاب الطهارة ـ باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض جـ ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ حديث ١٣٥ ، وفي سنن ابن ماجه ـ كتاب الطهارة ـ باب النهي عن إتيان الحائض جـ ١ ص ٢٠٩ حديث ٦٣٩ .

أقول : إسناد الحديث الأول عند الإمام أحمد والحاكم إسناد صحيح ، كما أفاد الحاكم في المستدرك . لكن الترمذي انتقد إسناد الحديث برواية حكيم الأثرم . ونقل عن الإمام البخاري تضعيفه هذا الإسناد ، وأن معناه عند أهل العلم على التغليظ . . . فلو كان إتيان الحائض كفراً ، لم يُؤمر فيه بالكفارة (جامع الترمذي جـ ١ ص ٢٤٣) .

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب السلام ـ باب تحريم الكهانة جـ ٤ ص ١٧٥١ برقم ٢٢٣٠ عن بعض ازواج النبي ﷺ أنه قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة » .

أقول : هذه الأحاديث الثلاثة على تفاوتها في دلالاتها واختلاف أسانيدها أجمعت على المنع من إتيان العرّاف ونحوه من أهل الكهانة . فإن أمر هذا الصنف من الناس ليس مبنياً على حق أو علم صحيح . وبالله التوفيق .

بعضُنا ببعض وبلغنا أَجَلَنا الذي أجلَّتَ لنا ، قال : النـارُ مثواكم خـالدين فيهـا إلاّ ما شـاء الله ، إن ربـك حكيم عليم ﴾[1] . فـالجن والإنس قـد استمتع بعضهم ببعض إذْ انتفع كل منهم من الآخر في تنفيـذ أغراضـه . وقد يخبر الساحر أو الكاهن الناسَ بشيء فيكون حقاً . وطريقه في هذا إما الحدس والتخمين وقياس الحادثة بنظائرها الماضية ، وإما خبـر تلقفه من جني شهد الحادث أو علم به ، فيتحدث الساحر أو الكاهن به مضيفاً إليه ما تُسول له نفسه من أكاذيب . .

روى البخاري في صحيحه[2] (عن عائشةَ رضي الله عنها قالت : سأل أُناس النبي ﷺ عن الكُهان ؟ فقال ﷺ : إنهم ليسوا بشيءٍ . فقالوا : يا رسولَ الله فإنهم يُحدثون بالشيء يكون حقاً . قـال : فقال النبي ﷺ : تلك الكلمـةُ من الحق يخطفهـا الجني فيُقرقِرهـا في أُذن وليـه كقـرقـرة الدجاجة[3] فيخلطون فيه أكثر من مائة كَذْبة) .

فغاية الأمر أنَّ الجني لما استرق السمعَ كان كالـذي يتجسس على قوم أو يستمع إلى حديثهم وهم له كارهون ، فأخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة وأفعال السحرة إنما تتمُ بإعانة الشياطين . فهذا موجود في العـالم ومعروف للناس ، كما يعرف الناس أعمال الشعبذة التي تتخذ من خفة اليد وبعض الحيـل وسائـل في إظهار العجـائب . فأفعـال هذه الأصنـاف من النـاس ليست خارقـة للعادة بـل هي مألـوفة معـروفة ، يختص بهـا أناس فيشتهرون بها ، كما كان يختص أناس بالقيافة[4] ، وكما ينبغ أنـاس في

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٨ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب قراءة الفاجر والمنافق جـ ٨ ص ٢١٨ وانـظر فيه كتاب الّطب ـ باب الكهنة .

(٣) قـرُّ ، وقرقـرة الدجـاجة : صـوتها إذا قـطعته (النهـاية في غـريب الحديث والأثـر ـ ابن الأثير) . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٣ ـ ٥٠٦ .

(٤) القيافة : تتبع الأثر .

الشعر والخطابة والعلم ، وكما يحذق أناس في الصناعة فيكون إنتاجهم مثار العجب والدهشة ، وكما يبرع أناس في الفلك وحساب موعد الخسوف والكسوف[1] .

يزداد السحرة والكهنة ويتفاقم شرهم في كل بقعة نقص فيها أمر النبوة . فكانوا كثيرين في أرض العرب قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ . ويكثرون الآن في بلاد أهل الأوثان ـ كالهند ـ وعند النصارى وفي بعض بلاد المسلمين حيث نقص العلم وضعف الإيمان . وقد ادعى بعضهم النبوةَ في التاريخ مثل مسيلمة الكذّاب والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي . ولكن سرعان ما افتضح كذبهم وخمدت فتنهم .

والمهم في الأمر هو التيقن بأن آيات الأنبياء تتجاوز كثيراً حدود قدرة الإنس والجن ، وهم الذين أرسل الله إليهم الرسل وكلفهم بالإيمان .

السحر أمر عادي له أسباب :

لقد اضطرب ابن تيمية وتأرجح بين اعتبار ما يظهر على يد السحرة والكهنة خارقاً للعادة أو غير خارق . فهو يقول :

أ (فالكهانة والسحر هو **معتاد للسحرة** والكهّان ،وهو **خارق** بالنسبة إلى غيرهم)[2] .

ب ـ (وأما أخبار الكهان. . وسحر السحرة. . مما هو بإعانة الشياطين فهذا أمر موجود في العالم كثير يعرفه الناس ، **ليس هذا من خرق العادة** ،

---

(1) انظر الأربعين في أصول الدين ص ٣١٧ ـ ٣١٨ والنبوات ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ وص ٢٠١ ـ ٢٠٢ وص ٧ ـ ٨ وص ١٢ و ٢٠ وص ١٠٧ .

(2) النبوات ص ١٢ في أولها وآخرها . وانظر فيه ص ٢٠٢ .

بل هو من العجائب الغريبة)[1] .

جـ ـ (أما السحر والكهانة فهو من إعانة الشياطين لبني آدم . . **فأمورهم خارجة عما اعتاده الإنس**)[2] .

لقد اضطرب ابن تيمية في عجائب السحرة والكهنة ، أهي من خوارق العادة أمْ لا ؟ فأنت تراه يعدها خارقة لعادة الناس ، ثم معتادة للناس يعرفونها فليست من خرق العادة في شيءٍ بل هي من العجائب ، وأخيراً فهي خارجة عما اعتاده الناس!

ولا نُسلم لابن تيمية في زعمه أن نتاج السحر خارق بالنسبة لغير السحرة ، لأن بإمكان كل امرىء تعلمه وممارسته ، بينما لا يمكن لأحد من الخلائق تعلم المعجزة أو ممارستها . ولا ريب أن أقواله ههنا تدل على عدم تحديده معنى « الخارق للعادة » بشكل منضبط . فالخارق للعادة ـ فيما استقرأنا ـ أمر يفوق طاقات البشر ويخرق قوانين الطبيعة وخواص المادة . والسحر على خلاف ذلك ، فإنه قائم على الأسباب والمسبّبات ، لكنْ على نحو لا يظهر للأعين .

والحق الذي نراه في أفعال السحرة أنها عجائبُ وغرائبُ وطرائف ، لكنها لا تخرج عن مقدور الإنس أو الحيوان « كالطيران » ، وليست خارقة لعادات البشر . قال ابن أبي شريف : (**الحقُّ أن السحر** ليس من الخوارق وإن أطبق القوم على عَدِّهِ منها ، لأنه يترتب على أسباب ، فهو ترتيب مُسبَّبٍ على سبب جرت العادةُ الإلٓهية بترتيبه عليه . كترتيب الإسهال على شرب السقمونيا ؛ وشفاءِ المريضِ على شربِ

---

(١) النبوات ص ٢٠٦ .

(٢) النبوات : ص ١٢ و ٢٠٢ و ٢٠٦ و ٢٠٧ .

الأدويةِ الطبية ، فإن كلاً منهما غير خارق)[1] .

ويجب أن يستقر في الذهن أن أعاجيبَ السحرةِ لا تفوقُ قدرةَ الإنس أو الحيوان ، وهذا يعم ما يغير إحساس الإنسان ويجعله يتخيل الأشياءَ خلافَ حقيقتها بالإستعانة بالجِن حيناً وبالتأثير عليه نفسياً حيناً آخر ، كما يعم ما يؤدي بالمرء إلى المرض ـ أو إلى الموت حسبَ زعمهم ـ هذا كله من جنسٍ مقدور البشر . فالإنسان يقدر على إفساد إدراك غيره والتسبب في مرضه أو قتله . فقيام السحرة بهذا بوسائطهم الخاصة ليس إلَّا تصرفاً في أعراض الحي ، إذِ الموت والمرض والحركة أعراض له ، فليس في ذلك قلب جنس إلى جنس آخر . **وبالتالي فليس فيه إذن ما يختص بقدرة الرب تبارك وتعالى** . بل هو من فعل الجن ومن جملة ما يقدر الإنسان العادي على إتيانه . فبعض الإنس يقدر على تكليم آخر بما يزعجه ويمرضه كما يقدر على ضربه وقتله . ويقدر البعض على تحبيبه بفلان أو جعله مكروهاً لديه **على نحو أعظم مما تقدر عليه الجن** ، لكن تختلف وسائل كل من الفريقين . وقد يسأل الساحر أو الكاهن قرينه من الجِن عن أمور غائبة فيمثلها له . فإنْ كان مالاً مسروقاً قد عرف الجني عن أوصافه شيئاً أمكنه؛ صادقاً كان أم كاذباً ؛ أن يُري قرينه شكلاً شبيهاً بذلك المسروق لِما للجن من قدرة على التشكل . . وكذلك الأمر بالنسبة لشخص مفقود ، فإن بإمكان الجني أنّ يُريه صورة شبيهة به حتى يظن الظان أنه الانسي نفسه[2] .

فأن ترى معي أنه ليس وراء الجن ما يخيف الإنسان . فليست تقدر على التصرف في أمور الكون بشيء يستحق أن يُحسب له حساب . والمسلم قادر بقراءة القرآن وقوارع آياته خاصة على التخلص من أضرار

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقاني جـ ٥ ص ٨٩ ـ المطبعة الميرية .

(٢) النبوات ص ٥ و ٦ و ٢٧٣ و ٢٨٦ .

الزمرة الشريرة فيهم « الشياطين » . بل الْجِنُّ في نظري أضعف من الإنس فإنهم لا يقدرون على مجاراتهم فيما توصلوا إليه بسلطان العلم .

والخلاصة أن عجائب السحرة والكهنة فنون أشبه ما تكون ؛ من ناحية تلقيها عن الآخرين ؛ بالعلوم والصناعات المعروفة . فمن أراد إتقانها سلك مسالك أهلها واجتمع بمعلميها فيحقق نتائجهم أو يتفوق عليهم . فهي فنون تلزم رُوادها بالتفرغ والتعلم والمزاولة ، ونتاج السحرة والكهنة بجانب المعجزة سخيف هزيل لا يساوي شيئاً ، مما يثبت أنه يغاير المعجزات والكرامات وأنه دونها بكثير . فأين هي من خلق الناقة في قلب الصخرة لسيدنا صالح عليه السلام . ومن نبع الماء من بين أصابع سيدنا رسول الله ﷺ!؟ لذا تجد العقلاء من أهل فن السحر والكهانة يعكفون على الإيمان بالرسل . فقد خَرَّ سحرة فرعون ساجدين وقالوا : آمنا برب موسىٰ وهارون . واعتزَلَ أبو بَرْزَة الأسلمي رضي الله عنه ـ من أهل المدينة ـ الكهانةَ وآمن بالله ورسوله .

اشتهارُ صدق النبي وافتضاحُ كذب الدَّعيّ:

لعل امرأً من الناس يساوره القلقُ فيقولُ : أرأيتَ لو ادعى امرؤ النبوة وتظاهر أمامَ الناس بالصلاح والتقوى واستعانَ بالعجائب وغيرها في تأييد دعواه، ألا يلتبس حاله بحالِ الأنبياء؟ وما السبيل لتمييز الدَّعيّ ِ من النبيّ؟

والحق أن الكاذب المدعي للنبوة رجل شرير فاجر شَرِهُ المطامع دنيءُ المطالب ، لم يحمله على الدعوى الباطلة إلا نفسُه الخبيثة وأغراضه الخسيسة . فهو بهذا الوصف من أعظم شياطين الإنس ، يعينه على تحقيق مآربه شياطين الجن . لذلك فإنه إذا تظاهر في البداية بالتدين والصلاح للتغرير بالبعض فإنه لا يطيق في البقاء عليه صبراً ، لأنه يُفسد مقصوده ويحول دون تحقق غاياته ، بل يستحيلُ أنْ يأمر بجميع ما أمرتْ به

الأنبياء أو ينهى عن جميع ما نهوا عنه لنفس السبب السابق . والشخص العادي إذا تظاهر بالصلاح وكان فاسدَ الباطنِ لم يلبث أن يفتضح أمره وتظهر حقيقته لأعين الملأ ، فإن جوارحه وأعضاءَ جِسمه تنصاع لأوامر عقله وقلبه . قال ﷺ : « . . ألا وإن في الجسد مُضغةً إذا صَلَحتْ صلَح الجسدُ كُلُّه وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كُلُّه ، ألا وهي القلبُ »[1] .

فالمتظاهر بخُلُق يعجز عن إخفاء حقيقة خُلُقه أمداً طويلاً ، وهذا مما يدرك بالبداهة والملاحظة الاجتماعية . قال الشاعرُ الجاهلي زهير بن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإنْ خالها تخفى على الناس تعلم

هذا في رجل عادي فما بالك في امرىء مطاع في الناس يُتَاح له ما لا يتاح لغيره وتلحظه الأنظار أكثر من سواه . .؟ إنه إنْ كان مدعياً للنبوة أو غيرها من فضائل ؛ يقيم على خلافها ؛ فسيظهر شاسع البون بين دعواه وأحوال نفسه ، فتتهاوى عن هويته وحقيقته أقنعة الزيف التي استتر بها أمداً غير طويل .

وقد افتضح للناس شأن مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهما والقرامطة والمتظاهرين بالإسلام والتشيع من الملاحدة الباطنية المقيمين على الشرك وإتيان الفواحش وارتكاب المظالم وإسقاط الصلاة وغيرها عن أنفسهم ، وغير هؤلاء كثير . فجمهور الناس يميز بين الصادق والكاذب

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب فضل من استبرأ لدينه ـ جـ ١ ص ١٩ . ورواه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب المساقاة ـ باب أخذ الحلال وترك الشبهات ـ جـ ٣ ص ١٢٢٠ حديث ١٥٩٩ . ورواه ابن ماجه في سننه ـ كتاب الفتن ـ باب الوقوف عند الشبهات جـ ٢ ص ١٣١٩ حديث ٣٩٨٤ . والدارمي في سننه ـ كتاب البيوع ـ باب في الحلال بيّن والحرام بيّن ـ جـ ٢ ص ٢٤٥ .

عما قريب ، ولا يشتبه ذلك عليهم أمداً بعيداً . فالنبي الصادق خير الناس ، والكاذب على الله شر الناس . وبينهما من الفروق ما لا يكاد يحصيه إلَّا الله تعالى . فكيف يلتبس أمر هذا بذاك !؟ فدلائل كذب الدعيّ عديدة ودلائل صدق النبي وفيرة ظاهرة .

تبرئة القرآن محمداً ﷺ من السحر :

إن دعوة محمد ﷺ إلى توحيد الله تعالى والإيمان بكتبه ورسله لم تلق من المشركين إلَّا نفوراً وحيرة في قذف التهم ، حتى رموا الصادق الأمين بالسحر والكذب . قال الله تعالى :

﴿ صٓ . والقرآنِ ذي الذكرِ . بلِ الذين كفروا في عزةٍ وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ فنادوْا ولاتَ حينَ مناص. وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذاب . أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب ﴾[1] .

وهكذا فإن الله وصفهم بالكفر ذماً لهم لتجاسرهم على اتهام الرسول بالسحر ، وهذا ما لا يفعله إلَّا المتوغلون في الكفر والفسوق . كيف يتهمونه وهو منهم ، يعرفون نزاهته واستقامته وقد جاءهم مرشداً محذراً من مغبة الانحراف ؟ فإنه لم يأتهم إلَّا بالحق الصراح . أيعقل أن يتهم الداعي إلى الحق بأنه ساحر ؟ **﴿ بل متعتُ هؤلاءِ وآباءهم حتى جاءهُم الحقُ ورسولٌ مبين . ولما جاءهمُ الحقُ قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾**[2] .

لا غرابةَ في نكرانهم ، فقد سلكوا في مقابلة رسولهم سنن من قبلهم مع رسلهم **﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلَّا قالوا ساحر أو مجنون ﴾**[3] .

---

(١) سورة ص : ١ ـ ٥ .

(٢) سورة الزخرف : ٢٩ ـ ٣٠ .

(٣) سورة الذاريات : ٥٢ .

لقد عولوا في تكذيبه على زعمهم أنه ساحر وأنَّ كلَّ ما يأتيهم به هو سحر أيضاً ، حتى لـو كان معجـزة مفلقة يعجـز جميع الإنس والجن عن مثلها ﴿ **اقتربتِ الساعة وانشق القمرُ . وإنْ يروْا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر** ﴾[١] . فانشقاقُ القمرِ وإنْ شاهدَهُ الركبان فهو سحر أيضاً ؟ والقولُ البليغُ الناصع الذي يعجـزون عن مثله والذي احتـوى الحجج البينـات والدلائل العقلية الملزمة على صدق محمد ﷺ هو سحر أيضاً ! كذلك قال زعيمهم الوليد بن المغيرة : ﴿ **إنْ هذا إلَّا سحرٌ يُؤثَر** ﴾[٢] .

وتتابع اتهامهم بالسحر للتكذيب بكل شيءٍ حتى بما يدل عليه العقل من بعث ونشور ﴿ **ولئن قلتَ إنكم مبعوثون من بعدِ الموت لَيقولنَّ الذين كفروا إنْ هذا إلَّا سحر مبين** ﴾[٣] .

انهم يكذبون كـل برهـان ؛ عقلياً كـان أم ماديـاً . فقد نسبـوا إلى السحر قولاً يُفهم ودليلاً يُقنع وأسلوباً يُعجز الإنس والجن جميعاً . ولو نزل عليهم كتاب الله مدوناً في أوراق فأمسكوه بأيـديهم وتحسسوه بـأصابعهم وحملقـوا فيه بـأعينهم لنكصوا على أعقـابهم قائلين : مـا هذا إلا سحـر مبين . قال تعالى : ﴿ **ولو نزَّلنا عليك كتاباً في قِرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقالَ الذين كفروا إنْ هذا إلَّا سحر مبين** ﴾[٤] .

وتلوح للنـاظر في الآيـات الكريمـة براهينُ كـذبهم على رسول الله ﷺ ، ألا يكفيهم بهتاناً أنهم نسبوا إلى السحر كل ما يستحيل في العقل أن يكون سحراً !؟

ثم ألا يكفيهم دجلاً ومراوغـةً أنهم عدّوا الصـادق الأمين في جُملة السحـرة ؟ والعاقـل يدرك بـراءتـه ﷺ منهم لفـروقٍ بينـه وبينهم لا تكـاد تحصى !!

---

(١) سورة القمر : ١ ـ ٢ .
(٢) انظر سورة المدثر : ١١ ـ ٣٠ .
(٣) سورة هود : ٧ .
(٤) سورة الأنعام : ٧ .

الفَصْلُ الثَّاني

مُعجِزاتُ رَسُولنا مُحمَّد صلّى الله عليه وسلّم

- أقسام معجزاته .
- اليقين بمعجزاته .
- دلالة المعجزة :

  أ ـ دلالة المعجزة في القرآن .

  ب ـ دلالة المعجزة في الحديث .

  جـ ـ دلالة المعجزة لدى علماء الكلام .

  د ـ معجزة نبي من الأنبياء تدل على صدق سائرهم .

  هـ ـ امتداد دلالة المعجزة على مر الزمان .

- تطلب المعجزات .

أقسام معجزاته ﷺ

إذا تأملت معجزات الرسول الأعظم ﷺ وجدتَ بعضها ذا طابع عقلي غالب ، وهي : المعجزات العقلية . ويغلب على البعض الآخر الطابع الحسي ، مع أنها تعتمد على العقل ، لكن تعويلها على الحس أكثر وأظهر ، وهي : المعجزات الحسية . وترى أن هذا التقسيم ينطبق على معجزاته ﷺ انطباقه على دلائل نبوته عامة . وقد ذكرنا أن المعجزة أخص من الدليل والعلامة ، وبيَّنا أقسام دلائل نبوته في الكتاب الأول « نبوة محمد ﷺ في القرآن »(1) .

أ ـ المعجزات الحسيّة :

وهي تجابه الحس وتُظهر عجز الإنسان عن معارضتها فتقيم للفكر برهاناً ملزماً على نبوة صاحبها . وقد أجرى الله على يد محمد ﷺ الكثير من هذا النوع ، من ذلك ؛ تكثير الطعام القليل حتى كفى الجمع الغفير ؛ وحنين الجزع إليه ؛ وتسبيح الحصى في كفه . . . ونعرض الآن لبيان نبع الماء من بين أصابعه حتى روى المئين من أصحابه ؛ وتكثير الطعام القليل ببركته ﷺ ؛ وانشقاق القمر ؛ والإسراء والمعراج .

١ ـ نبع الماء من بين أصابعه :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : عطش الناس يوم

---

(1) ص ٢٣٥ وما بعدها .

الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ فجهش[1] الناس نحوه ، فقال : ما لكم ! قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلَّا ما بين يديك . فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ! كنا خمس عشرة مائة[2] .

هذه معجزة عظيمة باهرة تنقطع أنفاس البشر دون معارضتها . لا جرم أنها بليغة الحجة قوية البرهان ، إذْ تعطي دليلاً مادياً محسوساً لا مجال فيه لزعم التوهم . فإن الماء قد شاهدته الأعين ولامسته الأكف والأيدي وضوءاً ، وعبت منه الأفواه وامتلأت البطون ، وارتوى الناس حتى زال ما نزل بهم من عطش صحراوي شديد . هذه المكرمة الإلٓهية المعجزة تكررت لسيدنا رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة ورواها عدد كبير من الثقات عن مثلهم عن الصحابة . فهي من المعجزات القطعية الثبوت . قال القرطبي : (قضية نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة . ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي)[3] وقد ذكر ابن حجر روايات وطرق أحاديث نبع الماء فأظهر كثرة رواتها من الصحابة ومن بعدهم ، وأورد كلاماً للقاضي عياض ككلام القرطبي .

وهذه من المعجزات الرائعة التي امتاز بها رسول الله على سائر اخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام . قال القرطبي : (ولم يُسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبيِّنا ﷺ حيث نَبَعَ الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه)[4] .

---

(١) الركوة : إنا صغير للشرب . جهش الناس : أسرعوا متهيئين لأخذ الماء .

(٢) رواه البخاري : باب علامات النبوة.

(٣و٤) فتح الباري : جـ ٦ ص ٣٧٨ .

وقد نقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال : (**نَبْعُ الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ من المعجزة من نبع الماء من الحجر** ، حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه ، لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم)[١] .

٢ ـ تكثير الطعام القليل ببركته ﷺ :

روى البخاري أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْيَةٌ[٢] شديدة ، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كُدية عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر . ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذوَاقاً . فأخذ النبي ﷺ المِعْولَ فضرب فعاد كثيباً أَهْيَلَ أو أهْيَم[٣] . فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت . فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ قالت : عندي شعير وعَناق فذبحتُ العناق[٤] وطحنتِ الشعير حتى جعلنا اللحم في البُرْمَة[٥] . ثم جئتُ النبيَّ ﷺ والعجين قد انكسر[٦] والبرمة بين الأثافيِّ[٧] قد كادت أن تَنْضجَ . فقلت: طُعيِّمٌ لي ، فقم أنتَ يا رسول الله ورجل أو رجلان . قال: كم هو؟ فذكرتُ له . قال : كثير طيب . قال : قل لها لا تنزِع البُرمة ولا الخبز من التنور حتى آتيَ . فقال : قوموا ، فقام المهاجرون والأنصار . فلما دخل على امرأته قال : ويحكِ جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . قالت : هل سألك ؟

---

(١) فتح الباري : جـ ٦ ص ٣٧٨ .

(٢) الكدية : القطعة الصلبة الصماء .

(٣) الكثيب : الرمل . أهيل أو أهيم : سيالاً غير متماسك .

(٤) العناق : الأنثى من الماعز ما لم يتم عمرها سنة .

(٥) البرمة : القدر .

(٦) العجين قد انكسر : لان ورطب وتمكن منه الخمير .

(٧) الأثافي : ثلاث حجارة توضع عليها القدر أثناء الطبخ .

قلت : نعم . فقال ﷺ : ادخلوا ولا تَضَاغَطوا[١] . فجعل يَكْسرُ الخبز ويجعل عليه اللحم ويُخمِّر[٢] البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرِّبُ إلى أصحابه ، ثم ينزع[٣] . فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا ، وبقي بقية . قال: كلي هذا وأهْدي فإن الناس قد أصابتهم مجاعة[٤] .

ويروى أن عدد الآكلين كان ثمانمائة ، وفي رواية للبخاري أنهم كانوا ألفاً .

٣ ـ انشقاق القمر :

قال تعالى : **﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ ، وإن يَرَوْا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر . وكذَّبوا واتَّبَعوا أهواءَهم وكلُّ أمرٍ مستقرٌّ ﴾**[٥] .

ورد في الصحيحين وجامع الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أنْ يُريهم آيةً فأراهم القمرَ شقين حتى رأوا حراء بينهما .

وتزيد رواية الترمذي (فنزلتْ : اقتربت الساعة وانشق **القمر** . وإنْ يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ـ يقول : ذاهب) .

وأخرجَ الترمذي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فصار فرقتين . فقالت قريش : سحر محمد أعيينا . فقال بعضهم : لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم) .

---

(١) لا تضاغطوا : لا تزدحموا .

(٢) يخمر : يغطي .

(٣) ينزع : يأخذ اللحم من البرمة .

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الخندق . وانظر فتح الباري : جـ ٧ ص ٢٧٧ وما بعدها ، والنهاية لابن الأثير .

(٥) سورة القمر : ١ ـ ٣ .

وتزيد رواية رزين : (فكانوا يتلقون الركبان ، فيخبرونهم بأنهم قد رأوه ، فيكذبونهم) وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة . قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السُّفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . قال : فجاء السفار فقالوا ذلك)[1] .

أقول : إن معجزة انشقاق القمر لسيدنا محمد رسول الله ﷺ ثبتتْ بنص القرآن العظيم وصريح السنة النبوية . وقد روى أحاديث انشقاق القمر جماعة من الصحابة منهم : عبد الله بن مسعود ، وأنس ، وابن عباس ، وابن عمر ، وحذيفة ؛ وعلي ، وجبير بن مطعم ، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره[2] : (وقوله تعالى ﴿ **وانشق القمر** ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « خمسٌ قد مضين الروم والدخانُ واللزامُ والبطشة والقمر » . **وهذا أمر متفق عليه بين العلماء** ، أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات) .

وقرر السفاريني[3] تواتر أحاديث انشقاق القمر واجماع أهل الحق على وقوعه . وغير خافٍ أنه لم ينشق القمر لأحد من المرسلين قبله ، ولا تَعْدله معجزة من معجزاتهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، لبزوغها

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وكتاب الأنبياء ـ باب سؤال المشركين النبي أن يريهم آية ـ وكتاب فضائل الصحابة ـ باب انشقاق القمر . ورواه مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب انشقاق القمر . ورواه الترمذي ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة القمر .

(٢) جـ ٤ ص ٢٦١ .

(٣) لوائح الأنوار البهية : جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ .

في ملكوت السماواتِ . فكانت آيةً باهرة من أمهات معجزاته ، وخصيصة خصه الله تعالى بها دون سائر إخوانه النبيّين . ولا يكاد يعدلها شيء من معجزاته بعد القرآن الكريم .

بينما أنتَ تسمعُ وتقرأ أن العلم الحديث أثبت أن القمر كوكب صلب ويشبه تركيبه تركيب الأرض إلى حد بعيد وفيه الصخورُ والرمال والجبال والأودية ، تطلع على رأي ملاحدة المتفلسفة الأقدمين ؛ أن الكواكب لا تقبل الخرق والالتئام ، فتزدري نجواهم كل ازدراء . فقد ثبت بالتواتر ـ وهو يفيد العلم اليقيني ـ أن القمر قد انشق فلقتين لسيدنا محمد ﷺ حتى ظهر الجبل بينهما . وجاء العلم المادي البحت يقيم دلائل لا تقبل النقاش على أن القمر جرم مادي شبيه بالأرض . فما يُحتمل حدوثه فيها من انشقاق وإلتئام ؛ لا يُستغرب حدوثه فيه . وكثيراً ما شاهد الإنسانُ انشقاقاً جزئياً في الأرض بعمل البراكين ونحوها . فالانشقاق الكليُّ فيها ليس مستحيلاً . فكيف بالقمر الذي يصغر الأرض بتسع وأربعين مرة . ثم أليس الله تعالى الذي خلقه وسيره في فلكه بقادر على شقه ليكون آية للناس تهديهم صراط الله الذي نصبه لسعادة عباده في خاتم أديانه وأعمها ؟ بلى إنه قادر على تبديده أو على شقه حين يشاء لحكمة بالغة فذلك تقدير العزيز العليم .

وقدمتْ لنا الأبحاث الأثرية وثيقةً تاريخية ملزمة بهذا الشأن . فقد عرَّبت جريدة (الإنسان) التي كانت تصدر في الأستانة مقالاً عن الصحف الأجنبية ورد فيه : (لقد عُثر في الصين على بناء قديم مكتوب فيه أنه بُني عام كذا ، الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم وهو انشقاق القمر نصفين . فحُرر الحساب فوافق سنة انشقاقه لسيدنا محمد ﷺ)[1] .

---

(١) قبسات من نور النبوة ـ عبد الفتاح أبو غدة وأحمد عز الدين البيانوني ص ٧١ « نقلاً عن باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام ص ٤١ ـ حمزة فتح الله » .

وقد نقل استاذنا الجليل العلاّمة الشيخ الدكتور محمد السماحي رحمة الله عليه ؛ خبرين آخرين عن انشقاق القمر من أمهات كتب التاريخ[1] . فهذه أخبار تاريخية ثلاثة ، ومنهج التاريخ لا يحتاج في إثبات حادث إلى أكثر من هذا ، فكيف وقد أثبتته أيضاً أخبار السنة المستفيضة !!؟؟

٤ ـ الإسراء إلى بيت المقدس :

إن مما يدهش العقلَ ويحير اللبَّ ويفضح قصور القدرة البشرية ؛ حتى في أعصر ازدهارها ونموها ؛ تلك التكرمة العظيمة المعجزة ، التي نقل الله بها سيدنا محمداً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس .ومن ثَمَّ عرج به إلى السماوات العلى . وقد خلد القرآن الكريم مأثرة الإسراء على جبينِ الدهر ، قال تعالى : ﴿ **سبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِنُريَهُ من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾[2] .

أوجز سبحانه حادثة الإسراء مبيناً أنه أسرى بعبده محمد ﷺ في طرف من الليل . والإسراء : السير بالليل خاصة . وإنما قيده بظرفه (ليلاً) لإفادة قلة زمان الإسراء ، لما في التنكير من دلالة على البعض من حيث الأجزاء ، كما يدل على البعضية من حيث الأفراد . وآثر أن يكني عن محمد ﷺ بـ (عبده) إيذاناً بتمحضه واستغراقه عليه الصلاة والسلام في عبادة ربه وبلوغه في ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات ، كما يُلوِّحُ

---

(١) والعلاّمة الدكتور محمد محمد السماحي رئيس قسم الحديث في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقاً ثم أستاذ الدراسات العليا بكلية الشريعة في مكة المكرمة ، قد تعرض لهذا البحث في أطروحته القيمة التي نال بها شهادة (العالمية من درجة أستاذ) « الدكتوراه » من الأزهر ؛ بعنوان « الرسالة » ولم تطبع بعد ؛ وللأسف .

(٢) سورة الإسراء : ١ .

بذلك مبدأ الإسراء ومنتهاه . فكل من المسجد الحرام والمسجد الأقصى أرض المرسلين ومأوى الربانيين. وأفاد بذلك أن الإسراء كان بالجسد والروح معاً ، لذلك قال : ﴿ بعبده ﴾ ولم يقلْ « بروح عبده » . وإنما أضاف التنزيه ﴿ سبحان ﴾ إلى اسم الموصول بعده للإشعار بما في الإسراء من عِلية ورفعة . فأفاد أنه تعالى في نهاية التنزه عن صفات المخلوقين وعجزهم ، وأنه ذو القدرة الكاملة والحكمة البالغة . وفي الإسراء من تكريم الله لسيد الخلق ما لا يخفى وقد أراه فيه من الآيات ما يكون بعضها دليلاً له عند القوم على نبوته[1] .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لما كذبني قريش قمت في الحِجْر ، فجلَّىٰ الله لي بيتَ المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظرُ إليه[2] .

وروى الإمام أحمد والبزار بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : لما كان ليلة أسريَ بي وأصبحتُ بمكة ، مرَّ بي عدو الله أبو جهل ، فقال : هل كان لنا من شيء ؟ قال رسول الله ﷺ : إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس . قال : ثم أصبحتَ بين أظهرنا !؟ قال : نعم . قال : فإنْ دعوتُ قومك أتحدثهم بذلك ؟ قال : نعم . قال : يا معشر بني كعب بن لؤي ! قال : فانفضت إليه المجالسُ حتى جاءوا إليهما ، فقال : حدِّثْ قومكَ بما حدثتني ، فحدثتهم ، قال : فمِنْ بينِ مصفقٍ ومن بين واضعٍ يده على رأسه متعجباً . قالوا : وتستطيعُ أنْ تنعتَ لنا المسجد . الحديث[3] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : جـ ١٠ ص ٣٠٥ وما بعدها ؛ وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ لأبي السعود العمادي جـ ٣ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٢) رواه البخاري ـ باب حديث الإسراء ـ كتاب بدء الخلق .

(٣) فتح الباري : جـ ٧ ص ١٣٩ ، والحديث عند أحمد في مسنده (١ : ٣٠٩) .

وقد بيّن الرسول في حديث الإسراء والمعراج أن جبريلَ قد جاءه بالبراق ليمتطيه ، وشبَّهه الرسول بدابة متوسطة ، وهو سريع فسيح الخطو يضع قوائمَهُ عند منتهى بصره . ولعل هذا سر تسميته بالبراق ؛ أخذاً من البرق . وامتطى الرسول البراقَ إلى بيت المقدس ، حيث صلى بالنبيّين . ثم عرج به جبريل إلى السماوات العلى ، حتى ناجى ربه سبحانه وتعالى ، وفرض عليه وعلى أمته ما فرض . وشهد من عالم الغيب ما وفقه الله إليه ، ليكون عظة وعبرة لأمته . ثم عاد جبريل به في الليلة نفسها إلى مكانه بمكة . فمعجزة الإسراء إلى بيت المقدس قد نص عليها القرآن الكريم ، والعروج منه إلى السماوات العلى معجزة عظيمة ثابتة بالسنة الصحيحة[1] .

وللإسراء به ﷺ إلى بيت المقدس قبل العروج به إلى السماوات العلى حكم كثيرة بالغة ؛ أقربها إلى وريد موضوعنا ، أن الله تعالى أراد إظهار الحق وصموده تجاه المعاندين المؤتمرين على إخماد جذوته . فخصوصية الإسراء أن يرى محمد من آيات ربه ما يكون له برهاناً يقيم به الحجة على القوم ﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾ فإنه لما استصغى آذانهم إلى خبر مسراه أنكروا متسائلين عن الدليل فوافاهم به ، إذْ مكنَّه الله بتجلية بيت المقدس أمامه من تعريف جزئيات في بيت المقدس وذكر أوصاف ثانوية له ، مما كانوا رأوها بأم أعينهم ، وقد علموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك . فما أن أجابهم بدقة عما لا يلتفت إليه من التفاصيل ؛ حتى تحققوا من صدقه ، ولزمهم تصديقه بتمام حديثه عن المعراج أيضاً[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ـ طبعة كتاب الشعب . جـ ٥ ص ٤ وأخرجه الإمام البخاري في صحيحه ـ كتاب التوحيد ـ باب ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ـ جـ ٨ ص ٢٠٣ ، والإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء إلى السموات وفرض الصلوات ـ جـ ١ ص ١٤٥ ، وجامع الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب ومن سورة بني إسرائيل ـ جـ ٥ ص ٣٠٠ . حديث ٣١٣٠ . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) فتح الباري : جـ ٧ ص ١٤٠ .

ربما يقول بعض الناس : إن الإنسانَ العاديَّ قد ركب متن الفضاء في عصرنا ، فما وجه الإعجاز في إسراء محمد ﷺ ومعراجه . . ؟

إن الإنسان قد انتفع من نواميس الطبيعة وخواص المادة واستغل ذلك على وجه أعانه على الطيران بمسلك منسجم مع الطبيعة . فكان طيرانه عملاً عادياً يقدر عليه كل من اتخذ أسبابه . أما أن يقدر إنسان على امتطاء صهوة الفضاء من غير سبب مادي ، فتلك هي المعجزة الخارقة لعادة البشر ونواميس الكون المخالفة لنهج الأسباب والمسبّبات المادية ؛ التي دَرَجَ عليها الانسان . وإن رجال العلم يتخذون ألبسة واقية ويقضون أياماً في الوصول إلى القمر ، وهو أقرب كوكب إلى الأرض إذ يبلغ متوسط بعده عنها / ٣٨٠/ ألف كم ، حسبما قاسه العلماء المعاصرون بواسطة أشعة اللايزر . فلا يتجاوز متوسط بُعده ثانية وثلث بسرعة الضوء ، وهو دون السماء بمسافات هائلة .

أحاط الله تعالى عبده محمداً ﷺ بالعناية الخاصة ، وقيَّض له في رحلته من أسباب المنعة والحفظ الغيبية ما كفل له السلامة في إسرائه ومعراجه مع تلك السرعة الفائقة ، إذ عاد إلى مقامه في مكة في أقل من ليلة واحدة .

فالله تعالى عليٌّ كبير قادر على توفير تلك الأسباب اللازمة بل هو سبحانه الذي خلق نواميس الكون قادر على أن يخرق منها ما يضمن حصول الرحلة المحمدية بسلام .

موقف حاسم :

زماننا هذا قد تفتحت فيه أذهان الشباب على المكتشفات العلمية وحقائق الكون . وقد كثر كلام العامة من الناس عن الإسراء والمعراج بتخليط وجهل مريرين . وهذا أمر جد خطير !! وأخطر ما فيه تفشي قصة

مكذوبة عن هذه المعجزة العظيمة ، وقد نسبت إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . لكنها لم تُرو عنه في أي من كتب الحديث الصحيحة . وهذا الصحابي الجليل ابن عم رسول الله ﷺ قد عُرف بمنزلته العلمية العالية وتقواه لدى العامة والخاصة . فلا يعقل أن تصدر عنه هذه القصة الخيالية الخرافية التي تتنافى مع الأحاديث الصحيحة بل تتنافى مع المعقول والمنقول عامة ، وهي محشوة بترهات وتلفيقات ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن ذلك : تسمية مواد السماوات ؛ فالأولى دخان ؛ والثانية حديد ، والثالثة نحاس ؛ والرابعة فضة . . . الخ . هذا وغيره من التخاريف السمجة لا أصل له في أي من روايات حديث الإسراء والمعراج على الرغم من تعدد رواياته السليمة في كتب الحديث الصحاح .

فليس بين هذا الصحابي الجليل عبد الله بن عباس وبين هذه القصة أي سند سليم أو نسب صحيح . إنما هي من وضع وافتراء القصّاصين الكذابين في التاريخ ولعلها من حبك بعض الزنادقة أعداء الإسلام ؛ كيداً منهم للمسلمين وتلهية عن معارف دينهم القويمة . ولسنا نريد الإسهاب ههنا في تبيان ذلك .

وقد نبَّه علماء الحديث على اختلاق قصة الإسراء والمعراج على ابن عباس ، وذكروها في الأحاديث الموضوعة ، التي افتراها كذابون ونسبوها إلى رسول الله ﷺ ، والرسول وأصحابه منها براء .

قال الإمام السيوطي : (من **الموضوع**[1] أيضاً : حديث الأرز والعدس والباذنجان . . . والحديث الطويل عن ابن عباس في الإسراء ، أورده ابن مَرْدُوَيْه في تفسيره ، وهو نحو كرَّاسين)[2] .

---

(١) « من الموضوع » يعني : من جملة أنواع الحديث المكذوب على الرسول ﷺ ، الذي وضعه أحد الكذابين ، ولم يتفوه به الرسول قط ، ولا أحد أصحابه أو أهل بيته .

(٢) تدريب الراوي ـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : ص ١٩٠ .

أما وقد طبع هذا الكتاب في بعض البلدان الإسلامية[1] وتفشى في معظم أقطار العالم الإسلامي فإن واجب أولي الأمر القيام بمنع طبعه وتوزيعه بشتى الأساليب الزاجرة ، والموقف الحاسم للشباب المسلم أن يُعوِّل على الأحاديث الصحيحة ، وأن يتثبت من صحة ما يسمع من أحاديث وخاصة في الأمور الخطيرة كمعجزات الرسول الأعظم ﷺ ، فإن تناقل الأحاديث المكذوبة بين الناس يصد عن الإسلام صداً قوياً ؛ أشد مما كان يحصل في الأزمنة الغابرة. فلا يجوز لك أن تكتفي بالامتناع عن قراءة القصة الملفقة عن الإسراء والمعراج فحسب ، بل الموقف الإيماني الحاسم يوجب عليك أن تبين الصحيح في هذه المعجزة ، وأن تدعو إلى تمزيق ذاك الكتاب المكذوب المتداول بين العامة ، بل أن تمزقه بنفسك إن أمكنك ذلك. وقد سمعت بعض أساتذنا من العلماء العاملين المخلصين على منبر الجمعة يحذر الناس من خطر هذا الدجل علىٰ الإسلام ومن هذا التشويه المزري لمعجزة الإسراء والمعراج . ورأيته يمسك بالكتاب المكذوب ويمزقه على مرأى من الجمهور المزدحم في الجامع . جزاه الله خيراً وأجزل ثوابه .

ب ـ المعجزات العقلية :

وهي تواجه العقل بكل ما فيه من قوى الإدراك والاستبصار ، وأجلها وأبلغها القرآن العظيم . ومنها : إجابة دعاء رسوله باطراد ، وصحة إخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة مع أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب . وذكرت لذلك نماذج بليغة البيان جلية البرهان في « نبوة محمد ﷺ في القرآن »[2] .

وهاك نماذج أخرى لمعجزاته العقلية عليه الصلاة والسلام :

---

(١) بعنوان: «الإسراء والمعراج ـ لابن عباس».

(٢) ص ٢٣٩ ـ ٢٤٤ .

١ ـ إجابة الله دعاء رسوله ﷺ :

١ ـ دعاؤه على أشراف قريش لدأبهم على الأذى : روى البخاري عن عبد الله بن مسعودرضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذْ قال بعضهم لبعض : أيُكم يجيء بِسَلَىٰ جَزور[١] بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم[٢] فجاء به فنظر حتى سجد النبي ﷺ ووضعه على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر لا أُغير شيئاً ، لو كانت لي مَنَعة[٣] ! قال : فجعلوا يضحكون ويُحيل بعضهم على بعض[٤] ؛ ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة فطرحته عن ظهره[٥] . فرفع رأسه ثم قال : اللهم عليك بقريش[٦] ؛ ثلاث مرات فشقَّ عليهم إذْ دعا عليهم . قال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة . ثم سمى : اللهم عليك بأبي جهل

---

(١) « سلى جزور » : الجلدة من الإبل التي تحمل فيها الولد يقال لها « سلى » وتقابل المشيمة في الآدميات .

(٢) « أشقى القوم » : المراد به : عقبة بن أبي معيط ، كما أفادت روايات الصحيحين وغيرهما . وهو أشقاهم في هذه الحادثة لأنه انفرد بمباشرة الأذى وبالعدوان على قدسية صلاة الرسول الأعظم ﷺ .

(٣) « منعة » : قوة . وقول ابن مسعود : « لو كانت لي منعة » فيه حذف والتقدير : لو كانت لي قوة لطرحت الأذى عن رسول الله .

(٤) « يحيل بعضهم على بعض » : تفسرها رواية للإمام مسلم « يميل » : من كثرة الضحك تهكماً وبطراً .

(٥) « فطرحته عن ظهره » : في صنيع السيدة فاطمة الزهراء برهان على قوة شخصيتها وعزة نفسها وشجاعتها منذ صغرها خاصة وأنها « أقبلت عليهم تشتمهم » كما في رواية ، وأنها « دعت على من صنع ذلك » كما في روايات الصحيحين . فقد قابلتهم بذلك وهم رؤوس قريش ظلماً وجبروتاً وطغياناً . فتأمل ! وفي دعائها عليهم من تمني هلاكهم وإظهار الكراهية لهم ما لا يخفى !

(٦) « اللهم عليك بقريش » : خذهم وأهلكهم . وفي بعض روايات الصحيحين « اللهم عليك الملأ من قريش » والملأ : الجماعة ، والمراد : الأشراف .

وعليـك بعتبة بن ربيعـة وشيبة بن ربيعـة والوليـد بن عتبة وأُميَّـة بن خلف وعُقبة بن أبي مُعيط وعدَّ السابعَ فلم يحفظه . قال : فوالذي نفسي بيـده لقـد رأيت الـذين عـدَّ[1] رسـول الله ﷺ صـــرعى في القليب[2] ؛ قليب بدر[3] .

عن أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد[4] قـريش فقُذفـوا في طَوِيٍّ[5] من أطـواء بدر خبيث مُخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَةِ[6] ثلاث ليال ، فلما كـان ببدر اليـومَ الثالثَ أمـر براحلتـه فشُد عليهـا رحلُهـا ثم مشى واتبعـه أصحابه ، وقالوا : ما نُرى ينطلق إلَّا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الرَكيِّ[7] فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم « يا فـلانُ بنَ فلانٍ ويـا

---

(١) « رأيت الـذين عد رسـول الله » قصد معـظمهم ، لأن عقبـة بن أبي معيط لم يـطرح في القليب وإنما قتل صبراً على بعد مرحلة من بدر ، بعد أن وقع أسيراً بأيدي المسلمين .

(٢) « القليب » . البئر القديمة (فتح الباري جـ ١ ص ٢٤٣ وما بعدها) .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، وانظر روايات الحديث في صحيح البخاري : كتـاب الوضـوء ـ باب إذا ألقى على ظهر المصلي قذر . جـ ١ ص ٦٥ . وكتاب المغازي ـ باب دعاء النبي على كفـار قريش ـ جـ ٥ ص ٥ ـ ٦ . وكتـاب سترة المصلي ـ بـاب المـرأة تـطرح عن المصلي شيئـاً من الأذى ـ جـ ١ ص ١٣١ ـ ١٣٢ . وكتاب الجهـاد ـ باب الـدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة جـ ٣ ص ٢٣٤ . وكتاب الجزية ـ باب طرح المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن جـ ٤ ص ٧١ . ورواه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد ـ بـاب مـا لقي النبي ﷺ من أذى المشـركين والمنـافقين ـ جـ ٣ ص ١٤١٨ ـ ١٤١٩ و ١٤٢٠ . ورواه النسـائي في سننه كتـاب الطهـارة ـ باب فـرث ما يؤكـل لحمه يصيب الثوب ـ جـ ١ ص ١٦١ .

(٤) « الصناديد » : جمع صنديد، وهو السيد الشجاع .

(٥) « طوي » البئر التي طويت يعني بنيت بالحجارة لتثبت ولا تنهار . والذين قذفـوا فيها هم السادة الزعماء وليس جميع قتلى قريش ، لأن عددهم سبعين كما روى الإمام البخاري .

(٦) «العرصة» البقعة الواسعة لا بناء فيها .

(٧) « شفة الركي » طرف البئر. والركي : البئر قبل أن تطوى. وإيراد الألفاظ الثلاثة: القليب والطوي والركي يفيد أن هذه البئر كانت مبنية لكنها قديمة متهدمة .

فلان بن فلان ! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله !! فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً !؟ » قال : فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها !؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم »[١] « رواه البخاري »[٢] .

وروى ابن اسحاق أن النبي ﷺ لما خاطب أصحاب القليب قال له المسلمون : يا رسول الله ؛ أتنادي قوماً قد جَيَّفوا[٣] ؟ .

فقال ﷺ : « ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني »[٤] .

أرأيتم ذلكم الحدث الفذ المذهل !! رجل يعلن في وجه الجبابرة البطاشين سادة قومه أنه يتمنى لهم الهلاك ، إذ دعا الله على مسامعهم أن ينزل المحق بهم ! ماذا ؟ إنه في قبضتهم ويجابههم بأشنع ما يسوؤهم !! كيف أقدم على ذلك ولا ناصر له من الناس يستطيع أن يدفع عنه بأسه ومنعته نقمة القوم عليه !؟ ثم ماذا ؟ يلقاهم ببدر في ثلاثمائة من أنصاره المستضعفين ، فيهم الحفاة وأشباه العراة ، فيهم الفقر المدقع والجوع المضني . يلقاهم وقد أجمعوا أمرهم وحشدوا جموعهم وأقبلوا بخيلائهم في نحو ألف من الأشداء المدججين بالسلاح المزودين بالعتاد والمُؤَن . . فما لبث السادة الأقوياء أن اندرحوا حتى قتل منهم سبعون ، وفيهم علية القوم وأشرافهم ، وأُسر منهم سبعون ، وولى الباقون الأدبار وتبعثرت

---

(١) الظاهر أن المراد : سماع أرواحهم واطلاعها . (فتح الباري جـ ٧ ص ٢١٣ ـ ٢١٥) .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قتل أبي جهل .

(٣) « جيفوا » : صاروا جيفاً ، فقد مضى على قتلهم ثلاثة أيام وجثثهم في حرارة الشمس الصحراوية .

(٤) سيرة النبي ﷺ ـ عبد الملك بن هشام ـ جـ ٢ ص ٢٨٠ .

فلولهم في الصحراء ترجع من حيث أتتْ .

أخبرهم محمد ﷺ بأنه سينتصر عليهم فانكشف صدق خبره . ودعا على سادتهم بالهلاك ، فتحققت بإذن الله أمنيته ، وأُجيبت دعوته على الرغم من عدم التكافؤ المادي بينه وبينهم . وأمعن في تحديهم وإعلان عزة الإيمان بالله ، فمكث في ساحة المعركة ثلاثة أيام تجلى فيها نصر المسلمين وظهور الإسلام ، وتجلى بالتالي عَلَم ساطع من أعلام نبوته بصدق وعده وتحقق خبره وإجابة دعوته . صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاشت قريحة **شاعر الدعوة الإسلامية الأول** حسان بن ثابت ، فأنشد قصيدة عصماء في تلك المناسبة الخالدة ، قال فيها :

فغادَرْنا أبا جهلٍ صريعاً	وعتبةَ قد تركنا بالجُبُوب[1]
وشيبةَ قد تركنا في رجالٍ	ذوي حَسَبٍ إذا نُسِبُوا حسيبِ
يناديهم رسول الله لمَّا	قذفناهم كباكبَ في القليب[2]
ألم تجدوا كلامي كان حقاً	وأمرُ اللَّه يأخذُ بالقلوب
فما نطقوا ؛ ولوْ نطقوا لقالوا	صدقتَ وكنتَ ذا رأيٍ مصيب

٢ ـ دعاؤه بالغوث لما نزل القحط بالمسلمين : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة من باب نحو دار القضاء ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبلَ رسولَ الله ﷺ قائماً ، ثم قال : يا رسولَ الله ﷺ : هلكتِ الأموال[3] وانقطعتِ السُبُلُ[4] فادعُ الله يُغثْنا .

---

(١) « الجبوب » : الأرض الغليظة .

(٢) « كباكب » جمع كبكبة ، وهي الجماعة من الناس ، « والقليب » : البئر .

(٣) « هلكت الأموال » : المواشي ؛ خصوصاً الابل ، ولفظ البخاري « هلكت المواشي » وهلاكها من قلة الأقوات .

(٤) « وانقطعت السبل » : الطرق ، فلم تسلكها الإبل لضعفها بسبب قلة الكلأ أو عدمه .

قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » .

قال أنس : ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزَعَة[1] ، وما بيننا وبين سَلْع[2] من بيت ولا دار ، قال : فطلعتْ من ورائه سحابة مثل التُّرس ، فلما توسطت السماءَ انتشرت ثم أمطرت ، قال : فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً[3] .

قال : ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً ، فقال : يا رسولَ الله هلكتِ الأموالُ وانقطعت السُبُلُ فادعُ اللهَ يُمْسِكْها عنا . قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حولنا ولا علينا ، اللهم على الآكام[4] والظِّراب[5] وبطون الأودية ومنابت الشجر » فانقلعت وخرجنا نمشي في الشمس[6] .

وعن جابر قال : أتتِ النبي ﷺ بَواكي[7] ، فقال :

« اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً ؛ مَريئاً مَريعاً[8] ؛ نافعاً غير ضار ؛

---

(١) « القزعة » : سحاب متفرق ، وفي رواية البخاري « وإن السماء لمثل الزجاجة » : من شدة الصفاء لخلوها من أقل شائبة سحاب .

(٢) « سلع » : اسم جبل مطل على المدينة من الغرب .

(٣) « ما رأينا الشمس سبتاً » : كناية عن استمرار الغيم الماطر اسبوعاً ، وعبر عن الاسبوع بالسبت من باب تسمية الكل باسم بعضه ، كما يقال : « جمعة » .

(٤) « الآكام » من الأكمة : التل . والجمع : أكم ـ بضم الهمزة ـ وجمع الجمع : آكام .

(٥) « الظراب » بكسر الظاء وفتح الراء ـ وهي الجبال الصغار والروابي .

(٦) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم ، انظر صحيح مسلم : كتاب صلاة الاستسقاء وصحيح البخاري : كتاب الجمعة ـ باب الاستسقاء في المسجد الجامع ، وباب علامات النبوة .

(٧) « بواكي » نساء باكيات من شدة الجدب وفداحة القحط يشكين إلى النبي ﷺ ما نزل بالقوم .

(٨) « مريئاً » : طيباً تستمرىء النفوس ثماره . « مريعاً » : مخصباً .

عاجلاً غير آجل » .

قال : فأطبقتْ عليهم السماء[1] .

أجل ! هذه هي الدعوة التي لا تخيب ؛ دعوة من اتخذ عند الله عهداً وثيقاً . . عهد النبوة والرسالة . تلك دعوة المرسلين الأخيار الذين أيدهم الله بسطوة جلاله وعظيم قدرته . أجل ! إنها دعوة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [2] .

٢ ـ إخباره ﷺ عن غيب المستقبل :

إن البشر مهما بلغوا من العلم ومهما رقوا في معارج الفطنة والذكاء فإنهم سيظلون قاصرين عن سبر أغوار الغيوب وسيظلون أبداً واقفين فيها عند الحدود التي أوقفهم الوحي الإلٓهي عندها . والمستقبل غيب مجهول لا يجرؤ أحد من العقلاء أن يجازف بالحكم فيه بأمر قطعي محدد ، اللهم إلَّا أن يصدر فيه ظناً أو تخميناً من باب المقاربة والاحتمال ، ثم تكشف الأيام عن خطأ ذلك كله أو أكثره ﴿ **وإن الظن لا يُغني من الحقِ شيئاً** ﴾[3] ولئن أسعد الحظُ الإنسان أحياناً بتحقق تنبئه عن المستقبل ، فما أكثر ما يفجأه بالخيبة والتكذيب . وقد كشفت دورة الزمن عن نبوءات المتنبئين في

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ـ كتاب الصلاة ـ باب رفع اليدين في الاستسقاء ـ جـ ١ ص ٣٠٣ حديث ١١٦٩ . وابن ماجه في سننه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما جاء في الدعاء في الاستسقاء ـ جـ ١ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ حديث ١٢٦٩ و ١٢٧٠ . والمستدرك ج ١ ص ٣٢٧ وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي ، وقال النووي في الأذكار ٢٢٤ : « بإسناد صحيح على شرط مسلم » فتأمل ! وللتوسع في معرفة هدى النبي ﷺ في الاستسقاء وصلاته انظر كتاب « هدي النبي ﷺ في الصلوات الخاصة » ص ١٥٦ ـ ١٦٦ لشقيقي العلاّمة المحدث الدكتور نور الدين عتر .

(٢) انظر « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ٢٣٩ ـ ٢٤١ . ففيه جانب هام لهذا الموضوع .

(٣) سورة النجم : ٢٨ .

التاريخ القديم والحديث ، فخيب ظنونهم وكذبت تنبؤاتهم وفضحت فداحة أخطاء توقعاتهم . فكان ذلك من أعظم المنفرات من آرائهم ومذاهبهم ، إذ خسرت ثقة العقلاء إلى الأبد .

ولكن إذا أنبأنا منبيء بأخبار غيبية وفيرة كثيرة عن أمور عظيمة جليلة ، ثم توالت الأيام والسنون بل توالت القرون والعصور تكشف عن تحقق جميع أنبائه دون استثناء وحصولها على وجه الدقة والضبط. . إذا حصل هذا أدركنا أنه أمر يفوق طاقة البشر . فمن يستطيع أن يحدد مستقبل الناس أو مستقبل الدول أو مستقبل العالم على وجه الدقة والسداد ؟؟

وقد تحدثنا عن تبرؤ الرسول من علم الغيب علماً ذاتياً[١]، فالغيب علم إلّهي لا يستطلع أحد كنهه إلاَّ اللَّهُ الذي خلق الوجود وحدد مساره إلى الأبد . قال تعالى : ﴿ **قل لا يعلمُ مَنْ في السماواتِ والأرضِ الغيبَ إلاَّ الله وما يشعرون أيانَ يُبعثون** ﴾[٢] .

فكيف يُعقل أن تصيب فيه أحاديث إنسان على الدوام !؟ اللهم إلاَّ أن يمنحه الله شرف النبوة وعز الرسالة فيخبر الناس بما أطلعه الله عليه وأمره بإبلاغه فيكون ذلك من أروع وأقطع الدلالات على إلهية رسالته . قال الله تعالى : ﴿ **عالمُ الغيبِ فلا يُظهرُ على غيبه أحداً إلاَّ مَنِ ارتضى مِنْ رسول** ﴾[٣] .

وإليك طائفة من أخبار الغيب العظيمة في الأحاديث النبوية[٤] الشريفة التالية :

---

(١) انظر « نبوة محمد ﷺ في القرآن » : ص ٢٧٤ ـ ٢٧٩ .

(٢) سورة النمل : ٦٥ .

(٣) سورة الجن : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٤) أما أخبار الغيب في القرآن العظيم فستطلع على أهمها في الفصل الثاني من الباب الثالث .

١ ـ إخباره ﷺ فاطمة أنها أول أهله لحَاقاً به : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « أقبلتْ فاطمة تمشي كأنَّ مِشيتها مَشْيُ النبي ﷺ فقال النبي : مرحباً بابنتي ، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله . ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكتْ ، فقلتُ لها : لم تبكين ؟ ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت فقلتُ : ما رأيتُ كاليومِ فرحاً أقرب من حزن !! فسألتُها عما قال ، فقالتْ : ما كنتُ لأُفشي سر رسول الله ﷺ ، حتى قُبض النبي ﷺ فسألتها فقالت : أسرَّ إليَّ : إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة ، وإنه عارضني العامَ مرتين ولا أُراه إلا حضر أجلي ، وإنكِ أولُ أهل بيتي لَحَاقاً بي . فبكيتُ فقال : أما ترضَيْن أن تكوني سيدةَ نساء أهل الجنة أو نساءِ المؤمنين !؟ فضحكتُ لذلك »[١] .

وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم . وقد روى النسائي من طريق أبي سَلَمة عن عائشة أن سبب بكاء فاطمة إخبار الرسول إياها بموته ، وأن سبب ضحكها أنها أول أهله لَحَاقاً به وأنها سيدة نساء أهل الجنة[٢] .

أجل ! إن فاطمة عليها السلام أحب أولاد إمام المتقين إليه ؛ وها هي في ريعان الشباب من العمر ولا يتوقع أحد وفاتها ولكن لم تتجاوز حياتُها بعده ستةَ أشهر حتى التحقت بالرفيق الأعلى ، كما ثبت في الصحيح من حديث عائشة ، فكانت أول أهله لَحَاقاً به ، كما أنبأها من قبل عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات[٣] ، قال ابن حجر : «وفي الحديث إخباره ﷺ بما سيقع ، فوقع كما قال ، فإنهم ـ يعني الرواة المؤرخين ـ اتفقوا على أن فاطمة عليها السلام كانت أول من مات من أهل بيت النبي

(١) رواه البخاري : باب علامات النبوة ، وباب مرض النبي ﷺ ووفاته من كتاب المغازي .

(٢) فتح الباري : جـ ٨ ص ٩٦ .

(٣) الاصابة في تمييز الصحابة : جـ ٤ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٨ .

ﷺ بعده حتى من أزواجه »[1] .

٢ ـ إخباره عن انتصار الإسلام واستتباب الأمن في الجزيرة العربية :

لقي الرسول ﷺ وأصحابه أمرَّ الأذى والاضطهاد من قريش في مكة قبل الهجرة ، وكانوا قلة قليلة لا يقدرون على المقاومة وهم في قبضة جبابرة قريش وأتباعهم ، لا يأمنون على أنفسهم من بطشهم في يومهم وغدهم. فضاقوا ذرعاً بهذه الحال وأرادوا أن يسألَ الرسول ربه النصر . فأخبرهم صلوات الله عليه عن مستقبل هذا الدين . والمستقبل غيب لا يعرفه إلَّا الله والذين يطلعهم الله على شيء منه من رسله عليهم السلام .

عن خَبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه قال : « أتيتُ رسول الله ﷺ ، وهو مُتوسدٌ بُردةً[2] في ظل الكعبة ، ولقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله لنا !؟ فقعد وهو محمر وجهه ، فقال : لقد كان مَنْ قبلكم لَيُمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيُشقُّ باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه . ولَيُتمنَّ الله هذا الأمر[3] حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلَّا الله والذئب على غنمه » وفي رواية ثانية أن النبي زاد « ولكنكم تستعجلون »[4] .

٣ ـ إخباره عن دحر المسلمين أعظم امبراطوريتين وإنفاقهم كنوزهما :

وقال النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي : « ولئنْ طالتْ بك حياةٌ لتُفتَحنَّ كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هُرمُز !؟ قال : كسرى بن هرمز . . »[5].

---

(١) فتح الباري : جـ ٨ ص ٩٦ وعمدة القاري جـ ١٦ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٢) « البردة » : الشملة المخططة .

(٣) « ليتمن الله هذا الأمر » : سينصر الله هذا الدين حتى يؤمن به الناس في الآفاق .

(٤) رواه البخاري : باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين بمكة ، وباب علامات النبوة .

(٥) رواه البخاري في باب علامات النبوة . وذكرته بتمامه في كتاب : « نبوة محمد ﷺ في القرآن » : ص ٢٤٢ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصرَ بعده ، والذي نفسُ محمدٍ بيده لَتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله »[١] .

وقد هزم الصحابة ومن معهم من المؤمنين جيوشَ كسرى بالعراق وقيصر بالشام . ودحروهما عن تلك البلاد ولم يخلفهما أحد بعدهما على تلك البلاد . وافتتحوا كنوزهما فأنفقها المسلمون في سبيل الله عزّ وجل[٢] وما زال المسلمون حتى قوضوا دعائم أعظم امبراطوريتين ملكتا العالم ردحاً من الزمن ، ثم هيمنوا على العالم بأسره .

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى[٣] لي الأرض ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها . . . »[٤] .

هذه باقة عظيمة رائعة من أنباء الرسول الأعظم ﷺ عن غيب المستقبل ، ولا يتسع المقام لتقصي أهم أنبائه الغيبية فضلاً عن استيعابها جميعاً . وقد ذكرنا طرفاً هاماً منها مع التحليل المناسب في كتاب « نبوة محمد ﷺ في القرآن »[٥] وقد تجلى لك أن هذه الأنباء الغيبية ؛ وقد تحققت كما أنبأ وأخبر على وجه الدقة والسداد ؛ لَتؤكد صلة محمد ﷺ بالله جلّ جلاله وترسي دعائم اليقين بنبوته .

---

(١) رواه البخاري : باب علامات النبوة .

(٢) فتح الباري : جـ ٦ ص ٤٠٧ .

(٣) زوى لي الأرض : جمعها وطواها . انظر النهاية في غريب الحديث والأثر .

(٤) رواه مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . ورواه الترمذي ـ كتاب الفتن ـ باب ما جاء في سؤال النبي ثلاثاً في أمته . ورواه أبو داود ـ كتاب الفتن ـ باب ذكر الفتن ودلائلها .

(٥) ارجع إليه : ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ .

اليقين بمعجزاته ﷺ

لا تخفى على من تتبع سيرة الرسول الأعظم ؛ روعة معجـزاته ﷺ فهي كثيرة ومتنوعة ، بل هي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ، كما قال ابن تيمية وغيـره . وذكر النـووي في مقدمـة شرح صحيـح مسلم أن معجـزات نبينا ﷺ تـزيد على ألفٍ ومـائتين . وقال بعض العلمـاء : إنها ثلاثة آلاف معجزة ـ يعني غير القرآن، فإن فيه ستين أو سبعين ألفاً من المعجـزات تقـريبـا ـ وقـد اعتنى بجمعهـا فحـول من الأئمـة كـأبي نعيم والبيهقي وغيرهما [1] .

وشهير لدى المثقفين المسلمين أن القرآن قطعيُّ الثبوت ، فقد نُقل إلينا بطريق التواتر ، لكن معجزات الرسـول الأخرى صنفـان ، معجزات وصلت إلينا بطريق التواتر مما يورث اليقين بجريانها على يده عليه الصلاة والسلام ؛ كمعجزة انشقاق القمر وكثبوت نبع الماء من بين أصابعه بالتواتر المعنوي . . والصنف الثاني من معجزاته قد نُقل إلينا بطرق أحادية . وهذا شأن الكثير من معجزاته عليه الصلاة والسلام . **لكنا لمـا رأينا كثـرة هذه الروايات أفادتنا بجملتها علماً يقيناً بوقوع خارق للعادة منه ﷺ . فإن تلك الروايات وإن كانت أحادية في أفرادهـا فإنَّ قـدراً كبيراً منهـا يحصل بـه التـواتر المعنـوي على ظهور أمـر معجز منـه ﷺ[2] لأن تلك الروايـات**

---

(١) فتح الباري : جـ ٦ ص ٣٧٦ ولوائح الأنوار البهية : جـ ٢ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢) إعجاز القرآن : ص ٨ لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ . طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

الكثيرة على الرغم من تفاوتها فإنها ملتقية جميعاً على إثبات حصول المعجزة على يده ﷺ كثيراً . ولا ريب أنه إثبات قطعي .

قال ابن حجر رحمه الله في مفاد روايات المعجزات الأحادية : (ومجموع ذلك يفيد القطع « اليقين » بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير ، كما يُقطع بوجود جود حاتم وشجاعة علي ، وإن كانت افراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد . . مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير ، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار والعناية بالسير والأخبار ، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك . بل لو ادعى مدَّعٍ أن غالب هذه الوقائع مفيدة **للقطع بطريق نظري** لما كان مستبعداً ، **إذْ لاَ مرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في الجملة ، ولا يُحفظ عن أحد من الصحابة ولا مَن بعدهم مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك ولا الإنكار عليه فيما هنالك ، فيكون الساكت منهم كالناطق لأن مجموعهم محفوظ من الاغضاء على الباطل**)[1] .

فاليقين بمعجزاته يقين بنبوته ﷺ ، وهكذا تتضافر دلالات معجزاته الحسية والعقلية على امتدادِ الأعصر في إقامة قاطع الأدلة على صدقه ونبوته ﷺ . وإن سائر دلائل النبوة المحمدية الباهرة ومعالمها الساطعة ، بدءاً من أخلاقه العظيمة إلى أميته وعصمته عن المعاصي وتبشير الكتب السماوية ببعثته[2] . . . لتتعاضد جميعاً مع معجزاته وتوطِّد في الفكر الانساني السويّ والوجدان الحيّ أركان اليقين بنبوته وإلهية رسالته .

---

(١) فتح الباري : جـ ٦ ص ٣٧٦ .

(٢) قدمت تبيان هذه المعالم النبوية وغيرها بدراسة قرآنية موضوعية فريدة في كتابي : « نبوة محمد ﷺ في القرآن » .

دلالة المعجزة

وقد درستُ دلالتها من جميع الجوانب ونَسَّقْتُها على النحو التالي :

أ ـ دلالة المعجزة في القرآن :

لما أنعم الله على عباده ببعث النبيّين والرسل فيهم ؛ أتم نعمته عليهم فمنحهم بمقتضى حكمته أدلة ساطعة تدلهم على الحق في دعوى الرسل ، لينكشف لهم يقيناً أنها رسالات إلهية منيرة . وكان من أهم هذه الدلائل : المعجزات . فإن العاقل إذا علم بالمعجزة ؛ أو شاهدها تجري على يد النبي خارقة سنن الطبيعة وخواص المادة ـ وهو يتحدى بها الثقلين تحدياً يثقل كواهلهم ويكشف عجزهم ـ علمَ يقيناً أنها أعظم بكثير من نتاج قدرة الخلائق وأنها لا محالة من رب العالمين خالق السماوات والأرض ، وأنه تعالى ما أجراها على هذا النحو المثير المدهش المعجز إلَّا توثيقاً لرسالته وشهادة لنبيه . فهي بمثابة قوله تعالى لعباده : صدق عبدي فيما يبلغ عني فآمنوا به واتبعوه وآزروه .

وإذا تتبعتَ آيات القرآن المجيد تجد أن المولى تبارك وتعالى قد سمى المعجزات : **آيات وبيِّنات وبراهين** ـ كما أسلفنا ـ وعبر عنها أيضاً بأنها : **آيات بيِّنات** . ولما أطلق القرآن كلًا من هذه الألفاظ على المعجزة أفادنا أن المعجزة تقطع دابر الظن وتمنح العقلاء علماً وثيقاً بصدق المرسلين وإلّهية رسالاتهم . **وقد تقصيتُ** هذه الألفاظ في الكتاب المبين ، وأبرزت دلالتها في **الدراسة التالية** :

أما التعبير عن المعجزة بالآية فكثير جداً في القرآن المبين . منه قوله تعالى على لسان سيدنا عيسى إذ أجرى على يده إبراء الأكْمه والأبرص[1]

---

(١) « الأكمه » : الأعمى منذ ولادته « الأبرص » : المصاب بالبرص وهو مرض جلدي .

ونفخ روح الحياة في طير من الطين : ﴿ . . **أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخُ فيه فيكونُ طيراً بإذن الله . . . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾[١] وأما الحجة الفاصلة لسيدنا صالح عليه السلام على قومه ثمود فمعجزة خلق الناقة في باطن الصخر الأصم . قال تعالى : ﴿ **وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قومِ اعبدوا اللهَ ما لكم من إله غيرُهُ ، قد جاءتكم بينةٌ من ربكم هذه ناقة الله لكم آية** . . ﴾[٢] وقال تعالى عن معجزات سيدنا موسى : ﴿ **وأَدْخِلْ يَدَكَ في جيبك تخرجْ بيضاءَ من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾[٣] .

ولفظ « الآية » في اللغة بمعنى : العلامة والعبرة . أما لدى إطلاقه على المعجزة فيكون بمعنى العلامة الدالة على صدق الرسول . قال الراغب الأصفهاني : (والآية هي العلامة الظاهرة . وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره . فمتى أدرك مُدْرِكُ الظاهرَ منهما عُلم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته ، إذ كان حكمهما سواء ، **وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات**)[٤] .

ولولا أن المعجزة تفيد علماً حقيقياً بصدق الرسول لما أسماها الله آية . كيف لا وقد جعل الآية « بمعناها العام » سبيلاً محتماً للوصول إلى الحقيقة لمن أرادها من أهل التفكر والتذكر والتعقل والسمع الواعي !!؟؟ ألا ترى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون** ﴾ ﴿ **إن في ذلك لآية لقومٍ يذَّكرون** ﴾ ﴿ **إن في ذلك لآية لقوم يسمعون** ﴾ ﴿ **إن**

---

(١) سورة آل عمران : ٤٩ .

(٢) سورة الأعراف : ٧٣ .

(٣) سورة النمل : ١٢ .

(٤) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني . وانظر لسان العرب في مادة (أي) .

في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾[1] .

كما عبّر القرآن المبين عن المعجزة بالبينة في قوله تعالى : ﴿ قد جاءتكم بَيِّنةٌ من ربكم هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةً ﴾[2] وبعد أن ذكر الله المعجزات التي أيّد بها عيسى امتنَّ الله عليه بقوله : ﴿ . . وإذْ كففتُ بني إسرائيل عنك إذْ جئتَهم بالبيّنات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلاَّ سحرٌ مبين ﴾[3] وأكد تعالى أنه أيَّد المرسلين بالمعجزات الظاهرة التي تبين لهم طريق الهداية الأقوم فهي بينات ، قال تعالى : ﴿ وإنْ يكذبوك فقد كذَّب الذين سن قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزُبُرِ وبالكتابِ المنير ﴾[4] .

وأصل « البيِّنة » في اللغة : بانَ الشيء بياناً فهو بيِّن ، واستبان وتبيَّن : ظهر واتضح . ومنه قوله تعالى ﴿ حم والكتاب المبين ﴾ يعني الكتاب البيِّن ، وقيل : المراد بالمبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان كل ما تحتاج إليه الإنسانية . فالبيِّن والمبين : اسم لما ظهر في نفسه وأظهر غيره . و « البينات » جمع بَيِّنة ، وهي الأدلة والبراهين التي هي بينة في نفسها ويتبين بها غيرها[5] .

قال الراغب الأصفهاني : (والبيّنة : الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة . وسُمي الشاهدان : بينة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « البيِّنةُ على المدَّعي واليمين على مَنْ أنكر »)[6] .

وقد أكد القرآن تأكيداً متضافراً أن المعجزات تفيض على الأفئدة

---

(١) سورة النحل : (١١ و ٦٩) و ١٣ و ٦٥ و ٦٧ .

(٢) سورة الأعراف : ٧٣ .

(٣) سورة المائدة : ١١٠ .

(٤) سورة فاطر : ٢٥ وانظر آل عمران : ١٨٤ .

(٥) لسان العرب والقاموس المحيط : مادة (بين) والنبوات : ص ١٥١ .

(٦) المفردات في غريب القرآن : مادة « بين » .

علماً مكيناً بنبوة أصحابها المرسلين ، إذ عبّر الله عنها جلّت حكمته بأنها : « آيات بينات » فقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذْ جاءهم فقال له فرعونُ إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلّا ربُّ السموات والأرض بصائرَ وإني لأظنك يا فرعونُ مَثْبوراً** ﴾[1] وعبّر القرآن المجيد عن كل معجزة لسيد الرسل بأنها : « آية بينة » فقال تعالى : ﴿ **سلْ بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة . ومن يُبدِّلْ نعمةَ اللهِ من بعد ما جاءَتْهُ فإن اللهَ شديدُ العقاب** ﴾[2] أمرَ اللهُ رسولَهُ الكريم وكلاً من أتباعه الدعاة المهديين أن يُقرِّعوا اليهود بهذا السؤال لا استجواباً لهم ، وإنما توبيخاً على طغيانهم وجحودهم رسالة محمد ﷺ بعد اطلاعهم على دلائلها الباهرة ﴿ **كم آتيناهم من آية بينة** ﴾أي علامة ظاهرة ، وهي المعجزات كما قال الحسن ومجاهد .

ولكن لماذا خصَّ الله بالخطاب بني إسرائيل مع أن المعجزات عامة للجميع ؟

لا ريب أنهم أعلم بالمعجزات من غيرهم ودلالتها على الصدق ، فإنهم عهدوها على أيدي أنبيائهم . فوجب أن يكونوا أسبق الناس للتسليم والإيمان . وقد حذرهم المولى من تأويل المعجزات تأويلاً زائغاً ومن تمحل الأعذار لرفض دلالتها . فإنها نِعمٌ جليلة من الله لعباده ، لكونها أسباب هدايتهم . فمن حرَّف مغزاها بعد أن عقلها فقد أتى جرماً شنيعاً يستحق به أهوالَ العقاب الشديد : ﴿ **فَمَن يُبدِّلْ نِعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء : ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢١١ .

(٣) انظر روح المعاني : جـ ٢ ص ٨٥ ـ ٨٦ ـ وهذا هو التفسير الراجح في نظرنا ؛ فإن بني =

فلولا أن المعجزات تزيل ممن يتأملها الظن والاحتمال وتفيده علم اليقين بصدق المرسلين لما ذمَّ الله جاحديها بما ذمَّهم به في القرآن ولا توعدهم بشديد العقاب في جملة ما توعدهم .

وعبَّر الله في الذكر الحكيم عن المعجزة بأنها : « برهان » فقال في معجزتيْ اليد والعصا لسيدنا موسى عليه السلام : ﴿ **فذانك برهانان من ربك إلى فرعون ومَلَئِه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾[1] .

قال الراغب الأصفهاني : (البرهان بيان للحجة . . . **فالبرهان أوكد الأدلة ، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً ، لا محالة**) .

وأنزل الله المعجزة وضاءة تبدد ظلمات الجهالة وتفتح الأحداق على الحقيقة ، لذلك وصفها جلّ شأنه بأنها : **مبصرة** ، فقال : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة** . . . ﴾[2] . وقال على لسان موسى يصف معجزاته وصفاً يبين وظيفتها في الناس : ﴿ **لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلاَّ رب السماوات والأرض بصائر** . . ﴾[3] .

فالمعجزة ـ كما جلاَّها القرآن الكريم ـ ترسي في الفكر والفؤاد دعائم اليقين بصدق عباد الله المرسلين ، وتُلزم العقلاء بالإذعان والإيمان . ولا يصدر ذلك عنهم إلاَّ تجاوباً مع ما في أعماق فِطرهم الإنسانية السليمة . وليس أدل على ذلك من موقف السحرة خصوم سيدنا

= إسرائيل إنما عهدوا من أنبيائهم المعجزات ، وعليها كان التعويل في هدايتهم لا على البيان العقلي المنير . لذا فان من الحكمة خطابهم بما يفحمهم . وإذا صح جعلها عامة في المعجزات والآيات القرآنية، فإن من المرجوح تخصيصها بالآيات القرآنية وحدها ، لأنه تخصيص بغير مخصص .

(١) انظر سورة القصص : ٣٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٩ .

(٣) سورة الإسراء : ١٠٢ .

موسى وأعوان عدوه المتجبر المتألِّه فرعون ، فإنهم لما ابتلعت عصا موسى ثعابين سحرهم أفاضت على نفوسهم **علم اليقين** ، ولم يتمالكوا أفئدتهم أن تهوي بهم دفعة واحدة إلى أحضان الإيمان ، قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أَنْ ألقِ عصاك فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكون . فوقع الحق وبطلَ ما كانوا يعملون . فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وأُلقي السحرةُ ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . ربّ موسى وهارون** . . ﴾[1] .

وأنت تلاحظ أنه تعالى عبّر عن جريان المعجزة بقوله : ﴿ **فوقع الحق** ﴾ وعن إدراك السحرة لدلالتها : ﴿ **فأُلقي السحرة ساجدين** . . ﴾ ولما هددهم الطاغية بتعذيب مرير ، يقطّع فيه أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبنَّهم في جذوع النخْل لم يُثنهم تهديده عن التشبث بيقينهم ، بل اشتد ثباتهم وعظمت بسالتهم وتضحيتهم : ﴿ **قالوا لن نُؤثرَكَ على ما جاءَنا من البينات والذي فطرنا ، فاقضِ ما أنت قاضٍ ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفرَ لنا خطايانا** . . . ﴾[2] .

ومنح الله عباده حماية من الإضلال ، فحال بين المعجزة وبين الأدعياء الكذابين المضللين . فالمعجزة ؛ وهي علم الصدق ؛ قد خص الله بها النبيّين والمرسلين فلم يمنحها الله أحداً سواهم . وإذا استعرضتَ جميع المراحل الدينية في تاريخ الإنسانية وجدتَ كافة السحرة والمشعبذين الطامعين في مقام النبوة قد أخفقوا في تثبيت مزاعمهم وافتضح دجلهم وتزييفهم ﴿ **لِيُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ ولو كره المجرمون** ﴾[3] ، **فقد تعهد الله جل شأنه بحكمته وعدله أن يصون رسالاته عن كل دخيل** . قال تعالى : ﴿ **ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل**

---

(١) سورة الأعراف : ١١٧ ـ ١٢٢ .

(٢) سورة طه : ٧٢ ـ ٧٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٨ .

لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتينَ ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[1] .

فجعل النكال العاجل رصداً لمن يتقول شيئاً في الرسالة الإلّهية . فكيف بمن يتقول على الله ما لم ينزل به سلطاناً فيفتري رسالة بأكملها !!؟؟ لا جرم أنه محل نقمة إلّهية أعظم ! فلا يعقل أبداً أن يؤيده الله بمعجزة من المعجزات[2] .

ب ـ دلالة المعجزة في الحديث :

وطريق القرآن فيها الهدى والنور وشفاء الصدور . وقد سلك سيدنا محمد ﷺ طريق القرآن في الاستدلال بالمعجزة على صدقه في رسالته ، فأفادت أحاديثه أن المعجزة عِلْمُ الصدق لدى العقلاء .

روى الإمام مسلم أنه (لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناسَ مجاعة ، فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[3] فأكلنا وادَّهنا . فقال رسول الله ﷺ : افعلوا . فجاءَ عمر فقال : يا رسول الله إن فعلتَ قلَّ الظهر . ولكن ادْعُهم بفضل أزوادهم[4] . ثم ادعُ الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله يجعل في ذلك . فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فدعا بِنِطع[5] فبسطه . ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة . قال : ويجيء الآخر بكف تمر ويجيء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير . قال : فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال : خذوا في أوعيتكم ، قال : فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في

---

(١) سورة الحاقة : ٤٤ ـ ٤٥ والوتين : نياط القلب ، فإذا انقطع مات صاحبه .

(٢) انظر نبوة محمد ﷺ في القرآن : ص ٢٥٥ و٢٧٨ .

(٣) « النواضح » جمع ناضح : البعير .

(٤) « فضل أزوادهم » : ما بقي لديهم من الأطعمة التي تزودوا بها للسفر .

(٥) « النطع » : بساط من الجلد .

العسكر وعاء إلَّا ملأوه . قال : وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلتْ فضلةٌ . فقال رسول الله ﷺ :

أشهد أن لا إله إلَّا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة)[1] .

وروى الإمام البخاري نحوه بسند ثان وفيه أنهم بعد أن ملأوا أوعيتهم وظهرت لهم المعجزة ، خاطبهم الرسول ﷺ قائلاً : « أشهد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأني رسولُ الله »[2] .

كما نبّه الرسول ﷺ إلى دلالة المعجزة على صدقه في ختام حديث جابر بن عبد الله إذ قضى أبوه نحبه يوم أحدٍ شهيداً . فخلَّف ست بنات وترك دَيْناً عليه . وقد أفادت روايات أنه ليهودي . ويبدو أن معظمه كان لهذا اليهودي ، وقد رفض إمهال جابر لعام واحد في نصف دَيْنه فقط ! ! قال جابر : (فاشتد الغُرَمَاء في حقوقهم ، فأتيتُ رسول الله ﷺ ، فكلمته . فسألهم أن يقبلوا ثمر حائطي ويُحللوا أبي ، فأَبوْا ، فلم يعطهم رسول الله ﷺ حائطي ولم يكسره لهم . ولكن قال : سأغدو عليك . فغدا علينا حين أصبح ، فطاف في النخل ودعا في ثمره بالبركة . فجدَدْتُها[3] فقضيتهم حقوقهم . وبقي لنا من ثمرها بقية . ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ لعمر - وهو جالس - : اسمع يا عمر ! فقال عمر : أنْ لا يكون ! قد علمنا أنك رسول الله .

---

(١) رواه مسلم - صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً - جـ ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) رواه البخاري - صحيح البخاري - كتاب الشركة - باب الشركة في الطعام والنهد والعروض - جـ ٣ ص ١٠٩ - وكتاب الجهاد - باب حمل الزاد في الغزو - جـ ٤ - ص ١٣ - ١٤ .

(٣) « جددتها » : قطفت ثمارها .

والله إنـك لرسول الله)[1] .

وإذا كـانت المعجزةُ علم الصـدق على رسالـة النبي ﷺ ، كـانت إعلاماً من الله للناس بنبوته . وتدلهم بالتالي على تكليف الله إياهم بطاعة رسوله واتباع شريعته . ففائدتها الإعلام والإلزام[2] .

جـ ـ دلالة المعجزة لدى علماء الكلام :

أطبقت جماهير علماء المسلمين على أن المعجزة علم الصـدق . فجميع آيات الأنبياء تدل على صدقهم دلالة معلومة بالضرورة ، كما رأى أبو المعالي والرازي وغيرهما . ويصح أن يقال : إنها تفيد صدق الرسول بـالنـظر والاستـدلال ، حسب رأي الكعبي وأبـي الحسين البصـري وأبـي الخطاب[3] . **فالمعجزة تُعْلمنا صـدق الرسـول علماً ضـرورياً أو علمـاً نظرياً** . والتحقيق أن كلا القولين حق . ونبيّن ذلك فيما يلي :

---

(١) رواه البخاري ـ صحيح البخاري ـ كتاب الهبة ـ باب إذا وهب ديناً على رجل ـ جـ ٣ ص ١٣٨ . ورواه بنحـوه في كتاب الأطعمـة ـ باب الـرطب والتمر ـ جـ ٦ ص ٢١١ . وفي كتاب الاستقراض ـ باب إذا قضى دون حقه أو حلله فهو جائز ـ وباب إذا قاص أو جازفه في الدين تمراً بتمر أو غيره ـ جـ ٣ ص ٨٤ .

(٢) وذكـر ابن تيمية أن الله تعـالى قد يـريد بـالمعجزة تكـريم نبيه أو تخـويف عباده . انـظر النبوات : ص ١٥٩ ، ١٣٨ ، ٢٨٢ .

(٣) النبوات : ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، ٢٢٣ ـ ٢٢٤ والأربعين في أصول الدين : ص ٣١٦ ـ ٣٢٤ .
وتفصيل أقوال العلماء : أن المعجزة دلت على الصدق دلالة عقلية عند بعضهم . ودلت دلالـة وضعية عنـد البعض الآخر . ورأى آخـرون أنهـا دلت على الصـدق دلالـة عادية : « يعني أن عادة الله جرت بخلق العلم بصدق الرسل عقب ظهور المعجزة فإنه لا يجريها إلَّا على يد صادق ، ويفضح الكاذب إذا حاولها » وقد مضى الشيخ محمـود أبو دقيقة إلى أنه يصح أن تكون دلالة المعجزة عقليـة ووضعية وعـادية في آن واحـد . وقد خرج ذلك تخـريجاً حسنـاً (انظر شـرح المواقف : جـ ٨ ص ٢٨٢ ـ ٢٣٠ ومـذكرات التوحيد لطلاب السنة الرابعة في كليـة أصول الـدين بالأزهـر : ص ١٢ . وانظر شـرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٠) .

إن المعجزة تجري على يد كل من رسل الله موافقة لدعواه ، ويعجز عنها الخلق على نحو يفضح قصور قدراتهم عن معارضتها إلى الأبد ، مما يثبت بالضرورة أن الله قد خلقها عقيب دعوى الرسالة تصديقاً لرسوله . فتخصيص الله رسوله من بين سائر الناس بإظهار المعجز على يده يدل بالضرورة على صدقه وأن الله قد خصه برسالته إلى عباده[1] .

فمن الناس من يدرك إفادة المعجز صدق الرسول بالضرورة . ولكن آخرين يحتاجون لاستفادة صدق الرسول منها إلى النظر والاستدلال حتى يتبين لهم أن المعجزة تستلزم صدق الرسول : وأن الحكم بصدقه لازم للمعجزة . وذلك بأن ينظر إلى عجز الخلق عن معارضة المعجزة فيعلم أنها من الخالق جل شأنه ، وأنه تعالى حكيم عادل ، فلا تقبل حكمته أن يمنح الكاذب تأييداً خاصاً يعينه على إضلال البشر . بل مقتضى الحكمة الإلّهية الجليلة أن يمنح الله الرسولَ برهاناً خاصاً على صدقه ـ وهو المعجزة ـ تثبيتاً لقلوب العباد على الاعتصام بهداية الله .

وكثير من الناس يثبت عندهم صدق المخبر ـ أيّ مخبر ـ أو كذبه بالضرورة ؛ لقرائن أحواله أو قرائن خبره أو بسببهما معاً . فإن رسول الله موسى بن عمران لما قام في مصر بدعوته وأعلم هارون وغيره برسالته صدقوه قبل أن يظهر لهم الآيات . كما صدقه أخوه هارون عندما أخبره أن الله يأمره أن يؤازره في نشر رسالته ، وذلك لِما يعلم من استقرار حال موسى قديماً على الصدق والاستقامة وفضائل الأخلاق ، ولِما رأى من

---

(١) وقد مَثَّلَ الرازي والأيجي وغيرهما مثلاً لتفهيم إفادة المعجز الصدق ضرورة ، فقالوا : إذا جلس الملك على سرير مملكته فقام واحد وقال : اني رسول هذا الملك إلى شعبه . ثم قال : أيها الملك ! إن كنت صادقاً في دعواي هذه فافعل ما يخالف عادتك . فإذا فعل الملك في تلك الساعة فعلاً يخالف عادته علم الحاضرون بالضرورة أنه إنما فعل ذلك لتصديق رسوله (انظر الأربعين في أصول الدين : ص ٣١٦ و ٣٢٤ وشرح المواقف : جـ ٨ ص ٢٢٩) .

سمو حاله ـ حين دعاه ـ سمواً دالاً على صدقه[1] .

استفاد ورقة بن نوفل من أحوال سيدنا رسول الله ﷺ ومما جرى له ، صدقه بالضرورة فقال : (هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى . يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك! قال رسول الله ﷺ : أَوَ مُخرجيَّ هم !!؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلاّ عودي ، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)[2] .

وانشقاق القمر لمحمد عليه الصلاة والسلام نصفين ؛ بعد إعلان الرسالة ؛ أفاد علماً ضرورياً أن الله تعالى قدشقّه إثباتاً لصدقه في دعوى الرسالة . ومن صدقه الله فهو صادق[3] . وكذلك شأن جميع المعجزات .

واستفاد النجاشى العلم الضروري بصدق رسول الله ﷺ لما سمع القرآن. فقال: (إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة)[4].

وعلم أبو بكر الصديق وزيد بن حارثة صدق رسول الله علماً ضرورياً مما تلاه عليهم ومن سابق أحواله المستقرة على الصدق والأمانة . .

وإذا كان المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يعرف بها صدقه بالضرورة . فكيف بمن كان ثابتاً أنه أصدق الناس !!؟؟ وإذا كان العلم بصدقه من غير آية علماً ضرورياً ، فكيف إذا جاءت المعجزة علامة على صدقه تساند دلائل أحواله وقرائن خبره .

---

(١) انظر النبوات : ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

(٢) رواه البخاري : باب بدء الوحي : جـ١ ص ٣ . والحديث بتمامه في كتابي « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ١٨٥ ـ ١٨٨ .

(٣) الأربعين في أصول الدين : ص ٣١٦ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١ : ٢٠٣) و(٥: ٢٩١) .

وزبدة القول : إن الأدلة النظرية لا بد أن تنتهي إلى مقدمات ضرورية . وإن الأدلة النظرية للمعجزة تفيد العلم اليقيني بصدق الرسول ، فتأتي موافقة لما ثبت بالضرورة . فلا تنافي بين القولين[1] .

د ـ معجزة نبي من الأنبياء تدل على صدق سائرهم :

إن المعجزة تفيد علماً ضرورياً بصدق المخبر بها وتستلزم ثبوت نبوته وبالتالي فهي تستلزم كذب كل نافٍ للنبوة . ويمتنع وجود المعجزة مع انتفاء النبوة في كل كذاب أشر، فهذا أمر عقلي مقطوع به معلوم بالبديهة .

وإثبات نبوة نبي إثبات لجنس النبوة ولصدق جميع الأنبياء ، فإنهم جميعاً متميزون عن غيرهم بتلك الآيات والدلائل الدالة على صدقهم ؛ التي يعلم العقلاء أنها لم توجد لغيرهم . **وإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً ويبشر بعضهم ببعض . فآية كل نبي آية لجميع الأنبياء** ، فما أتى به موسى والمسيح وغيرهما ممن أخبر بنبوة محمد ﷺ فهو بآن واحد آيات لهم دالة على صدقهم وآيات لهم لمحمد ﷺ دالة على نبوته نظراً لاخبارهم بها . وما أتى به محمد ﷺ من الآيات فهو دليل على إثبات جنس النبوة وصدق جميع الأنبياء الذين سماهم القرآن الكريم كتابُ الله تبارك وتعالى .

هـ ـ امتداد دلالة المعجزة على مرّ الزمان :

عرفتَ أن المعجزةَ دليل قطعي على صدق الرسول لدى كافة من شهدها . ولكن هل تدل المعجزة الذين لم يشهدوها على نبوة صاحبها ؟ بلى ! إن المعجزة من أعظم براهين النبوة حتى للذين لم يروها في زمان النبي أو الذين جاؤوا من بعدهم في الأزمنة المتتابعة . ألا ترى أنهم إذا سمعوا بخبرها متواتراً عن أناس من مشاهديها بلغوا درجة من الكثرة يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب ، وكان ذلك شأن كل طبقة من

---

(١) انظر النبوات : ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

طبقات رواة الخبر ، ألا ترى أن ذلك التواتر يفيدهم علماً يقيناً بوجود ذلك النبي وصدقه !؟ فإنهم بهذا العلم الضروري ـ الذي لا يتطرق إليه الشك ـ بمنزلة المشاهدين لمعجزات النبي بأنفسهم . ونضرب لحصول العلم الضروري بالتواتر مثلاً ، فنقول : نحن نرى أن أناساً كثيرين من بلدان مختلفة مع تباعد بلادهم وتباين أخلاقهم متفقون على الأخبار بوجود بلد إسلامي اسمها (بخارى) فحصل لنا العلم القطعي ـ الذي لا يحتمل الشك ـ بوجود تلك المدينة على الرغم من أنّا لم نرها[1] .

وكذلك نقل إلينا رواة الأمة الإسلامية جيلاً عن جيل حتى جيل محمد ﷺ ـ مما يجعل اتفاقهم على الكذب محالاً في العقل ـ أنهم سمعوه يعلن أنه رسول الله إلى الناس كافة ، وشاهدوا معجزات كثيرة أجراها الله على يديه ، كما تلقنوا منه القرآن الكريم كتابَ الله تعالى المنزل عليه . وهو المعجزة التي تحدى الله بها الأولين والآخرين ؛ إنسهم وجنهم على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . فلم تزل معجزة القرآن ماثلة ، والبشرية تتحاشى معارضتها عجزاً وقصوراً .

وهكذا فإن معجزات محمد ﷺ التي غيبتها عن أنظارنا صفحات الزمن ؛ ومعجزات القرآن الماثلة على مر الزمان ؛ قد أقامت جميعاً أبلغَ الأدلة وأقطعها على أنه رسول الله الأمين حقاً وصدقاً ﷺ .

وإذا أخبر أحد الصالحين بنبوة نبيه وأظهر الله على يده الكرامة تدل على صدق إخباره ، كان ذلك من دلائل النبوة . وقد وُجد هذا لخلق كثير من الصالحين من أتباع الأنبياء من النفر الذين أطاعوا ربهم وتحققوا بأوامر دينهم وجاهدوا عنه ونشروه بين الناس ، كأصحاب محمد ﷺ والتابعين وكثير من صلحاء المؤمنين إلى زماننا . ووجه دلالة كراماتهم على صدق

---

(١) الأربعين في أصول الدين : ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥ .

نبيهم أنهم آمنوا به ودعوا الناس إلى دينه وبينوا لهم أن ما يجريه الله على أيديهم إنما حصل بسبب إيمانهم وتصديقهم . فيكون ذلـك دليلاً قـاطعاً على صدق المخبر وبالتالي على نبوة نبيه ، بل كون علامة الصدق تظهـر على غير النبي من المؤمنين به أبلغ في الدلالة على نبوة ذلك النبي وصدقه فيما بلَّغ عن ربه تبارك وتعالى . ولهذا كان من أعـظم آيات النبي إخبـار غيره من الأنبياء بنبوته[1] .

(١) النبوات : ٢٠٠ و ٢٥٧ .

تَطَلُّبُ المعجـزات

تضايق أعداء الرسل من انكشـاف زيف عقائـدهم وهيمنة العقيـدة الإلٓهية بسلطان الحق القاهر . فحاصوا حيصة حُمر الوحش ليخـرجوا من الحصار المحكم الذي ضربته حولهم الدلائل المفحمة والخوارق المعجزة التي أيّد الله بها المرسلين . لقد أبلستْ زعماءَ الشرك دعـوةُ سيد الـرسل محمد ﷺ ، فأُسقط في أيديهم ولم يجدوا لأنفسهم مندوحة عن التسليم لها إلَّا بالتشبُّث بمطالب سمجة متتابعة ، يكون عدم تلبيتها في نظرهم علة لانصرافهم عن هدي الله ورسله .

فعـولتُ على تقصي تطلبـات المشركين ومقتـرحاتهم ؛ واستـطلاع أسلوب القـرآن الحكيم في حجاجهم وإفحـامهم وعرضت زبـدة دراستي فيما يلي :

(عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذَهباً وأن يُنحي الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له[٢] : إن شئتَ أن نستأني بهم ، وإن شئتَ أن يأتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكتُ مَنْ كان قبلهم من الأمم ، قال : لا ، بل استأنِ بهم . وأنزل الله تعالى : ﴿ **وما مَنَعنا أن نُرسلَ بالآيات إلا أن كذَّبَ بها الأولون . وآتينا**

---

(١) « فقيل له » : أوحى الله إليه بواسطة جبريل عليه السلام .

ثمودَ الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نُرسلُ بالآيات إلَّا تخويفاً ﴾[1] .

لقد أبى الله ؛ وهو الحكيم في تدبيره الخبير بعباده ؛ أن يُلبي مطالب قريش ، فقد تذرعوا بالمطالبة ببعض المعجزات المادية ، رفضاً للإيمان ودلائله الكثيرة المتنوعة ، فلم يُجرِها الله لهم ، فقد رأوا معجزات كثيرة قبل أن يتكلفوا المطالبة بتحويل جبل الصفا ذهباً ؛ وبتنحية الجبال عن محيط مكة حتى تصير سهولاً خصيبة . وكان في امتناع الله جلت حكمته عن الاستجابة لهم رحمةً عظيمة بهم . فإنهم في حال عناد وتعنت لو جاءتهم فيه المعجزات التي اقترحوها ، كما جاءت إلى مَنْ كان على شاكلتهم من الأمم السابقة ، لكذبوا بها وأمعنوا في اللجاج بالباطل واقتراح مزيد من الآيات . وفي هذا الاستخفاف بآيات الله ما يستنزل نقمة العزيز الجبار عليهم فيهلكهم كما أهلك مَنْ قبلهم ﴿ **وما منعنا أنْ نُرسلَ بالآيات إلَّا أنْ كَذَّبَ بها الأولون** ﴾وليس من مانع له تعالى عن فعل ما يشاء إلَّا أن ينصرف عنه بإرادته ؛ حكمةً منه في نشر دينه ورحمة بخلقه . لكنه ابتغى بقوله ﴿ **وما منعنا** ﴾ المبالغة في التعبير عن إبائه هذا الإرسال حتى جعله كالممنوع بالنسبة إليه[2] . ثم أورد تعالى نموذجاً عن الأمم التي أحاطها بنكاله لعنادها واستخفافها بعد إجابة الله مطالبها وظهورِ الحق وانقضاء فترة التأمل والاعتذار ، فقال : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة** ﴾لقد سألَ ثمودُ نبيهم صالحاً أن يُخرج لهم ناقة من صخرة عينوها . فاستجاب الله دعاء سيدنا صالح فلبَّى طلبهم ومنحهم من باطن هذه الصخرة الصماء تلك الناقة العجيبة . فكانت آية

---

(١) روى الحديث الإمام أحمد والنسائي والحاكم وصححه والطبراني وغيرهم . وانظر المسند جـ ١ ص ٢٥٨ والآية في سورة الاسراء : ٥٩ . وانظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٧ وروح المعاني جـ ١٥ ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) نقل الألوسي : أن المنع هنا مستعار للصرف .

مضيئة ومعجزة مبينة دالة على رسالة صالح عليه الصلاة والسلام وعلى قدرة الله الذي بعثه إليهم . ﴿ **فظلموا بها** ﴾ : فكفروا بها وجحدوا أنها آية لهم من الله تثبيتاً لرسالة رسوله . وهذا النكران حملهم على التفلت من العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالحفاظ عليها وعلى حقها بشرب المياه واجترؤوا فقتلوها ، قال تعالى على لسان صالح : ﴿ **ويا قوم هذه ناقةُ اللهِ لكم آية فذروها تأكلْ في أرضِ الله ولا تمسوها بسوء فيأخذَكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾[1] . فأرسل الله عليهم صيحة رهيبة تُقطع نياط القلوب فاستأصلهم جميعاً : ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأنْ لم يغنَوْا فيها ، ألا إنَّ ثمود كفروا ربهم ، ألا بُعداً لثمودَ** ﴾[2] . وهكذا كانت عاقبة عنادهم واقتراحهم معجزات خاصة فإن قلوبهم المقفلة لم تتفتح لها لأنهم ما طلبوها تثبتاً واسترشاداً ولكن جحوداً ومعاجزة وعناداً .

﴿ **وما نرسلُ بالآيات إلَّا تخويفاً** ﴾ والمراد بالآيات هنا حسبما يدل السياق : الآيات المقترحة . إذْ يتطلبها من ركب رأسه وصمم على الجحود والنكران ، فلا يتعظ ولا يعتبر ولا يهتدي بالمعجزات التي أيّد الله بها رسوله أولاً ، بل يمعن في حرب الحق بهذا النمط من المعاجزة والتعنت . فإذا استجاب الله لهم فلجوا في طغيانهم لزمهم العقاب الذي يجعلهم عبرة لأولي الأبصار ، فكان في هذه الآية ردع رهيب للمتمادين القرشيين ، يخيفهم من مصائر الأقوام السابقين ، ويميط عن العقول غشاوات التحجر والكفران ، ويزيل عن الأفئدة والضمائر صدأ التعنت والعناد ؛ معرفة للحق وانشراحاً للإيمان[3] .

---

(١) و (٢) سورة هود : ٦٤ ـ ٦٥ و ٦٧ ـ ٦٨ .

(٣) انظر تفسير الآية في : الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي : جـ ١٠ ص ٢٨١ وتفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير : جـ ٣ ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ وروح المعاني ـ للألوسي : جـ ١٥ ص ٩٥ ـ ٩٧ .

تعنت آخر وإصرار على التكذيب :

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف وأناساً آخرين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه حتى تُعذروا فيه فبعثوا إليه فجاءهم صلى الله تعالى عليه وسلم سريعاً وهو يظن أنهم **قد بدا لهم في** أمره بداء . وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعزّ عليه عنتهم حتى جلس إليهم « فاشتكوا مما قام به الرسول من انتقاص دينهم وتسفيه عقولهم وعقول آبائهم ومهاجمة آلهتهم . وعرضوا عليه أن يكف عنهم فيعطوه مالاً وفيراً حتى يصير أغناهم ، أو يجعلوه سيداً عليهم لا يخالفونه في إبرام أمورهم ، أو يُنصبوه ملكاً عليهم . وهنا تحلَّت براءة دعوته ﷺ عن الأغراض الشخصية والمطامح الذاتية إذْ أعرض عن كل مغرياتهم التي يتفانى كبراء الناس في السعي لنيلها في كل زمان . فإن قضيته ليست إلَّا دعوة إلّهية خالصة »[1] فقالوا : يا محمد إنْ كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك . فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا . فاسألْ لنا ربك الذي بعثك به فلْيُسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضَيَقتْ علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجرْ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإنْ صنعتَ ما سألناك وصدقوك ، صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « **ما بهذا بعثت ، إنما جئتكم من عند**

---

(١) هذا معنى طرف من الحوار الذي دار بينهم .

الله بمـا بعثني به ، فقـد بلغتكم مـا أرسلت بـه إليكم ، فـإنْ تقبلوه فهـو حظكم في الدنيـا والآخرة ، وإنْ تـردوه علي أصبر لأمـر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : فإن لم تفعل لنـا هذا فخـذ لنفسك ، فسـل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصـوراً من ذهب وفضة ويغنيـك بهـا عمـا نـراك تبتغي ، فـإنـك تقـوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسـه ، حتى نعرف فضـل منزلتـك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسـأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فـإنْ تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخـرة ، وإن تردوه عليَّ أصبـر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : فأسقِطِ السماءَ كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك ، فإنَّا لن نؤمن لك إلَّا أن تفعل .

فقـال لهم رسـول الله ﷺ : « ذلـك إلى الله إن شـاء فعـل بكم ذلك » . . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله وملائكته قبيلاً .

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمتـه عاتكـة ابنة عبد المطلب . فقال : يا مُحمد عرض عليك قومك ما عـرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمـوراً ليعرفـوا بها منـزلتك من الله فلم تفعـل ذلك ، ثم سألـوك أن تعجل لهم مـا تخوفهم بـه من العذاب . فـوالله لا أؤمن بـك أبداً حتى تتخـذَ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنـظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك

أنك كما تقول : وايم الله لو فعلتَ ذلك لظننت أني لا أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ .

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه[1] .

فوبخهم الله على تماديهم في ضلالهم وإمعانهم في مطالب سخفهم وإعراضهم عن حقيقة أمر الرسول وطبيعة مهمته . فأنزل تعالى :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنْبوعاً ، أو تكونَ لك جنةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فتُفجّر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تُسقطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتيَ باللهِ والملائكةِ قبيلاً ، أو يكونَ لك بيتٌ من زُخرف أو ترقى في السماءِ ولن نؤمنَ لرقيك حتى تُنزّلَ علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحانَ ربي هل كنتُ إلاّ بشراً رسولاً »[2] .

تلك مطالب القوم من رسولهم : فَجّرْ في أرض مكة عيوناً غزيرة دافقة . واستغن عن الناس بغنى واسع ؛ بجنات من نخيل وأعناب تتشعب فيها أنهار متفجرة هادرة .

وأنت ترى معي أن هذه المطالب انعكاس لعقلية الجاهليين المادية الجامدة ، وقد تجافت عن البراهين المنطقية القويمة ، وأقبلت بلهفة على الهالات الدنيوية تعتمدها وتعتز بها شأن الزعماء المبطلين والجهلة الغافلين الذين اغتروا بزخرف الحياة الدنيا وزينتها ، فملكت عليهم ألبابهم وعبثت بمفاهيمهم وقيمهم حتى حمَلتهم على تقديس

---

(١) تفسير الطبري جـ ١٥ ص ١١٠ ـ ١١١ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٦٢ ـ ٦٤ وروح المعاني جـ ١٥ ص ١٥٥ ـ ١٥٨ والآية من سورة الاسراء : ٩٠ ـ ٩٣ وانظر « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ٦٩ و ١٣٧ و ١٧٢ .

الغنى والقوة دون الحق والحكمة وعلى الركون إلى التخاريف والأباطيل عزوفاً عن صفاء الهداية الربانية وكمالها وجلالها .

ولا يخفى عليك أن مسايرة الدعوة الإلّهية مطالبَ المتعنتين وأهواءهم يلغي مهمتها الروحية ، ويجعلها تبعاً للمفسدين وطغيانهم وتصرفهم حسب أهوائهم المريضة واعتلالاتهم المنحرفة . وفي ذلك تناف عنيف مع مهمة الرسالة الإلهية إذْ تنزلت بأمر الله العزيز العليم لقمع فساد المفسدين ونسف المفاهيم الباطلة والقيم السقيمة . . . فكيف تلتفت لمثل هؤلاء !!؟؟

ثم ماذا !؟ شطط آخر !! ألستَ يا محمد تُذكِّرنا بعذاب الله للأقوام السالفين وتحدثنا عن قدرته وبطشه !؟ إذن أسقط السماء علينا ، قطعاً فتاكة مهلكة أو دَعْنا نقابل الله والملائكة عياناً !

أما العذاب فليس وراء إنزاله خير ولا تيسير هداية لهم ، وقد أمهلهم ـ كما مرّ ـ حتى يؤمن مؤمنهم ويكفر كافرهم . وأبلغ من هذا فقد سأل نبي الرحمة ﷺ ربه أن يصرف عنهم عذاب النقمة والهلاك في الدنيا قائلاً : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبدُ الله وحدَه ولا يشركُ به شيئاً »[1] . بل لقد أسلم من هؤلاء المؤتمرين من أسلم وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية .

لكن الله تعالى لم يَدَعِ المحادّين الراسخين في الضلال يفلتون من العذاب في الدنيا فقد أرداهم بأسياف المسلمين تقتيلاً ، ووقف الرسول ﷺ على جثث بعضهم يوم بدر فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : « يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ؛ أيسركم أنكم أطعتم الله

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب بدء الخلق ـ باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ـ وصحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب ما لقي النبي من أذى المشركين .

ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً . . . !!؟؟ »[١] .

كل تلك المطالب أمر يسير بجانب ما يليها !! تأمل قولهم لما هاج غرورهم وطغت أمواج الكِبر والتجبر على عقولهم حتى فاهوا بتلك المطالبة السفيهة الشنعاء ﴿ **أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً** ﴾وهم أجساد آدمية ضعيفة لا تحتمل ذلك ولا تطيقه ، وهم في دار الاختيار والاختبار لا في دار الاجبار والاضطرار[٢] . وهذه الأقوال مبنية أصلاً على إشراكهم بالله وعدم معرفتهم صفاته الكمالية من عدل وحكمة حق المعرفة ؛ وعلى جحودهم يوم الحساب . فغطوا ذلك بإنكار النبوة أيضاً ، ومضوا في أساليب التهرب من الاقرار بنبوة محمد ﷺ . قال تعالى ﴿ **وقالوا ما لِهذا الرسولِ يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواقِ لولا أُنزلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً . أو يُلقى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنةٌ يأكلُ منها ، وقالَ الظالمونَ إنْ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً . انظر كيف ضربوا لكَ الأمثالَ فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً . تباركَ الذي إنْ شاءَ جعل لك خيراً من ذلك جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ويجعلْ لك قصوراً . بل كذبوا بالساعةِ وأعتدنا لمن كذَّبَ بالساعة سعيراً . . .** ﴾[٣] .

شوط آخر من التمادي في الغي واللجاج والجحود : ليكن لك بيت من زخرف « من ذهب » والزخرف في الأصل الزينة ، غير أن الزينة عندهم بالذهب أعجب وأرغب . لذلك أطلقوا لفظ الزينة على الذهب .

يا للسذاجة وضحالة الرأي !! ماذا يكون المرء لو أصبح غنياً يسكن بيتاً من ذهب فياض بألذِ ألوان النعيم !؟ أيكون بذلك وحده

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي .

(٢) راجع تفصيل جواب مطلبهم في كتابنا : «نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ٧٢ وما بعدها .

(٣) سورة الفرقان ٧ ـ ١١ .

فاضلاً ومصدَّقاً . . !؟ أم يكون نبيّاً رسولاً !؟ ومتاع الدنيا كثيراً ما يتعاظم في أيدي الأشرار بينما يزهد فيه الأخيار وينفقون منه بغير اغترار . . . !؟

وتنطعوا أيضاً . . . إذن اصعد إلى السماء . . ولن نؤمن لرقيك وإن شهدناك ترقى حتى تُنزِّل منها إلينا كتاباً نقرؤه . . . !!؟؟

لم يعد في وسع حصيف الرأي إلَّا أن يسألهم هل بقيت لكم إلى عقولكم من حاجة . . !؟ لقد أنهيتم بمطالبكم كل احتياج إليها . . !!! كيف لا !؟ وقد صرتم على أسفِّ حال من الإغراق في الحسيات والتعلق بالماديات والأموال والإذعان لكل مطالب الجاهلية الشهوية ونصبتم أمام إيمانكم بالرسالة سداً كتيماً تجاه كل شفافية روحية وأحاسيس وجدانية وتأملات ذهنية واعية !! بل لقد زدتم على ذلك إصراركم على التكذيب والكفران حتى لو شهدت أعينكم تحقق مطالبكم المادية . . ماذا تركتم لدلائل الحق بعد هذا . . !!؟؟

وواضح لكل ذي لب أن هؤلاء القوم ما طلبوا تلك المسائل في مجلسهم ذاك استهداء واسترشاداً . وإنما طلبوها عناداً ومعاجزة وإصراراً على الكفر ، ولو رغبوا أن يتخذوا إلى الحق سبيلاً لكفاهم القرآن المبين بالبراهين العقلية المتعاضدة وبنظْمه البياني الذي أعجز بلغاءهم وأفحمهم . . . ولكان لهم بباقي معجزات الرسول شفاء واكتفاء .

وتنزل الوحي الإلهي ينزِّه المولى تبارك وتعالى عما لا يليق به من إتيان وجيئة وذهاب ﴿ **قل سبحان ربي** ﴾ رداً على قولهم ﴿ **أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً** ﴾ وذهب مفسرون آخرون إلى أن المراد من ﴿**سبحان ربي**﴾ التعجب من كفرهم ولجاجهم . ويتبادر للبال أن في اقتران هذا التنزيه للمولى سبحانه وتعالى مع صيغة الاستفهام ﴿ **هل كنتُ إلَّا بشراً رسولاً** ﴾ تنزيهاً لله جل شأنه عما نسبوه إليه من صفات التجسيم ؛ وعن قبول تحكم أحد من الخلائق في شؤون رسالته سواء أكان من المرسلين

أم كان من المشركين . فإنه تعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعّال لما يشاء ، يرسل من المعجزات والخوارق ما يشاء ، كما أن هذا الاقتران يثير في أغوار النفس التعجب من شدة شكيمتهم في الضلال وفرط حماقتهم في الجدال .

وأعلن الله حقيقة رسوله جلية ناصعة ﴿ **هل كنتُ إلَّا بشراً رسولاً !؟** ﴾ قل لهم يا محمد : إنما أنا بشر لا أقدر على شيء من الخوارق بحولي وقوتي وليس لي أن أتخير على ربي فعل ما سألتموني ﴿ **قل لا أقولُ لكم عندي خزائنُ اللهِ ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ لكم إني مَلَكٌ . إنْ أتبعُ إلَّا ما يوحى إليَّ ، قل هل يستوي الأعمى والبصير ؟؟ أفلا تتفكرون !؟** ﴾[1] . ولستُ أزعمُ أني إلهٌ ، إنما أنا مجرد رسول كسائر رسل الله من قبْلي . فإنهم ما كانوا يأتون أممهم بكل ما يريدون ويبتغون ، ولكن كانوا يقتصرون على ما أيدهم الله به من آيات دالة على صحة نبوتهم . فإن للرسول في قومه مهمة محددة ؛ عليه أن يقومَ بأدائها ، يدعوهم إلى عبادةِ الله وحده وإلى الايمان بأن داعيتهم عبدُ الله ورسولُه ، ويبلغهم رسالة ربه ولا يعصي له أمراً . لذا كان جواب رسولنا ﷺ للقوم فوراً : « **ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم . فإنْ تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم** »[2] .

---

(١) سورة الأنعام : ٥٠ .

(٢) انظر تفسير الآية في : الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي : جـ ١٠ ص ٣٢٧ ـ ٣٣١ وتفسير ابن كثير : جـ ٣ ص ٦٣ ـ ٦٤ . ومفاتيح الغيب للرازي جـ ٢١ ص ٥٦ ـ ٥٨ . وروح المعاني جـ ١٥ ص ١٥٥ ـ ١٥٨ .

وإن عليَّ أنْ التزمَ أدب الرسالة . فكيف يسأل الرسول ربه مطالب الاسفاف في العناد بعد أنْ كرمه بدلائل باهرة نيِّرة وبـراهين رفيعة شـريفة ملزمة !؟ كيف يدعوه أن يستجيب لتنطع قوم مذبـذبين بين شطحـات من المطالب لا حدود لها ولا اتزان فيها ولا استرشاد ؟!

كيف يستسيغ الرسـول أن يرفـع إلى ربه هـذه القباحـة ؟ بل كيف يجرؤ على الدعاء بتنفيذها !!.

الحكمة الإلَهية تأبى الاستجابة لمقترحاتهم :

تعرضت الثقافة الإسلامية في مطلع النهضـة الثقافيـة الحديثـة إلى، هجمات عنيفة من المستشرقين ومقلدتهم . وكان من جملة ذلك إنكارهم معجزات سيد المرسلين محمد ﷺ . واحتجوا لتأييد زعمهم بالقرآن . فإن الله تعالى قد لفت النظر إلى إعجازه ولم يستجب لمـطالب المشركين في معجزات حدَّدوها . **وإذا تأملتَ** مطالبهم أنبأتك أنها نتاج إنحراف عُقدي وآفات نفسية متأزمة ولوجدتَ أن الحكمة الإلَهية تأبى الاستجابة لها لعدة أمور :

١ ـ ان مبعث مطالبتهم التعنت والعناد لا التثبت والاستهداء : وإن فيها تجاوزاً على سلطان الله تعالى وكأنهم يرون لأنفسهم حق التحكم في رسوله وفرض رغباتهم عليه وإحراجه ليطالب ربه بتنزيـل البينات حسبمـا يرتأون ويشتهون لا حسب دلالتها وكفايتها .

٢ ـ قال القرطبي : (**ولو** وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل ، ولوجب لكل إنسان أن يقول : لا أؤمن حتى أوتي بآية خـلاف ما طلب غيـري . وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس ، وإنما التدبير إلى الله تعالى)[1] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٠ ص ٣٣١ .

٣ ـ إن الـواجب على القوم أن يُسلِّمـوا بصدق رسـولهم ويعتصموا برسالته إذا جاءهم بأي فعل خارق للعادة معجزٍ لهم . فإنه دليل على تأييد الله وشهادته له بالصدق في دعواه . **وليس شرطاً أن يستجيب لاقتراحهم معجزاً معيناً يريدونـه** . قال الإمـام الرازي : (إذا حصـل الدليـل وتمَّ ، فالمطالبةُ بدليل آخر تكون طلباً للزيـادة وإظهاراً للتعنت واللجـاج ، والله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فلا اعتراض عليـه لأحد بـأنه لِمَ أعطى هذا الرسول هذه المعجزة وذلك الرسول الآخر معجزاً آخر . وهذا الجواب المذكور ههنا هو الجواب المذكور في قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن نُؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنْبوعاً** ﴾ ـ إلى قوله ـ : ﴿ **قلْ سبحانَ ربي هل كنتُ إلَّا بشراً رسولاً** ﴾ يعني أنك ادعيتَ الرسالةَ ، والرسولُ لا بد له من معجزة تدل على صدقه وذلك قد حصل . وأما أن تأتي بكل ما يُطلب منك ، فذاك ليس من شرط الرسالة)[١] .

٤ ـ **لو أنه تعالى أجابهم إلى مقترحاتهم** ـ وهم في تلك الحـال من العنـاد واللجاج بـالباطـل ، وقد ظهـر لهم بإجـابتهم قوة الـدليـل وصـدق الرسول ـ **لاستمروا في تعنتهم وتمادوا في باطلهم تمادياً يعميهم عن دلالة المعجزة** ، ويُظهر تكبرهم وتجبرهم وعدم ميلهم إلى الهدى والرشاد . قال تعـالى : ﴿ **وإذا جـاءتهم آيـةٌ قـالـوا لن نؤمنَ حتى نُؤتى مثـلَ مـا أُوتيَ رسل الله ، الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته . سيصيبُ الذين أجرمـوا صَغَارٌ عنـد الله وعـذابٌ شـديـد بمـا كـانـوا يمكـرون** ﴾[٢] . وقـال تعـالى : ﴿ **سأصرفُ عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإنْ يروْا كلَّ آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيـل الرُشـدِ لا يتخذوه سبيـلاً . وإنْ يروْا**

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي جـ ١١ ص ١٠٨ .

(٢) سورة الانعام : ١٢٤ .

سبيل الغَيِّ يتخذوه سبيلاً . ذلك بأنهم كَذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[1] .

ولو أن المعجزات المطلوبة أُنزلت إليهم فأعرضوا عنها ـ وسيُعرِضون لا محالة ـ لأعرضوا بذلك عن قطعي الدلائل التي ينتفي معها أدنى ريب أو احتمال ، **ولكانوا كالمستخف** بالله وعظمته وحكمته في رسالته ، ولاستحقوا بذلك أشد سطوات العقاب ليكونوا عبرة لأولي الألباب . وقد جرتْ سنةُ الله تعالى بذلك فيمن قبلهم من الأقوام [2] .

٥ ـ في رحلة الرشد الانساني وبلوغ الإنسانية درجة رفيعة من النضج العقلي أنزل الله الإسلام خاتم أديانه . **فعوَّل تعالى على تفتُّحِ الافهام والأذهان للإيمان بالتفكير والتعقل** . والأمة التي بُعث محمد ﷺ إليها تمتاز عن بني إسرائيل وغيرهم من الأمم السابقة برجاحة العقول . فأكثر الله لفت الأنظار إلى تأمل ما احتواه القرآن من دلائل قاطعة وبينات باهرة تُثبِّت الرسالة المحمدية وتبرهن على صدورها عن الله حقاً وصدقاً ، كما اجتذب القرآن الأفئدة إليه لأنه معجزة الرسول العظمى الخالدة . وإنه وإن لم يكن المعجزة الوحيدة فإن الناظر في الدعوة الإسلامية لا يستغني عن إنعام النظر فيه ، ولكنه لو أحسن التعرف على معجزاته العظيمة الوفيرة ؛ لوجد به كل غناء واكتفاء في اثبات نبوة محمد ﷺ .

من أجل هذا قدَّم الله تعالى على هذه الآيات إشادة بليغة بمكانة القرآن وإعجازه ودلالته فقال :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس في هذا

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٦ .

(٢) انظر سورة الاسراء : ٥٩ .

القرآنِ مِنْ كلِّ مَثلٍ فأبى أكثرُ الناس إلَّا كفوراً ﴾[1] .

ونوَّه باكتفاء العقلاء به فقال : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل ، إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لمْ يكفِهِم أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم . إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[2] .

فأنت ترى بجلاء أن الآيات ردع للمشركين لتطفلهم في أمر المعجزات ؛ وشططهم في الاستزادة منها ؛ وضلالهم عن صفات الله وعدم تقديرهم مقام الرسالة وأدبها ، وتماديهم في الإعراض عن اللازم الحتمي للمعجزات ، وهو الإيمان بالرسول والاعتصام التام برسالته . فليست الآيات بصدد تحديد نوع المعجزات التي يؤيد الله بها رسوله محمداً ﷺ وليست تتضمن نفي أي من المعجزات المادية أو العقلية التي أيّد الله بها رسوله . فلا تتوفر فيها أدنى دلالة على ما تجشم عناء تعمله منكرو المعجزات المادية لسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) سورة العنكبوت : ٥٠ ـ ٥١ .



الباب الثاني
دلائل المعجزة العظمى



الفَصْلُ الأَوَّلُ

القرآن مُعجِزة الرسُول العُظمى

- معنى المعجزة القرآنية .
- القرآن هو المعجزة العظمى وآية الآيات .
- خلود المعجزة القرآنية مدى الدهر .
- التحدي بالقرآن العظيم .
- القرآن معجزات كثيرة .

معنى المعجزة القرآنية:

جرتْ سنةُ اللهِ في خلقه أن يرسل إلى كل أمة رسولاً وينزل عليه تعاليمه الحكيمة ، حتى بلغت الإنسانية طور الرشد ، فبعث الله لكافة أممها خاتم رسله محمداً ﷺ . وأنزل عليه القرآن كتاب هداية وإعجاز ومنارة هدى وإيمان ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور . فجمع الله به شتات العرب ، وبنى به دولة الإسلام ومجتمعها ، وأنقذ الإنسانية من المظالم والسفاسف .

(فالقرآن الكريم ، هو اللفظُ العربي المنزَل من الله تعالى على محمد ﷺ بواسطة جبريل للإعجاز والهداية . وهو المنقول بالتواتر ، المكتوب في المصحف المُتعبَّدُ بتلاوته)[1] .

والقرآن الكريم هو نفسه برهان صدق أنه كلام الله تعالى فقد نزل على وجه يعجز البشر عن الإتيان بمثله أبداً . فكان معجزة الرسول الخالدة مدى الدهر الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

ويبين القاضي عبد الجبار معنى أن القرآن معجز فيقول : (فمعنى قولنا في القرآن أنه معجز : أن يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعلُ

---

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن ـ لفضيلة استاذنا الشيخ عبد الوهاب غزلان ـ ص ٢٣ . طبع دار التأليف بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م وأمالي أصول الفقه لطلاب السنة الرابعة في كلية الشريعة بدمشق ـ للشيخ أحمد فهمي أبو سنة . مبحث أدلة الأحكام والاجتهاد ص ٨ .

مثله في القدر الذي اختص به)[1] . فأنت ترى أنه جعل الإعجاز قاصراً على أسلوبه البياني الفائق . وإليه ذهب بعض العلماء كما سترى .

ومعنى إعجاز القرآن في فهمنا : أنه يتعذر على البشر فصحاء وعلماء وعامة الإتيانُ بمثله في أسلوبه البياني أو أخباره الغيبية أو أي من وجوه إعجازه الأخرى ؛ لسموه على طاقتهم ؛ وأنهم يفقدون العلم بكيفيته ويقصرون عنه قصوراً أبدياً .

أما أنه تعالى جعل القرآن معجزة عقلية بنى عليها أمر نبوة محمد ﷺ ، فيدلك على ذلك سور كثيرة وآيات وفيرة . نأتيك منها بقبس علَّك بعد عمق تفهمه تتقصى أشباهه ونظائره في الكتاب العزيز .

لقد أخبر جلّ شأنه أن الكتاب آيات من آياته المعجزة وعلَم من أعلام هدايته كاف في الدلالة على نبوة محمد ﷺ . فهو معجزة أعطاها الله رسوله محمداً ليقوم مقام معجزات غيره من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . قال تعالى :

﴿ وقالوا لولا أُنزل عليه آياتٌ من ربه !! قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أوَ لم يكفهمْ أنا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم . . ؟ ﴾[2] .

قال الإمام حسن البقاعي في تفسيره : (**﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾** أي الذي له الأمر كله فلا يقدر على إنزال شيء منها غيره . فإنما الإله هو لا سواه . **﴿ وإنما أنا نذير ﴾** أقوم لكم بما حمَّلني وكلفني من النِّذارة دالاً عليه بما أُعطيتُ من الآيات ونواقض المطردات . وليس لي أن

---

(1) المغني في أبواب العدل والتوحيد ـ للقاضي عبد الجبار الأسد آبادي جـ ١٦ ص ٢٢٦ ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م .

(2) سورة العنكبوت : ٥٠ ـ ٥١ .

أقترح عليه الآيات . على أن المقصود من الآية : الدلالة على الصدق ، وهي كلها في حكم آية واحدة)[1] .

بانَ بهذه الآية ونحوها وبآيات التحدي أن نبوة محمد ﷺ قد بُنيت على دلالة القرآن الكريم وإعجازه ، وصار القرآن نفسه دليلاً بل أدلة جزيلة تثبت أنه كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ . وافترق في هذا الحكم عن باقي الكتب المنزلة على الأنبياء . فإن نظمها غير معجز ، فلا تدلُّ على نفسها بنفسها من ناحية النظم ، إنما بمعجزات أخرى[2] .

القرآن هو المعجزة العظمى وآية الآيات

من أوضح البيّنات وأشهرها أن القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى وآية الآيات التي أُعطيها محمد ﷺ برهاناً على نبوته . وقد قرر الله هذه الحقيقة في الكتاب الكريم نفسه في معرض رده على المشركين . فقد طالب كفارُ قريش ـ بإيعاز من بعض أهل الكتاب ـ رسولَ الله ﷺ بمعجزات تناظر معجزات الرسل السابقين ؛ كناقة صالح وعصا موسى ونحو ذلك ؛ فأثبتَ اللهُ جل جلاله نبوة سيدنا محمد ﷺ وقطعَ دابر

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآي والسور : جـ ٤ ورقة ١٨١ ـ مخطوط في دار الكتب المصرية .

(٢) فإن قيل : إن الاخبار عن الغيوب وجد في جميع الكتب السماوية كما وجد في القرآن فلا ميزة له عليها .

قلنا : ان القرآن وإن شاركته الكتب السماوية في اشتمالها على الاخبار الغيبية ـ وهو أمر معجز ـ فإنه قد أربى عليها وجوه إعجاز أخرى ، تزيده قوة في إعجازه والدلالة على ربانية مصدره . ومن هاتيك الأوجه : نظمه المعجز الذي يستدل به وحده . وهو موفور في كل سورة وفي كل قدرمنه يتضمن معنى تاماً ، ولو لم يزد في طوله على أصغر سورة من القرآن . وقد وقع التحدي بالقرآن بل بسورة منه ، بينما لم يقع التحدي بتلك الكتب السماوية أو بقدر منها .

التشكك في رسالته بقوله المنزل : ﴿ **وقالوا لولا أُنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أوَ لَمْ يكفِهم أنا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم!؟ إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾[1] .

فقمعت هذه الآية تعلل المشركين عن الإيمان . ونصرت رسول الله بإعلان الحجة عليهم ليُفحمهم بأن الإتيان بالمعجزات الخارقة ليس من شأن النبي ﷺ فالله تعالى ينزلها حسبما يشاء لا دخل لأحد في ذلك البتة . فقل لهم يا محمد إنك نذير لهم بالآيات التي منحَكَ الله إياها . يا ويحهمْ ألمْ يبرحوا يقترحون الآيات ويتكلفون تقديم المطالب !؟ ألم تكفهم تلك الآية العظمى التي تغني عن سائر المعجزات!؟ ألا وهي القرآن المجيد ، وقد أدام الله تلاوته تقرع أسماعهم بالتحدي وأقامهُ معجزة كبرى ثابتة لا تزول ولا تضعف . لا ريب أن ذلك الكتاب العظيم الشأن الخالد على مر الدهور نعمة عظيمة ، قد تفضل الله بها رحمة وتذكرة لمن ابتغى معرفة الدين الحق والإيمانَ به[2] .

إن الله تعالى جعل معجزة كل نبي مناسبة لحال قومه . فقوم فرعون برعوا في السحر فجاءهم موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا . ونبغ قوم عيسى بالطب حتى فاقوا به . فجعل الله معجزة عيسى من جنس عملهم فتحداهم بما لم تصل قدرتهم إليه ، فأحيى الميتة ، وكان منه إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى .

قال القاضي عبد الجبار : (وعلى هذا الوجه رتَّب تعالى المعجزات ، فجعل المعجز الذي أظهره على موسى ، مما الأغلب وضوحه لأهل زمانه ، وانكشافه لهم ، فقد كانوا يتعاطون السحر ، فلما ورد عليهم ما ورد من انقلاب العصا حية ، آمنوا لظهور الأمر . وكان

---

(١) سورة العنكبوت : ٥٠ ـ ٥١ .

(٢) روح المعاني : جـ ٢١ ص ٦ .

اعترافهم وإيمانهم مقوياً لدواعي غيرهم إلى البصيرة وشدة التأمّل . . .

وكذلك فعل تعالى فيما أظهره على عيسى ، مما بهر عقول الأطباء في زمنه . .)[1] .

ولقد بلغ العرب أرفع مستوى عرفته الإنسانية في الفصاحة والبلاغة وارتقوا في ذلك فوق جميع الأمم مراتب ظاهرة . فكان لاظهار الله تعالى القرآن على لسان رسوله محمد ﷺ من الفوائد ما لا يساويه غيره من المعجزات ، فإنه لو اقتصر الأمر على إظهار معجزات مادية على منوال قلب العصا حية أو إحياء الموتى ، مما لم يألف العرب جنسه وليس لهم بحاله معرفة ولا بصيرة ، لاحتمل أن يتوهموا أنهم إنما عجزوا عن مثله لذلك السبب خاصة . فلما خص الله محمداً بالقرآن أبعدهم عن الوقوع في تلك الشبهة . فالفصاحة دأبهم ومفخرتهم ، بها يتبارون ويصولون . فكان القرآن المعجز مما يعلمون مزيته لأول وهلة بيسير من التأمل . وهذه الطريقة السديدة في المعجزات عين الحكمة ، فلا يحسن العدول عنها إلى غيرها . **فأنت ترى أن القرآن قد جاء على سنن الحكمة الإلَهية في توجيه المعجزات . وامتاز عنها بكونه خاتم كتب الله مشتملاً على خاتمة شرائعه وأنه خطاب الله للناس جميعاً . فاختص بكونه معجزاً جميع المكلفين باقياً ببقاء التكليف تصونه رعاية إلَهية خاصة .**

قال القاضي عبد الجبار : (واختص القرآن مع كونه معجزاً أنه معجز لجميع المكلفين ، فوجب في الحكمة أن يكون أمراً يبقى ببقاء التكليف ، ولذلك تكفل تعالى بحفظه وحراسته ، من جهة الدواعي وتوفرها ، وخصه بأن أودعه من علم الأولين والآخرين ومن دلالة الحرام والحلال ما يدعو إلى تحفظه ، والتوفر على تأمله ، والمحافظة على

---

(١) المغني جـ ١٦ ص ٢٠٥ .

تـأويله ، وألزم تعـالى تلاوتـه ورغَّب فيـه وفي حفـظه وتعليمـه ، ليكـون محـروسـاً محفـوظـاً يتـداولـه الصغيـر والكبيـر ، وينشـأ عليـه الـطفـل والوليد)[1] .

وهذا كله بالإضافة إلى وجوه إعجاز القرآن الأخرى توجب له مـزية بل مزايا في الإعجاز على كل معجز .

تحدى الله العرب أن يأتوا بقدر سورة من القرآن على صفته في روعة البيان وعلو الطبقـة في البلاغـة . **ففي القرآن بنـاء على ذلك آيـات كثيرة ومعجزات غزيرة . فليس له مثيل سابق لدى أحد من الأنبياء .**

وإنا لنعلم أن صنعة البيان دأب كل جماعة من بني الإنسـان ، غير أن العرب قد أربوا فيها على غيـرهم . فإذا كـان القرآن معجـزة لهم فهو معجزة لغيرهم أيضاً ، وإذا كانت معجزات الأنبياء حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ، قد انقرضت بانقضاء أعصارها ، فـإن القرآن معجزة عقلية تشاهدها البصائر باقية مستمرة الإعجاز أبد الدهر ، لا يعتريها اللبس والغموض ولا تشتبه بالسحر ولا يحوم حولهـا ريب التصنع ، فهي قاهرةٌ مفحمة كلَّ إنسان علمه الله البيان . بهذا كله امتازت معجزة الرسول العظمى عما سواها من المعجزات . وهذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله :

« ما من الأنبياء نبيٌّ إلَّا أُعطي من الآيات ما مثلُهُ آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة »[2] .

يقول رسول الله ﷺ في هذا الحديث : إن معجـزتي العظمى التي تحديتُ بها إنما هي ذات الوحي الذي أنزل الله عليَّ ، وهو القرآن الكريم

---

(١) المغني : جـ ١٦ ص ٣٤٤ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل القرآن .

الواضح إعجازه . **لكنه ﷺ لم يقصد أن جميع معجزاته محصورة في القرآن وحده ، أو أنه لم يُؤتَ نظير معجزات الرسل السابقين . إنما قصد أن القرآن هو المعجزة العظمى والآية التي تفوق كل الآيات السالفة ، وأن الله قد اختص به محمداً ﷺ دون غيره من إخوانه الأنبياء** . فقد أيّدهم الله بمعجزات حسية رأتها الأبصار ثم أدرجتها الأعصر في طياتها فلم يبق منها إلاَّ الذكر ، إنْ بقي الذكر . أما القرآن المجيد فمعجزة جابهت العقول زمن البعثة وتحدت الملكات والمواهب ، ولم تزل على مجابهتها وتحديها ما بقي الزمان وتتابع الجديدان . فالذي يُشاهَد بعين العقل يبقى ماثلاً لكل ذي عقل . . والقرآن لم يزل على توالي الأيام بارزاً بإعجازه في أسلوبه البليغ الخارق للعادة ، وفي أخباره عن المغيبات . فلا يمر عصر إلاَّ ويدرك أهله قصورهم عن أسلوبه . ويظهر لهم تحقق أمر مما أخبر الله أنه سيكون ، وفي هذا تثبيت جديد لرسالته وصدق نبوته ﷺ . وهكذا يعم النفع بالقرآن ويزداد المؤمنون به إيماناً وعدداً، خاصة وأنه مشتمل على الدعوة والحجة والاخبار بالغيب وبيان كل من العقيدة والشريعة . ولذلك تحققت رجوى رسول الله ﷺ فكان أتباع دينه المنزّل ـ المصون من التبديل والتحريف ـ أكثر من أتباع كل نبي ، وأمته أعظم من كل أمة[1] .

قال العلاّمة عبد الرحمن بن خلدون :

(إعلم أن أعظَمَ المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة : القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ . فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه . **والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهدُه في عينه ، ولا** يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي . فهو أوضح دلالةً لاتحاد الدليل والمدلول فيه . وهذا معنى قوله ﷺ : « ما من نبي من

(١) فتح الباري : جـ ٩ ص ٤ ـ ٥ .

الأنبياء إلاَّ وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحيَ إليَّ . فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » يشير **إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحي كان المصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثر المصدق والمؤمن ، وهو التابع والأمة)**[1] .

خلود المعجزة القرآنية مدى الدهر

أيّد الله محمداً ﷺ بمعجزات حسية كثيرة ، إلاَّ أنها قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة ومشهد أناس معينين ، غيبتهم الأرض بعدئذ . ومع أنها انقضت بانقضاء وقت حدوثها فلم يستمر وجودها ؛ فهي تقيم الحجة على صدق الرسول ﷺ للأجيال المتعاقبة . فإن كثيراً منها قد نقل على نحو يفيد العلم اليقيني بحصولها ، فيلزم كل من بَلَغته أن يُسلِّم بنبوته صلى الله عليه وعلى آله ويذعن لشريعته .

لكن المعجزة العظمى لسيدنا محمد ﷺ القرآن الكريم . فهو معجزة عقلية عامة لكل العهود والأعصر ، وستظلُّ قائمة مستمرة في تحديها وقهرها مواهب البشر إلى يوم القيامة . فالحجة به ملزمة وقت تنزله على رسول الله ﷺ ، كما أنها ملزمة في كل آن بعده إلى قيام الساعة على حد سواء ، فإن التحدي بالمعجزة القرآنية لم يخص قوماً دون قوم ولا أهل العصر الأول دون غيرهم . فهو معجزة ثابتة خالدة على مرّ العصور والسنين والشهور ، والتحدي به يفحم أهل كل زمان ومكان ، والإعجاز فيه قائم في كل عصر ومصر **﴿ قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتون بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾**[2] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٩ . راجع رواية البخاري للحديث ص ١١١ .

(٢) سورة الإسراء : ٨٨ .

لقد حظي القرآن بعناية فائقة ، حفظته لأهل الأعصر المتوالية **بدقة** لا نظير لها . فكان الرسول ﷺ يعلِّم أصحابه كل ما ينزل من آيات كتاب الله ويستحفظهم إياها ، ويستمع لهم ليستوثق من دقة حفظهم ، ويأمرهم بأن يعلم بعضهم بعضاً . وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا . وهكذا حفظ الصحابة القرآن وأتقنوه غاية الإتقان .

فإنَّ أول جمع للقرآن حصل في عهد رسول الله ﷺ وهو جمع الصدر ، فقد جمعه في صدورهم جمهور غفير من الصحابة رضوان الله عليهم[1] .

وقد عُنيَ المسلمون من بعدهم بتلاوة كلام الله تعالى وتوافدوا على حفظه ودراسته . فمنهم من يتزلف إلى الله جلّ شأنه باحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها ، أو يحفظه تفقهاً في أصول الدين وفروعه وقياماً بأركانه وأوامره ، أو يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه . ومنهم من يتوخى بحفظه إلتماس أسباب الفصاحة والبلاغة . **وهكذا توفرت الدواعي وتضافرت العوامل لحفظ القرآن وصيانته . فنجم عن ذلك تواتر نقل القرآن . فقد حفظه بالمشافهة عن رسول الله ﷺ جمع كبير من الصحابة يستحيل تواطؤهم على الكذب ورواه عنهم جمع عظيم أيضاً . . وهكذا في كل العصور إلى زماننا هذا . والنقل بهذا الطريق القطعي خصوصية للكتاب الكريم .** فالكتب السماوية الأخرى إنما نُقلت نقلاً آحادياً فرداً فرداً إلى نبي تلك الأمة أو إلى أحد قدّيسيها بانقطاع في سلسلة الرواة الناقلين عن ذلك النبي عليه السلام .

وهكذا نجد أن الله جلّ شأنه قد هيّأ لكتابه العزيز أكمل أسباب

---

(١) تقدمت ببحث عن جمع القرآن وتدوينه وحفظه وتواتره في « الأحرف السبعة في القرآن ومنزلة القراءات منها » .

الحفظ المتقن المضبوط ، فحفظته في الصدور الجموعُ الكثيرة المتعاقبة ، وتناقلته ثقات الأمة مكتوباً في السطور ، متحد النص لا اختلاف فيه ، فتحققت معجزة الوعد الإلّهي : ﴿ إِنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكرَ وإنا له لحافظون ﴾[1] .

لقد انقضى على تنزل القرآن أربعة عشر قرناً ولم يزل القرآن بحمد الله مصوناً محفوظاً ، وهذا من الدلائل المنيعة على نبوة سيدنا محمد ﷺ . وقد عدَّه القاضي عياض رحمه الله وجهاً من أوجه إعجازه[2] فقال :

(ومن وجوه إعجازه المعدودة : كونه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . ﴾ الآية . وسائر معجزات الأنبياء انقضت بإنقضاء أوقاتها فلم يبق إلَّا خبرها)[3] .

ولا شك أن قصداً إلّهياً عظيماً يكمن في حفظ القرآن وضمان استمرار حفظه سليماً للناس ، وهو استمرار المعجزة وخلودها وبقاء الهداية ما بقي الليل والنهار ، لتقوم الحجة البالغة على الناس في كل زمن ، تُلزمهم الإيمان بدين الله تعالى والعمل بما في كتابه الكريم من شريعة عالمية خالدة على غاية الصلاحية لكل زمان ومكان[4] .

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) ونحن نعد ذلك معجزة فحسب . وسنتكلم عن ذلك عند تحديد أوجه الإعجاز .

(٣) الشفاء ـ للقاضي عياض ص ٢٣٢ المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢ هـ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي ـ جـ ١ ص ٢٣٣ ـ ٢٤٣ والاتقان للسيوطي جـ ١ ص ٥٧ ـ ٦٤ والمناهل : جـ ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ـ والبيان : ص ١٤٥ وما بعدها .

التحدي بالقرآن العظيم

الشأن في كل معجزة أن يتحدى النبي قومه بأن يعارضوها فيعجزوا عنها ، فيُسقط في أيديهم ويستعلن عجزهم على الملأ . فالتحدي شرط في المعجزة وعنوان مميز لها دال عليها . ولم يوكل التحدي بالقرآن لمحمد رسول الله ﷺ ، بل صدر عن الحق جل شأنه . وأنت ترى أن هذا تعظيم لأمر القرآن دونه كل تعظيم . فقد تحدى الله العرب حين اتهموا رسوله باختلاق القرآن من تلقاء نفسه أن يأتوا بحديث يماثله فيما استقل به من أوصاف ومزايا في نظمه ومعناه . قال تعالى **﴿ أَمْ يقولون تقوَّله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثلِهِ إنْ كانوا صادقين ﴾**[1] .

فلو توفر في زعمهم ذاك أدنى قدر من الصدق إذن لاقتدروا على تقديم مثل القرآن ، لا سيما أنهم يشاركون محمداً ﷺ في العربية ، وأنهم فرسان البلاغة والفصاحة ، أكثروا مزاولة أساليب النظم والنثر وتمرسوا بالخطب والأشعار وبالغوا في حفظ الوقائع والأيام . فإن القدرة على الأمر من دواعي الاتيان به[2] . فإذا جابههم التحدي مع التنديد بالأصنام وتسفيه الاحلام وإهانة المقدسات ، فقد أوجب كل ذلك عدم التواني لحظة في حشد الأنصار والأعوان للتظاهر والتآزر على المثل المطلوب لو كان في حيِّز الإمكان **﴿ قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كانَ بعضُهم لبعض ظهيراً ﴾**[3] .

المقام الثاني في التحدي :

لقد كبَّلهم العجزُ بأصفاده مع قيام التحدي على مر الزمن ، فأمسكوا

---

(١) سورة الطور : ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) روح المعاني : جـ ٢٧ ص ٣٢ .

(٣) سورة الإسراء : ٨٨ .

عن المحـاولة ، ففجـأهم التحدي مقتصـراً على عشر سـور على سبيـل التساهل . وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ أميٌّ لم يصحب أهلَ العِلم ولم يرحل في طلبه ، وأنهم يقفون معه في مضمار العلم على قدم المساواة ، **فقد أمعن القرآن في إفحـامهم فتنزل عن مـطالبتهم بالممـاثلة في المعنى والنظم معاً ، وتحداهم بـالنظم وحده بعشـر سور فحسب** ، فـلا يَعوزهم بعد هذا أن يكون في العرب مثلُ محمدٍ فصاحة أسلوب وبـلاغة تعبيـر ، فهم فرسان الفصاحة والبلاغة . قال تعالى في سورة هود : ﴿ **أم يقـولون افتراه !!؟ قلْ فأتوا بعشر سورٍ مثلِهِ مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إنْ كنتم صادقين . فإنْ لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنـزل بعلم الله وأنْ لا إلهَ إلَّا هو فهل أنتم مسلمون !؟** ﴾[1] .

اختلف المفسرون في المتحدى به في هذه الآية ، فذهب أكثرهم إلى أنه قدر عشر سور تماثل القرآن في نظمه ومعناه والمـراد بالمعنى مـا يتضمنه القرآن من إخبار عن الغيب ووعد ووعيد وحِكم وأحكام .

وذهب آخرون ومنهم ابن عطية والمبرد والبقـاعي إلى أن المطلوب في المتحدى به هو مماثلة القرآن في حسن النظم والبيان فحسب ، دون المغيبات والحِكم والأحكام والوعد والوعيد والأمثال[2] .

قال البقاعي رحمه الله عند تفسيره هذه الآية من سورة هود :

(مفتريات : أي إنكم قـد عجزتم عن الإتيـان بسورة ؛ أي قـطعة واحـدة ، آيـةٍ أو آيـات من مثله ، فيمـا هـو عليـه من البـلاغـة والاخبـار بالمغيبات والحِكم والأحكام والوعد والوعيد والأمثال، وادعيتم مكابرة أنه مفترى فارغ عن الحِكم ، **فأتوا بعشر مثله في مجرد البلاغة غير** ملزمين

---

(١) سورة هود : ١٣ ـ ١٤ .

(٢) البحر المحيط : جـ ٥ ص ٢٠٨ وروح المعاني : جـ ١٢ ص ١٩ ـ ٢٠ ومعالم التنزيل ـ للبغوي ـ سورة هود .

بحقائق المعاني وصحة المباني . ذكره البغوي عن المبرد ، وقد مضى في البقرة عند ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ عن الجاحظ وغيره ما يؤيده)[1] .

ونحن نذهب إلى ترجيح مذهب الفريق الثاني (ابن عطية والمبرد والبقاعي) ، فنرى أن المُتَحدَّى به هو عشر سور تماثل القرآن في حسن النظم والبيان . وهو معجز حتماً لا يدرك البشر شأوه . وهذا التحديد في المتحدى به هو نتيجة تقييد القرآن السور المماثلة بقوله (مفتريات) . وإذا لم تقل بهذا ، فما تقول بهذا القيد الاضافي الذي لم يرد نظيره في سورة يونس على الرغم من التشابه في السياق ؟ قال تعالى في سورة يونس : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثلِهِ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[2] .

وقال في سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إنْ كنتم صادقين ﴾[3] .

ثم نحن نسأل ما الافتراء ؟ هو الكذب . وهل الكذب إلاَّ مخالفة الخبر للواقع !؟ إذن المطلوب منهم عشر سور لا تحتوي على معان وأخبار وعلوم تطابق الواقع . فهل خلاف الحق والواقع في ذلك يعقل أن يُعدَّ مماثلاً لما في القرآن ؟؟ لذلك تحتّم علينا أن نقول إنما ورد التحدي هنا بأسلوب القرآن البياني دون أوجه الإعجاز الأخرى . وهذا مقتضى إعمال الفهم في لفظ (مفتريات) واعتباره يحمل معنى ، لأن القرآن ـ ولله الحمد والمِنَّة ـ بريء عن الفضول في القول والتزيد في الكلام .

---

(١) أراد من « صحة المباني » : سلامة المعاني وتناسقها وعدم اختلافها . انظر نظم الدرر في تناسب الآي والسور : جـ٣ ورقة ٤٦ ـ مخطوط دار الكتب المصرية ـ .

(٢) سورة يونس : ٣٨ .

(٣) سورة هود : ١٣ .

لقد توجه خطاب الله في هذه الآية إلى المشركين يقطع دابر تعللهم ويقيم بالغ الحجة عليهم ، فكأنه يقول :

أما زلتم تقيمون على الزعم بأن محمداً افترى هذا القرآن على الله . . ؟ أم أنكم لم تبرحوا تتقولون أن القرآن أساطير الأولين ، اكتتبها محمد فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً . . ؟ لئن دار بعض هذا في خلدكم فخلوا عنكم أخباره الغيبية وعلومه اللدنية ، فلن يكون أسهل عليكم - حسب زعمكم - من اختلاق عشر سور تماثله بلاغة أسلوب وفصاحة بيان ، فأنتم العرب سادة الفصاحة والبلاغة !؟ وقد دُعيتم إلى مثله في النظم في أي معنى أردتم مطلقاً غير مقيد ، موسعاً غير مضيق . فليس إلى معاني القرآن دُعيتم ، ولكن إلى بلاغةِ أسلوبه وفصاحة عبارته .

هيا ! شمروا عن ساعد الجد ، لا تقفوا في الميدان وحدكم . استنصروا بآلهتكم ، استعينوا بكهانكم ومصاقيع شعرائكم وخطبائكم ، فسيتبين لكم إن كنتم صائبين في حكمكم أم لا !؟ فإن عجزتم أنتم وأنصاركم وأصنامكم ولم ينجدكم أحد ، فقد استبان لكم الفرق بين ظلمة الليل وضياء النهار ، فاعلموا أنه لم ينزل إلَّا من عند الله بعلمه وقدرته ، فإنه وحده الإله الحق الذي دونه قدرةً وعلماً . . كل مَنْ في الوجود متفرقين ومجتمعين ، فلن يقدروا على الإتيان بمثل هذا القرآن . وهذا إثبات قوي قاطع على أن القرآن كلام الله وحده وأن الله واحد لا شريك له لا يدانيه أحد في قدرته وعلمه وتصرفه . فكل من في السموات والأرض عبيدهُ ، لأمره خاضعون منقادون .

أما وقد عجزتم وباءَ جمعكم بالخزي والخذلان ، ولم يبق لديكم بعدُ شائبة شبهة في صدق هذا الرسول وحقية القرآن وبطلان ما أنتم عليه من شرك . فهل تغادرون المكابرة والعناد وتدخلون الإسلام دين الله أفواجاً ؟ .

هذا ما يتوجب عليكم بعد زوال الوهم المانع وقيام الدليل المعجز الملزم[1] .

المقام الثالث في التحدي :

ثم وسع الله لهم غاية التوسعة فتحداهم بسورة واحدة ولو كانت من أقصر سوره . قال تعالى : ﴿ **أَمْ يقولون افتراه !؟ قل فأتوا بسورة مثلِهِ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾[2] .

وقد اختلفَ العلماءُ في ترتيب نزول الآيتين : فذهب المبرد وغيره إلى أن آية يونس وفيها التحدي بسورة واحدة قد نزلت قبل آية هود التي تحداهم الله فيها بعشر سور مفتريات[3] .

وذهب آخرون ومنهم أبو حيان الأندلسي وابن كثير إلى أن آية هود والتحدي بعشر سور هو النازل أولاً . وقد اتفق الفريقان على أن الآيتين نزلتا بمكة .

ونحن إذْ لم نجد أثراً ثابتاً يبين أي الآيتين أسبق نزولاً ، نستحسن ما ذهب إليه الفريق الثاني فإن مقتضى التحدي بعشر سور أن يكون نزوله قبل التحدي بسورة واحدة . **فسورة هود أسبق نزولاً على رسول الله ﷺ** ، من سورة يونس ، ولو أنها جاءت في ترتيب المصحف بعد سورة يونس مباشرة .

ويكفي أن ابن كثير العلاّمة بالمأثور قد ذهب إلى هذا فقال في تفسير آية يونس :

---

(١) للتوسع في تفسير الآية انظر روح المعاني : جـ ١٢ ص ١٩ ـ ٢١ .

(٢) سورة يونس : ٣٨ .

(٣) معالم التنزيل : عند تفسير الآية من سورة هود .

﴿ أم يقولونَ افتراه !؟ قلْ فأْتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إنْ كنتم صادقين ﴾ :

(فـأتوا أنتم بســورة من مثله أي من جنس هذا القـرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان . **وهذا هو المقام الثالث في التحدي** . فإنه تعالى تحداهم ودعاهم ، إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد ، فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاءوا ، وأخيراً أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه ، فقال تعالى : **﴿ قل لئن اجتمعتِ الانسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾** . ثم تقاصـر معهم إلى عشر سـور منه فقال في أول سورة هود : **﴿ أَم يقولونَ افتراه قـل فأْتـوا بعشر سـور مثله مفتـريات . وادعـوا من استطعتم من دون اللهِ إنْ كنتم صـادقين ﴾** . ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة : **﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾** .

وكذا في سورة البقرة وهي مدنية ، تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال : **﴿ فإنْ لمْ تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار . . ﴾** الآية ، هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتُهم إليها المنتهى في هذا الباب . ولكنْ جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به)[1] .

لقد تحداهم تعـالى في سورة البقـرة فأثبت عجـزهم ، إذْ خاطبهم سبحانه ، فكـرر التحدي بعـدَ التحدي ليكشف للمـلأ عجزهم ويفضـح عنادهم وكذب ادعـائهم ويدمغهم بـطابع العجـز الدائم ، فيسجله عليهم بقوله : **﴿ وإنْ كنتم في رَيْب مما نزَّلنا على عبدنـا فأتـوا بسورةٍ من مثله**

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٣٠٤ مطبعة المنـار ـ الطبعـة الأولى ١٣٤٦ هـ وانظر البحـر المحيط : جـ ٥ ص ٢٠٨ .

وادعوا شهداءكم من دون الله إنْ كنتم صادقين . فإنْ لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾[1] .

لئن كنتم في شك من تنزيل الله القرآن على محمد ﷺ فلا بدَّ لكم من الرَّوِية والتثبت قبل إرسال القول فيه ، هيا ! فاختبروا الأمر بأنفسكم فإنكم أشد تمرساً في النظم والنثر ، ومزاولة لضروب الفصاحة والبلاغة ، **فهاتوا قدر سورة واحدة مثل القرآن طالت أم قصرت** . وقد تقدمكم من العرب فصحاء بلغاء فالتمسوا في فنهم الرفيع قدر سورة يماثل القرآن في صفاته الجليلة ، أو اجمعوا من لديكم ممن تبوؤا قمة الفصاحة والبلاغة ، واستعينوا بأنصاركم وأصنامكم التي تدعون من دون الله ، وقدموا مثيل **القرآن بما لا يتجاوز سورة واحدة** ، إنْ كنتم على أدنى حظ من الصواب في اتهامكم الرسول وتكذيبه !؟ .

فلئن عجزتم وظهر لكم هزال مواهبكم وقدراتكم وقصوركم عن إدراك مثله قصوراً أبدياً لا يُتلافى ، فقد انكشفَ لكم هول الحمق في الشك بالمتيقن الشديد الوضوح . فلو كان لأحد ثمة قدرة على ذلك لكنتم أسبق إليه لأنكم ذوو الألسن الفصيحة سليقة والأذواق الأدبية الرفيعة فطرة !! لئن بدا لكم عجزكم المتأصل وأنه لا قدرة لبشر قط على مثله ، وسيبدو ذلك لا محالة ، فاحترزوا من إنكار تنزله من عند الله ، وآمنوا برسوله الذي أنزل عليه ، فإن لم تؤمنوا فقد قامت عليكم الحجة ، وحق عليكُمُ القول[2] .

وصفوة القول أن التحدي بالقرآن قد تدرج ؛ فيما نرجح ؛ بالمراحل التالية :

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) انظر روح المعاني : جـ ١ ص ١٧٧ ـ ١٨٤ وجـ ١١ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ والجمل على الجلالين : جـ ١ ص ٢٧ ـ ٢٩ .

أولاً : تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن .

ثانياً : تحداهم أن يأتوا بعشر سور تماثل القرآن في نظمه دون معناه ، تماثله في أسلوبه البياني فحسب .

ثالثاً : تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة تماثل مماثلة تامة ؛ أي سورة كانت ؛ طويلة أم قصيرة .

القرآن معجزات كثيرة

رأيتَ أن الله تحدى العرب أن يأتوا بسورة واحدة تماثل القرآن . فالقَدْر المعجز الذي يفوت البشر سورة واحدة منه ولو من قصار سوره بل أقصر سورة فيه . وكل آية طويلة معجزة وكل مجموعة من الآيات القصار تعدل سورة الكوثر أو سورة العصر أو أكثر من ذلك فهي معجزة أيضاً . فإن الفصاحة وقوة البيان والبلاغة في التصوير ومتانة السبك لا تتبين بأقل من ذلك القدر ، لذا كان هو حد المعجز[1] .

وقد ذهب البقاعي إلى أن المراد بالسورة مفهومها اللغوي لا الاصطلاحي وارتضى في ذلك قول الحرالي : (**السورة : تمام جملة من المسموع تحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة**)[2] ، وفسر البقاعي السورة في موضع آخر بأنها : (قطعة واحدة)[3] .

ولكن كيف السبيل إلى معرفة أن كلاً من السور القصار معجز ؟

أجاب عن ذلك أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى فقال : (إن

---

(١) إعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ ص ٢٥٥ و ٢٨٦ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآي والسور ـ حسن البقاعي ـ جـ ١ ص ١٠ مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق .

(٣) راجع ص ١١٧ ـ ١١٨ .

كل سورة قد عُلم كونها معجزة بعجز العرب عنها) .

أجل : لقد عجز العرب عن معارضة القرآن بقدر أصغر سورة منه على الرغم من التحدي القوي المستمر . وإذا علمت أن القرآن يزيد على ستة آلاف آية ، وأنه يحمل عدة أوجه معجزة بالإضافة إلى إعجازه البياني[1] ، تراءت لك في القرآن معجزات متنوعة تجل عن الحصر والتعداد ، وحكمتَ بيقين أن هذا الكتاب المجيد هو المعجزة العظمى والآيةُ التي تَسُدُّ مسد جميعِ الآيات ، وتُرْبي عليها في قوة الدلالة على صدق صاحبها محمد ﷺ وتثبيت نبوته والبرهان على إلٰهية رسالته . قال تعالى :

﴿ أوَ لَمْ يكفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم !؟ إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[2] .

---

(١) طالع وجوه إعجاز القرآن فيما يلي من هذا الكتاب .

(٢) سورة العنكبوت : ٥١ .

الفَصْلُ الثَّانِي
شَهَادَةُ العَالَمِ بإعْجَازِ القرآن

أولاً : شهادة العرب بعجزهم عن معارضة القرآن :

١ ـ نكوصهم عن معارضته على الرغم من استمرار التحدي .

٢ ـ الطبيعة البشرية تجبرهم على معارضته لو كانوا قادرين .

٣ ـ القادر على المعارضة لا يرضى بمخاطر الحروب بديلاً عنها .

٤ ـ يستحيل ترك معارضته مع توفر الدواعي القوية عليها إلَّا لعجزهم .

ثانياً : اعتراف بلغاء العرب بإعجاز القرآن :

١ ـ حقيقة رأي المشركين في القرآن .

٢ ـ عقلاء فصحاء عرفوا إعجاز القرآن فآمنوا به .

٣ ـ أدباء النصارى يعترفون بعظمة القرآن وإعجازه .

ثالثاً : محاولات سخيفة فضحت عجزهم عن مجاراة القرآن .

رابعاً : خلود إعجاز القرآن إلى الأبد .

خامساً : دلالة إعجاز القرآن العظيم على نبوة محمد ﷺ .

شهد العالم بإعجاز القرآن عربه وعجمه ؛ مؤمنه وكافره ؛ في القديم والحديث .

فقد فجأ القرآن العرب بما لا قِبَل لهم به ، فبهتهم وحيَّرهم ، لكنهم لجُّوا في المكابرة وأنِفوا أن يُسلِّموا بأنه كلام الله تعالى تجبراً وطغياناً ، فألبسهم بالتحدي المستمر لباس العجز متيناً محكماً يأخذ بخناقهم ، فتضافرت في إثبات عجزهم دلائل وفيرة من أحوالهم وأقوالهم . وقد درج بعض العلماء على اعتبار قعود العرب عن المعارضة أحد أوجه إعجاز القرآن الكثيرة[1] . **والصواب أن قعودهم عن المعارضة دليل يثبت إعجاز القرآن وليس وجهاً من أوجه إعجازه ، لأن وجه الإعجاز لا بد أن يكون أمراً قائماً بالقرآن ، لذا عمدنا إلى استخلاص « قعودهم عن المعارضة » من أوجه الإعجاز ، ونبوة محمد ﷺ . وألحقنا به ما يشكل معه صيغة متكاملة** تثبت إعجاز القرآن الكريم ، وقدمناها في العناصر التالية :

أولاً : أحوال العرب أثبتت عجزهم عن معارضة القرآن .
ثانياً : اعتراف بلغاء العرب بإعجاز القرآن .
ثالثاً : محاولات سخيفة فضحت عجزهم عن مجاراة القرآن .

---

(١) انظر بيان إعجاز القرآن ـ لأبي سليمان الخطابي (٣١٩ ـ ٣٨٨ هـ) ص ١٩ ـ ٢٠ . والنكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي الرماني (٢٩٦ ـ ٣٨٦ هـ) ص ١٠١ « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » وانظر إعجاز القرآن ـ للباقلاني ص ٤٣ ـ ٤٤ .

رابعاً : العجز عن مثل القرآن في العصر الأول وإلى الأبد .

خامساً : دلالة إعجاز القرآن على نبوة محمد ﷺ .

أولاً : شهادة العرب بعجزهم عن معارضة القرآن

لما خنس المشركون عن معارضة القرآن اعترتهم أحوال بدت للعيان ، تكفي العاقل تثبتاً من عجزهم ، منها :

١ ـ نكوصهم عن معارضته وسكوتهم على استمرار التحدي عجز فاضح :

دخل التحدي على العرب من كافة أقطار قدرتهم البشرية ، وسألهم الإتيان بمثل القرآن ، وفي هذا توسعة عليهم ، فلم يجبرهم على تكلف المعارضة من أقوالهم ، إذْ لم يخاطبهم « قولوا سورة مثله » لكن ﴿ **فأتوا بسورة مثله** ﴾[1] فما كان بعد هذا أسهل عليهم من النظر في مجدهم اللغوي المؤثل ، ليختاروا ما يجدونه كفؤاً للمعارضة وإزالة مرارة التحدي . فالأدب الجاهلي لم يزل منذ عصر نزول القرآن حتى زماننا هذا أسمى ما وصل إليه العرب في نطاق الأدب العربي . فلو كان القرآن مقدوراً للعباد لوجدوا في الأدب الجاهلي ضالتهم ، ولكان اتفق لأحدٍ بلغائهم قبل البعثة أن يأتي بما يوازي القرآن ، مما يمكِّنهم من المعارضة به ويغنيهم عن تكلف وضعه وتعمل نظمه في الحال . **فلما لمْ نرهم احتجوا عليه بكلام سابق من خطبة متقدمة أو رسالة سالفة أو نظم بديع ، ولا عارضوه به ـ فقالوا : هذا أفصح مما جئت به أو هو مثله ـ ظهر جلياً أنه لم يوجد له نظير وأن ليس إلى معارضته من سبيل** . فلو وجد له لدى الجاهلين مِثلٌ لنقل إلينا ولعرفناه كما نقلت إلينا أشعارهم ومأثورات فصحائهم وحكمائهم ، وكما بلغنا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير

---

(١) روح المعاني : جـ ١١ ص ١١٥ ـ ١١٦ .

ذلك من أنواع بلاغاتهم وصنوف فصاحاتهم[1] .

لقد حاروا في شأن القرآن حتى استبدَّ بهم العجب من عجزهم عن مثله ، فانفضوا إلى مدافعة التحدي بعلالات واعتذارات هزيلة . فقالوا كما قال قوم موسى : ﴿ **ما هذا إلَّا سحرٌ مفترىً وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾[2] ﴿ **وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾[3] وقالوا : ﴿ **أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾[4] وحكى الله حجتهم : ﴿ **وقال الذين كفروا إنْ هذا إلَّا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً** ﴾[5] ونبّه الله إلى نعتهم بأنهم أصحاب حقد وعداء ﴿ **وتنذر به قوماً لُدّاً** ﴾[6] . وذكر اتخاذهم الجدل والخصام مسلكاً تجاه الحق . فقال سبحانه : ﴿ **ما ضربوه لك إلَّا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾[7] ثم لجؤوا إلى تهوين أمر الإعجاز القرآني واعتبار هذا التهوين سبباً للعدول عن معارضته. قال تعالى : ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاءُ لقلنا مثل هذا ؛ إنْ هذا إلَّا أساطير الأولين** ﴾[8] .

وهكذا التمسوا لأنفسهم عذر القعود عن معارضته بأنه أساطير الأولين أو قول شاعر مجنون أو هو كذب أعانه على اختلاقه أناس آخرون . واعتبروا اتهامهم هذا عذراً يسوغ صمتهم ويبرر عجزهم الفاضح

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٢٤ .

(٢) سورة القصص : ٣٦ .

(٣) سورة الحجر : ٦ .

(٤) سورة الصافات : ٣٦ .

(٥) سورة الفرقان : ٤ ـ ٥ .

(٦) سورة مريم : ٩٧ .

(٧) سورة الزخرف : ٥٨ .

(٨) سورة الأنفال : ٣١ .

عن المعارضة . . يا للمنطق السديد ؟ ألا ترى أن هذا التهرب من مواجهة التحدي ومن تقديم المعارضة ليس في الواقع إلا إقراراً منهم بالعجز ، وأي إقرار !؟

لكن مع تقولهم هذا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم الذين يتقنون صنعة العربية لم يشتغلوا بشيء من المعارضة وما ذاك إلَّا لعلمهم بعجزهم عنه وقصور فصاحتهم دونه . وقد نسب الله هذا القول إليهم : ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إنْ هذا إلَّا أساطير الأولين** ﴾ . وذلك لأنه صدر عن النضر بن الحارث من بني عبد الدار لكونه زعيماً وقاضياً فيهم ، يقولون بقوله ويأتمرون بأمره ، وكان يحدث القوم تلهية لهم عن القرآن حسب وهمه بقصص استمعها في أسفاره إلى فارس والحيرة عن رستم واسفنديار وغيرهما من كبار العجم ، وبأخبار عن التوراة والإنجيل ، كان استحفظها من اليهود والنصارى حين مر ببلادهم .

أقام المشركون قولَهم على المقايسة الخاطئة والمغالطة الفاضحة، ففي القرآن قصص الأولين وما كان من قصصهم فهم على قول مثله قادرون . وهذا القول غاية المكابرة ونهاية العناد ، إذْ تحداهم الله وقرعهم بالعجز سنين كثيرة فتهربوا منه وتشاغلوا عنه بأقاصيص سخيفة ليس في نظمها ولا في دلالتها ما يرفع رؤوس الشرك المنكوسة . لذلك أشارَ الله إلى صنيعهم هذا على سبيل التوبيخ بإظهار المفارقة العظيمة بين حقيقة أمر القرآن وكونه آيات إلٓهية جليلة وبراهين مفحمة ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ وبيَّن زعمهم أنه ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ وأنهم على مثله قادرون ، فظهر أن قول النضر بن الحارث (لو نشاء لقلنا مثل هذا)[1] **هو مجرد**

---

(١) وقد نسب القاضي عبد الجبار هذا القول إلى أمية بن خلف الجمحي . المغني : جـ ١٧ ص ٢٧ والصواب ما ذكرناه وعليه جمهور المفسرين . انظر تفسير ابن كثير : جـ ٢ ص ٣٠٤ . وروح المعاني جـ ٩ ص ١٧٧ .

ادعاء ، وليس إدعاء الفعل يدل على إمكانه ، فلا يمنع من الاستدلال على تعذره . لكن ما بذله الخصم ـ ههنا ـ بهتاً ومكابرة ، لتهوين أمر الحجة التي أقيمت عليه ، ولتخفيف عار الهزيمة التي مُني بها والخِذلان الذي حل به ، وإلاَّ فلو كان الأمر تحت مشيئتهم ـ كما زعم ـ فما منعهم أن يشاؤوا معارضته ويتحولوا من الوعد إلى الإنجاز والوفاء . . ؟ فذاك سبيل نيل مرامهم من فض النزاع وحسم الخصومة والاحتراز عن خوض غمار الحروب . . .

فلما لم يقدموا شيئاً مع استمرار التحدي في فسحة مديدة بطلت دعواهم وثبت عجزهم . فهم أصحاب أنفة يستنكفون أن يغلبوا وخاصة في ميدان البيان ، فإنهم فرسانه ، ملكوا أزِمَّته ، وحازوا قصب السبق به ، فحِكمهم وخطبهم وقصائدهم ومعلقاتهم الشعرية على الكعبة مشهورة . وقد كان البليغ فيهم يرصف الخطب أو يقول الشعر في جليل الأغراض والتافه منها ؛ حتى يقول في الحشرات والحيات والهوام . . ويتنافسون في ذلك أقوى التنافس ويتبجحون به أشد التبجح . فهل يصح أن يتمكنوا من معارضته في المعاني الفسيحة والعبائر الفصيحة ، تكذيباً له وذبّاً عن أديانهم وتخلصاً من خزي السكوت تجاه مديد التحدي ، ومن منازعته ورميهم بالضلالة والسفاهة ، ثم يحجموا مع تمكنهم ـ ويحيلوا أنفسهم على التعاليل ويُمنوا أتباعهم بالأباطيل ـ لا جرم أن هذا محال[1] .

قال الإمام الباقلاني : (فلو كان هذا « القرآن » من ذلك القبيل « الشعر » أو من الجنس الذي ألفوه ، لم تَزُل أطماعهم عنه ، ولم يُدهشوا عند وروده عليهم ، فكيف وقد أمهلهم ، وفسحَ لهم في الوقت ، وكان يدعو إليه سنين كثيرة . وقال عزَّ من قائل : ﴿ **أَوَ لَمْ نُعَمِّركم ما يتذكرُ فيه**

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٤٣ ـ ٤٤ وروح المعاني : جـ ٩ ص ١٧٧ .

من تَذَكَّرَ وجاءكُمُ النذير ﴾(1) .

وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدي بانَ أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لا يقدرون عليه .

وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يُباينُ عادَتَها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم ، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن ، وهذا في البلغاء منهم دون المتأخرين في الصنعة)(2) .

٢ ـ الطبيعة البشرية تجبرهم على معارضته لو كانوا قادرين :

ومما يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن ، أن الله قد جعله دليلاً على صدق نبيه محمد ﷺ ، فتحدى به العرب قاطبة أن يأتوا بسورة من مثله ، فانقطعوا دونه . وقد أقام على تحديهم نحو عشرين سنة معلناً عليهم النكير زارياً على أديانهم مسفهاً آراءهم وأحلامهم . فلو كان بوسعهم قول مثله لقالوه ، **فإن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما يقدر عليه من الوسائل والأحابيل ، لا سيما إذا بدهه بعظائم الأمور من خلع آلهته وتضليل آبائه وتسفيه رأيه في معتقده وإظهار ما يوجب الانقياد لطاعته وضمه إلى زمرة الاتباع بعد أن كان متبوعاً وإدخاله في تكاليف شاقة وعبادات تخالف أهواء النفس** . فإنهم لو كانوا قادرين على معارضته لم يجز ـ بمقتضى الطبيعة البشرية ـ أن يتفق منهم ترك المعارضة مع بلوغهم ذروة الفصاحة والذَرابة والذلاقة وفيهم الشعراء المفلقون والخطباء المصاقع . **وهو يشيد فيما يتلوه عليهم بعظيم شأنه وتفخيم** أمره كقوله : **﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالروحِ من أمرِهِ على مَنْ يشاء من عبادِهِ أنْ أنذروا أنه لا إلـه إلَّا أنا فاتقون ﴾(3) ﴿ ولقد آتيناكَ سبعاً من المثاني والقرآنِ**

---

(1) سورة فاطر : ٣٧ .

(2) إعجاز القرآن : ص ٢٨٩ .

(3) سورة النحل : ٢ .

العظيم ﴾[1] ﴿ وإنه لَذِكرٌ لـك ولِقومـكَ وسوف تُسـألون ﴾[2] وقـوله : ﴿ الله نزَّل أحسنَ الحديثِ كتـاباً متشـابهاً مثـانيَ تقشَعِرُّ منـه جلودُ الذين يخشـوْنَ ربَّهم ثم تلينُ جلودُهُم وقلوبُهم إلى ذكـرِ الله ، ذلـك هـدى اللهِ يهدي به من يشاءُ ، ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لـه من هادٍ ﴾[3] وقـوله : ﴿ إنَّـا نحنُ نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[4] .

ونحو ذلك في القرآن كثير .

ويستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته ومجاراتـه ، ويقرعهم ويؤنبهم ويكرر تحديهم وإعلان عجزهم منفـردين ومستنصرين بـآلهتهم وبلغائهم بل بالإنس والجن جميعاً ﴿ قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يـأتـوا بمثـلِ هـذا القـرآنِ لا يـأتـون بمثلِهِ ولـو كـان بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾[5] .

قال الإمام عبد القاهر الجرجـاني رحمه الله : (أمـا الأحوال « أي أحوال العرب بعد التحدي بالقرآن » فـدلت من حيث كان المتعـارف من عـادات النـاس التي لا تختلف وطبـائعهم التي لا تتبـدل أن لا يسلّمـوا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيـلاً إلى دفعها ولا ينتحلون العجـز

---

(١) سورة الحجر : ٨٧ .

(٢) سورة الزخرف : ٤٤ .

(٣) سورة الزمر : ٢٣ ، والمراد من قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ فاتحة الكتـاب ، فإن آيـاتها سبع . وسميت المثاني لأنها تثنى في كل صلاة بقراءتها، أو لأن فيها ثناء على الله تعالى. والمراد من قوله : ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ يشبـه بعضه بعضـاً في فصاحتـه وبلاغتـه ؛ ونظمه وإعجازه ؛ وجلالة معانيه وأحكامه ؛ وروعة هدايته وحكمته . وهو « مثاني » يعني تثنى وتكرر فيه القصص والمواعظ والأمثال والأحكام والوعد والوعيد ، وتثنى تلاوته فلا يمل على كثرة الترداد . و ﴿ تقشعر منه جلود . . . ﴾ تعلوها قشعريرة ورعدة خوفاً مما فيه من الوعيد . وفي التعبير كناية عن شدة خوفهم من الله تعالى .

(٤) سورة الحجر: ٩ .

(٥) سورة الإسراء : ٨٨ .

وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم . كيف وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الاقليم الذي هو فيه من يَبْأى[1] بنفسه ، ويُدِل بشعر يقوله أو خطبة يقوم بها أو رسالة يعملها ، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يُظهر ما عنده من الفضل ، ويبذل ما لديه من المنة ، حتى أنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل وبنوع من التمحل . هذا وهو لم ير هذا الإنسان قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ويهيج على تلك المعارضة ، ويدعو إلى ذلك التعرض ، وإن كان المدعي ذلك بمرأى منه ومسمع كان ذلك أدعى له إلى مباراته وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه ، أو انه منه أفضل . فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مماتنته ويحركه لمقاولته ، فذلك الذي يسهر ليله ويسلبه القرار ، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه ، ويبلغ أقصى الحد في مناقضته . وقد عرفتَ قصة جرير والفرزدق ، وكل شاعرَيْن جمعهما عصر ، ثم عرض بينهما ما يهيج على المقاولة ، ويدعو إلى المفاخرة والمنافرة ، كيف جَدَّ كل واحد منهما في مغالبة الآخر وكيف جعل ذلك همه وكده وقصر عليه دهره . هذا وليس به ولا يخشى إلَّا أن يُقضى لصاحبه بأنه أشعرُ منه ، وأنَّ خاطره أحدُّ وقوافيه أشرد ، لا ينازعه ملكاً ولا يفتات عليه بغلبته له حقاً ، ولا يلزمه به أتاوة ولا يضرب عليه ضريبة[2] .

(وإذا كان هذا واجباً بين نفسين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلَّا ما يجري على الألسن من ذكره بالفضل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ؛ وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبية والهمم العلية والأنفة والحمية ؛ من يدَّعي النبوةَ ويُخبِر أنه مبعوث من الله تعالى إلى

---

(١) يبأى : يفخر ويباهي .

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز « الرسالة الشافية ـ للجرجاني » ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

الخلق كافة وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعة تقدمته ودين دان به الناس شرقاً وغرَباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدع به ﷺ ، ثم يقول : وحُجتي أن الله تعالى قد أنزل عليَّ كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ، إلَّا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ؛ ولا بسورة واحدة ، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس ، ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سَرفه في دعواه ، مع إمكان ذلك ومع أنهم لم يسمعوا إلَّا ما عندهم مثله وقريب منه ؟)[1] .

٣ ـ القادر على المعارضة لا يرضى بمخاطر الحروب بديلاً عنها :

ألا ترى أنهم كانوا يفاخر شعراؤهم بعضهم بعضاً ، فكانوا يتنافسون ويتبجحون ويتفاخرون بينهم ، ولهم في ذلك مواقف معروفة وآثار منقولة مشهورة . فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه لو كانوا قادرين على تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ؟ وقد توفر لحملهم على هذا كل الدواعي الملزمة ، والحمية حميتهم والهمم الكبيرة العالية هممهم !! ومعلوم أنهم لو استطاعوا أن يعارضوه بمثل القرآن لكان فيه تكذيب قوله وتوهين أمره ونكوص أصحابه عن دينه وتفريق جمعه . فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة ، وظل أمره يعلو وأزره يشتد وخطره يزداد ، وهم ماكثون على السكوت عن مقارعته والقدح في دلالة آيته ، صار معلوماً أنهم عاجزون عن معارضته وتوهين حجته . **فلو كان ذلك في وسعهم وتحت مقدورهم لما عدلوا عن السهل الدمث من القول إلى ركوب متن كل صعب وذلول وتكلف الوعر المضني من الفعل بخوض غمار الحروب . فهذا ما لا يختاره عاقل بديلاً ولا يرتضيه ذو لب .** وقريش ـ قومه ـ خاصة موصوفون برزانة الاحلام ووفرة العقول والألباب ، ولديهم

---

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز « الرسالة الشافية ـ للجرجاني » ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

من لا يضاهى شعره أو تُبارى خطبه . أيعقل أن يكونوا قادرين على مثله ويعرضوا عن التوصل به إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه !؟ لا جرم أنهم يدركون أن في معارضته غنى لهم عن تكلف القتال وإكثار المراء والجدال والجلاء عن الأوطان وتسليم الأهل والذرية للسبي ؛ وتحكيم السيف في الأعناق حتى أريقت المهج وذهبت الأموال وقُطعت الأرحام . أيعقل أن يعرضوا عن تخليص أنفسهم من ذلك كله بأمر سهل قريب معتاد في لسانهم مألوف في خطابهم لو كانوا عليه قادرين !!؟؟[1] .

بيّن الإمام الجرجاني ذلك ومثّلَ له فقال :

(أم هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة ، ولهم دين ونحلة فيؤلب عليهم الناس ، ويدبر في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبي ذراريهم وأولادهم، وعمدته التي يجد بها السبيل إلى تألف من يتألفه ودعاء من يدعوه ؛ ودعوى له إذا هي أُبطلت بطل أمره كله وانتقض عليه تدبيره ، ثم لا يعرَض له في تلك الدعوى ولا يُشتغل بإبطالها مع إمكان ذلك ومع أنه ليس بمتعذر ولا ممتنع ؟ وهل مَثَلُ هذا إلَّا مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه ، فادعى عليه دعوى ، إنْ هي سُمعتْ كان منها على خطر في ماله ونفسه، فأحضر بينة من دعواه تلك، وعند هذا المدعى عليه ما يبطل تلك البينة أو يعارضها ، وما يحول على الجملة بينه وبين تنفيذ دعواه ، فيدع إظهار ذلك والاحتجاج به ، ويُضرب عنه جملة ، ويدعه وما يريد من إحكام أمره وإتمامه ، ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة وإلى الأخطار بالمهج والنفوس فيطاوله الحرب ، ويقتل فيها أولاده وأعزته ، وينهك

---

(١) للجاحظ في هذا المعنى بيان بليغ أخاذ . انظر الاتقان في علوم القرآن : جـ ٢ ص ١١٧ - ١١٨ .

عشيرته ويغنم أمواله ، ولا يقع في أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضي الذي قضى لخصمه ، ولا إلى القوم الذين سمعوا منه وتصوروه بصورة المحق ، فيقول : لقد كانت عندي - حين ادعى ما ادعى - بينة على فساد دعواه وعلى كذب شهوده ، قد تركتها تهاوناً بأمره أو أنسيتها ، أو منع مانع دون عرضها ، وها هي هذه قد جئتكم بها فانظروا فيها لتعلموا أنكم قد غررتم ؟ **ومعلوم بالضرورة أن هذا الرجل لو كان من المجانين لما صح أن يفعل ذلك[1] ، فكيف بقوم هم أرجح أهل زمانهم عقولاً وأكملهم معرفة وأجزلهم رأياً وأثقبهم بصيرة !؟**)[2] .

ومسألة ترك العرب معارضة القرآن وخوضهم غمار الحروب بديلاً عنها ، قد أوردها الخطابي والرماني[3] على أنها وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم ، وقد أحببت أن أضعها في موضعها الصحيح - كما مر بك - وأنبّه على أنها دليل عظيم يثبت أصل إعجاز القرآن الكريم . وقد أوردها على هذا الأساس الإمام الباقلاني رضي الله عنه[4] . وقد اعتبر الجرجاني[5] - إمام البلاغة - في إثبات إعجاز القرآن نوعين من الأدلة : دلالة أحوال العرب ؛ ودلالة أقوالهم ، كما بيّنا .

٤ - يستحيل ترك معارضته مع توفر الدواعي القوية عليها إلَّا لعجزهم :

هل يجوز في طبع العرب ومجرى عاداتهم ؛ مع احتياجهم واضطرارهم إلى معارضة القرآن؛ أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه وأن

---

(١) اسم الإشارة « ذلك » عائد على قوله « ولا يقع في أثناء تلك الحال . . . » .

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز « الرسالة الشافية للجرجاني » ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ١٩ - ٢٠ والنكت في إعجاز القرآن - للرماني - ص ٦٩ و ١٠١ .

(٤) إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٢٠ - ٢٤ .

(٥) الرسالة الشافية - للجرجاني ص ١٠٨ - ١١١ (توفي سنة ٤٧١ هـ) .

يضربوا عنه الذكر ولا يظفروا فيه لولا عدم القدرة عليه . . ؟ فإن توفر الدواعي والدوافع في الفرد أو الجماعة لعمل شيء هام مع إمكانه وعدم العائق تجاهه يوجب فعله لا محالة .

قال القاضي عبد الجبار رحمة الله عليه : (أما الذي يُعرف به توفر دواعيهم أنّا نعلم أن من قرَّعه غيره بالعجز عن أمر أتى به . . أن ذلك التقريع يحرك طبعه إذا كان عالماً به . فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المقرِّع من قومه وأبناء جنسه ، كانت الدواعي أقوى . فإن كان المقرِّع ممن لم تظهر له تلك الأحوال العظيمة الموجبة للرياسة والنباهة من قبل ، فهو أقوى . فإن انضاف إلى التقريع أنه صرفهم لذلك عن عادات وأغراض من قبل ؛ كان أقوى ، لأنه ﷺ أوجب لمكان القرآن انتقالهم عن العادات في الدين ، لأنه سفّه آلهتهم وطريقتهم في الدين بل سفّه أحلامهم وعقولهم لاقدامهم على ما كانوا يتدينون به . . ونقلهم مع ذلك عن عادات تختص الدنيا ، من رياسات وأحوال كانوا عليها ، وصيَّرهم تبعاً بعد أن كانوا متبوعين ، وألزمهم الكلف على النفس ، والحقوق في المال ، وأبطل رياسة البعض على البعض . . . حتى منع التوارث بين أهل ملتين ، وقطع أحكام الأنساب باختلاف الدين ، وجمع لهم وجوه المذلة بالثبات على طريقتهم ، وعرفهم أنواع العز بالانتقال إلى شريعته . . . وانضاف إلى ذلك ما كانوا يتحققونه ، وتظهر أماراته من نقصان عددهم وزيادة عدده وضعف حالهم وقوة حاله ، لأجل عجزهم عن مساواته . . . وكل ذلك مما يقوي الدواعي . . فلا يمكن أن يقال : أنهم ذهبوا عن ذلك بسهو ؛ وغفلة ؛ ولَبْس ؛ وشبهة)[1] .

ومَثَلُ مشركي العرب في تركهم معارضة القرآن العزيز ؛ مع توفر

(١) المغني « إعجاز القرآن » جـ ١٦ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ . وانظر فيه أيضاً إثبات أحوال العرب عجزهم عن معارضة القرآن ، ص ٢٤٣ و ٢٦٨ و ٢٧١ و ٣٠١ و ٣٣٧ ـ ٣٤٢ .

الدواعي القوية الملحة على مباشرتها ؛ مثل إنسان بلغ به العطش من الشدة مبلغاً خاف منه هلاك نفسه ، وبين يديه ماء معرض للشرب وكله دوافع ملحة تدعوه للشرب منه درءاً لخطر الهلاك . فإن لم يشربه دل ذلك على عجزه عنه لعائق قوي مانع من شربه ، فإنه لا يصح في العقل ولا في الواقع أن لا يشربه مع توفر الدواعي وعدم المانع حتى يموت عطشاً . . فذلك مما لا يقع في طبائع عقلاء البشر . . فكذلك توفرت الدوافع القوية عند العرب كافة إلى معارضة القرآن ، فلما لم تقع منهم على الرغم من تفوقهم في ضروب البيان واللسن ، وعدلوا عنها إلى الإخطار بأنفسهم وزراريهم وأموالهم . . دل ذلك على عجزهم عن مثله عجزاً متأصلاً . وهذا بيّن واضح لا يشكل على عاقل[1] .

قال الإمام الجرجاني : (وقد بلغ بهم الغيظُ من مقالته ، ومن الذي ادعاه حداً تركوا معهم أحلامهم الراجحة ، وخرجوا له طاعة عن عقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكل قبيح ، ولقوه بكل أذى ومكروه ، ووقفوا له بكل طريق ، وكادوه وكل من تبعه بضروب المكايدة ، وأرادوهم بأنواع الشر . **وهل سُمع قط بذي عقل ومُسكة استطاع أن يُخرس خصماً له اشتط في دعواه بكلمة يجيبه بها ، فترك ذلك إلى أمور يُسفَّه فيها وينسب معها إلى ضيق الذرع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعوزته الحيلة وعزَّ عليه المخلص** ؟ .

(أم هل عرف في مجرى العادات وفي دواعي النفوس ومبنى الطبائع أن يدع الرجل ذو اللب حجته على خصمه ، فلا يذكرها ولا يفصح بها ولا يُجلي عن وجهها ولا يريه الغلط فيما قال والكذب فيما ادعى ، ولا

---

(١) انظر إعجاز القرآن ـ للباقلاني ص ١٩ ـ ٢٤ وثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص ١٩ ـ ٢٠ من « رسالة بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي » و « النكت في إعجاز القرآن ـ لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ص ٦٩ و ١٠١ » .

يدعي أن ذلك عنده وأنه مستطيع له ، بل يجعل أول جوابه له ومعارضته إياه التسرع إليه والسفه عليه والإقدام على قطع رحمه وعلى الإفراط في أذاه !!؟)[1] .

ثانياً: اعتراف بلغاء العرب بإعجاز القرآن

وقد جاءت مصداق ما قلنا آراء فرسان الفصاحة والبلاغة المتقدمين ، سواءً مَنْ ظل منهم مقيماً على العناد والكفر ومَن خالطتْ منهم بشاشةُ الإيمان قلبَهُ .

١ ـ حقيقة رأي المشركين في القرآن :

تحيَّر المشركون لروعة أسلوب القرآن إذْ لم يسمعوا من قبل له مثيلاً ، **فقد صدر عن سادتهم الفصحاء البلغاء أقوال صريحة على السجية العربية ، تشير إلى علو كعبه** ، مع أنهم مخالفون لرسول الله ﷺ . وإنما بدرت منهم تلك الأقوال إبَّان تفكرهم في القرآن وحيرتهم في جمال نظمه وجلال معناه . فجاء كل **منها اعترافاً عفوياً بريئاً من التكلف** . لذا فهو أدل ما يكون منهم على عرفانهم مكانةَ القرآنِ ؛وإدراكهم رفعة شأنه واستعلاءَه على العبقرية البشرية .

فهذا الوليد بن المغيرة من زعماء المشركين جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لِمَ ؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لِتعرض لما قِبَله ، قال الوليد : قد علمتْ قريش أني أكثرها مالاً . قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له . قال الوليد : وماذا أقول ، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم

---

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز « الرسالة الشافية للجرجاني » ص ١١٠ .

برجز ولا قصيدة مني ، ولا بأشعار الجن ، **والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا** ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ؛ مغدق أسفله ، **وإنه ليعلو وما يُعلى ، وإنه ليحطم ما تحته** . قال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقولَ فيه ، قال : فدعني أفكِّرْ . فلما فكّر قال : هذا سحر يُؤثر ، يَأْثُره[1] عن غيره ، فنزلَتْ :

﴿ ذرني ومَن خلقتُ وحيداً ، وجعلتُ له مالاً ممدوداً ، وبنينَ شهوداً ، ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيدَ . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدَّر فقُتل كيف قدَّر . ثم قُتل كيف قدر . ثم نظرَ ثم عبسَ وبسرَ ، ثم أدبر واستكبر فقال إنْ هذا إلا سحر يُؤْثَرْ ﴾[2] .

فليس اعتراف أبلغ مما صدر عن الوليد بن المغيرة ، فهو على رياسته وتقدمه في العلم بالفصاحة ينزِّه القرآن عن مشابهة شيء من فنون القول الممكنة للعرب . ويجلّي البيان عن رفعة مقامه على هاتيك الأفانين حتى تندحر جميعها دونه : **إنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته** . فما الذي تراه صانعاً بعد أن بهره جلال القرآن وجماله ، وضاق صدره بتفوقه ونفوذه . . . ؟ كان لا بد أن ينسبه إلى أمر يراه العامة عسيراً عليهم ميسوراً لغيرهم ليصرفهم عن الايمان والاذعان ، فقال : **﴿ هذا سحر يؤثر ﴾** كما فعل سلفه فرعون من قبل . وما كان ليقوله لو علم إمكان معارضته . وإذا استقر في علمك أن السحر منبث آنئذ في أرجاء الجزيرة شائع في أهلها ، حُق لك أن تقيم الحجة ، فتسأل : ما الذي منعهم إذن من مثله ؟

---

(١) لتعرض لما قبله : لتنتفع بماله . طلاوة : رونقاً وحسناً . مغدق : كثير الماء . يأثره : ينقله .

(٢) سورة المدثر: ١١ ـ ٢٤ ، والحديث رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وروى الإمام محمد بن إسحاق في كتاب السيرة : أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ في المسجد وحده : يا معشرَ قريش ألا أقومُ إلى محمدٍ فأكلمه وأعرضُ عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحابَ رسول الله ﷺ قد اشتد ساعدهم ، فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث علمت من السِّطة في العشيرة والمكان في النسب . وإنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم ، فرقتَ به جماعتهم وسفهتَ به أحلامهم وعبتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرتَ به من مضى من آبائهم فاسمعْ مني أَعرضْ عليك أموراً تنظرُ فيها لعلك تقبلُ منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليدِ اسمع » قال : يا ابن أخي إنْ كنتَ إنما تُريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإنْ كنتَ تُريدُ به مُلكاً ملكناك علينا ، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رَئِيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « أفَرَغْتَ يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : فاستمع مني ، قال : أفعل. قال: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصِّلت آياتُهُ قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسمعون ﴾**[1] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه فلما سمع عتبة أنصتَ لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنت وذاك » فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم

---

(١) سورة فصلت : ١ ـ ٤ .

لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وَرَاءَكَ يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي **أني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثلَه قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ** ، فإنْ تُصبه العربُ فقد كُفيتموه بغيركم ، وإنْ يظهرْ على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعدَ به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

وقد روى الحافظان البزار وأبو يعلى الحادثةَ نفسها على غير هذا النمط ، غير أن سياق ابن إسحاق أشبه مما عندهما ـ كما قال ابن كثير ـ والله أعلم[١] .

ثبت لك بهذا إعجاز القرآن المجيد بدلالة أقوال مشركي العرب أيضاً ، بعد أن ثبت بدلالة أحوالهم من قبل ، واذكر أنهم تركوا معارضته على الرغم من عنف التحدي واستمراره ، وأن فحولاً من بلغائهم قد آمنوا وأخلصوا ، وأن من أصرَّ على الكفر قد اتضحت له دلائل الإيمان ، لكن كفرانه له أسباب أخرى خارجة عن قيام الأدلة وإعجاز القرآن ؛ وقائمة على التكبر والعناد واتباع الهوى والجهل والتعصب الأعمى .

قال الإمام الباقلاني رحمة الله عليه : (إن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفت أحوالهم : فكانوا بين جاهل وجاحد ؛ وبين كافر نعمة وحاسد ؛ وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات ؛ وحائر عن النظر في الدلالات ؛ وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان ؛ وغاوٍ تحت حبالة الشيطان ومقذوف

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٩٠ ـ ٩١ .

بخذلان الرحمن. وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة.

وهلا جعلتَ بإزاء الكفرة ، مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن إسلامه وكعب بن زهير في صدق إيمانه ، وحسان بن ثابت ، وغيرهم : من الشعراء والخطباء الذين أسلموا ؟

على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر ، أو بحر زاخر)[1] .

٢ ـ عقلاء فصحاء عرفوا إعجاز القرآن فآمنوا به :

وهاكَ أقوالَ أناس كانوا على جاهلية فلامس القرآن شغاف قلوبهم وملك أفئدتهم وعقولهم ، فعرفوا مزيته وإعجازه فقادهم إلى صراط الحق القويم .

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه حديثاً طويلاً عن إسلامه ، وفيه : أن أُنيساً أخا أبي ذر ذهب إلى مكة ثم عاد فقال لأبي ذر : (لقيت رجلاً بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرسلَه . قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر ؛ كاهن ؛ ساحر . وكان أُنيس أحدَ الشعراء . قال أُنيس : لقد سمعتُ قول الكهنة فما هو بقولهم . ولقد وضعتُ قوله على أَقْراءِ الشعر فما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون)[2] .

وإليك تصريح جبير بن مطعم أن سببَ تحول قلبه إلى الإسلام ؛ أنه أصغى إلى تلاوة الرسول سورة الطور في صلاة المغرب .

---

(١) اعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

(٢) صحيح مسلم ـ فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه ـ جـ ٤ ص ١٩٢٠ ـ طبع عيسى البابي الحلبي بمصر . وصحيح البخاري ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب إسلام أبي ذر الغفاري ـ جـ ٤ ص ٢٤١ ـ أما قوله : « على دينك » : أي مثلك يعبد الله . والمراد بقوله : «أقراء الشعر» : طرقه وبحوره ، وبقوله : « فما يلتئم . . أنه شعر » : لا يوافق نسق الشعر .

فقد روى البخاري في صحيحه عن محمد بن جبير عن أبيه قال : (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، وذلك أولُ ما وقر الإيمان في قلبي)[1] .

وكان عمر بن الخطاب في جاهليته أشد الناس عداء للإسلام وأذى للمسلمين فما كان أحد منهم يحلم بإسلامه . فلما استعد ضعفاء الإسلام للهجرة إلى الحبشة . مرَّ عمر بالركب قبل انطلاقه كما روت أم عبد الله زوج عامر بن ربيعة : كان عامر ذاهباً لبعض حاجاتنا إذْ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليَّ وهو على شركه . قالت : وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا . قالت : فقال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله . قالت : فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعلَ الله لنا مخرجاً . قالت فقال : صحبكُم اللهُ ، ورأيتُ له رقة لم أكن أراها . ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا . قالت : فجاءَ عامر بحاجته تلك . فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا . . قال : أطمعت في إسلامه ؟ قالت : قلت : نعم . قال : فلا يسلم الذي رأيتِ حتى يسلم حمار الخطاب . قالت : يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام .

وهذا عمر يمضي في بعض طرق مكة متوشحاً سيفه . فلقيه نُعيم بن عبد الله وكان يكتم إيمانه ، فسأله أين تريدُ يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابيء الذي فرَّق أمر قريش وسَفَّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ، فقال نُعيم : لقد غرتك نفسك . . أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم قال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه .

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي والسير ـ باب (١٢) قبيل باب تسمية من سُمي أهل بدر ـ جـ ٥ ص ٢٠ .

فتحول عمر إلى بيت أخته . وكان خبَّاب بن الأرت يعلمها وزوجها سورة طه من صحيفة معه . فلما سمعوا صوت عمر اختبأ خباب . فلما دخل عمر قال : ما هذه الهينمة التي سمعتُ ؟ قالا له : ما سمعتَ شيئاً قال : بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . وبطش بصهره سعيد ، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فقالا له : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . فلما رأى ما بأخته من الدم ، ندم وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤن آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، فاستحلفته أن يردها سالمة وطلبت إليه أن يغتسل ففعل فلما أخذ الصحيفة قرأ فيها صدر السورة : **﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلَّا تذكرة لمن يخشى تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى . . ﴾** .

ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع ذلك خبَّاب خرج إليه فقال له : يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول :

« اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » فاللهَ الله يا عمر . .

فقال له عمر : فدلَّني يا خبَّاب على محمد حتى آتيه فأُسلم ، فدلَّه فذهب إليه فأعلن إسلامه[1] .

---

(١) وقد تقدمت خلاصة أخرى للقصة عند الحديث عن أخلاقه ﷺ « شجاعته » في كتابي : نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ١٢٤ ـ ١٢٥ . وهي خلاصة ما رواه ابن هشام في السيرة جـ ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٨ . وقد أخرجها أيضاً محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه وأبو نعيم من طريقه ومن طريق أخرى . انظر الإصابة في تمييز أسماء الصحابة لابن حجر العسقلاني في ترجمة عمر بن الخطاب وفاطمة بنت الخطاب .

أرأيتَ كيف اعترف المخالفون من المشركين بسمو مكانة القرآن وكيف أثنى عليه أُناس تحولوا بسببه من الشرك إلى الإسلام بيقين. فإنه لم يصدر ثناء هؤلاء واعتراف أولئك المشركين - حين صدر - إلَّا تنويهاً بأمر يعرفه ذوو الخبرة ، **فهو إخبار عن شيء باد للعيون لا يرسل أحدهم بصره إلَّا رآه** . فقد أطلق كل من القائلين قوله وهو واثق أنه معلوم للجميع . **فليس من منصف بصير بمراتب الفضل في اللغة - مؤمناً كان أم جاحداً - إلَّا وجد نفسه مسوقاً للاعتراف بإعجازه ، شاء أم أبى ، لظهوره عند نظرائه وشدة وضوحه** . لذا فإن أقوالهم دليل بالغ على إعجاز القرآن[1] . وهذا ما دعانا لسردها .

٣ - شهادة الأجانب والنصارى بعظمة القرآن وإعجازه :

إن عدم التمكن من ترجمة أسلوب من الأساليب إلى لغة أخرى مع المحافظة على بلاغة الأصل ليدل على رفعة وسمو مكانة هذا الاسلوب . وقد ذكر الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى أن رجلًا بريطانياً يدعى (محمدمارماديوك بكتل) قد نقل القرآن إلى الإنكليزية ، لكنه قدم القاهرة ليدارس المتقنين للغتين معاً فيما تعثر في أداء معناه . وقد صحح بمساعدتهم ما تذاكروا فيه . ثم لم تزل ترجمته ناقصة ، وقد عقد العزم على تصحيحها مرة ثانية .

أقول : وأعتقد جازماً أنها لو ظلت تصحح إلى الأبد فلن تدرك بلاغة كلام الله العربي المبين إطلاقاً ، وذلك بسببين رئيسيين : قصور فهم الإنسان وعجزه عن هذا الاسلوب البليغ . وقصور اللغة التي ينقل إليها .

وقد اعترف بالعجز عن تحقيق هذا الغرض - قبله - الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسي وقد كلفته وزارتا الخارجية والمعارف

---

(١) الرسالة الشافية للجرجاني « ثلاث رسائل في الاعجاز » ص ١١٤ - ١١٥ .

الفرنسية بترجمة (٦٢) سورة من السور الطوال التي لا تكرار فيها ، ففعل وقال في مقدمة ترجمته الصادرة سنة ١٩٢٦ :

(**أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلَّ وعلا** . فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكـون إلَّا إلّهياً . والحق الواقـع أن أكثر الكُتَّـاب شكاً وارتيـاباً قـد خضعوا لسلطان تأثيره .

وإن سلطانـه على الثلاثمـائة المـلايين المسلمين المنتشـرين على سطح المعمورة لبـالغ الحـد الذي جعـل أجانب « المبشـرين » يعترفـون بالاجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين إلى الآن .

ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثراً جد طريف ، يفيض جزالة في اتساق نسق ؛ مُتجانساً مُسجعاً ، لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية . لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثيـر هذا النثـر البديـع « الذي لم يسمـع بمثله» بلغـة أخرى . وخـاصة الفـرنسية القـاسية الضيقـة « التي لا تتسع للتعبير عن الشعور » . . وزدْ على ذلـك أن اللغة الفـرنسية ومثلهـا جميع اللغـات العصـريـة ليست لغـة دينيـة . ومـا استعملت قط للتعبيـر عن الألوهية)[١] .

وقد خط الشيخ رشيد رضا مقدمة لكتاب إعجاز القرآن ـ لمصطفى صادق الرافعي ـ رحمهما الله تعالى . ووبخ فيها الدعاة إلى العامية الذين يبغون صد المسلمين عن هداية الإسلام وعن الإيمان بإعجاز القرآن . ثم قال :

---

(١) الوحي المحمدي : ص ٢١ ـ ٢٢ .

(فإن مَن أُوتي حظاً من بيان هذه اللغة وفاز بسهم رابح من آدابها حتى استحكمت له ملكة الذوق فيها ، **لا يملكُ أن يدفع عن نفسه عقيدة إعجاز القرآن ببلاغته وفصاحته ؛ وبأسلوبه في نظم عبارته** . وقد صرّح بهذا من أدباء النصرانية المتأخرين الاستاذ جبر ضومط مدرس علوم البلاغة بالجامعة الأمريكانية في كتابه « الخواطر الحسان ») .

وعقب الرافعي على ذلك بقوله : (وصرح لنا بذلك « بإعجاز القرآن » أديب هذه الملة وبليغها الشيخ إبراهيم اليازجي الشهير . وهو أبلغ كاتب أخرجته المسيحية . وقد أشار إلى رأيه ذاك في مقدمة كتابه (نجعة الرائد) . وكذلك سألنا شاعر التاريخ المسيحي الاستاذ خليل مطران ، ولا نعرف من شعراء القوم مَنْ يجاريه فأقرَّ لنا بمثل ما أقرَّ به أستاذه اليازجي ، والأمر بعد إلى العقل « المنصف » ، والعقل « المنصف » ليس له دين إلَّا الحق . والحق واحد لا يتغير)[1] .

أقول : ولهذا نظائر كثيرة فقد أشاد الأديب اللبناني المعاصر مارون عبّود في مقالاته بالقرآن وأعلن اعتقاده بإعجاز القرآن ومحبته محمداً ﷺ كما أعلن عن تسميته ولده محمداً ، **ولا أتصور أديباً متذوقاً حيادي الفكر والنظر يخرج عن الاعتراف بإعجاز القرآن قيد أُنملة** .

وهذا الأديب الشاعر المعاصر نقولا حنا قد تلا القرآن ، فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده ، وزاده إيماناً بالله على إيمانه ، وقذف في أعماق فكره وضميره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز العزيز ، وأنه يسمو على سائر معجزات الأنبياء ، فهو معجزة إلٓهية خالدة تبرهن بنفسها على نفسها . وهكذا أعلن الشاعر إسلامه بأسلوب علمي بارع ، قال نقولا حنا تقدمة لقصيدته الرائعة « من وحي القرآن » :

---

(١) عن وحي القلم ـ بتصرف يسير ص ١٥ ـ ١٦ .

« قرأت القرآن فأذهلني ، وتعمقتُ به ففتنني ، ثم أعدت القراءة فآمنت . . آمنت بالقرآن الإلّهي العظيمَ ، وبالرسول مَنْ حمله . . النبي العربي الكريم ، أما الله فمِن نصرانيتي ورثت إيماني به ، وبالفرقان عظُم هذا الإيمان . . .

وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يديَّ أنظرها وأُحسها كل حين . . هي معجزة لا كبقية المعجزات . . معجزة إلّهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها ، وليست بحاجة لمن يحدّث عنها أو يبشّر بها .

وكان يقول : « وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشرين وشواهد وحجج وبراهين لِحضِّ الخلق على اعتناقها ، إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يثبّت أصولها في القلوب . أما الإسلام فقد غنيَ عن كل ذلك بالقرآن . فهو أعلم معلم وأهدى مبشر ، وهو أصدق شاهداً وأبلغ حجة وأدمغ برهاناً . . . هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلي ، المنظورة المحسوسة في كل زمان . . . ومن إيماني العميق هذا استلهمت أبيات قصيدتي هذه »[1] .

وذكر في قصيدته ثبوت نبوة محمد ﷺ بمعجزات كثيرة أجلّها القرآن :

يقولون ما آياته ، ضلَّ سعيهم	وآياته ـ ليستْ تُعدُّ ـ عظام[2]
كفى معجز الفرقان للناس آية	علا وسما كالنجم ليس يُرام
فكل بليغ عنده ظل صامتاً	كأنّ على الأفواه صُرَّ كمامُ[3]

(١) من وحي القرآن ـ نقولا حنا ص ١ .

(٢) « ليست تعد » جملة معترضة بين المبتدأ « آياته » والخبر « عظام » . والمراد : إن آيات النبي عظام أي معجزاته عظيمة جداً وكثيرة لا يحيط بها العد والاحصاء .

(٣) الصر : الشد أو الربط . الكمام : ما يكم به فم البعير لئلا يأكل أو يعض .

كفى نصـــره فـرداً تعــاديــه أمــةٌ   وَمَنْ ينصرِ الرحمنُ كيف يُضام[1]؟
وشـاء إلهُ العـرش بالنـاس رحمـة   وأن يتــلاشى حقــدهم وخصــام
ففـرَّق مـا بين الضـلالـة والهـدىٰ   بفــرقــانِ نــور لم يَشُبْــهُ قـتــام
أتــاهم بقـرآن الســلام رسـولُــه   فـطافَ بـأرجـاء البـلاد ســلام
كتـابُ هـدىً لا ريب فيـه مشـرِّع   وللسلم والـعمـران فيــه دِعــام
مـفـصَّـلـةٌ آيـاتُــه عــربـيــة   فِصــاحٌ بهـا عِــزُّ البيــان عــظام
تــلا كتبَ التنـزيــل لكنْ مكمـلاً   فـذي أولُ التشـريـع وهـو ختــام
فصيــح بليــغ نُــطقــه وبيــانــه   قــريــبٌ بعيــدٌ فـهـمُــهُ ومــرام
تنـزَّه عن هجر فمـا اللفظ فـاحش   ولا فيــه بهـتــان وليس يُــذام[2]
تجـاوب أصـداء التــلاوة في قُبـا   فشُق لهـا في المشـرقين إمــام[3]

ثالثاً: محاولات سخيفة فضحت عجزهم عن مجاراة القرآن:

انبرى باندفاع قـوي مسيلمة الكـذّاب لمعارضـة القرآن وألقى على الملأ كلاماً زعم أنه قرآن منزل فإذا هو أخس من أن يشتغل به مشتغل، أو يفكر فيه عاقل. إنما نقل منه طرفاً ليعجب الناظر كيف أضل على ركاكته أقواماً اشتملهم ميـدان جهل فسيـح. فتبعوه تلبيـة للعصبية الجـاهلية ولا نطيل عليـك ـ أيها القـارىء ـ خشية أن يُبهظ ثقـل سخفه كـاهلك. لقد قال: (والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض إنه لعجب محض، وقد حرم المذق فما لكم لا تجتمعون!).

وقـال: (ضفدعُ بنت ضفـدعين نقي ما تنقين، أعـلاك في الماء وأسفلك في الـطين، لا الشارب تمنعين ولا المـاء تكدرين. لنـا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكنَّ قريشاً قوم يعتدون).

---

(١) من وحي القرآن: ص ٥ ـ ٦.   (٢) يذام: يعاب.
(٣) إمام: طريق. انظر من وحي القرآن: ص ٨.

وكان يقول : (والمبديات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالةً وسمناً ؛ لقد فُضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المَدَر ، ريفكم فامنعوه ، والمعترَّ فآووه ، والباغي فناوئوه) .

وجرتْ بينه وبين سجاح مساجلة من ذلك النوع نضرب عنها الذكر وفاء بوعدنا .

روى الخطابي بإسناده (أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين ، فتوفي رسول الله ﷺ ، وعمرو ثَمَّ . قال عمرو : فأقبلتُ حتى مررتُ على مسيلمة فأعطاني الأمان . ثم قال : إن محمداً أُرسل في جسيم الأمور وأُرسلتُ في المحقَّرات . فقلت : اعرضْ عليَّ ما تقول . فقال : يا ضفدعُ نقي فإنك نِعمَ ما تنقين . لا وارداً تُنفرين ولا ماءً تُكدرين ، يا وبرُ يا وبرُ ، يدانِ وصدر ، وسائرك حضر[1] نفر) .

ثم أتى أُناس يختصمون إليه في نخل قطعها بعضهم لبعض ، فتسجَّى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال : (والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ما جاء بنو أبي مسلم من مُحرَّم) ثم تسجَّى الثانية فقال : (والليل الدامس ، والذئب الهامس ما حرمته رطباً إلاَّ كحرمته يابس قدموا فلا أرى عليكم فيما صنعتم شيئاً) . قال : **قال عمرو : أما والله إنك تعلم وإنا لنعلم أنك من الكاذبين** . فتوعدني .

وقَدِمَ قومٌ من ربيعة على أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، فسألهم عن كذابهم ، فحكوا له بعض تلك الألفاظ . فقال أبو بكر رضي الله عنه :

---

(١) كذا في الأصل . لكن الشيخ عبد الله صديق قد علق عليه في تحقيقه رسالة الخطابي ص ٧٦ بترجيح ما وقف عليه في تفسير ابن كثير بأن أصل العبارة هكذا : « وسيرك حفر ونقر » أما في طبعة دار الشعب لتفسير ابن كثير فقد اضطربت العبارة في موضعي ورودها (٤/ ١٩٢ و٨/ ٤٩٩) فلا يظهر للباحث ضبطها في الأصل !! .

(سبحان الله ! ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن إلٍّ « يعني عن ربوبية » فأين كان يذهب بكم !؟) .

وبعد : فهل يخالج أحداً شكٌّ في ضلال هذا المدعي وتهافت برهانه ودليله ! فأي بلاغة في هذا الكلام ؟ وأي حكمة فيه ؟ وهل يتوهم ذو لُب أن فيه معارضة للقرآن أو مباراة له على وجه من الوجوه ؟ كيف وقد صرّح الدعيُّ - وهو أعلم بنفسه وبمستوى دعوته وأقواله - أنه أُرسل في المحقَّرات . .؟ وليس أحقر ولا أقل مما صدر عنه . ولولا العصبية والحمية القبيلة الهوجاء لما تبعه أحد من قومه ، فإنه لا يشتبه على عاقل سخف كلامه ، غير أنهم أرادوا بمتابعته منافسة قريش في زعامة الجزيرة العربية[1] ، حتى قالوا : (كذاب ربيعةَ أحبُ إلينا من صادق مضر) . لذا **فإن العرب لم يحتجوا به ولا بكلام أضرابه في معارضة القرآن ولم يأبهوا له ، لعلمهم أنه سخيف الأسلوب مضطرب النسج ، مبتذل المعنى ، لا ينهض ولا يتماسك .**

فلأن يبذل عربي قُح فصيح في صلب الجزيرة محاولة المعارضة فيبوء بالإخفاق الذريع المزري ، لهو دليل على البون الشاسع بين مستوى بلاغة القرآن والمستوى الذي يتسع له طوق البشر . ولو آنَسَ فصحاء العربية آنئذ في أنفسهم قدرة على مضاهاة القرآن ، لافترضوا وجود هذا الدعيّ ، ولأمدّوه بحصيلة قرائحهم ، ليتمكنوا بذلك من هزم عدوهم ، الذي أَرَّق ليلهم وأقضَّ مضاجعهم ، ولكن عرف كل من فصحاء القوم حَدَّه فوقف عنده .

قال الخطابي : (وإذا أنتَ وقفتَ على شروط المعارضات ورسومها ؛ وتبيَّنتَ مذاهبها ووجوهها ؛ علمتَ أنَّ القومَ لم يصنعوا في

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ١٥٦ - ١٥٨ ورسالة بيان إعجاز القرآن - للخطابي « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص ٥١ - ٥٢ » .

معارضة القرآن شيئاً ، ولم يأتوا من أحكامها بشيء بتة . والأمر في ذلك بيّن واضح ، لا يخفى على ذي مُسكة ذكي والحمد لله)[1] .

رابعاً: خلود إعجاز القرآن إلى الأبد:

ثبت من غير امتراء عجز أهل العصر الأول عن الاتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه . ومضى وجه دلالته ظاهراً في إثبات نبوة محمد ﷺ . لكن رُبَّ سائل يسأل : هل يعجز الناس في الأعصر التالية عن معارضة القرآن ؟ .

والإجابة عن هذا تتخذ عندي طريقين سديدين :

أولاهما : أننا علمنا يقيناً عجز البلغاء في عصر البعثة المحمدية عن معارضة القرآن بسورة من مثله . وهذا كاف في الدلالة على أن من بعدهم أعجز ، ذلك أن الأوائل كانوا يفتنون في مصارف القول حتى حازوا قصب السبق ، فلم يبق مجال لمن بعدهم للتفوق عليهم في الفصاحة والبلاغة ، وأحسنُ أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم ، أما التقدمُ عليهم فأمر لم يعهدوه في أنفسهم وهم أدرى ببضاعتهم . فإذا وجدناهم يقرّون بأن الأصل والقدوة في البيان وبلاغة الكلم هم العرب الأوائل ، وأنَّ مَن عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يُدَّعى للمتأخرين عن زمان النبي ﷺ من خطباء وبلغاء وشعراء أنهم زادوا على الأولين الذين عاصروا نزول القرآن ، وكانوا أول من قرَّعهم بالتحدي . فإن القوم الذين خلفوهم تبرؤوا من ادعاء مداناتهم فضلاً عن الزيادة عليهم !!

وفي هذا يقول خالد بن صفوان : (كيف نُجاريهم وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم !؟) .

---

(١) بيان إعجاز القرآن ـ للخطابي ـ ثلاث رسائل : ص ٦٠ .

ويرى الجاحظ للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة . ويناظر في ذلك الشعوبية ويُجهِّلهم ويُسفه أحلامهم لإنكارهم ذلك ، ويحكم عليهم بالشقوة والتهالك في العصبية العمياء . . ثم يقول :

(ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت ، الذي **لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلَّا في اليسير والشيء والقليل**)[1] .

وهذا أظهر من أن يخفى وفيه غنى للعاقل وكفاية ، فلا ينكره إلَّا جاهل أو معاند .

ثانيتهما : أن القرآن معجزة باقية على الزمن ، فالتحدي بها باق على الزمن لذا ورد التحدي عامّاً لم يخص أهل العصر الأول دون غيرهم ، بل تحدى أهل كل عصر كما تحداهم . فالتحدي بالقرآن يُلزم أهل كل زمان ومكان. قال تعالى : **﴿قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**[2] .

وبناء عليه ، فإن التحدي للكل على درجة واحدة ، والتنافس قائم في الطباع على حد سواء . كما رأينا سكوتَ أهل العصر عن المعارضةِ ودلائلَ أحوالهم وأقوالهم على عجزهم ، **فقد علمنا أيضاً سكوت أهل**

---

(١) الرسالة الشافية ـ للجرجاني « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » : ص ١٠٧ ـ ١٠٨ و ١٢٥ .

(٢) سورة الإسراء : ٨٨ .

الأعصر المتعاقبة بعدهم ومزيداً من دلائل الأحوال والأقوال على عجزهم . وبذلك ظهرت المعجزة قاهرة والحجة بينة والنبوة المحمدية ثابتة شامخة[1] .

أما المقام الذي يلتمس فيه الباحث إعجاز القرآن البياني ، فهو منوط بمدى براعته في الصناعة العربية . فمن كان بليغاً تناهى في معرفة اللسان العربي عالماً بطرق الفصاحة ومذاهب البلاغة فقد عرف بذلك القدرَ الذي يبلغه وسعُ المتكلم من الخلائق ، وعرف ما يتجاوز حدود قدرتهم ، ويخرج عن وسعهم ، وميَّز بينهما تمييز الصيرفي بين أنواع النقود ؛ والبزاز بين الجيد والرديء من الثياب . فإذا نظر مثل هذا في القرآن علم إعجازه وأدرك قصوره عنه ، وأن حاله وحال غيره من البلغاء في هذا الباب سواء . فصار في ظهور الدليل له كمن رأى اليدَ تخرج من الجيب بيضاء من غير سوء ؛ والماءَ ينبجس من بين الأصابع فيروي المئات من الناس[2] . وهذا ما حمل أحد فحول الشعر الجاهلي وهو لبيد بن ربيعة على الإيمان وهجران الشعر ، وأن يقول : (أبدلني الله بالشعر سورة « البقرة » و « آل عمران »)[3] .

وعندي أن من حصَّل ثقافة لغوية مناسبة من أهل زماننا أمكنه معرفة إعجاز القرآن بمطالعةِ الكتب التي عرضت لشرحه ؛ وبدراسةِ المقارنات. البلاغية المعقودة لبيان سعة الشقة بين سمو القرآن وتدني غيره عن رتبته . فبذل الجهد العلمي وإرهافُ التذوق وإنعام النظر يعينه على معرفة الإعجاز والطمأنينة إليه .

---

(١) إعجاز القرآن ـ للباقلاني ص ٨ و ٢٥٠ والرسالة الشافية للجرجاني « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » ص ١٠٧ ـ ١٠٨ و ١٢٥ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٢٥ ، ١١٣ و ٢٥١ ـ ٢٥٣ .

(٣) انظر ترجمته في : الإصابة لابن حجر ؛ وفي : الاستيعاب لابن عبد البر .

أما الأعجمي أو الذي يُلم بالعربية إلماماً بسيطاً من أهلها فإنه يعلم إعجازه بمعرفة عجز فصحاء العرب قديماً وحديثاً عنه . وهذا أمر معروف تتناقله الأجيال . بل مجرد إطلاعه على سكوت القوم كافٍ في توجه الدليل إليه وقيام الحجة عليه . فإذا اطلع على شهادة الخبراء من الأصدقاء والأعداء فقد بلغ الغايةَ في معرفةِ الدليلِ ولزوم الحجة .

وإذا لم تَـرَ الهـلال فَسَلِّمْ لأُنـاس رأوهُ بـالأبـصـار

قال العلّامة المراكشي : (فعلى إعجازه دليل إجمالي : وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها ؛ فغيرها أحرى ، ودليل تفصيلي : مقدمته التفكر في خواص تركيبه ، ونتيجته العلم بأنه تنزيل من المحيط بكل شيء علماً)[١] .

خامساً: دلالة إعجاز القرآن العظيم على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلّم:

إن القرآن دعا الناس إلى الإيمان بالله ورسالته . وتحدى الخلائق أن يأتوا بمثله ، فثبت عجزهم على نحو يفضح قصور القدرة البشرية عن الاتيان بمثله أبداً . فإذا كان الخلق لا يقدرون عليه فقد ثبت أن الذي أتى به غيرهم ، وإنما اختص بالقدرة عليه ربهم الذي اختص بالقدرة عليهم فهو صدق محض لم يتضمن إلا الحق الخالص ، ولم يخص الله محمداً بتنزيله عليه من سائر الناس إلا تدليلاً على أنه رسوله الصادق الذي أرسله إلى خلقه .

فمن كان يعرف وجوه الخطاب ، ويفتن في مصارف الكلام العربي مدركاً أصول فصاحته وبلاغته ، ثم أقيمت عليه الحجة بالقرآن ، فقيل

---

(١) الاتقان : جـ٢ ص ١١٩ .

له : إن الدليل على رسالة محمد ﷺ وإلٓهية دين الإسلام هـذه الآيات أو تلك من كتاب الله ، كان ذلك غاية في إيجاب الحجة عليه وإلزامه المصير إليه ، يؤكد هذا أن النبي ﷺ قد دعـا الآحاد إلى الإسـلام محتجاً عليهم بالقرآن[1] ، فلما رآهم يعلمون إعجازه ألزمهم حكمه فقبِلوه ، فآمنوا بالله ورسوله وكتابه ، ولم يَشكُّوا في صدقه ولم يرتابوا في وجه دلالته ، فدخلوا الإسلام على بصيرة من أمرهم . ذلك أن كـل عاقـل يعلم من نفسه ومن مواقف الفصحاء والبلغاء أن القرآن معجز للبشر . فهو من خالقهم تبـارك وتعالى ، وحاشاه ـ وهو الحكيم العليم ـ أن يُنزله على من يدعي النبوة أو يتزيد فيها كاذباً ، فهو سبحـانه متعـالٍ منزه عن الافسـاد ، قال تعـالى : **﴿ ولو تقوَّلَ علينا بعضَ الأقاويلِ لأخذنا منه باليمين ثم لَقَطعنا منه الوتينَ فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾**[2] .

وقد أورد الله التصريح بإعجاز القرآن كدليل على صحة رسالة محمد ﷺ إذ لفت النظر إلى دلائل ربوبيته ووحـدانيته أولاً ، فقـال جلّ شـأنه : **﴿ يـا أيها النـاسُ اعبـدوا ربَّكم الـذي خلقكم والـذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكمُ الأرضَ فراشاً والسماءَ بناءً وأنزل من السماءِ ماءً فـأخـرجَ بـه من الثمـراتِ رزقـاً لكم فـلا تجعلوا للهِ أنـداداً وأنـتم تعلمون ﴾**[3] . فأضحى المقام يستدعي بإلحاح إثبات النبوة فأعقب ذلك تباركت أسماؤه بقوله : **﴿ وإنْ كنتم في رَيْبٍ مما نزَّلنا على عبدنـا فأْتـوا**

---

(١) قال القاضي عبد الجبار : « كان ﷺ ، ربما اقتصر فيمن يرد عليه من الوفود على أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن وربما كان يحتاج إلى إظهار معجز غيـره وربما يكـرر قراءة القـرآن عليهم وذلك لأنهم أو أكثرهم وإن كانوا بالإدراك والسماع يعرفون بالمزية ، فقد كان فيهم من سبق إلى الشبهة كما أن فيهم من يقصر في المعرفة عن غيره وفيهم المعاند ، فبحسب ذلك قد كان ﷺ يحتاج في كل منهم إلى ما هو أخص به وفيه أوقع » المغني : ١٦ : ٢٠٥ .

(٢) سورة الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧ .

(٣) سورة البقرة : ٢١ ـ ٢٢ .

بسورة من مثلِهِ وادعوا شهداءَكم من دونِ اللهِ إن كنتم صادقين ﴾[1] .
فساق الآية في بيان إعجاز القرآن الكريم من أجل إثبات نبوة محمد ﷺ وصدقه وصحة الدين الذي جاء به من عند الله[2] .

وأما الذي لم يسبر أغوار اللغة العربية ولم يتقن فنونها فإنه ـ أياً كان عصره ـ إنما تثبت عنده نبوة محمد ﷺ ، ويلزمه الإيمان به بمجرد تيقنه من عجز أهل الصنعة عن معارضته[3] ، لأنه يعلم بهذا أن القرآن معجز للبشر قطعاً . ذلك أنه إذا سمع التحدي بالقرآن يتكرر في أمد متطاول مع التقريع والتبكيت والازعاج والاحراج ، ثم رأى أهل هذا اللسان مخالفين ومتابعين قد عجزوا عنه بأجمعهم ، فقد صار في معرفة إعجاز القرآن معهم بمنزلة سواء ، وأيقن كل من الفريقين أن القرآن قد أتاهم بطريقة فذّة خارجة عن العادة ، تفوت قوى البشر وتتجاوز ما تتسع له طاقة المخلوقين . وثبت لهم بذلك أن دلالة القرآن كدلالة كل معجزة قعد الناس عن مثلها . فكانوا بهذا كمن رأى اليد تخرج بيضاء من غير سوء ، والعصا تنقلب أفعى عظيمة تلقف إفك السحرة ، والبحر ينفلق عن قاعه حتى يجتازه مشياً حشدٌ من الناس كبير[4] .

وقد تواترت أنباء عجز العرب عن معارضة القرآن وقامت دلائله واتضح وضوح الشمس في رابعة النهار مما يبث في أرجاء الفؤاد برد اليقين بعظمة هذا الدين وصدق نبيه الأمين محمد ﷺ .

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ .
(٢) انظر روح المعاني : جـ ١ ص ١٧٧ .
(٣) قال القاضي عبد الجبار : (الاستدلال بحال من تقدم من أهل المعرفة للغة يقوم مقام المستمع) المغني جـ ١٦ ص ٢٠٤ .
(٤) إعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ والنكت ـ للرماني « ثلاث رسائل في الإعجاز : ص ١٠٣ » .

قـال الإمامِ البـاقلاني رحمـه الله : (والقرآنُ كتـابٌ دلَّ على صدق متحمِّله ، ورسالةٌ دلت على صحة قول المرسل بها . . حيَّرهم فيه إذْ كان من جنس القول الذي زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية ، فعرفوا عجزهم، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج ، والوصـول إلى أعلى مراتب الـطب . فجاءهم بمـا بهرهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت مـا دققوا فيـه من سحـرهم وأتَتْ على مـا أجمعـوا عليـه من أمرهم ، وكما سخّر لسليمان الريح ، والطير والجن ، حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة وبدائع اللطف . **ثم كانت هذه المعجزة « القرآن » مما يقف عليهـا الأول والآخـر وقـوفـاً واحـداً ، ويبقى حكمهـا إلى يـوم القيامة**)[1] .

(١) إعجاز القرآن ـ للباقلاني ـ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

البَابُ الثَّالِثُ
بيَانُ إعجَازِ القُرآنِ العَظِيمِ

الفصل الأول : مصدر إعجاز القرآن العظيم ومذهب الصَّرْفة .

الفصل الثاني : الإعجاز الذاتي للقرآن العظيم .

الفصل الثالث : نقض مزاعم المستشرقين .

الفصل الرابع : آثار القرآن المجيد في اللغة والأدب والبلاغة والنقد .



الفَصْلُ الأوّلُ

مَصدر إعجاز القُرآن العَظيم ومَذهب الصرفة

- القول بالصَّرفة .
- دلالة القرآن المبين على أن إعجازه قائم فيه .
- دلائل أخرى تنفي القول بالصرفة .
- تحقيق رأي الجاحظ .
- رأي الرماني ونقاشه .

اتضح لك أن القرآن الكريم معجزات كثيرة يعاضد بعضها بعضاً . وقد سلك العلماء في بيان وجوه إعجازه مسالك عديدة واتجهوا في البحث عنها وجهات مختلفة . لذا وجب علينا أن نبحث أولاً عن المصدر الذي ينبعث منه إعجاز القرآن ، لنقرر الوجهة السليمة في البحث عن أوجه إعجازه . يجب أن نقرر ما إذا كان إعجاز القرآن الكريم قائماً بأمر خارج عنه أم هو وصف منبعث من ذات القرآن نابع مما انفرد به من خصائص ومزايا ؟؟

لقد ذهب بعضُ العلماء إلى اعتبار الاعجاز أمراً خارجاً عن ذات القرآن ، وهم أصحاب القول بالصَّرفة . **وقد أجمع العلماء سلفاً وخلفاً على أن القرآنَ معجزٌ بذاته لا بسبب خارج عنه ، وقد اجتهدوا غاية الاجتهاد في تحديد أوجه اعجازه** . فلنستعرض كلا المذهبين ، فنورد القول بالصرفة ونناقشه في ضوء آيات القرآن المبين ؛ ثم في ظلال صفات المعجزة وسمات الأدب العربي وحقائق تاريخه . . وننتقل في الفصل التالي إلى دراسة المذهب الذي أجمعتْ عليه الأمة الإسلامية سلفاً وخلفاً ، وقامت عليه الدلائل اليقينية الباهرة ، وقد أسميناه : « **مذهب الإعجاز الذاتي للقرآن العظيم** » .

القـول بالصَّـرفـة

وأستهلُّ الحديث عن الصَّرفة بتعريفها لغة واصطلاحاً ، إذْ لم أجد أحداً من الباحثين فعل ذلك .

الصَّرف : ردُّ الشيء عن وجهه ، صَرَفَه يَصْرِفه صـرْفاً فـانْصَرَفَ ، وصارَفَ نفسَه عن الشيء : صرفَها عنه . وقوله تعالى : ﴿ ثم انْصَرَفوا ﴾ أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيـه . وقيل : انصـرفوا عن العمـل بشيء ممـا سمعوا . « صَـرَفَ الله قلوبَهم » أي أضلهمُ اللهُ مجـازاةً على فعلهم . وصَرَفْتُ الرجلَ عني فانْصَرَفَ[١] .

أقول : فالصَّرْفَةُ « على وزن فَعْلَةٌ » اسم للمرة الواحـدة ، كما هـو معلوم لغة .

والصرفة اصطلاحاً : تعني أن الله صرف همم العرب عن معارضة القـرآن وسلب عقـولهم عنهـا وكـانت في مقـدورهم ، لكن عـاقهم أمـر خارجي ، فصار معجزة كسائر المعجزات[٢] .

ذهب إلى هذا القول النظّام من المعتزلـة ونُسب إلى المرتَضى من الشيعة وأبي إسحاق الاسفـراييني من أهل السنـة . وعُزي إلى الجـاحظ أيضاً ، وأدرجه الرماني في جملة من وجـوه إعجاز القـرآن وعدَّه وجهـاً . وسنبحث قول كل منهما بعد على انفراد .

وقصد أصحاب هـذا المذهب أن الله صـرف العرب عن معـارضة القرآن ، وقد كان في قدرتهم أن يعارضوه ويأتوا بمثله ؛ لولا أن الله حال بينهم وبين هـذا الغرض ، فـصـرف هممهم عن منافستـه ومبـاراتـه على

---

(١) انظر لسان العرب : مادة « صرف » .

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن : ٢ : ٩٣ والاتقان في علوم القرآن : ٢ : ١١٨ .

الرغم من شدة الدوافع الداعية لذلك ؛ كالتقريع بالعجز وتسفيه العقول وذم الآلهة والآباء . فصار العائق عن معارضتهم للقرآن أمراً خارجاً عن ذات القرآن ، فحصل بهذا المنع معجزة واحدة كسائر المعجزات . أفاد ذلك قول النظَّام ، وقد أوردناه في معنى الصرفة اصطلاحاً ، وأفاده المرتضى بقوله : « بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم . . التي يُحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن »[1] .

وما كنتُ لأرتضي الإسهاب في نقاش هذا القول لولا أني وجدتُ بعض الدارسين للغة العربية من أهل زماننا يغترون به ويعزونه للجاحظ ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً . . !!

دلالة القرآن على أن إعجازه قائم فيه :

إذا رجعنا إلى المصدر الأصلي الذي أثبت إعجاز القرآن ، وهو القرآن نفسه ، واحتكمنا إليه في هذا ؛ فإنا نجده يُثبت الإعجاز لذات القرآن ، لا للصرف عنه وذلك من أوجه كثيرة نذكر منها :

أولاً : أن كتابَ الله قد تحداهم أن يأتوا بمثله ، كما في قوله : **﴿ قلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾**[2] .

فإن الله تعالى نصَّ على أن الإنس والجن لو اجتمعوا ليعارضوه لم يأتوا بمثله أبداً . فلو كان الإعجاز بالصرفة لقيل : « لو اجتمعوا لما انعقدت لهم عزيمة على الاتيان بمثله أو لو اجتمعوا لما اتجهتْ هممهم ولا همَّة واحد منهم إلى هذا الأمر » ولم يرد مثل ذلك بحال . وإنما نص القرآن على أنهم لا يأتون بمثله ولو تضافرت جهودهم وتآزرت مساعيهم ،

---

(١) إعجاز القرآن ـ مصطفى صادق الرافعي ـ ص ١٦٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٨٨ .

فدل على أن التحدي إنما وقع بنفس القرآن وأن الإعجاز قائم في ذاته .
ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإنْ كنتم في رَيْبٍ مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثلِهِ وادعوا شهداءَكم من دون الله إنْ كنتم صادقين . فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتقوا النارَ التي وقودُها الناس والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين** ﴾[1] .

فدلت هذه الآية ونظائرها على أن القرآن معجز بنفسه لمزايا وخصائص استقرت فيه ، تقصر طاقة البشر وقدرتهم عن مضاهاتها . لذلك ورد التحدي بالقرآن ذاته .

ولا يخفى ـ عليك ـ أن الإنسان إذا كان يقدر على عمل شيء لم يصح أن يمنع منه ، ثم يقال له ولنظرائه على سبيل التحدي : قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله أبداً . فلو كان إعجاز القرآن بالصرفة ـ أي بالمنع من معارضته وقد كانت في مقدورهم ـ لقيل لهم في تلك الحال : إن دليل صدقي في دعوتي أنه حيل بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه ومنعتم منه . فالآية حينئذ هي نفس المنع عن المعارضة وليس نفس القرآن ، **بينما تجد أن الله سبحانه قد أورد آيات التحدي بسياق دال يقيناً على أن القرآن هو المتحدى به ، وأنه المعجز لصفات في ذاته ، وليس لصفة خارجة عنه .**

ثانياً : لو كان العجز بالصرفة لكان مقتضى الحكمة إنزال القرآن في مستوى بلاغي قريب المتناول ـ لا في الدرجة القصوى من البلاغة والفصاحة ـ لتظهر عظمة المعجزة في المنع من مثله والصرف عنه . وهذا يخالف ما ورد في القرآن من أوصاف له تشيد بعظمة بيانه وسموه ، فهو الكتاب المبين ؛ والقرآن المجيد ؛ وفيه الآيات البينات ، وهو النور ؛ والنور المبين ؛ والكتاب المنير ؛ وفيه الهدى والنور وشفاء ما في الصدور . . الخ .

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤ .

ثالثاً : ومن الدلائل التي تُثبت إعجاز أسلوب القرآن ما ورد في القرآن نفسه من **الآيات الدالة على قوة تأثيره في النفوس** . وقد بلغ من تأثيره في نفوس الكافرين ما حملهم على التواصي على الاعراض عنه ، كما حكى الله عنهم : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه لعلكم تَغلبون** ﴾[1] فقد نفذَ صبرهم عن الصمود لاستماعه لمبلغ تأثيره فيهم وخشيتهم منه على أتباعهم وأنفسهم .

ووصف الله تأثيره في نفوس المؤمنين فقال : ﴿ **الله نـزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مَثَانيَ تقشعرُ منه جلودُ الذينَ يخشونَ ربهم ثم تلينُ جلودُهُم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله ، ذلكَ هدى اللهِ يهدي به مَنْ يشاءُ ومن يضلل الله فما لهُ مِن هاد** ﴾[2] .

ولا أدلَّ على أن الإعجاز في القرآن نابع من نظمه وذاته من اعتراف البلغاء أنفسهم وممن آمنوا وممن استمروا على الجحود والكفران . فقد أقرّ الوليد بن المغيرة ـ من زعماء الشرك ـ بأن القرآن قول لا يُضاهى وأن ما ظهر قبله وما يظهر بعده فإنه محطَّم عند سفح عظمته . قال الوليد : (فواللهِ ما فيكم رجلٌ أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا . ووالله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنه لمثمرٌ أعلاه مغدقٌ أسفلُه ، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته) .

وإلى هذا السبيل ذهب نِدُّهُ من المشركين عتبة بن ربيعة إذْ قال لقومه :

(إني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قط . والله ما هو بالسحر ولا

---

(١) سورة فصلت : ٢٦ .

(٢) سورة الزمر : ٢٣ .

بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونَن لقوله الذي سمعتُ نبأ . .) .

وما قول أُنيس شقيقِ أبي ذر رضي الله عنهما وقول جُبير بن مطعم عنك ببعيد[1] . ولا يغبْ عنك أنه لو لم يكن الإعجاز نابعاً من ذات القرآن وجهته ـ وليس من حائل خارجي يُمسكهم عن القول إمساكاً ملزماً ـ لما استعظموا القرآنَ هذا الاستظعام ووصفوه بما وصفوه ، غير أنهم أحسوا أنَّ القرآنَ فوقَ ما سمعوا وما يستطيعونه من الكلام روعةً وجلالاً وجمالاً في ألفاظه ومعانيه .

دلائلُ أخرى تنفي القولَ بالصرفة :

ويؤيد استشهادنا بالآيات القرآنية على إبطال القول بالصرفة أدلة كثيرة منها :

أولاً : يلزم من قولهم أن العرب قد صرفوا عن هذا المستوى فحيل بينهم وبينه بحيث لم يُحاولوه قط ؛ أن حالهم في البلاغة والبيان وجودة النظم وشرف اللفظ قد تراجعت ، فنقصتْ قرائحهم وأذهانهم ، وعُدموا كثيراً مما كانوا يستطيعونه . وبالتالي فإنه يلزم منه أيضاً أن أشعارَهم التي قالوها وخطبهم التي قاموا بها وكل تعابيرهم بعد الوحي جاءت قاصرة عما سمع منهم من قبل ، فضاقَ عليهم مجال كان متسعاً ، ونضبتْ مواردهم التي كانت غزيرة ، وخذلتهم قوى كانوا بها يصولون . وبناء عليه فلا بد أن تخرج أشعار شعراء النبي التي امتدحوه بها وندّدوا بالمشركين ناقصة متقاصرة عن شعرهم الجاهلي !؟ وبالتالي فإن التساؤل يدخل على هؤلاء القوم في قول رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت « اهجهم ـ أو هاجهم ـ

(١) ذكرنا الحديثين كاملين قبل فارجع إليهما ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

وجبريل معك »[1] فكيف يكون مؤيداً بعون الله في حين أن الله يُعدمه كثيراً من المواهب والقُدَر التي كان يتمتع بها قبل !؟ .

وينبني على قولهم أن الرسول ﷺ قد تقاصرتْ بلاغَتُهُ أيضاً والذي يحكم به علماء اللغة والأدب ـ وهو حقيقة لا مريةَ فيها ـ أن آداب العرب زمن بعثة محمد ﷺ لم تكن قاصرة عن آداب الجاهلية بحال . بل إن الأمرَ أكثرُ من هذا فقد أمدَّ القرآن العرب بصور من البيان وألوان من البلاغة ، أشرق بها بيانهم وارتقتْ بها بلاغتهم ، وأثمرت ثماراً طيبةً لم يكن للعرب قبل الإسلام بها عهد . فإذا زعم امرؤ بعد هذا أن بلاغة العرب في صدر الإسلام صارت أنزل مما كانت عليه قبله ـ بسبب الصرفة في زعمه ـ كان زعمه في غاية السقوطِ والتهافت ، ولا يُعذر العاقل في اعتقاد كهذا .

ثانياً : إن إجماع المسلمين قد انعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ـ قبل خلاف المخالفين ـ فهذا دال على إجماعهم على أن الاعجاز نابع من ذات القرآن لا من أمرٍ خارج عنه .

ثالثاً : انه خابتْ محاولات بعض الأدعياء لمعارضة القرآن ، كالذي فعله مسيلمة الكذاب وسجاح . وإذا كان كلامهم الذي أتوا به عُرَّةً في جبينهم أبد الدهر وخزياً لهم ؛ فإنه ينفي الصرفة ، لأنها تعني أنهم صرفت هممهم عن معارضة القرآن ! وفي الواقع أن محاولة المعارضة قد

---

(١) رواه الشيخان صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب هجاء المشركين ـ جـ ٧ ص ١٠٩ . وصحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه ـ جـ ٤ ص ١٩٣٣ . وعند غيرهما بلفظ (اهجهم وروح القدس معك) . وفي الصحيحين أيضاً من طريق سعيد بن المسيب قال : (مر عمر بحسان في المسجد وهو ينشد ، فلحظ إليه ، فقال : كنت أنشد وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك الله أسمعت النبي ﷺ يقول : (أجب عني ؛ اللهم أيّده بروح القدس) .
انظر ترجمة حسان في الإصابة والاستيعاب .

حصلت !! فلو كان ثمة صرفة لما أظهر هؤلاء من الكلام ما زعموا أنه معارض للقرآن .

رابعاً : أنهم يوردون علينا استدلالاً على الصرفة : أن العرب بلغاء فصحاء ، وكان بعضهم يُتقن نظم كلمتين بديعتين في جملة كلامية تبلغان طبقة من البلاغة جِدُّ عالية . فلو أن الواحدَ منهم ضم ما جادتْ به القريحة ثانياً إلى الأول وهكذا . . يتكامل له بعد حين قدرُ سورة من القرآن .

والجواب : أَنَّ من قدر على الكلام البليغ العالي ليس لازماً أن يقدر على معارضة أبلغ كلام على الإطلاق . . فإن الأمر يحتاج إلى مَلَكة في هذا المستوى العالي قادرة على السبك المبدع والتنسيق الفائق بحيث تبلغ المستوى القرآني ، وهذا ما يتجاوز وسع المخلوقات . ثم إن التلفيق بين جمل متناثرة ؛ جادتْ بها القرائح في موضوعات ودواعي مختلفة ؛ لا يقدم أسلوباً أدبياً متماسكاً محكماً يرضى عنه الأدباء ، فكيف يسوغ الزعم بأنه معارض للقرآن !؟ .

خامساً: وإذا كان القول بالصرفة قد عُزي للنظام من المعتزلة ، **فليسَ من شكٍ أن من أبلغ الردود لمذهب الصرفة ما ورد على لسان علم من مشاهير المعتزلة وأئمة الاعتزال . وهو جواب القاضي عبد الجبار** لمن زعم : أن الله قد منع العرب من هذا القدر من الفصاحة والبلاغة حين أنزل القرآن . قال رحمه الله :

(فقد كانَ يجبُ أنْ يكونَ قدر القرآن في الفصاحة قدرَ ما جرت به العادة من قبل ، وإنما مُنعوا من مثله في المستقبل ، ولو كان كذلكَ لم يكن المعجز هو القرآن ، لكونه مساوياً لكلامهم ، ولتمكنهم من قبل من فعلِ مثله في قدر الفصاحة . وإنما كان يكون المعجز ما حدث منهم من المنع . **فكان التحدي يجب أن يقع بذلك المنع لا بالقرآن** ، حتى لوْ لم يُنزل الله تعالى القرآن ، ولم يظهر أصلاً ، وجعل دليل نبوته امتناع الكلام

عليهم على الوجه الذي اعتادوه ، لكان وجه الإعجاز لا يختلف . وهذا مما نعلم بطلانه باضطرار ، لأنه عليه السلام تحدى بالقرآن وجعله العمدة في هذا الباب ، على أن ذلك لو صح لم يقدح في صحة نبوته ، لأنه كان يكون بمنزلة أن يقول ﷺ : دلالة نبوتي أني أريد المشي في جهة فيتأتى لي على العادة وتريدون المشي فيتعذر عليكم . فإذا وُجد الأمر كذلك دل على نبوته ، لكون هذا المنع على هذا الوجه ناقضاً للعادة)[1] .

سادساً : على أنهم لو صُرفوا - كما زعم القائلون - فإنَّ مَنْ كان قبلهم من أهلِ الجاهلية لم يخاطبوا بالتحدي ولم يُصرفوا عما يعدل القرآن فصاحةً وبلاغةً وحسنَ نظم وروائع وصف ، فهلا جاؤونا بشيء من أقوالهم يساويه في ذلك ؟ فإذا عجزوا عن استخراج ذلك لعدم وجوده أصلاً ، فقد انكشف أن قولَهم بالصرفة فاضح البطلان[2] .

---

(١) المغني : جـ ١٦ ص ٢١٩ وانظر فيه أيضاً ص ٣٢٢ - ٣٢٨ .

(٢) حكى القرطبي أن بعض أصحاب الصرفة زعموا أن العرب صرفوا عن القدرة على القرآن ولو تعرضوا له لعجزوا عنه . وأن البعض الآخر زعموا أن العرب صرفوا عن التعرض للقرآن مع كونه في مقدورهم ؛ ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه . بمعنى أنهم لم يأتوا بمثله سابقاً ، غير أنه لا يخرج عن حدود قدرتهم لولا أنه حيل بينهم وبين ممارسة ذلك الاقتدار . (انظر الجامع لأحكام القرآن : ١ : ٧٦) .

وهذا - فيما نرى - يجعل المعجزة على نحو مخالف لما عهد من الرسل ، فإنه لم يأت رسول قط إلى قومه فقال : حجتي عليكم وآيتي الدالة على نبوتي أن تمنعوا من أمر لم يكن منكم قط ، وليس يظهر بادي الرأي أنكم تستطيعونه ، لكن يتصور ويحتمل وقوعه منكم لاقتداركم عليه إذا وجهتم إليه كامل اهتمامكم وبذلتم جهدكم وجهد أنصاركم .

ألا ترى أن هذا دليل معقد بارد تنبذه الحكمة الإلّهية الرامية إلى هداية البشر والتسهيل عليهم ورفع الحرج والشبهات عنهم ؟ فإن من حق المعجزة أن تكون في أظهر الأمور ، حتى يستبين لكل راء وسامع أنه عاجز حقاً . فهل يتوفر هذا في المنع من أمر خفي لا يعرف إلَّا بعد طول النظر وعميق التفكير . . ؟ فقولهم بالصرفة على هذا النحو يجعل المعجزة أمراً خفياً لا يعرفها أهل فن العربية إلَّا بعد دقيق النظر وبالتالي فلا يمكن

سابعاً : ومن أهم الأدلة على بطلان القول بالصرفة أن أهل الصنعة البلاغية إذا سمعوا كلاماً يطمعون في مجاراته لم يَخْفَ عليهم ولم يشتبه لديهم ، فلا بد أن يحاولوا مباراته ! كيف وقد تضافرت عليهم دوافع عديدة من سبِّ آلهتهم وتسفيه عقولهم وعقول آبائهم ومطالبتهم بالاتباع مما يذهب بزعاماتهم ومصالحهم . . !؟ .

وكيف يَلزمون الصمتَ مع القدرةِ على المباراة ؟ وقد تحداهم عشرين سنة بشيء من صناعتهم التي فاقوا بها وافتخروا ، مع تقريعهم بالعجز مراراً وتكراراً . وهم مضرب المثل في الحمية والأنفة وإباء الضيم . . !!

فلو أحسوا ـ مع هذه الدوافع ـ بأن ما تحداهم به لا يبعد أن تناله عبقريتهم ، إذاً لحاولوا تبديد حجته والقضاء على خصومته . ولو حاولوا فوجدوا أنفسهم ممنوعة ؛ **فإن مصيرهم أن يجأروا بالضجر والشكوى والتعلل ـ فتلك سجية الإنسان في مدافعة الهزيمة ـ وأن يقولوا : ما لنا ؟ ومن أين دُهينا ؟ وكيف أُحبطت جهودنا وخارتْ عزائمنا . . ؟ فإن هذا القول ـ على مزيته ـ ليس بعيداً عنا . . ! إننا لا ندري أسحرنا محمد فأخمدنا . . ؟ أم ماذا ؟**

لو أنهم أحسوا بالحيلولة والحجز لدرؤوا عن أنفسهم وصمة العجز ، فإنه ليس معتاداً في بني الإنسان قاطبة ـ فضلاً عمن ذكرنا أوصافهم من العرب ـ أن يذعن الواحد لخصمه فيستكين له ويلقي بيديه ويسكت عن التقريع بالعجز أمداً بعيداً . **فلما لم يُؤْثر عنهم مثل ذلك**

= لمن ليس عنده خبرة عميقة أن يعرف المعجزة أبداً . وأيضاً فإن الغرض من إنزال المعجزة ـ وهو أخذ الناس إلى سبيل الهداية ـ لم يتحقق ، فصار ضرباً من العبث . وهو تقول لا ينطق به عاقل ولا يقدم عليه إلا مجازف لا يدري ما يقول .

التشكي والتضجر دلَّ ذلك على أنه لا أصل لما انصرف إليه أصحاب الصرفة واهمين .

قال الجرجاني رحمه الله تعالى : (ومما يلزمهم على أصلِ المقالة أنه كان ينبغي له إن كانت العربُ مُنعتْ منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها ؛ أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت . ولو عرفوه لكانَ يكونُ قد جاء عنهم ذكر ذلك . ولكانوا قد قالوا للنبي ﷺ : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به . ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه . فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفى . **وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم . ويشكوه البعض إلى البعض ويقولوا ما لنا قد نقصنا من قرائحنا وقد حدث كلول في أذهاننا** . . فبقي أن لم يُروَ ولم يُذْكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى لا ما قلَّ ولا ما كثُرَ ، دليل أنه قول فاسد ورأي ليس من آراء ذوي التحصيل)[1] .

فهذا كله يجعل القول بالصرفة باطلاً داحضاً يستوجب الانصراف عنه . وما أحسن ما قاله الإمام الجرجاني :

(ولولا أن الشيطانَ قد استحوذ على كثير من الناس في هذا الشأن بترك النظر وإهمال التدبر وضعف النية وقصر الهمة ، قد طرقوا له حتى جعل يلقي في نفوسهم كل محال وكل باطل ، وجعلوا هم يعطون الذي يلقيه حظاً من قبولهم ، ويُبوؤنه مكاناً من قلوبهم ، ـ لما بلغ من قدر هذه الأقوال الفاسدة أن تدخل في تصنيف ، ويعاد ويبدأ في تبيين وجه الفساد فيها وتعريف . ثم إن هذه الشناعات التي تقدم ذكرها تلزم أصحاب الصرفة أيضاً وذاك أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضته القرآن وعن أن يأتوا بمثله لأنه معجز في نفسه ، لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه ، وصرفت

---

(١) الرسالة الشافية : ص ١٣٥ .

هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله ، وكان حالهم على الجملة حال من أُعدم العلم بشيء قد كان يعمله وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له ، لكان ينبغي أن لا يتعاظمهم ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره ، وتعجبهم منه وعلى أنه قد بهرهم وعظم كل العظم عندهم ، لكان التعجب للذي دخل من العجز عليهم ولما رأوه من تغير حالهم ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلاً ، وأن سدَّ دونه باب كان لهم مفتوحاً ، أرأيتَ لو أن نبياً قال لقومه : « إن آيتي أن أضعَ يدي على رأسي هذه الساعة وتمنعون كلكم من أنْ تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم » وكان الأمر كما قال ـ مم يكون تعجب القوم ؟ أمن وضعه يده على رأسه أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم ؟)[1] .

وأخيراً فإن الصرفة تصور القرآنَ معجزة حسية معقدة خفية . فلو كان المراد الإعجاز الحسي لمَا كان ثمـةَ داع لجعله مصحوباً بتلك الصورة الكلامية مع التحدي بها . فذلك نمطٌ مُرْبِك عسير الإدراك ، يُستغنى عنه بأهون شيء يَقطع ما بين النبي وقومه من جدل ومعاناة[2] .

ونتيجة البحـث :

١ ـ إن القول بالصرفة زعم لا دليل عليه من العقل أو النقل .

٢ ـ بل انكشف نقض القول بالصرفة وبطلانه بأدلة من القرآن والحديث والإجماع وبأدلة أخرى قوية حاسمة .

٣ ـ دحضه الواقع وكذبه ، فقد عرف تاريخ الدعوة الإسلامية أناساً كذابين

---

(١) دلائل الإعجاز ـ للإمام عبد القادر الجرجاني ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٣١ هـ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٩ ـ ٣٠ والرسالة الشافية للجرجاني (من ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٣٣ ـ ١٤١) وبيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٠ ـ ٢١ وانظر إعجاز القرآن للرافعي ص ١٦٢ وما بعدها .

من العرب لم تنصرف هممهم عن محاولة معارضة القرآن بل بذلوا في ذلك كل همتهم وغاية اهتمامهم. فكانت معارضتهم وصمة عار أبدية في جباههم، وازدادت البصائر إكباراً للقرآن المجيد وخصائص إعجازه الذاتية .

مع الجاحظ :

يتجه المتحدثون عن الصرفة إلى نسبتها للجاحظ بإطلاق . وحقيقة الأمر أنه يعتقد إعجاز القرآن ويقرره ، فلا يعدو أن يكون ما نُسب إليه قولاً آخر يشاكل قول الرماني الذي سنورده بعد حين .

فقد أورده في كتابه (الحيوان) على سبيل الاستطراد ـ كعادته ـ فقال : (ومثل ذلك ما وقع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه . ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلف بعضهم فجاء بأمر فيه شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب والنساء وأشباه النساء ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ولطالبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال .

لقد رأيت أصحابَ مسيلمة إنما تعلقوا بما ألَّف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله من ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له)[1] .

وهذا ما حدا بأديب العصر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى إلى القول :

---

(١) الحيوان للجاحظ : جـ ٤ ص ٣١ .

(أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية ، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يُعهد مثلها . وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه . غير أن الرجل كثير الاضطراب . . ولذلك لم يَسْلم هو أيضاً من القول بالصرفة . وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها عن عرض ، فقد سرد في موضع من كتاب « الحيوان » طائفة من أنواع العجز وردها في العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد من صدورهم ، ثم عد منها : ما وقع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم الرسول بنظمه)[1] .

ويبدو لنا واضحاً أن الجاحظ لم يصل به الشذوذ إلى إنكار إعجاز القرآن الكريم فقد صرّح في كتابه « النبوة » قائلاً : (ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أغلب العرب لأظهر عجزه عنها لَغَاً ولفظاً)[2] .

بل الجاحظ أول من أفرد تصنيفاً للحديث عن إعجاز القرآن وهو (نظم القرآن) . وقد قال في الإعجاز أقوالاً بليغة لم تزل موطن إكبار واستشهاد علمائنا وكُتّابنا . ولعل هذا كله حمل الرافعي رحمه الله على الاعتذار عما صدر عن الجاحظ في كتاب الحيوان حسبما فهمه . قال الرافعي : (وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما في نفسه من أثر أستاذه « النظّام » وهو شيء ينزل على حكم الملابسة ويعتري أكثر الناس إلّا مَنْ تنبه له أو نُبِّه عليه ، أو يكون هو ناقلاً ولا ندري)[3] .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ـ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٢٩٨ . وقوله : لغاً « بفتح اللام » من لغي به « كرضي » ولغا به : إذا لهج به .

(٣) إعجاز القرآن ـ للرافعي : ص ١٦٥ وانظر : ص ١٧٠ وانظر أقوال الجاحظ في الإعجاز : ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ومواطن أخرى .

أقول : **فهذان كتابان علميان مختصان من أجلّ مؤلفات الجاحظ** (النبوة ، نظم القرآن) **قد أفادا ـ بصراحة لا تحتمل التأويل ـ أن إعجاز القرآن وصف ذاتي منبعث من خصائص القرآن ومزاياه**. وهذا يدلك على أن الجاحظ كان يعتنق مذهب الإعجاز الذاتي للقرآن . ولا يتجاوز ما نسب إليه أن يكون قولاً آخر جمع فيه الجاحظ بين القول بالإعجاز الذاتي وبين الصرفة بآن واحد كوجه في إعجازه ، كما يومىء النص المنقول عن كتابه « الحيوان » . وعلى هذا المنحى سار الرماني بعده .

رأي الرماني :

اتخذ الرماني منحى عجيباً في الحديث عن إعجاز القرآن فاعتمده وفصله ، وقدم بحثاً يكشف في القرآن الكريم عن أوجه البلاغة التي لا تُضاهى . غير أنه لما عدَّ وجوه الاعجاز ـ كما يراها ـ عدَّ منها : الصَّرفة ، فقال : (وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ؛ والتحدي للكافة ؛ والصرفة ؛ والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة)[1] . ومضى الرماني يبين رأيه في الصرفة فقال : (وأما الصرفةُ فهي صَرفة الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم ، في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول)[2] .

ونقول في الجواب عما أورده الرماني : إما أن يعني قوله أن القرآنَ معجزٌ عن ذاته أوْ لا . .

---

(١) النكت في إعجاز القرآن : ص ٦٩ و ١٠١ .
(٢) النكت : ص ١٠١ .

فإذا لم يكن ـ في نظره ـ معجزاً من ذاته بل من الصرفة وحدها . . فالجواب ما قلناه في حق النَّظَّام وأضرابه .

وإذا كان القرآن معجزاً بذاته ، كما صرح الرماني وشرح فأوضح ـ وهو الحق الصراح ـ ، إذنْ **فما الداعي للصرفة عن فعل شيء لا يقدر الإنسان أصلاً على فعله !؟ فالقول بالصرفة للعباد ؛ بعد وقوعهم في سحيق وديان العجز ؛ قول برأي لا طائل من ورائه .**

وقد قرر الرماني إعجاز القرآن مراراً ، فكان من ذلك قوله أيضاً : (فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . **فما كان في أعلاها طبقة فهو معجزة وهو بلاغة القرآن** ، وما كان منها دونَ ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس . وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في حسنِ صورةٍ من اللفظ .

فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، **وأعلى طبقات البلاغة القرآن خاصة . وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم**)[1] .

ولا شك أن هذا القول وأمثاله من الرماني نفسه يبطل قوله بالصرفة . أضف إلى هذا أن الصرفة قولٌ لا يدل عليه عقل ولا نقل .

ويبدو لنا أن الرماني والجاحظ وغيرهما قد أوردهم هذا المورد أنهم لاحظوا أن بلغاء العرب لم يتمحلوا معارضة القرآن ولو على سبيل المماراة بالباطل ، وهذا ما ذكره الجاحظ : « ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لَتكلفه » .

ونجيب على ذلك : إن هؤلاء البلغاء قد بهرهم القرآن ، ولم يخفَ

---

(١) النكت : ص ٦٩ ـ ٧٠ .

عليهم أن البون شاسع بين أسلوبهم وأسلوبه ، وقد تيقنوا أنهم لـو زعموا معارضته بنص من كـلامهم فسيكون زعمهم فـاضح الكـذب والبطلان ؛ ومشـاراً للسخريـة والتنـدر ، حتى تلوك الألسنـة سمعتهم ولا يتقبـل أحـد ادعائهم ، كما حصل لسجاح ومسيلمة الكذاب ، اللهم إلَّا أن يكون التابع من بعض الدهماء عصبية وعناداً كأتباع مسيلمة وأضرابه . **لقد صان البلغاء أنفسهم أن تستطير بها المهانة في أرجاء الجزيرة العـربية ، فـامتنعوا عن التـورط في زعم معارضـة القرآن ، وفي ذلـك من رجاحـة العقل مـا لا يخفى .**

وإليك مسك الختام ؛ في ردِّ الصرفة ؛ قول العالم اللغوي الأديب المفسر ابن عطية :

(وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمـه وصحة معـانيه ، وتـوالي فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : ان الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً ، فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبينُ المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن محيطاً قط ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يبطل قول مَن قال : إن العرب كان في قدرتهـا أن تأتي بمثـل القرآن في الغاية القصوى في الفصاحة فلما جاء محمد ﷺ صُرفوا عن ذلك وعجزوا عنه .

(والصحيح أن الاتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قـدرةِ أحدٍ من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيحَ منهم ، يضع خطبةً أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يـزال ينقحها حـولاً كامـلاً ، ثم تُعطى لآخر بعده فيأخذه بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال بعـد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل . وكتاب الله تعالى لو نُزعتْ منه لفظة ، ثم أُدير

لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد . « ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق؛ وجودة القريحة؛ ومَيْز الكلام ») .

(ألا ترى مَيْزَ الجارية نَفَسَ الأعشى ، وميز الفرزدق نَفَسَ جرير ؛ ونفس ذي الرمة ، ونظر الاعرابي في قوله[1] : « عزَّ فحكَمَ فقطع » إلى كثير من الأمثلة ، اكتفيت بالإشارة إليها اختصاراً) .

(فصورة قيام الحجة بالقرآن على العرب أنه لما جاء محمد عليه السلام به ، وقال : ﴿ فأْتوا بسورة من مثله ﴾ قال كل فصيح في نفسه : وما بال هذا الكلام حتى لا آتيَ بمثله !؟ فلما تأمله وتدبره ميَّز منه ما ميَّز الوليد بن المغيرة حين قال : والله ما هو بالشعر ، ولا هو بالكهانة ولا بالجنون ؛ وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا قدرة لبشر على مثله ، فصح عنده أنه من عند الله تعالى . فمنهم من آمن وأذعن ، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره ففر إلى القتال ، ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة ، حتى أظهر الله دينه ودخل جميعهم فيه . ولم يمت رسول الله ﷺ وفي الأرض قليل من العرب يعلن كفره . وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة ، كما قامت الحجة على الناس في معجزة عيسى بالأطباء ، وفي معجزة موسى بالسحرة ، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهيد[2] أبرع ما يكون في زمان

---

(١) لعل في الكلام سقطاً . وتقديره : « ونظر الأعرابي في الآية وقوله . . » وقصة هذا الأعرابي أنه سمع قارئاً يتلو ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله « والله غفور رحيم » ﴾ فقال : ما هذا ؟ فقيل له : قرآن : فقال : ما هذا بقرآن ! فتنبه القارىء إلى خطئه في ختم الآية فصحح فقرأ : (والله عزيز حكيم ﴾ فقال الأعرابي : « عز فحكم فقطع » . انظر الآية في سورة المائدة : ٣٨ .

(٢) « الوجه الشهيد » : القوي الدلالة على صدق الرسول . وفي الاتقان « الشهير » . وعلى كل فإن الله تعالى جعل معجزات كل رسول في الفن الذي اشتهر به قومه ونبغوا فيه .

النبي الذي أراد إظهاره ، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته ، وكـذلـك الـطب في زمن عيسى ، والفصـاحــة في مـدة محمــد عليهم السلام)[1] .

(١) مقدمة ابن عطية « مقدمتان في علوم القرآن : ٢٧٩ ـ ٢٨٠ » والجامع لأحكام القـرآن ـ للقرطبي ـ ؛ ـ ١ ص ٧٦ والاتقان : جـ ٢ ص ١١٩ .

الفَصْـلُ الثّاني
الإعجاز الذّاتي للقُرآن العَظيم

- تحديد أوجه إعجاز القرآن .
- تبيان أوجه إعجاز القرآن :

الوجه الأول : الاسلوب البياني للقرآن .

الوجه الثاني : الاخبار عن الغيب في القرآن .

الوجه الثالث : الوفاء بكل ما وعد الله فيه .

الوجه الرابع : سمو التشريع القرآني وشموله .

الوجه الخامس : إعجاز القرآن الخلقي والاجتماعي .

الوجه السادس : الإعجاز العلمي في القرآن .

الوجه السابع : اتساق نظريات القرآن وأحكامه .

الوجه الثامن : الإعجاز النفسي في القرآن .

أثبت لنا البحث أن ليس لإعجاز القرآن صلة بسبب خارج عنه . فالإعجاز كامنٌ فيه ومنبعث من ذاته . فسبب قصور الفصحاء البلغاء عن معارضته عائد له بالذات والعلة قائمة فيه لا تنفك عنه . فلا بدّ إذا أردتَ معرفة أوجه إعجازه أن تتقصاها من جهته وتلتمسها فيه . وقد تتابع فحول العلماء قديماً وحديثاً على استقراء أوجه الإعجاز في كتاب الله تعالى فمنهم المكثرون ومنهم المقلون . فعدَّ القرطبي عشرة أوجه ، والرماني سبعة أوجه وعدَّها القاضي عياض أربعة ؛ وعدَّها الباقلاني ثلاثة ، فصَّل أحدها في عشرة أمور . وترى الأوجه عند بعض العلماء على جانب من التداخل أو التكرار ، بينما يذكر بعضهم جانباً من الأوجه ويُغفل بعضها الآخر .

والحق أنهم جميعاً لم يحيطوا علماً بأسرار إعجاز القرآن ووجوهه . وأسفرت أبحاثهم عن وقوفهم في درك القصور عن هذا المقام . قال ابن سراقة : (اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن ، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة ، كلها حكمة وصواب ، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عُشر معشاره . .)[1] .

وسأقتصر على عرض نماذج لأصحاب اليد الطولى في هذا الفن ،

---

(١) الاتقان في علوم القرآن : جـ ٢ ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

فليس غرضي أن أسهب في استقصاء مذاهبهم .

وإنما أهدف إلى بيان المذهب الراجح في نظري ، لذا رأيتُ أن أعرض مذاهبهم مع ما يوفقني إليه من تحليل علمي ومناقشة ، وأنقد كل مذهب وأبدي ملاحظاتي عليه على انفراد . ثم أعين السبب الظاهر الذي أدى إلى اتساع شقة الخلاف بين مذاهب العلماء في تحديد أوجه الإعجاز . وهذا السبب هو عدم تعريفهم الوجه المعجز في القرآن ، فأُعرِّفه ، وأقدم ما وفقني الله إليه في تحديد أوجه إعجاز القرآن الكريم وشرحها .

تحديد أوجه إعجاز القرآن الكريم

وها نحن أولاء نعرض **أهم مذاهب العلماء** حسب الخطة التي ذكرنا :

أ ـ مذهب الإمام الباقلاني :

انطلق إلى تحديدها في ثلاثة أوجه :

أولاً : الاخبار عن الغيوب ، وضمَّنه غيب المستقبل والوفاء بالوعد .

ثانياً : الاخبار عن غيوب ماضية مع أن الرسول أُمي لم يقرأ كتاباً ولم يخط بيمينه .

ثالثاً : أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عنه عجز الخلق عنه . وفصَّل هذا الوجه في عشرة أمور نوجزها فيما يلي :

الأول : أن نظم القرآن خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم .

الثاني : حِفاظه على المستوى البلاغي العالي المعجز على الرغم من طوله .

الثالث : حفاظه على ذلك المستوى المعجز في جميع أغراضه من قصص ومواعظ وحكم وأحكام ووعد ووعيد واحتجاج وتبشير وتخويف .

الرابع : حسن الانتقال والتناسب الدائم .

الخامس : عجزُ جميع الإنسِ وجميع الجن أيضاً عن معارضته .

السادس : اجتمعتْ فيه جميع بلاغات كلام العرب في مرتقىً يتجاوز حدود كلامهم المعتاد .

السابع : موافقة ألفاظه للمعاني والأغراض الدينية الفذَّة التي لم يألفها العرب قبل .

الثامن : احتواؤه أروع الألفاظ العربية .

التاسع : حروف أوائل السور فيه هي نصف عدد حروف الهجاء ، وفيها النصف من كل صنف منها .

العاشر : أن القرآنَ سهل السبيل سلس الأسلوب ما فيه وحشي ولا غريب ولا تكلف صنعة[1] .

وأنتَ تجدُ أنه قد أغفل وجوهاً من الإعجاز ، في حين أنه فصَّل وجهاً واحداً إلى وجهين وهو الاخبار عن الغيب ، فجعل ما يتضمن غيب الماضي وجهاً مستقلاً وما يتضمن غيبَ المستقبل وجهاً آخر منفرداً .

ثم بالغ في تفصيل الإعجاز البياني وتقسيم معانيه ، وأدخل عليه ما لا يُقبل عدُّه فيه ، وهو التاسع عن حروف أوائل السور .

---

(١) إعجاز القرآن ـ للباقلاني : ص ٣٣ ـ ٤٧ .

ب ـ مذهب الرماني :

قال رحمه الله : (وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : تركُ المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ؟ والتحدي للكافة ؛ والصرفة والبلاغة ؛ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ؛ ونقض العادة ؛ وقياسه بكل معجزة)[1] .

ونرى أن الوجه الأول عنده إنما هو من الدلائل التي تُثبت إعجاز القرآن وليس من أوجه إعجازه ، وقد سبقَ بحثنا فيه على هذا الأساس . فالتحدي بالمعجزة للكافة وتعذر معارضتها بمثلها ؛ شرطان من شروطها[2] العامة ، يتوفران في سائر المعجزات وكذا في القرآن العظيم . فلا يعتبران في أوجه إعجازه الخاصة .

وقد بيّن الرماني مراده ههنا من « نقض العادة » فقال : (**وأما نقض العادة** ؛ فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة : منها الشعر ؛ ومنها السجع ؛ ومنها الخطب ؛ ومنها الرسائل؛ ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة)[3] .

لكن هذا المعنى لا يستقل بنفسه في أوجه إعجاز القرآن ، إنما هو وصف هام من أوصاف أسلوبه البياني المعجز . وكان حرياً بالعلّامة الرماني ـ في نظري ـ أن لا يفصل بينه وبين البلاغة وأن يجملها في صيغة تعبر عن الإعجاز البياني وجهاً واحداً .

وأوضح الرماني مراده من الوجه الأخير فقال : (وأما قياسه بكل

---

(١) النكت في إعجاز القرآن « ثلاث رسائل في الإعجاز » : ص ٦٩ .

(٢) راجع ص ١٩ و٢١ .

(٣) النكت ص ١٠٢ .

معجزة فإنه يظهرر إعجازه من هذه الجهة ، إذْ كان سبيل فلق البحر وقلب العصا حيةً وما جرى هـذا المجرى ذلـك سبيلاً واحـداً في الإعجاز ، إذ خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة)[1] .

فهـذا وصف لإعجاز القـرآن يستوي بـه مع سـائـر المعجـزات في الدلالة على نبوة مبلغه سيدنا محمد ﷺ ، بل يزيد دلالة عليها عند ذوي العقـول الواعيـة المستنيـرة . فـإن المعجـزات العقليـة أعـظم شـأنـاً من الحسية .

وأما الصرفة فقد بينا أنها ليست من أوجه الإعجاز ، وناقشنا وجهـة نظر الرماني خاصة .

والخلاصة أنه لا يَسْلم له من أوجه الإعجاز سوى وجهين :

أولهما : البلاغة مع نقض العادة « الاسلوب البياني » .

ثانيهما : الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة . وكان الأولى أن لا يقيد العبارة بل يطلقها لتشمل الأخبـار عن الغيب في القرآن ؛ مـاضيه ؛ وحاضره ؛ ومستقبله .

جـ ـ مذهب القرطبي :

أنَّ وجوه إعجاز القرآن عشرة، وهي :

أولاً : النـظم البديـع المخالف لكـل نظم معهـود في لسان العـرب وفي غيرها .

ثانياً : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ثالثاً : الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال .

---

(١) النكت ص ١٠٣ .

رابعاً : التصرفُ في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي .

خامساً : الاخبار عن أمور غيبية من أول الدنيا إلى وقت نزوله على لسان أميّ لم يقرأ ولم يكتبْ .

سادساً : الوفاء بالوعد المدرك بالحسّ في العيان .

سابعاً : الاخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يُطلع عليها إلا بالوحي .

ثامناً : ما تضمنه من علم هو قوام جميع الأنام ؛ في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام .

تاسعاً : الحِكَمُ البالغة التي لم تجر العادةُ بأنْ تصدرَ في كثرتها وشرفها من آدمي .

عاشراً : التناسبُ في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف[1] .

ولعلك ترى معنا أن هذه الأوجه يتداخل بعضها في بعض ويغني بعضها عن بعض . فالأوجه الأربعة الأولى هي في الواقع تفاصيل وجه واحد هو الإعجاز البياني .

والإمام القرطبي نفسه قد أقرَّ بنحو هذا في نفس الموطن إذ اعتمد قول ابن الحصار فأورده :

(قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم والأسلوب والجزالة ؛ لازمة كل سورة بل هي لازمة كل آية ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدي والتعجيز)[2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي : جـ ١ ص ٧٣ ـ ٧٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : جـ ١ ص ٧٣ .

د ـ مذهب القاضي عياض :

أجمل رحمه الله أوجه الإعجاز في أربعة ، ثم ألحقَ بها وجهين يستضعفهما ، ثم سرد أوجهاً لم يرتضها هو ، إلَّا أن جماعة من الأئمة ومقلديهم قد اعتدوا بها ، نذكر ذلك موجزاً :

أولاً : حسنُ تأليفه والتئام كلمه ؛ وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب .

ثانياً : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها .

ثالثاً : ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع ، فوجد بعدُ كما ورد على الوجه الذي أخبر .

رابعاً : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة .

أما الوجهان اللذان ألحقهما ؛ فهما :

أولاً : الروعة التي تلحق قلوب سامعيه ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره .

ثانياً : كونه آيةً باقية ؛ لا تُعدم ما بقيت الدنيا ؛ مع تكفل الله بحفظه .

أما الأوجه التي عدَّها بعض القوم ولم يرتضها القاضي عياض ؛ فنذكر طرفاً منها :

- أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه .
- جمعه بين الدليل والمدلول ، ذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن رصفه وإيجازه وبلاغته، فخلَّل هذه البلاغة بأمره ونهيه ووعده ووعيده . . فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلام واحد .

ـ تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه وتقريبه على متحفظيه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر** ﴾[1] وكل أمة من الأمم لا يحفظ كتابها الواحد منهم ، فكيف العامة والأطفال على مرور السنين ؟

وجعل القاضي رحمه الله عمدة الأمر كله في الأوجه الأربعة الأولى ، ونبَّهَ على أنَّ الباقي مما ذكره أو أغفله إما أنْ يندرجَ تحتَ واحد منها ؛ وإما أن يكون من خواص القرآن وفضائله . قال رحمة الله عليه :

(وهذا كله وكثير مما ذكرنا أنه ذُكر في إعجاز القرآن إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة ، لم نذكرها ، إذْ أكثرها داخل في باب بلاغته ، فلا نحب أن يُعدَّ فناً منفرداً في إعجازه ، إلَّا في باب تفصيل فنون البلاغة . وكثير مما قدمنا ذكره عنهم ، يُعدُّ في خواصه وفضائله ، لا إعجازه . وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا فلْيُعتمدْ عليها ، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضي . والله ولي التوفيق)[2] .

وقد ارتضى الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني هذه الأوجه الأربعة وميَّزها عن غيرها فأوجزَ ما أورده القاضي عياض في أسطر قلائل[3] .

رأينا في تحديد أوجه الإعجاز :

١ ـ قبل أن نلقي عصا التسيار إلى نتيجة راجحة لدينا ، لا بدَّ من المبادرة إلى تعريف (الوجه المعجز في القرآن الكريم) ليركن التحديدُ إليه ويتمَ النقاش بناء عليه . فإن هذا التعريف هو الأساس لتمييز ما يصلح أن يُعتبر وجهاً وما لا يصلح أبداً . ولا جرم أن فَقْدَ هذا التعريف في

---

(١) سورة القمر : ١٧ .

(٢) الشفاء ـ للقاضي عياض : جـ ١ ص ٢١٧ ـ ٢٣٧ .

(٣) فتح الباري : جـ ٩ ص ٥ ـ ٦ .

أبحاث هذا الفن قد ساعد على الاختلاف المتجدد في تحديد أوجه الاعجاز إلى زماننا هذا .

ونُعرِّفُ الوجه المعجز في القرآن فنقول :

(كل مزية في نظم القرآن أو معانيه خارجة عن طاقة المخلوق) .

ونريد بذلك : كل وصف امتاز به القرآن عن غيره حتى أعجز المخلوقات عن معارضته . **فيكون كل وجه معجزٍ شاملاً عدداً من المعجزات الكثيرة المنبثة في غضون القرآن والتي تتسم جميعاً بوصف واحد مشترك** . أعني أنها تندرج في موضوع واحد .

مثال ذلك : أن كل خبر غيبي في القرآن معجزة ، ولكن جميع أخبار القرآن الغيبية تُعدُّ وجهاً واحداً من أوجه إعجاز القرآن لاتصافها بوصف واحد مشترك معجز ، وهو الاخبار عن الغيب . وعلى هذا فَقِسْ كافة الوجوه .

٢ ـ وبناء عليه فإن كثيراً من الأوجه التي اعتدها الأئمة تغدو غير معتبرة في الأوجه . وتلحق خواص القرآن وفضائله . قال الألوسي في ذلك :

(قد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن ، وأتوا بوجوه شتى ، الكثير منها خواصه وفضائله ، مثل الروعة التي تلحق قلوب سامعيه ، وأنه لا يمله تاليه بل يزداد حباً له بالترديد مع أن الكلام يُعادَىٰ إذا أُعيد ، وكونه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه . والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجزٌ بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى . وقد يظهر كلها في آية وقد يستتر البعض كالاخبار عن الغيب ، ولا ضير ولا عيب فما يبقى كاف في العرض واف .

نجـوم سماء كلمـا انقضَّ كـوكب بدا كوكب تأوي إليه كـواكب)[1]

٣ ـ ونلحظ أن الألوسي عليه رحمة الله حذا حذو القاضي عياض ، فأدخل في الخواص والفضائل بعض أوجه الإعجاز وبعض ما يندرج تحت أحدها . فأما الذي يُعد وجهاً ؛ وأدرجاه في زمرة الخواص « فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه » . فإن كل مجموعة من آياته إذا تليت على ذي لب يفقه ؛ **خلّفت آثاراً قيمة تعتمل في باطنه على نحو لا يتوفر البتة في غيره** من الكلام . وإذا كانت في نظرهما إحـدى خواص القـرآن فإنهـا عندنـا **خصيصة معجزة تعاود القارىء مراراً وتكراراً من أول القرآن إلى آخره** . وتتسـع وتزداد قـوة وعمقـاً في النفس مـع تـرداد التـلاوة ، وفي هـذا من المناقضة لكلام البشر ما لا يخفى ، ومن الإعجاز ما لا مراء فيه ، **فما يمنع إذن من اعتبار ذلك الإعجاز النفسي وجهاً معجزاً** !؟ .

٤ ـ وإن بعض العلمـاء قد عـدَّ الإخبار عن الغيب المـاضي وجهـاً والاخبار عن غيب المستقبل وجهاً آخر . وقـد جمعناهمـا في وجه واحـد لوحدة موضوعهما وتساويهما في رتبة الاعجاز . **إلَّا أنَّا ميزنا الوفاء بكل ما وعد الله في القرآن** ، لأنه يحتوي معنى إضـافياً فـوق مجرد الخبـر ، وهو الوعد بحصول أمر معين ، ولا يكون هذا من الله تعـالى إلَّا تعهداً قـطعياً بإنجازه . زد على ذلك الوعود المقيدة بشرط ، فإنها تتحقق بتوافر شروطها على توالي الأيام وتعاقب القرون ، وفيها من المعجزات المتجددة ما يدوم إلى قيام الساعة .

٥ ـ وأما كونـه آية بـاقيةً بقـاء الدنيـا مصونـة عن التبديـل والتزييف والزيادة والنقصان بكفالة الله تعالى ، فذلك بقوله : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

---

(١) روح المعاني : جـ ١ ص ٢٩ .

هذه معجزة مجيدة لم يحظَ بها كتاب سماوي في أمة من الأمم . فإذا حصل هذا الحفظ المتقن في الأمة الأمية فذلك عين الإعجاز . . ثم إن الله لما أخبر به ووجدناه بعد أربعة عشر قرناً على نحو ما أعلمنا ووعدنا ، **فذلك من الوفاء بكل ما وعد الله في القرآن** ، فيندرج تحت هذا الوجه ، وقد ذكرناه فيه . فحفظ القرآن معجزة لا مناص لعاقل من التسليم بها ، أما جعله وجهاً فهو عندنا غير مقبول نظراً لما اعتمدنا في تعريف الوجه المعجز .

٦ ـ ومع تقدم الزمن وتعقد الحياة وإخفاق التشريعات الوضعية في تلبية حاجات البشرية المتجددة يبدو **الإعجاز التشريعي** لكتاب الله تعالى فذاً شامخاً يضع الأمور في مواضعها ويدفع بعجلة الإنسانية نحو حياة سعيدة أساسها العدل والمحبة . لذا فإن إيراد الإعجاز التشريعي في أوجه الإعجاز أمر حتمي لا مناص منه .

٧ ـ والناسُ فيما آلوا إليه في زماننا من انحطاط خلقي واهدار للقيم والفضائل وتفكك اجتماعي وتمزيق لأواصر المودة ووشائج الرحم والقربى يتطلعون إلى المستوى الخلقي الكريم والترابط الاجتماعي الوثيق ، فلا يجدون رواء ظمأهم وسكينة نفوسهم في غير الكتاب المجيد ، لما يظهر فيه من معجزات في هذا المضمار تحققت في التاريخ القريب والبعيد ، ولم تزل في عليائها تدل على نفسها بنفسها . **فالإعجاز الخلقي والاجتماعي بارز للعيان في القرآن** .

٨ ـ وفي عصرنا الدافق بالمخترعات والمكتشفات القائمة على الحقائق الكونية والعلمية نجد أن كثيراً من الحقائق العلمية ـ التي كان الإنسان يرسف في قيود الجهل بها حتى مطلع العصر الحديث ـ قد احتواها القرآن الكريم منذ نزل على محمد ﷺ من أربعةَ عشرَ قرناً . ثم جاء العلم الحديث بما فيه من نزوع تجريبي ووسائل وأدوات حديثة ،

فأماط اللثام عن صحتها ودقتها ، فهي من أبلغ المعجزات وأروعهـا وهي التي تشيد بصرح **الإعجاز العلمي** في القرآن .

وقد رأيتُ أن بعض هذه الأوجه لم ينتبه لفضلها العلماء الأقـدمون عليهم رحمة الله ، وإنما نبهت الأذهانَ إليها مجرياتُ العصـر الحديث ، فكان لا بد من بيانها وقد فعلناه .

٩ ـ ثمة مسألة أخرى أثارها القاضي عياض : فإنه رحمه الله قد عدَّ في الأوجه المعتبرة الوجهين التاليين :

١ ـ حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة لعادة العرب .

٢ ـ صـورة نظمـه العجيب والأسلوب الغريب المخـالف لأسـاليب كـلام العرب ومناهج نظمها ونثرها .

وأكدَّ رأيه فيما بعد ، ثم نعى على من انصرف إلى أن الإعجاز غير موفور في كل منهما على انفراد فقال : (وذهب بعض المقتـدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البـلاغة والاسلوب وأتى على ذلـك بقولـه تمجه الأسماع وتنفر منه القلوب ، والصحيح ما قدمناه . والعلم بهذا كله ضرورة قـطعاً . ومن تفنن في علوم البـلاغة وأرهفَ خـاطـرَه ولسـانَـه أدبُ هـذه الصناعة لم يخفَ عليه ما قلناه)[1] .

والذي نراه :

أولاً : أن في الوجهين المذكورين بعض التداخل فإن حسن تأليف **القرآن والتئام كلمه من سمات أسلوبه فلا يجوز أن تفصل عنه .**

ثانياً : لا ينبغي اعتبار كل معجز في القرآن وجهاً ، بل المعتبر في

---

(١) الشفاء : ج ١ ص ٢٢٤ .

ذلك مجموعة متماثلة من المعجزات القرآنية ذات موضوع واحد .

ثالثاً : لا جَرَم أن بلاغة القرآن وإيجازه معجز للبشر خارج عن قدرتهم ؛ وكذلك أسلوب القرآن ، ولكنَّ كلًّا منهما لا يقوم منفصلاً بل متداخلاً مع الآخر متماسكاً معه . فالبلاغة والإيجاز يعتمدان على حسن اختيار الكلمات ونمط الاسلوب .

ولا يصح عدُّ كل معجز في القرآن وجهاً من وجوه إعجازه ، فذلك شتات للبحث لا طائل تحته . فبلاغة القرآن وأسلوبه معجزان يتكاملان لتكوين أبلغ وجهه معجز فيه . وقد ورد التحدي به خاصة حين تحدى الله القوم أن يأتوا بمثل القرآن في حسن أسلوبه وروعة بلاغته وفصاحته ، وإنْ كانت المعاني التي يحكونها ممجوجة مختلقة من عند أنفسهم . قال تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأنْ لا إله إلاَّ هو فهل أنتم مسلمون** ﴾[1] .

وبما أن التحدي وردَ به كله فقد ناسب اعتباره وجهاً مستقلاً ، خاصة وأن البلاغة بفنونها وأقسامها الاصطلاحية شيء متأخر الظهور ليس لأهل العصر الأول به عهد .

١٠ ـ بعد هذا العرض تسلم لنا هذه الأوجه التي اعتمدناها وسنفصل القول في تبيانها بعد ، وهي :

أولاً : الأسلوبُ البياني للقرآن .
ثانياً : الاخبار عن الغيب في القرآن .
ثالثاً : الوفاء بكل ما وعد الله في القرآن .

---

(١) سورة هود : ١٣ ـ ١٤ وانظر روح المعاني : جـ ١٢ ص ١٩ .

رابعاً : سمو التشريع القرآني وشموله .
خامساً : إعجاز القرآن الخلقي والاجتماعي .
سادساً : الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .
سابعاً : اتساق نظريات القرآن وأحكامه .
ثامناً : الاعجاز النفسي في القرآن العظيم .

وهذا الرأي في وجوه الإعجاز وسط بين المقلين والمكثرين ، قائم على إنعام النظر في المعجزات القرآنية الكثيرة المتوافرة الخارجة عن طوق البشر ، إذْ اعتبرنا كل صنف متماثل منها وجهاً معجزاً .

هل يحصل الإعجاز بجميع الأوجه أم بأحدها ؟

لقد رأيتَ قبل أن القاضي عياض نعى على من زعم أن كلا من الأسلوب والبلاغة في القرآن لا يكون معجزاً بمفرده ، وأن الإعجاز إنما يقوم بهما معاً . فالقاضي يرى أن كلًّا منهما معجزة بمفرده . ثم تجد على الشاطيء الآخر من بحر إعجاز القرآن قولاً آخر يناهض الأول ويناقضه :

قال الزركشي بعد عدِّه أوجه إعجاز القرآن : (الثاني عشر : **وهو قول أهل التحقيق أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده** ، فإنه جمع ذلك كله ، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع . . .)[1] .

ثم أضاف إلى الأوجه التي سردها قبلُ خمسة أوجه جديدة .

وفيصل القول بين المذهبين المتنائيين أن الذين أسهبوا في تعداد الأوجه حتى عدوا فضائل القرآن وخواصه ومزايا أسلوبه قد وجدوا بين أيديهم أوجهاً لا يقوم الإعجاز ببعضها أبداً . فتحتم عليهم عندها أن ينبهوا

---

(١) البرهان في علوم القرآن : جـ ٢ ص ١٠٦ .

إلى أن الإعجاز إنما يحصل بجميع ما ذكروا . أما الذين التزموا الاقتصاد في التعداد ، ولحظوا الإعجاز في كل وجه احتسبوه ، فقد أعلنوا أنه لا مناص من الاقرار بالإعجاز فيما ذكروه وجهاً وجهاً .

وهنا يتبين أيضاً لك أثر تعريف الوجه المعجز وتبيين المراد منه عند التحقيق في تحديد أوجه إعجاز الكتاب الكريم ، وكنا ـ بفضل الله ـ أول سالكيه ، وإليك فيما يلي تبيان أوجه إعجاز القرآن ، والله ولي التوفيق .

الوجه الأول
الأسلوب البياني للقرآن

ونقصد بأسلوب القرآن : الطريقة الخاصة التي انفرد بها في انتقاء ألفاظه وإحكام تراكيبه وتأليف كلامه .

وإذا كانت أساليب كلام الناس تختلف باختلافهم سواء أكانوا ناثرين أم ناظمين ؛ فإن المفردات والتراكيب ـ في الجملة ـ وقواعد صياغة الكلام ؛ التي يُعول عليها الجميعُ ؛ واحدة . وهذا هو السر في عظمة القرآن وإعجازه البياني . **فمع أنه لم يبرح معهود العرب في لغتهم** ؛ من ناحية المفردات والجمل والقواعد العامة في صياغة التراكيب ونسج الكلام ، وأنه جرى على مألوفهم في ذلك كله ، **فقد جاء على الوجه المدهش في مذهبه الكلامي ، يُعجز بأسلوبه الفذ ويستثير في أعماقِ النفوس أعجب العجب** . . !!

وسرُّ القوة في إعجازه البياني أنه دخل عليهم من باب يعرفونه ، ولو أتاهم من غيره لتشبثوا بالأعذار ﴿ **ولو جعلناهُ قرآن أعجمياً لَقالوا : لولا فُصِّلتْ آياتُهُ ؟ أأعجميٌ وعربي !؟** ﴾[1] .

وإذا ابتغيت التماسَ عوامل إعجاز أسلوبه فإن لها جوانب عديدة ، ندرس أهمها فيما يلي :

---

(١) سورة فصلت : ٤٤ . وقارن مع مناهل العرفان : ١/١٩٩ ـ ٢٠٠ .

١ ـ فصاحة الألفاظ القرآنية وروعتها :

« **إذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غُصنا منه في بحر عميق لا قرار له** »

ابن الأثير

نتحدث أولاً عن الفصاحة في الألفاظ العربية ، فالفصاحة في أصل الوضع اللغوي : الظهور والبيان . وتقع الفصاحة وصفاً للكلمة وللكلام . أما الكلمة الواحدة فللعلماء المتقدمين تعريف مجمل ، إذ قالوا : « اللفظ الفصيح : هو الظاهر البيِّن » . وقد كان المتقدمون أهل فطرة سليمة تتذوق الفصاحة تذوقاً جبلياً فاكتفوا بمثل هذه الومضة في تعريف الفصاحة .

ثم وجد المتأخرون هذا التعريف بحاجة إلى بيان يحدد المراد من الفصاحة ، فقالوا : (فصاحة الألفاظ : كونها ظاهرة متبادرة إلى الفهم ، مأنوسة الاستعمال لحسنها) . فأهل البراعة في النظم والنثر قد بذلوا غاية الجهد الفني لاختيار الحسن من الألفاظ ، فاستعملوه ، وتأففوا من القبيح فاجتنبوه ، فالألفاظ المألوفة الاستعمال في دائرة كلامهم لمكان حسنها هي الألفاظ الفصيحة .

أما الحكم باستحسان لفظ واستهجان آخر فذاك أمر عائد إلى الحِسِّ الفني . فالألفاظ من زمرة الأصوات ، فما استلذه السمع منها ومال إليه فهو الحسن ، وما كرهه السمع ونفر عنه فهو القبيح . ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل ويميل إليه ؛ ويكره صوت الغراب وينفر عنه !! فالألفاظ جارية هذا المجرى ، فلا ريب أن لفظة « المُزْنة » أو « الدِّيْمة » حسنة يستلذها السمع ، ومألوفة الاستعمال فهي فصيحة ، وأن لفظة

« البُعاق » يكرهها السمع فهي نادرة الاستعمال قبيحة غير فصيحة ، مع أن اللفظات الثلاثة من صفة المطر[1] .

وهكذا فإن حاسة السمع المرهفة في أهل هذا الفن هي الحَكَمُ العدل بين الألفاظ بحُسن الحَسن وقُبح القبيح . هذا ما ارتضاه ابن الأثير .

ثم حددوا شروط الفصاحة تحديداً يُسهل للدارس الفصل بين الفصيح من اللفظ وغير الفصيح ، فقرروا أن فصاحة الكلمة تتوقف على أربع صفات :

١ ـ سلامتها من تنافر الحروف : فتكون رقيقة عذبة تخف على اللسان ولا تثقل على السمع . فلفظ « أسد » أخف من لفظ « فَدَوْكس » ، وإنما يُدرَك تنافر الحروف بالذوق والحس .

٢ ـ سلامتها من الغرابة : بأن تكون مأنوسة مألوفة الاستعمال .

٣ ـ سلامتها من الشذوذ : وهو مخالفة القياس الصرفي ، كأن تصف الله بـ « الأجلل » بدل « الأجلّ » .

٤ ـ سلامتها من الكراهة في السمع : لكونها وحشية تأنفها الطباع وتمجُّها الأسماع وتنبو عنها نُبوها عن كل صوت منكر ، كقولك « الجرشي » بدل « النفس » .

لا تغرنَّك أصوات ناشزة تزعم أن ألفاظ العربية متساوية في

---

(١) « المزن » : السحاب ؛ واحدته : مزنة : سحابة ، والمزنة : المطرة « الديمة » : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق ، والجمع : ديم « بكسر ففتح » « البعاق » : شدة الصوت . و « البعاق » بكسر الباء أو ضمها : المطر المندفع بالماء ، يفاجيء بوابل . (انظر لسان العرب) .

الفصاحة ؛ بالنظر إلى أن العرب قد استعملتها جميعاً . فإن هذه النظرة سقيمة لا تفرق بين الغث والسمين ، وقد قطع علماء اللغة والنقد الأدبي نتيجة لدراساتهم ؛ بأن مجرد استعمال الكلمة ليس دليلاً على فصاحتها ، فخفتت تلك الأصوات وتلاشت أدراج الرياح . أصغ إلى العلامة اللغوي الأديب الناقد نصر الله ضياء الدين بن الأثير ؛ إذْ قال :

(وقد رأيتُ جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكر ذلك ، وقال : كل الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلَّا حسناً . ومَنْ يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة « الغصن » ولفظة « العُسْلوج » ؛ وبين لفظة « المُدامة » ولفظة « الإسْفِنْط » ؛ وبين لفظة « السيف » ولفظة « الخَنْشَليل » ؛ وبين لفظة « الأسد » ولفظة « الفَدَوْكَس » ، فلا ينبغي أن يُخاطَب بخطاب ، ولا يجاوَبَ بجواب ، بل يُترك وشأنه ، كما قيل : اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجَعْرَ في رحله[1] . . .

ومَنْ له أدنى بصيرة يعلم أن لألفاظ نغمة لذيذة كنغمة أوتار ؛ وصوتاً منكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ؛ ومرارة كمرارة الحَنْظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم)[2] .

نقول بعد هذا التمهيد : إنك إذا تأملتَ القرآنَ وجدتَ الإبداع ظاهراً في احتوائه أفصح الألفاظ الرائعة المعبرة التي يتلقاها السمع أحسن قبول . فأي مفردة منه تناولتَها بالفحص وجدتَ حروفها متلاقية متآلفة . وتجد في مفرداته البليغَ الرصين الجزل في موطنه ، والفصيحَ القريب

---

(١) « الجعر » : قذر .

(٢) راجع في الموضوع : جواهر البلاغة : ص ٧ وما بعدها وفصول من علوم البلاغة : ص ٨ والمثل السائر في عدة مواضع .

اللين في موطنه أيضاً . ولو استعرضته كله مراراً وتكراراً ما رأيتَ فيه البتة لفظاً حوشياً موحشاً ؛ ولا هجيناً مذموماً أو ثقيلاً كريهاً ، مما تنفر منه الطباع المهذبة أو تمجه الأسماع المرهفة .

وقد شهد أجلّ علماء العربية أن ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته ، وأن ما عداها وعدا الألفاظ المشتقات منها كالقشور والنوى بالنسبة إلى أطايب الثمر ؛ وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة[1] .

فالله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء علماً . وقد أحاط جل شأنه باللسان العربي علماً ، فمخضه وألقى زبدته في كتابه الكريم . ويبين لك رتبة الكلم القرآني أن الواحدة منه تورد في تضاعيف كلام من الكلام شعراً كان أم نثراً ؛ فتتلقفها الأسماع وتتشوف إليها النفوس . فهي واسطة العُقد ودُرته تُضفي عليه من رونقها وجمالها .

وضع اللفظ في المعنى الأخص به :

وإن من أسس البلاغة وعمادها وضعَ اللفظِ في المعنى الذي هو به أخص وأولى ، فإنه إذا أُبدل غيره مكانه نجم عنه تبدلٌ في المعنى يُفسدُ الكلام أو يذهب بالرونق فتتدنى البلاغة . فإن في الكلام العربي ألفاظاً يحسبها أكثر الناس متساوية في بيان مراد المتكلم ؛ كالحمد والشكر وغيرهما كثير . غير أن لكل لفظة خاصية تميزها عن اللفظة التي تقاربها في بعض المعنى ، وإن كانت تشترك معها في بعض الدلالة .

فالحمد والشكر يفترقان في أن الحمد يكون ابتداء بمعنى الثناء ، أما الشكر فلا يكون إلّا في المكافأة والجزاء . تقول « حمدت هذا » إذا أثنيت عليه في أخلاقه ومذاهبه وإن لم يسبق إليك منه معروف ، و « شكرت زيداً » إذا أردتَ جزاءه على معروف ابتدأك به .

---

(١) انظر مقدمة مفردات الراغب الأصفهاني .

وان الحمد يكون بالقول ، أما الشكر فإنه يكون بالقول ـ كالحمد ـ ويكون بالفعل أيضاً ، قال تعالى : ﴿ **اعملوا آلَ داودَ شكراً** ﴾[1] . وإذا أردتَ أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده ، فالحمد ضده الذم ، والشكر ضده الكفران . فالحمد يكون على النازل المحبوب والمكروه ، بينما لا يَرِد الشكر بحال إلَّا على المحبوب .

ويتفقان في أن الحمد يأتي أيضاً في المكافأة والجزاء فيكون بمعنى الشكر[2] .

روعة تَخيُّر الألفاظ للمعاني المبتكرة :

هذا وإن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ للمعاني الجديدة المستحدثة ، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأملكَ للب من ورود اللفظ البارع في المعنى المعروف المتداول . وإذا توافقت الألفاظ مع المعاني والمعاني مع الألفاظ من غير زيادة في أحدهما على الآخر كانت البراعة أظهر والفصاحة أتم . **فالمعاني الجديدة التي تضمنها القرآن الكريم** ـ في تبيان العقيدة والشريعة من حُجج في أصل الدين ورد على الملحدين إلى أحكام حاسمة في الحلال والحرام ـ **قد وردت بتلك الألفاظ البديعة ، وقد وافقَ بعضُها بعضاً في اللطف والبراعة . وهذا مما يتعذر على البشر نظيره ويمتنع**[3] .

---

(١) سورة سبأ : ١٣ .

(٢) للاستزادة من هذا النوع انظر : بيان إعجاز القرآن ـ للخطابي : ص ٢٦ ـ ٣١ .

(٣) ومع ذلك فإن البليغ كثيراً ما يتعثر ويخفق في اختيار الألفاظ المثلى للمعاني المألوفة التي يطرقها . ومن أقرب ما يدل على ذلك نقد الخنساء لحسان بن ثابت في سوق عكاظ في قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى — وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق — فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء : ضعفت افتخارك في ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت : =

وقد استرعت فصاحة ألفاظ القرآن أنظار العلماء ذوي الضلاعة في العربية ، وقد سبق ابن أبي الأصبع المصري إلى تخصيص باب عرض فيه لألفاظٍ من القرآن شاردة غريبة ، أوردها القرآن مورداً لم يقع مثله لمخلوق قط . وأشار إلى أن هذا في القرآن من الكثرة بحيث يعسر حصره . فقال رحمه الله :

(**باب الفرائد** : وهو مختصّ بالفصاحة دون البلاغة ، لأنه عبارة عن إتيان المتكلم في كلامه بلفظةٍ تتنزل منزلة الفريدة من حب العِقد ، وهي الجوهرة التي لا نظير لها ، تدل على عِظم فصاحته ؛ وقوة عارضته ؛ وجزالةِ منطقه ؛ وأصالة عربيته ؛ بحيث تكون هذه اللفظة إذا سقطتْ من الكلام عزَّتْ على الفصحاء غرابتها . فقد جاء من ذلك في الكتاب العزيز غرائب لا يقع مثلُها لمخلوق ، وهي من الكثرة في القرآن بحيث يعسر حصرها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **الآنَ حصحصَ الحقُّ** ﴾[1] ، وقوله

= قلت : « لنا الجفنات » والجفنات : ما دون العشرة ، فقللت العدد ، ولو قلت (الجفان) لكان أكثر . وقلت : « الغر » والغرة : البياض في الجبهة ، ولو قلت (البيض) لكان أكثر اتساعاً . وقلت : « يلمعن » واللمع : شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت (يشرقن) لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت : « بالضحى » ولو قلت (بالعشية) لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت : « أسيافنا » والأسياف دون العشر ، ولو قلت (سيوفنا) كان أكثر . وقلت : « يقطرن » فدللت على قلة القتل ، ولو قلت (يجرين) لكان أكثر لانصاب الدم . وقلت : « دماً » و (الدماء) أكثر من الدم . وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك . وأمثال هذا النقد في أخبار العرب كثير لا داعي للافاضة في نقله . وهكذا يبدو خطأ الحس الأدبي الفطري في اختيار الألفاظ الفصيحة المناسبة ، حيث انتقدت الخنساء بيتين من الشعر في ثمانية مواضع . (انظر إعجاز القرآن للرافعي : ص ٢٥٥) .

وانظر بيان إعجاز القرآن للخطابي : ص ٢٣ - ٣٦ والرسالة الشافية للجرجاني : ص ١٠٧ (ثلاث رسائل في الإعجاز) وإعجاز القرآن للباقلاني : ٤٢ - ٤٣ ومناهل العرفان : جـ ٢ ص ١٩٨ وما بعدها .

(١) سورة يوسف : ٥١ « حصحص » : ثبت واستقر .

سبحانه : ﴿ فلما استيأسوا منه خلَصوا نجياً ﴾[١] فألفاظ هذه الجملة كلها من هذا الباب ، وأجزلها قوله : ﴿ استيأسوا ﴾ وأفصحها قوله سبحانه : ﴿ خلصوا نجياً ﴾ ، وقلَّ أن تجتمع الفصاحة والبلاغة في جملة من هذا الباب إلاَّ في هذه الجملة ، فإن هاتين اللفظتين تضمنتا مع الفصاحة الإيجازَ ، وهو أعلى ضروب البلاغة .

ولقد رأيت بعض شعراء المحدَثين ضمّنها شعراً له ، فأتى له من الوقع في النفوس ما لا تطيق الألسن الفصيحة أن تعبر عنه ، وانْ كانَ كلُّ شعر ضمن شيئاً من لفظ القرآن فهو كذلك ، ولا مِثل للشعر الذي يتضمن أفصح ألفاظه ، فقال هذا الشاعر « الطويل » :

أجبرتَنا بالغَوْرِ كيف خلصتُمُ — نجياً وأخفيتم حديثكم عني
لقد سمعتْ أُذنايَ نجوى فراقكم — فلا أبصرتْ عينايَ ما سمعتْ أذني

فتأمل هذا الشعر الذي يجد اللبيبُ لسماعه نشوة كنشوة الخمر ، وما ذاك إلاَّ أنه ألقى على شَبَهِ ألفاظه اكسيراً[٢] من لفظة القرآن ، فصار ذلك الشَبَهُ تبراً[٣] خالصاً ، ومزج باطله بحقه ، فتجلى عن الصدق ، وللصدق رونق .

ومن هذا الباب في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم ﴾[٤] فانظر إلى لفظة ﴿ فُزِّعَ ﴾ وتأمل غرابةَ فصاحتها لتعلمَ أن الفكر لا يكاد يقع عليها ، وكقوله تبارك وتعالى : ﴿ فإذا نزلَ بساحتِهم فساءَ صباحُ المُنذَرِين ﴾[٥] فالمحْ هذه الألفاظ تجدها كلها في الطبقة

(١) سورة يوسف: ٨٠ « خلصوا نجياً »: انفردوا واعتزلوا متناجين. والمناجاة : التحادث سراً .
(٢) « الشبه » بالتحريك : النحاس الأصفر . « الاكسير » : مادة مركبة زعم الأقدمون انها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب ، أو هي شراب يطيل الحياة في زعمهم :
(٣) التبر : الذهب .
(٤) سورة سبأ : ٢٣ .
(٥) سورة الصافات : ١٧٧ .

العليا من الفصاحة ، وكقوله تعالى : ﴿ **يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصدور** ﴾[1] وهذه الفريدة أعجب من كل ما تقدم ، فإن لفظة ﴿ **خائنة** ﴾ بمفردها سهلة مستعملة ؛ كثيرة الجريان على الألسن ، فلما أُضيفتْ إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع ، بحيث لا يُستطاع الاتيان بمثلها ، **ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شِبهها** . وأشباه ذلك في الكتاب العزيز لا تدخل تحت الحصر)[2].

٢ ـ فصاحة جُمل القرآن وتراكيبه :

وفصاحة الكلام : تتوقف على توفر أمرين فيه ، أولهما : فصاحة مفرداته . والثاني : سلامة الكلام من أمور تؤدي إلى إبهام معناه ، وذلك بخلوه من ستة عيوب : تنافر الكلمات مجتمعة ، وضعف التأليف ، والتعقيد اللفظي ، والتعقيد المعنوي ، وكثرة التكرار ، وتتابع الاضافات .

فالكلام الفصيح يتركب من كلمات فصيحة يسهل على اللسان النطق بها لتآلفها ، ويسهل على العقل فهمها لترتيب ألفاظها وفق ترتيب المعاني[3] .

ألم ترَ كيف تواردت ألفاظ القرآن منسجمة متناسبة في الإبداع !؟ تنتظم تارة في تراكيب رصينة جزلة متينة ؛ آخذاً بعضها برقاب بعض ، وتتوارد تارة أخرى متماثلة في السلاسة في عبارات فصيحة بليغة ، وقد تفردت في الحالين بأسلوبها ، واختصت بحسن ترتيبها وخلت من الحشو والزيادة ، فما لفظة في القرآن إلَّا لها دلالة خاصة وموقع سديد . فلو

---

(١) سورة غافر : ١٩ .

(٢) بديع القرآن : ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ : ابن أبي الأصبع المصري (٥٨٥ ـ ٦٥٤ هـ) .

(٣) انظر للتوسع : جواهر البلاغة : ص ٢١ ـ ٢٢ وفصول من علوم البلاغة : ص ٧ ـ ٨ .

نَزَعْتَ كلمةً منه ثم نظرتَ في لسان العرب كله إلى أحسن منها في موقعها وائتلافها مع ما حولها ؛ لارتدَّ إليك طرْفك خاسئاً حسيراً وعقلك مبهوتاً متحيراً من عظمة البلاغة القرآنية الإلّهية !! فتدرك يقيناً أنها تُعجز قوى البشر جميعاً ، ولا تبلغها قدراتهم ، ولا تدانيها مواهبهم أبد الآبدين .

وذهبَ الخطابي إلى أن مراتب الكلام في البيان والبلاغة متفاوتة : فأرفعها البليغ الرصين الجزل ، وأوسطها الفصيح القريب السهل ، وأدناها الطلق الرَّسل . وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود . أما النوع الهجين المذموم فلا يوجد في القرآن شيء منه أَلبتة .

وقد حازت بلاغات القرآن من كل قسم حصة . فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذابة ، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين ، فالعذوبة نتاج السهولة ، أما الجزالة والمتانة فتعالجان نوعاً من الوعورة . فكان اجتماع الأمرين في نظمه ـ مع نُبوِّ كل منهما عن صاحبه ـ فضيلةٌ خص الله بها القرآن بلطيف قدرته وعميق علمه ، ليكون آية بينة لرسوله محمد ﷺ ؛ ودلالةً مفحمة على صحة الإسلام الذي دعا إليه[1] .

ويوازن الإمام الباقلاني بين أسلوب القرآن وغيره من الكلام ، فيذكر أن كلام البشر يضطرب في مجاريه ويختل تصرفه في معانيه ويتفاوت كثيراً في طرقه ، ويرِدُ التصنع ظاهراً في تنقله وتخلصه ، فيدوم التغير في رتبة بلاغته وفصاحته حتى يقف بك على البديع المستحسن فيعقبه بقبيح مستهجن ، ويطَّلع عليك بوجه الحسناء ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء ، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين اللاليء الزهر من الكلمات .

ثم يقول رحمه الله : (**ونظم القرآن** في مؤتلفه ومختلفه وفي فصله

---

(١) بيان إعجاز القرآن ـ للخطابي ـ بتصرف ـ ص ٢٣ ـ ٢٤ .

ووصله وافتتاحه واختتامه ؛ وفي كل نهج يسلكه وطريق يأخذ فيه ؛ وباب يتهجم عليه ووجه يؤمه ؛ على ما وصفه الله تعالى به **لا يتفاوت** ، كما قال : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ ولا يخرج عن تشابهه وتماثله ، كما قال : ﴿ **قرآناً عربياً غير ذي عوج** ﴾ وكما قال : ﴿ **كتاباً متشابهاً** ﴾ ولا يخرج عن إبانته ، كما قال : ﴿ **بلسان عربي مبين** ﴾)[1] .

وكلما ازداد المرء بصيرة بأسرار العربية وامتلاكاً لناصية البيان ازداد للقرآن اذعاناً وبإعجازه إيماناً . ومن لم يكن له إلمام كاف بأساليب العرب وتذوق لأدبهم ؛ فهذه شهادة الخبراء الصادقين من الأعداء والأصدقاء ، وقد جاءت على مرّ العصور يقينية قاطعة ، تشيد بعظمة القرآن المبين وإعجازه ، فتكفي من استهدى وأراد معرفة الحق بيقين[2] .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ والآيات على الترتيب من سورة النساء: ٨٢ والزمر : ٢٨ و٢٣ والشعراء : ١٩٥ .

(٢) راجع ص ١٢٥ ـ ١٥٠ .

دراسة في ألفاظ القرآن وتراكيبه

وبعد التطواف في ربوع الدارسين لإعجاز القرآن العظيم نجد أن دراساتهم للألفاظ والتراكيب القرآنية تتركز حول أمور ، أهمها :

١ ـ تلحظ وأنت تتلو القرآن المبين **حسن انتقاء ألفاظه ودقة اختيارها** ، فهي ألفاظ تختال جمالاً وتألقاً . وتنساب عذبة في الفم ؛ خفيفة على اللسان ، تستلذ بها الأسماع وتستطيبها الأنفس وتهوي إليها الأفئدة . وقدم الإمام البارزي لهذا بياناً شافياً ، إذْ قال :

(اعلم أن المعنى الواحد قد يُخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ؛ وكذلك كل واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر . ولا بد من استحضار معاني الجمل أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال ، وذلك عتيد حاصل في علم الله . فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح والمليح والأملح . ولذلك أمثلة ، منها قوله تعالى : ﴿ **وجنى الجنتين دان** ﴾ لو قال مكانه : وثمر الجنتين قريب ، لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجَنى والجنتين ؛ ومن جهة أن « الثمر » لا

يُشْعر بمصيره إلى حالٍ يُجنى فيها[1] ؛ ومن جهة مؤاخاة الفواصل .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب** ﴾ أحسن من التعبير بـ : تقرأ ، لثقله بالهمزة . ومنها : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أحسن من : لا شك فيه ، لثقل الادغام . ولهذا كثر ذكر الريب . ومنها : ﴿ **ولا تهنوا** ﴾ أحسن من : ولا تضعفوا ، لخفته .

و ﴿ **وهن العظم مني** ﴾ أحسن من : ضعف ، لأن الفتحة أخف من الضمة .

ومنها : ﴿ **آمن** ﴾ أخف من : صدَّق ، ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق .

و ﴿ **آثرك الله** ﴾ أخف من : فضَّلك . و ﴿ **آتى** ﴾ أخف من : أعطى . و ﴿ **أنذر** ﴾ أخف من : خوَّف . و ﴿ **خير لكم** ﴾ أخف من : أفضل لكم . . .)[2] .

٢ ـ امتازت العربية بوفرة كلماتها في المعنى الواحد . وعلى الرغم من ذلك فإن بين ألفاظها فروقاً دقيقة في دلالاتها . **فإذا أنعمتَ النظر في كتاب الله المجيد وجدته يورد كل لفظ ببراعة فائقة حتى يؤدي معناه بدقة بليغة** ، وقد مرَّ بك إيراد القرآن كلاً من « الحمد » و « الشكر » في موضعه

---

(١) يقصد أن إيراد لفظة « الثمر » مكان « جنى » في الآية يؤدي إلى قصور عن المعنى المراد ، ذلك أن قول : « وثمر الجنتين قريب » لا ينبىء عن بلوغه مرحلة النضج ليصير يانعاً تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين ، بينما يتبادر هذا المعنى إلى النفس والفكر سراعاً من لفظة « جنى » .

(٢) الاتقان : جـ ٢ ص ١٢٥ نقلاً عن مقدمة كتاب البارزي « أنوار التحصيل في أسرار التنزيل » .

اللائق به . وأمثلة هذا كثيرة وفيرة ما تكاد تحصى ، وهي جميعاً تُنبئك أن كل لفظة قد استقرت في موضعها ، وعبرت عن المعنى المراد باستيفاء تام لا تقدر عليه كلمة أخرى غيرها إذا أُدرجت في مكانها ، والتزام الدقة في مراعاة دلالات الألفاظ وإيرادها مواردها بالبراعة الفائقة على النحو الذي حصل في القرآن المبين أمر تعجز عنه الخلائق ، بل لقد اشتغل الناس في كلامهم بما يتجافى مع هذا الغرض اللغوي الرفيع . وقد نبّه إمام البلاغة في عصره أبو عثمان عمرو الجاحظ إلى ذلك بقوله :

(وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها . ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن « الجوع » إلاَّ في موضع العقاب ؛ أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ؟ والناس لا يذكرون السغب ، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر « المطر » لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلاَّ في موضع الانتقام . **والعامة وأكثر الخاصة** لا يفصلون بين ذكر « المطر » وبين ذكر « الغيث » . ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر « الأبصار » لم يقل : الأسماع ، وإذا ذكر «سبع سموات» لم يقل الأرضين ، ! ألا تراه لا يجمع الأرض : أرضين ؛ ولا السمعَ أسماعاً ؟ والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ؛ وأولى بالاستعمال . . . والعامة ربما استخفت أقلَّ اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر)[1] .

٣ ـ يورد الكتاب المبين الألفاظَ في موارد حساسة ، فلا تراها قاصرة على المعنى المتبادر منها للبال عادة ، بل تتسع دلالتها حتى توحي

---

(١) البيان والتبيين : جـ ١ ص ٤٠ .

لك **بمعنى أهم وأجل وأدق** . خذ كلمة (حياة) فقد وردت بصيغة النكرة في سياق الحديث عن اليهود الذين عرفوا دلائل نبوة محمد ﷺ وكفروا بها . قال تعالى : ﴿ **وَلَتجدنَّهم أحرصَ الناسِ على حياةٍ ومن الذين أشركوا يودُّ أحدُهم لو يُعَمَّرُ ألفَ سنةٍ وما هو بِمزحزحه من العذابِ أن يُعمَّر والله بصيرٌ بما يعملون** ﴾[1] .

أنت تشعر بأن كلمة (حياة) قد عبرت بدقة مرهفة عن حرص أولئك اليهود على أدنى قدر ممكن من الحياة مهما كان يسيراً قصيراً خاوياً من أي قيمة كريمة . فأثار ورودُها بالتنكير معنى التحقير . وأفادت بالتالي أن اليهود أشد حرصاً على الحياة المتطاولة من باب أولى . فعبرت كلمة (حياة) في هذا المورد بآن واحد عن ضآلة قيمة الحياة الدنيا وشدة تكالب أولئك اليهود عليها .

وتجد في مقابل هذا تعبيراً عن الحياة الآخرة بالمبالغة والتعريف ، لتفيد الصيغة تعظيمها واكبار شأنها ، وأنها هي الحياة الحقيقية ، فتحثك على التطلع إليها والاهتمام بها . قال الله تعالى : ﴿ **وما هذه الحياةُ الدنيا إلَّا لهوٌ ولعبٌ وإنَّ الدارَ الآخرة لَهي الحيوانُ لو كانوا يعلمون** ﴾[2] .

قدمتْ لنا هذه الآية تعبيراً حاسماً عميقاً عن تفاهة هذه الحياة الدنيا وسرعة زوالها واضمحلالها ، إذْ حصرتها في اللهو واللعب من باب التشبيه البليغ ، فعكست لها في النفس صورة عبث الأولاد في لهوهم ولعبهم يبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه دون جدوى . وقابلت الآية ذلك التحقير

---

(١) سورة البقرة : ٩٦ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٤ .

للدنيا بمبالغة تُعظم فيها الحياة الأخرى أيما تعظيم ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان** ﴾ فهي الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا فناء . و ﴿ **الحيوان** ﴾ في اللغة مصدر : حيّ ، وقد سُمي به كل ذي حياة . وهو أبلغ من الحياة لأن في صيغة « فعلان » معنى الحركة والنشاط الملازم للحياة . وهذا سر اختيار هذا اللفظ رعاية لما يقتضيه المقام ، فتأمل !

وأورد القرآن لفظ (حياة) على نحو يُشعر بعظيم أهمية الحياة الآخرة وأنها هي الحياة الحقيقية الخالدة ، كما يشعرك بتفاهة أمر الدنيا ، وكأنها سراب خادع ووهم باطل . فقد وصف تعالى الكافر يوم القيامة في موقف التحسر والندم ، فقال جل شأنه : ﴿ **وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول يا ليتني قدمتُ لحياتي** ﴾[1] .

فكأنه قال : يا ليتني قدمت في الدنيا أعمالاً صالحة لحياتي الحقيقية الخالدة لتنفعني فيها . فأوجب ذلك التعبير على العاقل أن لا يهتم بالحياة لذاتها وأن يتخذها وسيلة للفلاح والسعادة الأبدية في الآخرة[2] .

٤ ـ فواصل القرآن المبين :

يستصغي سمعَك ويسترعي انتباهك في أواخر الآيات القرآنية طابع خاص مميّز . يسميه علماء القرآن : الفاصلة ، وأقول في تعريفها : (الفاصلة كلمة تُختَمُ بها الآية فتُتم معناها ، وتتجاوب مع وقعها الصوتي في الأذن)[3] .

---

(١) سورة الفجر : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) روح المعاني : جـ ١ ص ٢٩٧ وجـ ٢١ ص ١١ ـ ١٢ وجـ ٣٠ ص ١٢٩ .

(٣) قلنا « كلمة » ولم نقل « لفظة » فإن الفاصلة ، ربما تزيد على لفظة واحدة كقوله تعالى =

لكنك لا تجد في فواصل القرآن مجرد توافق ألفاظ أو أوزان ، إنما ترى بجلاء أن لها ارتباطاً وثيقاً بالمعاني . وقد أبرز ذلك العلماء لدى تعريفهم الفاصلة قال الإمام الباقلاني : « **الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إفهام المعاني** » وقال الإمام الرماني : « الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، **توجب حسن إفهام المعاني** »[1] .

وتحس عندما تستمع القرآن أو تتلوه أن لهذه الفواصل نغمات نفسية معنوية ؛ وإيقاعاً صوتياً يعطيك مُتعةً فنية مؤثرة ، تبثّ في فؤادك الطمأنينة والارتياح . وقد تناولتْ أبحاث العلماء في دراسة الفاصلة عدة نواح ، سنقتصر منها على ناحيتين ، هما : حرف الروي ؛ وارتباط الفاصلة بالنص القرآني .

رَويّ الفاصلة القرآنية :

ليستْ فواصل القرآن على نسق واحد كما ترى قوافي الشعر أو قرائن السجع . فهي متماثلة أحياناً في حروفها الأخيرة . وأكثر ما تكون الفواصل تماثلاً في حروف الروي في الآيات والسور المكية كما في سورة الحاقة :

﴿ الحاقةُ . ما الحاقةُ ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأُهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأُهلكوا بريح صرصر عاتية . . . ﴾ .

= في ختام الآية الأولى من سورة تبارك ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ وفي ختام الآية الثانية ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ .

(١) وقد عرف الزركشي الفاصلة بأنها : (كلمة آخر الآية ، كقافية الشعر وقرينة السجع) البرهان : ١ : ٥٣ وانظر إعجاز القرآن : ص ٢٧٠ والنكت « ثلاث رسائل في الإعجاز » : ص ٨٩ .

وتكون الفواصل متقاربة في حروف الروي كما في سورة الدخان :

﴿ حم . والكتابِ المبين . إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يُفرَقُ كلُ أمرٍ حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمةً من ربك إنه هو السميع العليم . ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما إنْ كنتم موقنين لا إله إلاّ هوَ يحيي ويميت ربُكم وربُ آبائكم الأولين ﴾ .

فالميم والنون حرفان متقاربان في المخرج اللفظي . وأكثر ما تكون الفواصل تقارباً في الآيات المدنية . وقلما يلحظ القارىء فاصلة منفردة عما سواها .

وقد جاء القرآن بأسهل موقف وأعذب مقطع ، فكثُر فيه ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاقُ النون فمكَّن القارىءَ الذوّاق من التطريب بذلك أمتع تطريب ، وهذا منسجم مع سجية اللغة العربية ، وقد جنح العرب إليه من قبل . قال علاّمة العربية سيبويه رحمه الله : (أما إذا ترنّموا فإنهم يُلحقون الألفَ والواو والياء ما يُنوَّن وما لا يُنوَّن ، لأنهم أرادوا مد الصوت)[1] .

ارتباط الفاصلة بالنص القرآني :

وللفاصلة علاقة وثيقة بما قبلها من نص الآية ، فربما أشارت الآية إلى فاصلتها إشارة لفظية جلية ، وهذا ما أسماه العلماء : التصدير ، أو أشعرتكَ بها إشعاراً معنوياً لطيفاً ، وذاك هو : التوشيح .

فالتصدير : هو أن تتقدم لفظة الفاصلة بمادتها في أول صدر الآية أو في أثنائه أو آخره . كقوله تعالى : **﴿ وهبْ لنا من لَدُنْك رحمةً إنك أنت**

---

(١) البرهان : جـ ١ ص ٦٨ .

الوهّاب ﴾[1] وقوله : **﴿ انظر كيف فضلنا بعضَهم على بعض وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾**[2] وقوله : **﴿ أنزله بعلمه والملائكةُ يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾**[3] .

وقد سمى البلاغيون المتقدمون في هذا الصنف « رد الأعجاز على الصدور » .

والتوشيح[4] : وهو أن يرد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تعرف منه قبل قراءتها . كقوله تعالى : **﴿ وآية لهمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مظلمون ﴾**[5] فإن تالي هذه السورة إذا كان متيقظاً فطِناً ملاحظاً أن فاصلتها النون المردَفة ؛ هداه صدر الآية **﴿ انسلاخ النهار من الليل ﴾** إلى أن الفاصلة ستكون (مظلمون) . فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ، وظل في الظلمات ما دامت تلك الحال .

والفارق بين النوعين أن دلالة التصدير لفظية ودلالة التوشيح معنوية . وربما يرد في الآية تمهيد للفاصلة فتأتي متممة لمعنى الآية ، وهذا هو التمكين . وقد تأتي الفاصلة على غير تمهيد سابق فتفيد زيادة في معنى الآية ، وهذا هو الإيغال .

فالتمكين : أن تُمهد الآيةُ بمعنى يناسب الفاصلة حتى تغدو الفاصلة

---

(١) سورة آل عمران : ٨ .

(٢) سورة الإسراء : ٢١ .

(٣) سورة النساء : ١٦٦ .

(٤) سمي توشيحاً لأن معنى أول الآية يدل على فاصلتها . فيتنزل المعنى منزلة الوشاح ، ويتنزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح . « تحرير التحبير : ٢٢٨ » .

(٥) سورة يس : ٣٧ .

مكينة في مكانها راسخة في قرارها مطمئنة من موقعها من غير قلق ولا نشوز . يتعلق معناها بمعنى الآية تعلقاً تاماً وينسجم معه دونما نفور . تأمل ذلك في قوله تعالى : ﴿ **قالوا ربُنا يعلمُ إنا إليكم لَمرسلون ، وما علينا إلاَّ البلاغُ المبين** ﴾[1] فإنه لما ذكر الرسالة أثار ذلك في الذهن وظيفتها ومهمتها ، فكان ذلك توطئة لورود الفاصلة بـ ﴿ **البلاغ المبين** ﴾ .

وأنعم النظر في قوله تعالى : ﴿ **قيلَ ادخلِ الجنةَ قالَ يا ليتَ قومي يعلمونَ بما غفرَ لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾[2] فإنه تعالى لما ذكر ادخال عبده الجنةَ أفاد أنه قد كساه بحلة الرضوان ، ومن نالَ رضوان الله تعالى فقد فاز بإكرامه ، فصارتْ الفاصلة مناسبة ومتممة للسياق .

وهذا باب يوقفك على سر عظيم من أسرار القرآن المبين ، فاشدد به كلتا يديك .

والإيغال[3] : أن تردَ الآيةُ بمعنى تام وتأتي فاصلتها بزيادة في ذلك المعنى على الحد الذي بلغته الآية ، كقوله تعالى : ﴿ **ولا تُسمعُ الصمَّ الدعاءَ إذا ولَّوْا** . . ﴾ فإن المعنى قد تم بهذا القدر من الكلام . غير أنه يبقى محتملاً معنى التولي مجانبة يلحظ معها المتولي مخاطبه بعض اللحظ ، فجاءت الفاصلة ﴿ **مُدبِرين** ﴾[4] فزادت على معنى الآية ، إذْ أوغلت في التعبير عن توليهم ، وبالغتْ في تصوير إعراضهم ، حتى جعلته متجافياً عن استيعاب أقل إشارة وأيسر ملاحظة. فإن الادبار إعراض كلي من جميع الجهات عن صاحب الخطاب .

(١ و٢) سورة يس : ١٦ ـ ١٧ و ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) الإيغال » : يقال : أوغل في الأرض الفلانية : إذا بلغ منتهاها . وكذا المتكلم إذا تم معناه ثم تعداه بزيادة فيه ، فقد أوغل (البرهان : ١ : ٩٦) .

(٤) سورة النمل : ٨٠ .

إن الصلة وطيدة بين فواصل القرآن العظيم وبين معاني الآيات ، غير أنها تظهر جلية أحياناً ويستخرجها اللبيب أحياناً أخرى . وهي منحصرة في الأحوال الأربعة السابقة : التصدير والتوشيح والتمكين والإيغال[1] .

فالفاصلة القرآنية قامت بأداء حظ من معنى الآية ، ولم ترد البتة بشيء من فضول القول وإلا لخرج بعض الكلام عن بعض . فأنت تجد للتراكيب القرآنية من التلاحم والائتلاف وقوة التماسك ما لا تجده في كلام سائر البشر . **فإذا وقفتَ على تماثل أنغام الفواصل أحياناً وتقاربها أحياناً أخرى ؛ وعلى انسجام كل فاصلة مع جرس الكلمات وإيقاع المقاطع في آيتها ؛ أدركتَ أن ههنا سراً عظيماً من أسرار الإعجاز البياني يأسر قلوب البشر ويستعصي على عبقرياتهم .**

إن فصاحة القرآن المبين أمر عظيم لا يُدرَكُ شأْوُه ، ولله دَرُّ العلّامة اللغوي الأديب الناقد ؛ نصر الله ضياء الدين بن الأثير ؛ ما أحكَمَ رأيه وأصدقَ قوله : (**وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غصنا منه في بحر عميق لا قرار له**) .

٣ ـ بلاغة القرآن المعجزة[2] :

لا بد أن نأخذ بناصية المعنى العام للبلاغة ، لتأنس به في تضاعيف

---

(١) انظر تفصيل بحث الفاصلة في الاتقان : ٢ : ٩٦ والبرهان : ١ : ٧٨ ـ ٩٨ وبدائع القرآن : ٣٦ ـ ٣٧ و ٨٩ ـ ٩٣ وتحرير التحبير : ١١٦ ـ ١١٧ و ٢٢٤ ـ ٢٤١ ومن بلاغة القرآن : ٧٥ ـ ٩٨ .

(٢) ظهر في فيض الطباعة الحديثة كتاب عن التصوير الفني لطالب باحث ، وإنك لتأسف لتلك الجهود الكبيرة التي ضاعت فيه بافتقادها الأساس العلمي الموضوعي وهو الدراسة الواعية للبلاغة العربية وقواعدها ، ومن ثم إدراك بلاغة القرآن العظيم المعجز وتصويره في ظلالها . وهذا ما تسبب في الخبط والخلط بين منهج سيد قطب رحمه الله وبين مناهج الآخرين ، التي وهم الكاتب ـ بحماسته وتعصبه ـ أنها مأخوذة عنه . والواقع أن كلّاً منها في واد . ولعل سقوط عزو أو اسقاطه في موضع واحد قد حمله =

الحديث عن بلاغة كتاب الله المجيد .

(فبلاغة الكلام : هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته) فالبلاغة تختص بالكلام المؤلَّف ، فلا تكون وصفاً للكلمة المنفردة . وفصاحة الكلام شرط لا مندوحة عنه في بلاغته ، فكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً ، فالبلاغة أخص من الفصاحة وبينهما خصوص وعموم مطلق[1] .

وإنكَ لتجد كلامَ الخطيب المصقع والكاتب الكامل والشاعر المفلق يختلف في مراتب البلاغة حسب الأغراض التي يعرض لها . وإن أحدهم ليأتي بغاية البراعة في معنى ، فإذا ورد إلى غيره قصر عنه ووقف دونه ، وبانَ التفاوتُ في كلامه فمن الشعراء من يُجوِّد في المدح دون الهجاء ومنهم مَنْ يُبّرز في الهجاء دون المدح ومنهم من يتفوق في التقريظ دون التأبين أو على العكس من ذلك ، حتى إن الفرزدق ؛ الشاعر الكبير المشهور ؛ لما توفيت زوجته رثاها بقول جرير :

= على تعميم أوهامه ، وأغراه بذلك تعصبه وفساد ظنه وغفلته عن الظروف الاجتماعية للعلماء المعاصرين ؛ وتقاعسه عن الاستفسار والتثبت منهم .

هذا وإنه لم يكلف نفسه القيام بأي مقارنة بين نص لأي من تلك الكتب الكثيرة التي تهجم على أصحابها وبين نص مقابل من كتاب سيد قطب رحمه الله ، فظلت دعواه عارية عن أي دليل مقنع !!؟؟ . وما أكثر الطاقات التي تُبدد فيما لا طائل وراءه ، بل في اتجاه التمزيق والتخريب !!

كان حرياً بالكاتب أن يبحث في التصوير القرآني عامة عند سيد رحمه الله وعند الآخرين، بل كان حرياً به أن يتقدم بجديد في الميدان إن كانت له أدنى قدرة عليه!!؟. أما وأنه لم يفعل ذلك فقد كان يشرفه أن يظهر ثراء المكتبة الإسلامية المعاصرة بهذا الموضوع الجليل مميزاً ودارساً لمناهج المؤلفين فيه ، وفي هذا مندوحة له عن العكوف في محراب تمجيد السادة والكبراء !!؟؟. وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) للتوسع في هذا راجع مصادر فن البلاغة ، وانظر جواهر البلاغة : ص ٣٢ ـ ٤٠ وفصول من علوم البلاغة ص ٣ ـ ٦ .

لــولا الحيــاءُ لعــادني استعبــارُ ولــزرتُ قبــركِ والحبيــبُ يُــزارُ

ومن الشعـراء مَنْ يجيد في وصفِ الإبـل أو الخيل ؛ أو في وصف الحـرب أو الروض أو الخمـر ، أو يبـدع في الغـزل ؛ أو غيـر ذلـك من الأغراض ، ولذلك ضُرب المثل بامـريء القيس إذا ركب ؛ والنابغـة إذا رهب ؛ والبحتـري إذا رغب . وهؤلاء هم المُبرِّزون في النـظم المشهود لهم بالتقدم فيه . ومثلُ هذا التفاوت سارٍ في الخطب والـرسائـل وسائـر أجناس الكلام . بلْ إنَّ من البلغاءِ مَنْ تجودُ قريحتُهُ في الكلام المـرسَلِ دون الموزون ومنهم من كانت إجادته في المنظوم دون المرسل .

فإذا تأملتَ نظم القرآن في جميع ما يتصرف فيه من أوجـه المعاني وجـدتَه على حـدٍ واحد في حسن النـظم وبديـع التأليفِ والـرصفِ ، لا يتفاوت ولا يتباين ولا ينحط عن المنزلة العليا في كل غرض من أغراضه ؛ في عـرض العقـائـد والحجـج ؛ في القصص والمــواعظ ؛ في الحِكَم والأحكـام ، وفي الـوعـد والـوعيـد والانـذار والاعــذار ؛ وفي التبشيـر والتخويف ؛ وفي تلقين الشيم الرفيعة والخصال الكاملة .

وإنكَ لَتلحظ أن الآيات جميعـاً طويلَهـا وقصيرهـا قد بلغتْ رتبـةَ الإعجاز على حدٍ واحد لا يتفاوت . وإنَّ الواحدَ من الناس لَيختلف بيانه في تكرارِ القصة الواحدة اختلافاً بيّناً . فترى القرآنَ يكرر قصصه لحكم جليلة ، وهو فيها جميعاً على نهاية البلاغة وغاية البراعـة ، وذلك أيضـاً برهان على أنه مما لا يقدر عليه البشر ، وأي برهان ! !

وتجد كلام الفصحاء وقد علاه التفاوتُ البَيِّنُ في الفصـل والوصـل والعلو والنزول . فأهل الصنعة قد اتفقوا على أن البحتري مع جَوْدةِ نظمه وحسن وصفه يُقصر في الخروج من النسيب إلى المديـح . بينما يستبين لك أن القرآنَ الكريم ـ على اختلاف فنونه ـ يجعلُ المختلف كالمؤتلف ؛ والمتباين كالمتناسب ؛ والمتعدد المتنوع في أفراده مُتَّسقاً مؤتلفاً في بنـاء

واحد . وهذا شأن عجيب تتسامى به الفصاحة والبلاغة ، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز الممكن المألوف .

ثم انظر إلى آثار بلغاءِ القوم تجد حكيمهم أو خطيبَهم ؛ لم يصدر عنه إلاَّ كلمات معدودة ، وأن شاعرَهم إنما نظم قصائد محدودة ، ويقع عند هذا وذاك التباينُ الواضح والاختلال الفاضح ، وقد يصدر في مواطن عن تعمُّل وتكلُّف ؛ أو عنْ تجوُّزٍ وتعسُّفٍ . **ثم أنعم النظر في كتاب الله تبارك وتعالى ، يَبْدُ لك على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة متوازياً في البلاغة** ، كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ **اللهُ نزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً ، مثانيَ تقشعرُ منه جلودُ الذينَ يخشون ربَّهم ، ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله** ﴾[1] .

فليس للعرب كلام مطوَّل على هذا القدر ، بمثل ذاكَ التناسب في البلاغة والتشابهِ في البراعةِ ؛ والتصرف في بديعِ القولِ بمعانٍ لطيفةٍ وحِكَمٍ وافرة . قال الإمام حازم القرطاجني في منهاج البلغاء : (**وجه الإعجاز في القرآن : من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر** . وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلاَّ في الشيء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية ، فينقطع طِيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه)[2] .

وإن مما اعتز العرب به من ضروب الشعر وشهدوا له بالتفوق فصاحة وبلاغةً ؛ شعر امريءِ القيس ، وأجود قصائده قصيدته التي مطلعها :

---

(١) سورة الزمر : ٢٣ راجع تفسير الآية : ص ١٣٢ .

(٢) « الفترة » : الضعف والانكسار . انظر الاتقان : ٢ : ١١٩ .

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومَنزل
بِسِقْطِ اللوى بين الدَّخولِ فَحَوْمَلِ

وقد قدم الإمام الباقلاني دراسة مفصلة عن هذه القصيدة ، بلغَ فيها مأربه بفضح الشاعر في إظهار عيوب شعره وكشف عواره ، وأنه ليس متناسباً في جودة البلاغة ولا متشابهاً في صحة المعاني والألفاظ . فهو يتصرف بين وحشيّ غريبٍ مستنكرٍ وعربية كالمُهمل مستكرهة، وبينَ كلامٍ متوسطٍ سليم وعاميّ سوقي في اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة وسخف شنيع .

وهذا يثبت أن نظم القرآن أسلوب خاص وجنس متميز متخلص عن النظير ، لا ينحط عن معارج البلاغة الكاملة الخارقة للعادة المتجاوزة وسع المخلوقين في كافة نواحي كتابه المديد المترامي الأطراف ، صاغه الله على ذلك بحكمته ، ليدل على أنه كلامه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويثبتَ به رسالة نبيه محمد ﷺ ، فإن كلام الآدمي إذا امتد وقع فيه التفاوت وبانَ عليه الاختلال ، كما أخبرَ سبحانه وتعالى : **﴿ ولو كانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾**[1] .

أما النماذج القرآنية فقد تفوقت في استجماع أزهى ألوان البلاغة في تناسق مدهش وتداخل متماسك ، وجاءت أكثر من أن يفرغ المرء لتقصيه وعده . وعلى الرغم من توافر فنون البلاغة وتزاحمها ، فإن كلًّا منها قد ورد في موطنه على أكمل صورة وأتمّ مناسبة . لا يتطرق إليه خلل ولا يحتمل فيه انتقاص . فمما لا جدال فيه ـ بعد هذا ـ أنَّ الإتيانَ بمثل القرآن ليس في قدرة أحد من الخلائق قط . ذلك أن الفصيح منهم يضع خطبة أو

---

(١) سورة النساء: ٨٢ . وانظر إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٣٦ ـ ٣٨ . وانظر فيه تحليل ونقد قصيدة امرىء القيس : ص ١٥٩ ـ ١٧١ .

ينظم قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال يُنقحها حولاً كاملاً ، ثم يأخذها بعده أناس فيتناولونها بقرائحهمْ تبديلاً وتنقيحاً ، ويظل فيها بعد ذلك مواضع للنظر والنقد . ألا تذكر في هذا كلام ابن عطية ؟ تذكر قوله : (وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه؛ وتوالي فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً ، فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن محيطاً قط، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة . . .)[1] .

نماذج من البلاغة القرآنية :

إن كمال البلاغة القرآنية قد تجاوز وسع بلغاء البشر وحمل علماء الفن على إفراد هذا الباب بمصنفات خاصة ، منها بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري وقد عرض فيه كثيراً من ألوان بلاغة الذكر الحكيم ليظهر سموها على بلاغة البشر وارتقاؤها معارج لا تراودهم أنفسهم على صعودها لافتضاح عجزهم عنها . وإليك باباً سبق المؤلف إلى إفراده ؛ أسماه : باب الإبداع :

(وهو أن تكون كل لفظة من لفظ الكلام على انفرادها متضمنة بديعاً أو بديعين بحسب قوة الكلام ، وما يعطيه معناه ، بحيث يأتي في البيت الواحد والجملة الواحدة عدة ضروب من البديع ، ولا تخلو لفظة منه من بديع ، فما زاد عليه) .

(وما رأيتُ ولا رويتُ في الكلام المنثور والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع ، وعددها

---

(١) راجع النص كاملاً ؛ للأهمية البالغة : ص ١٨٠ ـ ١٨٢ .

سبع عشرة لفظة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وقيلَ يا أرضُ ابلعي ماءَكِ ويا سماءُ أقلعي وغِيضَ الماءُ وقُضيَ الأمرُ واستوتْ على الجُوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين** ﴾[1] وتفصيل ما جاء فيها من البديع : **المناسبة التامة** في : ابلعي وأقلعي ، **والمطابقة اللفظية** في ذكر السماء والأرض ، **والاستعارة** في قوله: ابلعي واقلعي للأرض والسماء ، **والمجاز** في قوله : (يا سماء) فإن الحقيقة : ويا مطر السماء أقلعي ، **والإشارة** في قوله : (وغيض الماء) فإنه سبحانه وتعالى عبَّر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرة؛ لأنَّ الماء لا يَغيض حتى يُقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء فينقصُ الحاصل على وجه الأرض من الماء ، **والإرداف** في قوله : ﴿ **واستوت على الجودي** ﴾ فإنه عبَّر عن استقرار السفينة علىٰ هذا المكان وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيغ فيه ولا مَيْل ، لطُمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة ، **والتمثيل** في قوله : ﴿ **وقُضي الأمر** ﴾ فإنه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بُعدٌ ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف ، **والتعليل** لأن غَيْض الماء علة الاستواء ، **وصحة التقسيم** حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه ، إذْ ليس إلَّا احتباس ماء السماء واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض ، وغَيض الماء الحاصل على ظهر الأرض ، **والاحتراس** في قوله : ﴿ **وقيل بعداً للقوم الظالمين** ﴾ محترساً من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عمَّ من لا يستحق الهلاك فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليُعلم أنهم مستحقوا الهلاك ، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه ، **والانفصال** فإن لقائل أن يقول : إن لفظة القوم مستغنى عنها ، فإنه لو قيل : « وقيل بعداً للظالمين » لتم الكلام ، والانفصال عن

---

(١) سورة هود : ٤٤ و« أقلعي » أمسكي عن إرسال المطر . أقلع عن عمله كف عنه . « غيض الماء » : نقص « الجودي » : اسم جبل « بعداً للقوم الظالمين » : هلاكاً لهم .

ذلك أن يقال : لمّا سبق في صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى : ﴿ **وكلّما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾[1] وقال سبحانه قبل ذلك مخاطباً لنوح عليه السلام : ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾[1] فاقتضت البلاغة أن يُؤتى بلفظة القوم التي آلة التعريف فيها للعهد ، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى : ﴿ **وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه** ﴾ ووصفهم بالظلم ، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون بقوله : ﴿ **ولا تُخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ فحصل الانفصال عن الإشكال ، وعُلم أنَّ لفظةَ القوم ليستْ فضلة في الكلام . **والمساواة** لأن لفظ الآية لا يزيد عن معناه ولا ينقص عنه ، **وحسن النسق** في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولاً، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع ، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع ثم عطف غَيْضَ الماء على ذلك ، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ونجاة الناجين ، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودي ، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين ، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود ، **وائتلاف اللفظ مع المعنى** لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها ، **والإيجاز** لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة ، بحيث لم يُخلَّ منها بشيء في أخصر عبارة ؛ بألفاظ غير مطولة ، **والتسهيم** : لأن من أول الآية إلى قوله تعالى : ﴿ **أقْلعي** ﴾ يقتضي آخرها ، **والتهذيب** لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن ، كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه . **وحسن البيان** من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ، ولا يشكل عليه شيء منه ، **والتمكين** لأن الفاصلة مستقرة في قرارها ، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا

---

(١) سورة هود : ٣٨ و ٣٧ .

مستدعاة . **والإنسجام** : وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك مع جزالة لفظ، كما ينسجم الماء القليل مع الهواء ، وما في مجموع ألفاظ الآية من **الإبداع** ، وهو الذي سُمي به هذا الباب ، إذْ في كل لفظة بديع وبديعان ، لأنها كما تقدم سبع عشرة لفظة تضمنتْ أحداً وعشرين ضرباً من البلاغة سوى ما يتعدد من ضروبها ، فإن الاستعارة وقعت في موضعين : وهما الابتلاع والاقلاع . **فانظر : رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام ، وما انطوى عليه نظمه ، وما تضمنه لفظه لتقدُره قدره** . وهذا ما ظهر لي منه على ضعف نظري وقلة مادتي من العلوم وكلال ذهني . والله أعلم)[1] .

وقد بذل البلغاء المهرةُ المتقنون غاية الجهد في استجلاء معالم البلاغة في هذه الآية ففصّلوا بعض مزاياها وتركوا منها ما لا يكاد يصفه الواصفون .

فقد مضى العلامة السكاكي إلى النظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ؛ وجهة علم المعاني ؛ وجهة الفصاحة المعنوية ؛ وجهة الفصاحة اللفظية .

أما من جهة علم البيان : فإن الله عزَّ سلطانه لما بيّن إرادته في أن يعيد ما انفجر من الأرض من الماء إلى باطنها فعاد ، وفي قطع طوفان السماء فانقطع ، وفي غيضه فغاض ، وإرادتَه تعالى إنجاز وعده لنوح بإغراق قومه فانقضى ذلك الأمر ، وتسوية السفينة على الجودي فاستوت وإبقائه الظالمين غرقى ـ لما أراد بيان ذلك كله ـ **بنى جل شأنه الكلام على تشبيهين اثنين** :

أولهما : أنه تعالى شبه الشيء المراد بالشخص المأمور الذي لا يتأتى منه العصيان لكمال هيبته من آمره .

---

(١) بديع القرآن ـ ابن أبي الأصبع المصري : ص ٣٤٠ ـ ٣٤٣ .

ثانيهما : شبّه تعالى تكوين الشيء المراد بالأمر النافذ الحاصل ، تصويراً لاقتداره العظيم . وإن هذه الأجرام العظيمة من السماوات والأرض تابعة لإرادته تعالى إيجاداً وإعداماً ؛ ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً ، **كأنها عقلاء مميزون** قد عرفوه جل جلاله حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه ، وتحتم عليهم بذل المجهود في تحصيل مراده ، وتصوروا مزيد اقتداره فعظمت مهابته في نفوسهم ، وضربتْ سرادقها في أفنية ضمائرهم ، فصاروا لا يتلقون إشارتَه بغير الإمضاء والانقياد ؛ ولا أمرَهُ بغير الإذعان والامتثال .

لقد بنى جلّ جلاله نظم الكلام في الآية على مجموع التشبيهين ، فقال تعالى :

(قيل) : على سبيل المجاز عن الإرادة ؛ من باب ذكر المسبَّب وإرادة السبب ، لأن الإرادة تكون سبباً لوقوع القول في الجملة . وجعل قرينة هذا المجاز خطاب الجماد ، وهو « يا أرضُ . . . ويا سماء » إذ يصح أن يراد حصول شيء متعلق بالجماد ، ولا يصح القول له حقيقة .

(يا أرض . . . ويا سماء) : مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور **والاستعارة هنا مكنية** ، إذ ذكر المشبه وحذف المشبه به ، وهو مأمور يعقل الخطاب ؛ موصوف بأنه لا يتأتى منه العصيان « كالملائكة » . **والقرينة** هنا : نسبة الخطاب إلى المشبه « الأرض والسماء » ودخول حرف النداء عليه ، وهما من خواص المأمور المطيع ، ويكون هذا **تخييلاً** .

﴿ ابلعي ماءك ﴾ : **استعار** « البلع » لغور الماء في الأرض ، فإن البلع هو عمل الجذب في المطعوم ، والشبه بينهما هو الذهاب إلى مقر خفي . وفي الكشاف أن البلع مستعار لنشف الأرض الماء . ثم **استعار** الماء للغذاء استعارة مكنية ؛ تشبيهاً له بالغذاء ، لتقوى الأرض بالماء في

إنبات الزروع والأشجار كما يتقوى الآكل بالطعام . وجعل **قرينة الاستعارة** لفظة « ابلعي » لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء . والحاصل أن في لفظ « ابلعي » :

١ ـ استعارة لغور الماء باعتبار جوهر البلع « حقيقته » .
٢ ـ استعارة لتكوين المراد باعتبار صورة الأمر .

٣ ـ باعتبار كونه أمر خطاب : فإن فيه **ترشيحاً** للإستعارة المكنية التي في المنادى ، فإن قرينتها النداء . وما زاد على القرينة فهو ترشيح للاستعارة .

﴿ **ماءَك** ﴾ : إضافة الماء إلى الأرض مجاز لغوي ، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض بآتصال المِلك بالمالك . وفي اختيار ضمير الخطاب : **ترشيح لهذه الاستعارة** المكنية ، من حيث أن الخطاب يدل على صلوح الأرض للمالكية .

﴿ **ويا سماء أقلعي** ﴾ : فيه من **الاستعارة والترشيح** ما أوردناه في قوله تعالى : ﴿ **يا أرض ابلعي ماءك** ﴾ .

﴿ **وغيض الماءُ وقُضي الأمرُ واستوتْ على الجوديّ وقيل بعداً** ﴾ فلم يصرح تعالى بمن غاض الماءُ ولا بمن قُضي الأمر وسُويت السفينة ؛ ولا بمن قال بعداً ، كما أنه لم يصرح سبحانه بالقائل : « يا أرض . . ويا سماء » في صدر الآية ، إذْ سلك في كل واحد منها سبيل الكناية لأن تلك الأمور العظام لا تصدر إلَّا من ذي قدرة قهار لا يُغالَب جلت عظمته . فلم يترك مجالاً للتوهم باحتمال أن يكون غيره تعالى قائلاً : يا أرض . . . ويا سماء ، ولا غائضَ ما غاض ، ولا قاضيَ ذلك الأمر الهائل الجلل .

﴿ **بعداً . . .** ﴾ : ذكر بعضهم أن البعد في الأصل ضد القرب ، وهو باعتبار المكان ، ويكون في المحسوس ، وقد يقال في المعقول نحو

« ضلوا ضلالاً بعيداً » واستعماله في الهلاك مجاز .

﴿ **للقوم الظالمين** ﴾ : ختم تعالى الكلام **بالتعريض** لينبه سالكي مسلك أولئك القوم في تكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام بأنهم ظلموا أنفسهم لا غير . فختم بإظهار محل تنزل سخطه تعالى وجهة استحقاقهم إياه ، وأن قيامة الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلاَّ لظلمهم ، كما يؤذن بذلك الدعاء بالهلاك بعد هلاكهم ووصفهم بالظلم مع تعليق الحكم بمصيرهم به .

أما النظر في الآية من جهة علم المعاني ، فذلك أنه تعالى قال :

﴿ **يا أرضُ** ﴾ : فاختار أداة النداء « يا » على غيرها من أدواته . فهي أكثر استعمالاً وتدل على بعد المنادى ، وهو تبعيد يؤذن بالتهاون به . وهذا مما يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت . ولم يقل « يا أرض » بالكسر ، لأن الاضافة إليه جل شأنه تشريف للأرض وتكريم ، فتركها إمداداً للتهاون . ولم يقل « يا أيتها » : اختصاراً واحترازاً عن تكلف تنبيه الأرض الذي يُشعر بغفلتها ، مما لا يناسب المقام القاضي بسرعة استجابتها لأمره تعالى .

﴿ **ابلعي** ﴾ اختير هذا اللفظ على « ابتلعي » لكونه أخصر وأوفر تجانساً مع ﴿ **أقلعي** ﴾ . وأورد « الماء والأرض والسماء » بالإفراد دون الجمع لأن في الجمع صورة الاستكثار التي يتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت .

﴿ **ابلعي ماءك** ﴾ : ذكر المفعول احترازاً من تعميم الابتلاع للجبال والتلال . . . نظراً إلى عظمة الآمر المهيب وكمال انقياد المأمور له . ولم يذكر متعلق ﴿ **أقلعي** ﴾ اختصاراً واحتراز عن الحشو ؛ لأنه صار معلوماً . وهذا هو السبب في ترك ذكر حصول المأمور به ، فلم يقل : يا أرض ابلعي فبلعت ويا سماء أقلعي فأقلعت .

وقال : ﴿ **واستوت** ﴾ ولم يراع الأفعال المبنية للمجهول قبلها إذ لم يقل : « سُويت » ، لأن « استوتْ » أخصر ولأن الفعل المقابل وهو « الجريان » جاء من قبلُ منسوباً إلى السفينة (وهي تجري بهم) .

﴿ **بُعداً للقوم الظالمين** ﴾ : اختار لفظ « بعداً » على : ليبعد القوم ، ليؤكد معنى الفعل بالمصدر ، وليختصر العبارة فيستغني عن قول : ليبعد القوم بعداً ، وليدل على استحقاقهم الهلاك بذكر اللام (للقوم) . وأطلق « الظلم » عن أي قيد للمبالغة ، فأفاد تناول كل ظلم ؛ حتى ظلمهم لأنفسهم أيضاً ؛ لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم لتكذيب الرسل ، فإنه ظلم لأنفسهم إذْ يعود ضرره عليهم .

أما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل في الآية فإنه قدم النداء على الأمر فقال :

﴿ **يا أرض ابلعي . . . ويا سماء أقلعي** ﴾ دون أن يقول : « ابلعي يا أرض. . » إذْ قدم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى ، وذاك مقتضى خطاب من كان مأموراً حقيقة ، وقصد بذلك الترشيح للاستعارة المكنية في الأرض والسماء ، وقدم أمر الأرض على أمر السماء ، لابتداء الطوفان منها ، كما أفادت آية سابقة .

وإذا تمليتَ الآية من **ناحية الفصاحة المعنوية** أدركتَ أنها نظم لطيف للمعاني وأداء ملخص منير مبين ، لا ترى فيه أثراً لمعاظلة أو لتعقيد يتعثر الفكر في طلب المراد منه ، ولا تجد التواء يشيك الطريق على المرتاد ، بل لاحظ نفسك عند استماع الآية تجد ألفاظها تسابق معانيها ؛ ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما لفظة منها تردُ إلى أذنك إلَّا كان معناها أسبق إلى قلبك .

وتأمل جانب الفصاحة اللفظية تتجلى لك ألفاظها عربية فصيحة

مأنوسة ؛ جارية على قوانين اللغة ؛ سليمة من التنافر ؛ نائية عن الشذوذ ؛ بريئة من البشاعة . وتستشعر لها عذوبةً في الفم ؛ وسلاسةً على اللسان ؛ وجمال جرس في الأُذن ، فهي كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة[1] .

ارتقت هذه الآية أقصى مراتب الاعجاز ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان البشري ، فاستذلت مصاقع العرب ، وسفعت بنواصيهم ؛ فاضحةً عجزهم وكاشفة قصورهم وبُعد الشقة بينها وبين بيانهم ، إذْ بلغت أقصى الطرف الأغر من الفصاحة ، واستوت على الذُرى العظمى للبلاغة ؛ ولله در القرآن العظيم ماذا جمعت آياته البيّنات !؟

وعلى تفنن واصفيه بحسنه　　　يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وما ذكر في تبيان مزايا هذه الآية بالنسبة إلى ما فيها قطرة من حياض وزهرة من رياض ، فقد ألف الشيخ علاء الدين أحد شيوخ شهاب الدين الآلوسي رسالة في هذه الآية الكريمة ، جمع فيها ما ظهر له وما وقف عليه من لطائفها ومزاياها البلاغية ، فبلغ ذلك مائةً وخمسين مزية[2] .

بين بلاغة القرآن ومذهب البديع :

لا بد لي ههنا أن أنبّه إلى أمر هام . لا يساورنّك الظن ، ولا يخالجنَّ فؤادَك الوهم ؛ بأن التفوق في البلاغة العربية إنما يحصل بمجرد الإكثار من النكات البلاغية ، فإن حقيقة البلاغة تقع في استعمال فنون الكلام استعمالاً يؤدي غرضاً مناسباً لهدف المتكلم ، ويلائم مقتضى

(١) بتصرف وإيجاز من : مفتاح العلوم ـ يوسف السكاكي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ . ص ٢٢١ ـ ٢٢٤ المطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣١٧ هـ .

(٢) انظر روح المعاني : جـ١٢ ص ٥٥ ـ ٦١ .

الحال ، وكلما كانت أسهمها أبعد في ذلك كانت أعلى وأرقى . أما إذا كان استعمال فنون الكلام لمجرد التفنن اللفظي فليس له حظ البلاغة مهما أكثر البليغ من إيراد الأنواع الفنية في كلامه . **فالأمر متوقف على مستوى الألوان البلاغية ؛ وتفوقها ؛ ومطابقتها مقتضى الحال ؛ لا على كثرتها .**

وان التاريخ الأدبي قد أعطانا صورة عن الاكثار من فنون البلاغة في الأجناس الأدبية ، وذلك هو أدب الصنعة « مذهب البديع » . لقد تعمد أصحابه أن يحشدوا فيه أكبر قدر يستطيعونه من هذه الفنون ويحشرونها بمناسبة مفتعلة أو بغير مناسبة ، حتى خلا أدب الصنعة من العاطفة والروح بقدر إيغاله في التأنق والتصنع والزخارف اللفظية والمعنوية ، إذ العاطفة والروح متناسبة عكساً مع التعمل والتكلف . فقد خسر مذهب البديع أعز عنصر فني ؛ وهو الطبع والذاتية[1] . وغلب على أصحابه التقليد في المعاني ، إذ اعتبروها كلاً مباحاً للجميع ، كما غلب عليهم التقليد في الصور والعبائر ، حتى كثرت فيهم العالة وقلَّت الأصالة. وأوشك أن ينضب معين الروح الفنية الدافق .

وهذا مفترق الطريق بين مذهب البديع وبين طريقة العرب الأوائل ، تلك الطريقة الفطرية الحصيفة المرهفة ، التي ابتنى القرآن على نهجها أروع أسلوب وأعذب بيان وتحداهم أن يأتوا بمثله فبهتهم وحيرهم وأعلن عجزهم . **فالقرآن المجيد لم يلتزم الإكثار من الفنون البلاغية في معظم مناحيه ، وإنما ضرب المثل الأعلى المعجز في كافة مواضيعه وفنونه ، وتفوق أسلوبه البياني برسم الألوان البلاغية في ذُرى الإبداع والروعة**

---

(١) بإمكانك أن تستطلع أخطاء أبي تمام في اللفظ والمعنى في كتاب : الموازنة للآمدي : ص ١٢٦ ـ ٢٦٩ طبعة ثالثة ـ م . السعادة بمصر . وتجد بغيتك أيضاً في كثير من نصوص مقامات الحريري . وقد توسع الدكتور شوقي ضيف في دراسة موضوع الصنعة والتصنيع ، وصنفه تصنيفاً فنياً ، وأشبعه بحثاً في كتابه : الفن ومذاهبه في الشعر .

والجاذبية ، فتجلى للأبصار والأفئدة شيقاً عظيماً صافياً نقياً من أي تكلف أو تأنق مفتعل .

فالروعة الفريدة في القرآن أنه حين يسوق الفنون البلاغية خصبة وفيرة ، يُزجيها بعيدة غاية البعد عن جمود التكلف وجفاء التصنع ، ويتجلى فيه صفاء فوق صفاء السجية العربية وأصالتها ؛ حتى عند إكثاره من الفنون البلاغية ، فلا تشعر فيه بشيءٍ مما تعانيه في أدب الصنعة ؛ من ضيق نفسي وعنت عاطفي ومكابدة ذهنية . فالبلاغة القرآنية ريانة مخصبة ، حفظت أسلوب القرآن من جفاف أدب الصنعة ، فجاءت سلسبيلاً تروي الغليل وتلامس شغاف القلوب وتمتزج بعواطف النفوس وأحاسيسها ووجداناتها ، فتُفجِّر فيها ينابيع الخير وتُسدد اندفاعها لتحقيق أهداف الإيمان بالله جل جلاله .

إن الطاقة البشرية الأدبية عندما عولت على الإكثار من فنون البلاغة انحدرت إلى التكلف والجفاف الذي وجدناه في أدب الصنعة . **أما غزارة الفنون البلاغية وملائمتها مقتضى الحال بآن واحد فإنه إبداع الإبداع الذي أخفقت مواهب البشر عند محاولة سلوك سبيله وارتياد قممه ، ولم يتوفر إلاّ في القرآن المجيد ؛ كلامِ الله العزيز العليم .**

التشبيه في القرآن

التشبيه من أزهى ألوان البلاغة الأخّاذة في القرآن ، وقد استحوذ على اهتمام علماء القرآن وعناية البلاغيين فاتخذ مكانة مرموقة في أبحاثهم ، حتى صنف بعضهم فيه كتاباً خاصاً .

وذهب العلاّمة المراكشي إلى الاشادة بعلم البيان . والواقع أن أهم ما في علم البيان وأكثر ما يُوشّي الأجناس الأدبية منه هو التشبيه والاستعارة . لكن عماد الاستعارة التشبيه . فالإشادة بعلم البيان إعلاء

لشأن التشبيه . قال العلاّمة المراكشي[1] في « شرح المصباح » : (الجهة المعجزة في القرآن تُعرف بالتفكير في علم البيان) .

أكثر الأقدمون من الاعتماد في دراسة عقد التشبيه على العقل ، وأغفلوا كثيراً وقعه النفسي وأثره الوجداني . والواقع أن التشبيه يقوم على الربط بين أمرين متباعدين ربطاً فكرياً وشعورياً يوضح الخفي ويجلي الغامض ، ويحدث وقعه في النفس الاحساس المبتغى من التشبيه من سرور أو ألم ؛ ورغبة أو رهبة ؛ واستحسان أو استهجان ؛ وتحبيب أو تنفير . . . وقد يبين التشبيه وصف المشبه من لون أو طعم . . .

ولربما يستدل به عقلياً على إمكان المشبه ، فقد جاء البرهان في القرآن على بعث الأموات من قبورهم بإحياء الأرض بعد موتها كل سنة . ويقع التشبيه بأمر حسي لايضاح أمر معنوي خفي ، حتى يشتد ظهوره وتتجه نحوه الأحاسيس والأفكار ، فيترك آثاره في أغوار النفس والوجدان . .

لقد شبّه الله تعالى الكافرين في إعراضهم عن النظر والتفكر في السموات والأرض ؛ وتنصّلهم من تحمل المسؤولية الملقاة على كواهل البشرية في الشرع الإلهي ؛ وتفاهة أهدافهم الدنيوية ؛ شبَّههم **بالبهائم** التي تأكل وتشرب وتتمتع دونما تعقل وإحساس بمسؤولية ؛ ودونما هدف فاضل أو تبصر بالعواقب ، فقال جل شأنه : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعامُ ، والنارُ مثوىً لهم** ﴾[2] .

واتجهت همة العلامة عبد الله بن ناقيا البغدادي إلى إفراد تشبيهات القرآن في مصنف خاص ، والظاهر أنه تفرد بذلك . وراح يقرنها بما ورد

---

(١) هو محمد بن أبي زيد بن عبد الرحمن المراكشي المعروف بالضرير ، ولد سنة ٧٣٩ بمراكش وتوفي سنة ٨٠٧ هـ . وانظر الاتقان : ٢ : ١١٩ .

(٢) سورة محمد : ١٢ .

في بابها من أشعار الجاهليين وأشعار غيرهم ليتجلى للدارس التفوق البارع في تشبيهات القرآن على ما سواها ويتبدى أثر القرآن في الشعر . وإليك بعض النماذج من كتابه « الجمان في تشبيهات القرآن » :

(قوله تعالى : ﴿ **ومَثَلُ الذين كفروا كمثلِ الذي ينعِقُ بما لا يسمعُ إلَّا دعاءً ونداءً ، صُمٌ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون** ﴾[1] .

وإنما يقال لصحيح البصر الذي لا يُعمل بصره: أعمى ، لأنه قد حلَّ محلَّ من لا يبصر . وكذلك يقال للسميع الذي لا يقبل : أصم . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**إنك لا تُسمعُ الموتى ولا تُسمعُ الصُمَّ الدعاءَ**﴾[2] كما قال جل اسمه : ﴿ **أمْ على قلوبٍ أقفالُها** ﴾[3] .

وأضاف المَثَل إلى الذين كفروا ثم شبَّه بالداعي ولم يقل كالغنم لأن المعنى : ومثل الذين كفروا فيما يوعظون به كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الداعي أكثر من الصوت . فالتقدير : مَثَلُ واعظِ الذين كفروا كمثل الذي ينعِق بما لا يسمع)[4] .

(وتأويل قوله « ينعق » : يُصَوِّتُ بالغنم ، وهو النعيق والنُعاق ، ومنه قول الأخطل :

فانعِق بضأنك يا جريرُ فإنما مَنَّتكَ نفسُك في الخلاء ضلالا

وتقول العرب : أبلدُ من راعي الضأن ، ويقال في المثل : أحمق

---

(١) سورة البقرة : ١٧١ .
(٢) سورة النمل : ٨٠ .
(٣) سورة محمد : ٢٤ .
(٤) الجمان في تشبيهات القرآن - عبدالله بن ناقيا البغدادي « ٤١٠ - ٤٨٥ هـ » ص ٥٤ - ٥٥ .

من راعي ضأنٍ ثمانين)[1] . فها أنت تحكم على الأخطل ، بأنه على الرغم من اقتباسه التشبيه من القرآن فإنه قد أخفق في منحه روعة التصوير وقوة التعبير وحيوية المعنى وسموه ، كما ورد ذلك في الآية الشريفة .

وإليك نموذجاً آخر : (قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاءَ الخوفُ رأيتَهم ينظرون إليك تدورُ أعينُهم كالذي يُغشى عليه من الموت** ﴾[2] يعني قوماً من المنافقين كان النبي ﷺ إذا أمرهم بالقتال وأن يستعدوا له نظروا إليه شاخصةً أبصارُهم متغيرة ألوانُهم ، فشبههم في خوفهم من الحرب بالخائف من الموت . أي ينظرون إليك يا محمد إذا أمرتهم بأخذ الأهبة للحرب كما ينظر المغشي عليه من الموت . وهذ التشبيه البليغ في وصف الخائف : من جميع الأوصاف[3] وأوقع التشبيهات لمثل هذه الحال .

وقال النابغة في نحو ذلك من تشبيه حال الخائف ، وذكر امرأةً :

نَظَرَتْ إليكَ بحاجة لم تَقْضها   نظرَ المريض إلى وجوهِ العُوَّدِ

أي : نظرت نظرَ خائفٍ وأرادت كلامك فلم تقدر على ذلك)[4] .

وينكشف لبصيرتك قصور تشبيه شاعر الجاهلية النابغة الذبياني عن تشبيه القرآن المجيد . فإن نظر المريض إلى وجوه زائريه وإن كان ينسكب وهناً ويأساً ، فإنه لا يداني تشبيه القرآن بنظر المحتضر تدور عيناه إذْ تنتابه وتتغشاه من الموت سكرات بعد سكرات ! هذه الأمثلة وغيرها كثير وفير ؛ تدلك يقيناً أن لبلاغة القرآن شأواً عظيماً ومقاماً جليلاً لا تدركه أرفع المواهب البشرية وأسماها[5] .

---

(١) الجمان في تشبيهات القرآن ـ عبد الله بن ناقيا البغدادي : ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ١٩ .

(٣) جميع الأوصاف : مجتمعها ومكتملها : يقال : خلق جميع أي تام مكتمل .

(٤) الجمان : ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٥) اهتممت بتجلية موضوع الإعجاز البياني . واكتفيت بهذا القدر من النماذج تبياناً =

خصائص التشبيه القرآني وأهدافه :

امتاز التشبيه في القرآن الكريم بخصائص قيّمة ؛ وهي من أسرار تفوقه وخلوده .

أولاً : أنه يستمد عناصره من الطبيعة ، وذلك هو سر خلوده ، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة ، وسر عالميته وعمومه للناس جميعاً يدركون عناصره فيؤثر فيهم ، إذ يرونها ماثلة لأبصارهم قريبة منهم وبين أيديهم . فلا تجد في القرآن تشبيهاً متكلّفاً لحالة خاصة أو بيئة متفردة . لذلك لم يكن إدراك جماله خاصاً بفرد دون آخر ، بل هو عام ميسور لجميع أصحاب الذوق المرهف من الناس ، مهما توالى الزمان وتبدل المكان .

فالسراب ظاهرة طبيعة يراها الناس جميعاً ، فيغرهم مرآها ويمضون إلى السراب يظنونه ماء ، يسعون إليه يريدون أنْ يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم ، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد فلا يجدون شيئاً مما كانوا يؤملون ، إن القرآن يُبرز في هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة ، يحسبونها مجدية نافعة وما هي بشيء ، يقول الله تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بِقِيعَةٍ ، يَحسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَه لم يجدْهُ شيئاً** ﴾[1] .

ويجعل القرآن في الحجارة المثال الملموس لقسوة قلوب اليهود ، وبعدها عن أن تلين لجلال الحق وقوة الصدق ، فيقول : ﴿ **ثم قستْ قلوبُكم من بعد ذلك ، فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوةً** ﴾[2] . ألا ترى أن

= للموضوع ، فإن القرآن كله نماذج بلاغية شاهدة على أن بلاغة الإنسان لا تداني بلاغة القرآن . وعلى المستزيد أن ينظر في كتب الدراسات القرآنية وفي أمهات كتب التفسير ، يجد بغيته وغاية مأموله .

(١) سورة النور : ٣٩ .

(٢) سورة البقرة : ٧٤ .

القسوة عندما تخطر بالذهن ؛ تخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية !؟

ثانياً : أن التشبيه القرآني ليس عنصراً إضافياً في الجملة ، فلم يرد لمجرد تزيينها بعد تمام معناها ، **ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه ، فعمله في الجملة أنه يعطي الفكرة في صورة واضحة مؤثرة ، فهو لا يمضي إلى التشبيه كأنه عمل مقصود لذاته . ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة ، يتطلبه المعنى ليصبح واضحاً قوياً . تأمل قوله تعالى : ﴿ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾**(١) ، تجد فكرة عدم سماعهم الحق وأنهم لا ينطقون به ، ولا ينظرون إلى الأدلة التي تهدي إليه ، قد نقلها إليك التشبيه في صورة قوية مؤثرة، كما تدرك شدة الفزع والرهبة التي ألمَّتْ بهؤلاء الذين دُعوا إلى الجهاد ، فلم يدفعْهم إيمانهم إليه في رضا وتسليم ، بل ملأ الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم ، تدرك ذلك من قوله تعالى : **﴿ يُجادلونك في الحقِّ بعدما تَبيّنَ كأنما يساقون إلى الموتِ وهم ينظرون ﴾**(٢) .

ثالثاً : ومن خصائص التشبيه القرآني دقته ، فهو يصف ويمعن حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة . خذ مثلاً لذلك قوله تعالى : **﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها كمثلِ الحمارِ يحملُ أسفاراً . بئسَ مثلُ القوم الذين كذَّبوا بآياتِ اللهِ ، واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين ﴾**(٣) فقد يتراءى أنه يكفي في التشبيه أن يقال : مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل ؛ ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً والتحاماً ، حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ، فلم ينتفعوا بما فيها وبين الحمار يحمل أسفار العلم

---

(١) سورة البقرة : ١٨ .

(٢) سورة الأنفال : ٦ .

(٣) سورة الجمعة : ٥ . « الأسفار » : الكتب .

ولا يدري مما ضمته شيئاً ، فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي جعل الصلة بينهما قوية وثيقة .

رابعاً : ومن خصائص التشبيه القرآني المقدرة الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية ؛ تجد ذلك في كل تشبيه قرآني .

فقد شبّه القرآن الموج في موضعين ، فقال : ﴿ **وهي تجري بهم في موجٍ كالجبالِ** ﴾[1] وقال : ﴿ **وإذا غشيَهم موجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا الله مخلصينَ له الدينَ** ﴾[2] وسر هذا التنويع أن الهدف في الآية الأولى يرمي إلى تصوير الموج عالياً ضخماً ، فتستطيع كلمة الجبال أن توحي به إلى النفس ، مع أن السفينة محوطة بالعناية الإلٓهية فليست في خطر الغرق . أما الآية الثانية فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة وينسونه لدى الرخاء ، ويصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين ، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج . ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلَّل الرؤوس ، هنالك يملأ الخوف القلوب ، وتُذهل الرهبة النفوس ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين ، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف ، كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق في تصوير هذا المقام وأصدق .

ويهدف التشبيه في القرآن إلى ما يهدف إليه كل فن بلاغي فيه : من **التأثير في العاطفة** فترغب أو ترهب ، ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً ، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم ، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض .

يصوّر لنا حالهم وقد استمعوا إلى دعوة الداعي فلم تنشأْ فيهم رغبةٌ

---

(١) سورة هود : ٤٢ . (٢) سورة لقمان : ٣٢ .

في التفكير فيها ، لمعرفة ما تنطوي عليه من صدق ، وما يكون فيهـا من صواب . بل يحـول بينهم وبين ذلك الكِبْـرُ والأنَفة ، ومـا أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئاً ولم يطرق أذنَه عنها نبأ ، بل كان أشبه بمن في أذنه صمم ، فهو لا يسمع شيئاً ممـا يدور حـوله ، وبمن أصيب بالبكم ، فهو لا ينطق بشيء من الحق الواصل إليه ، وبمن أصيب بالعمى فهـو لا يرى الحق ، وبـذلك شبههم القـرآن فقال : ﴿ **ويـلٌ لكل ِ أفـاكٍ أثيم ٍ ، يسمعُ آياتِ الله تُتْلى عليه ثمَّ يُصرُ مُستكبراً كأنْ لمْ يسمعْها ، فبشرهُ بعذابٍ أليم** ﴾[1] وقال : ﴿ **ومثَلُ الذين كفـروا كمثلِ الـذي ينعِقُ بما لا يسمعُ إلاَّ دعاءً ونداءً ، صُمٌ بكْمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون** ﴾[2] .

وهناك طائفة من التشبيهات ترتبط بيوم القيامة ، لجـأ إليها القـرآن للتصوير والتـأثير معـاً ، فإذا أراد القـرآن أن يبيّن قدرة الله على أن يـأتي بذلك اليوم ؛ بأسـرعِ مما يتصـور المتصورون ؛ لجـأ إلى أسرع مـا يراه الـرائي فاتخـذه مثـلاً يؤدي إلى الهـدف المـراد ، فيقـول : ﴿ **ولله غيبُ السمواتِ والأرضِ ، ومـا أمرُ الساعةِ إلاَّ كلمحِ البصرِ أو هو أقربُ ، إن الله على كل شيءٍ قدير** ﴾[3] .

وهكذا ترى التشبيه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً ، وتقريب البعيد النائي حتى يصير قريباً دانياً[4] .

---

(١) سورة الجاثية : ٧ ـ ٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٧١ .

(٣) سورة النحل : ٧٧ .

(٤) من بلاغة القرآن ـ بإيجاز وتصرف ـ ص : ١٩٨ ـ ٢٠٨ .

التصوير الحي في القرآن

إن الكلام البشري يتجه أكثر ما يتجه إلى العقل لاقناعه بما يحمله من أفكار وآراء ، غير أن الكلم القرآني يتجه إلى العقل والفكر والنفس والوجدان ، فيبعث في الخيال الانساني صوراً حية تخاطب الحواس بكل ما يلائمها من عناصر الطبيعة والحياة ، فتترك في الأفكار والضمائر تأثرات وانفعالات قوية فريدة تحشد نوازع الخير في الفكر والنفس والوجدان والإرادة، لتتبنى المضمون القرآني عقيدة وعبادة وخُلقاً وتشريعاً، وتجاهد في سبيل حمايته ونشره وإعلاء رايته .

فلو استعرضتَ القرآن من بدايته إلى ختامه فستجد طريقة خاصة في التعبير الفني ، تكسو أسلوب القرآن حتى يصطبغ بألوانها البراقة الزاهية ، فإنك لن تجد فيه بياناً مجرداً لمعنىً ذهني أو حالة نفسية أو حادث مادي أو مشهد منظور أو طبيعة آدمية أو موقف من مواقف يوم الحساب ، بل تجده عبر عن كل منها بصورة محسوسة متخيَّلة ، حاضرة شاخصة ، صورها بالألوان أو الحركات أو الايقاع ، ومزج بها جرس الكلمات ونغم العبارات ، حتى تسري في أوصالها الحياة وتدبّ في جنباتها الحركة ، فإذا خلع عليها الحوار فقد نفخ فيها الروح فاكتملت فيها كل عناصر التخييل الحسيّ والتشخيص الحي ، حتى تُريك ساحة الحوادث على بساط الطبيعة والواقع ، وتنسى أن هذا كلاماً يتلى ، لأن القرآن قد أحالك من قارىء أو مستمع إلى مشاهد يتابع المناظر وتجدد الحركات وفيض الانفعالات الدافقة والوجدانات المتجاوبة مع الحوادث الجارية . . . فتتبدى لك صورة حية بارعة خلابة ، تُهيمن على مشاعرك وأحاسيسك حتى تجعلك أمام قبس من الحياة الحقيقية .

لا تستطيع بعد هذا أن تحكم بأن التصوير الحي في القرآن مجرد

حلية يزدان بها أسلوبه هنا أو هناك . فالتصوير طريقة متبعة وخصيصة شاملة ذات ألوان شتى منبثة في جنبات القرآن الكريم ، فلا تقدر على تحديد أمثلة له في القرآن ، لأن القرآن كله يتجلى بهذه المزية[1] .

وما قيمة هذه المزية ؟

لكي تدرك حقيقة قيمة التصوير الحي في القرآن عليك أن تتأمل منه المعاني والمضامين في عبارات تجريدية تصوغها لنفسك ثم تقارن بينها وبين الصور التي تعرضها آيات القرآن المبين ، فستجد أن الطريقة التجريدية قد خاطبت العقل وأوصلت إليه المعاني مجردة من هالتها الرائعة وظلالها الجميلة ، حتى غدت المعاني بالتجريد جامدة لا روح لها فاقدة سر الحياة ومظاهرها . بينما تجد للصورة القرآنية حيوية تخاطب العقل كما تخاطب النفس والحس والوجدان وتنفذ إلى أغوار القلوب وأعماق الضمائر[1] .

إنك تجد بعض الدعوات قد انصبّ اهتمامها على إثارة العاطفة والوجدان فلم تثبت وانهزمت أمام البحث الفكري الموضوعي ، وتجد دعوات أخرى أغرقت في العقلانية حتى بدت جافة جامدة فانصرفت عنها القلوب . لقد قرر علماء الاجتماع والدراسات الإنسانية في عصرنا ؛ أن الإنسان يحتاج لقبول أي عقيدة إلى اقناع عقله ورواء وجدانه وعواطفه ؛ وإرضاء نزوعه الفطري وتوجيه إرادته . ولقد تمثل هذا في الدعوة القرآنية الإلّهية في أكمل الصور وأروعها على الإطلاق . فبلغت في ذلك من التناسق مستوى عظيماً تعجز عنه الخلائق إلى الأبد . وذلك آية أنه دعوة الحق الإلّهية وتنزيل من الحكيم العليم . فها هي دعوة القرآن العظيم بعد أربعة عشر قرناً حينما تُؤدَّى بشكل يمثلها فعلاً تلامس شغاف القلوب وتهوي إليها الأفئدة وينساق أناس غرباء عنها إلى الدخول في دين الله أفواجاً أفواجاً ، ودليل ذلك ما يحصل في العالم المتمدن اليوم على الرغم

---

(١) قارن مع التصوير الفني للقرآن: ص ٣٤ وما بعدها .

من الضعف المرير للدعوة والدعاة فيه[1] .

نماذج من التصوير القرآني وأدواته :

ليس للفنون الأدبية الرفيعة قوالب قانونية جامدة تخضع لها . وإخضاع الأدب للقوالب هو قضاء على حيويته . والقرآن الكريم من باب أولى لا يمكن أن يُحكم عليه بقوالب مصطنعة . أضف إلى ذلك أن قواعد البلاغة إنما اقتبست منه ، وصارت تُدرس لتفهم بها الفنون السامية للكتاب العزيز . فهي من علوم الآلة[2] ، والقرآن هو الحاكم عليها المتصرف فيها ، ولا سبيل لها عليه إلَّا الأخذ بيد دارسه ومتأمله ليقف على مواطن الجمال والإبداع فيه ؛ بقدر ما تتسع له الطاقة والاجتهاد ؛ وما تبلغه الفطانة والحصافة في طالب العلم . لكن هذه الفنون البلاغية الجمالية ليستْ شاذة ولا غريبة على مألوف فصحاء العرب وبلغائهم ، فأجناسها معروفة لديهم ، فجاءهم القرآن بجنس ما عندهم ؛ لكنه أتاهم في ذلك بصور ونماذج عجيبة الألوان ؛ فائقة الحسن ؛ بارعة الجمال ؛ قوية التأثير ؛ شديدة الجاذبية ؛ تفوق إبداع البشر وتعجزه ، فلا يحاذيها ولا يدانيها شيء مما تفيض به قرائحهم أو تتمخض عنه عبقرياتهم .

والبحث عن الفنون البلاغية التي اتخذها القرآن وسائل وأدوات للتصوير الفني بحث عميق الأغوار، يطول استقصاؤه ويضيق المجال عن استيعابه ، لكني رأيت أن أقدم محاولة جدية جديدة ، اكتفي فيها بعرض نماذج هامة من أدوات التصوير الفني ، تقفك على ألوان من التعبير القرآني ، وتزود القارىء بأصول تقوي ملكته في فهم أسلوب القرآن المبين ، ومن هذه الوسائل :

---

(١) سيأتيك قريباً بحثنا في : خطاب القرآن للعقل والقلب بآن واحد ص ٢٦٤ .

(٢) سنعود إلى هذا عند البحث في : آثار القرآن في اللغة والأدب والبلاغة والنقد ص٣٧١ وما بعدها .

١ ـ **تعميم الخطاب** : وذلك بأن يتوجه الخطاب إلى مخاطب غير معين ؛ بقصد استجلاب الصورة إلى ذهن السامع مهما كان حاله وعلمه ، سواء أكان على اطلاع على الأمر من قبل أم على غير علم سابق به . قال الله تعالى : ﴿ **ألم ترَ إلى الملأ من بني إسرائيلَ من بعد موسى إذْ قالوا لنبي لهم ابعثْ لنا ملكاً نقاتلْ في سبيل الله . قال : هل عسيتم إنْ كُتبَ عليكم القتالُ ألا تقاتلوا ! قالوا : وما لنا ألا نقاتلَ في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كُتبَ عليهمُ القتالُ تولوْا إلَّا قليلاً منهم ، والله عليم بالظالمين** ﴾[١] افتتحت الآية بهذا الاستفهام ﴿ **ألم تر . .** ﴾[٢] فجعلتك أمام حدث يجري وواقع مشاهد منظور . . . أشراف بني إسرائيل ووجوههم ؛ ذوو الرأي والهيبة والكلمة المسموعة فيهم ؛ يجتمعون إلى نبي من أنبيائهم ، ويطلبون منه أن يعيِّن ملكاً لدولتهم ، يقاتلون تحت رايته ، ويتصدون بقيادته لحرب أعدائهم في سبيل الله تعالى .

مطلب كريم وقصد عزيز شريف نبيل يرفعهم في أعين الناظرين . لكن الحوار يشف عن صورة بواطنهم ، فيوجه إليهم نبيهم سؤالاً يقرر فيه حالتهم المرتقبة ؛ بعد أن يُفرَض عليهم الجهاد في سبيل الله فيقول : ﴿**هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا !؟**﴾ وفي غليان مضطرم وحماسة دافقة واندفاع عنيف يستنكرون أن يتخلفوا عن الجهاد أدنى تخلّف ! كيف وقد شردهم عدوهم وسلبهم أوطانهم وسبى أبناءهم !! كيف يحتمل منهم نكوص عن الجهاد في سبيل الله ﴿ **وما لنا ألا نُقاتلَ في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا !؟** ﴾ .

ها أنت قد حضرتَ اجتماعهم وتحسستَ آلامهم وآمالهم ، وتبينت

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٦ .

(٢) شبه حال من لم ير الحادث بحال من رآه ، فلا يصح أن يخفي عليه ، وينبغي له إذن أن يتعجب منه . وأجرى الكلام معه كما يجريه مع من رآه ؛ للمبالغة في شهرته وعراقته في إثارة التعجب .

بالحوار مشاعرهم وعواطفهم وما تجيش به نفوسهم ، فاكتملت لديك صورتهم النفسية وعزيمتهم الباسلة ، وهم في حالة الرخاء وبسط العيش . فارتقب منهم ما شئت أن ترتقب من الجهاد المستميت ، وتوقعْ لهم ما يصور خيالك من النصر المؤزر . . . فترِدُ عليك صورتهم وقد فُرض عليهم القتال وشمرت الحرب عن ساقيها ، وانقضى الرخاء وجد الجد وخرجوا للقاء العدو ، كيف استبسلوا !؟ ﴿ **فلما كُتبَ عليهمُ القتالُ تولوْا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين** ﴾ .

طلعت عليك سمة خاصة من طبائع اليهود ، وما درجوا عليه من التفلت من طاعة الله والنكوص عن أمره ونقض العهود والمواثيق ؛ والاعراض عن الحق المبين . وجاءت فاصلة الآية تَشي صورة موقفهم بالقبح والاشمئزاز ، وتحمل على استنكاره واستهجانه ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ وأي ظلم أعظم من خيانة عهد الله وميثاقه ؛ وخذلان نبيه ؛ وعصيان شرعه بالتولي عن الجهاد في سبيل الله والفرار يوم الزحف !!؟؟[1] .

وقد كثر ورود مادة (رأى) ومشتقاتها في التصوير الفني القرآني ، حتى بلغ نحو مائتي مرة في القرآن . ولا يخفى ما فيها من جعل الحوادث ماثلة الصورة في الذهن والخيال وكأنها رأي العين[2] .

وتأمل هذا التصوير البارع بمطلع يثيرُ الخيال ويستجمع شتاتَ الذهن ؛ إذ توجه إليه بخطاب مباشر عام ، يعم كل امرىء من الناس ، قال الله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذِ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ،**

---

(١) انظر روح المعاني : جـ ٢ ص ١٣٨ و ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٢) وتقصي أمثال هذا في القرآن العظيم أمر جليل الشأن يحتاج إلى دراسة خاصة ، أرجو الله أن يجعل لي فيها سهماً وافراً .

ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعْنا نعملْ صالحاً إنا موقنون ﴾[1] .

٢ ـ استعمال ظرف الزمان (إذْ) في سياق القصص والحوادث الماضية والمستقبلة : في حنايا قصة بني إسرائيل ، صور لنا القرآن حصول المعجزة التي أكرم الله بها موسى وقومه . قال الله تعالى : ﴿ وإذِ استسقى موسى لقومه فقلنا اضربْ بعصاكَ الحجرَ فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أُناس مَشْرَبَهم، كلوا واشربوا من رزقِ اللهِ ولا تعثوْا في الأرض مفسدين ﴾[2] .

ها هم بنو إسرائيل في صحراء قاحلة مجدبة ؛ رمال وسماء ؛ لا ماء ولا زرع ؛ وقد بلغ بهم الضنك غايته وأخذهم الظمأ من مجامع أفئدتهم ، إذ أجرى الله لرسولهم موسى معجزةً خارقة لقوانين الطبيعة وخواص المادة ، فأكرمهم بالمياه الدافقة . فقد أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضربَ الصخر الأصم بعصاه . وماذا تفعل العصا في جلمود الصخر !؟ ما لها إلَّا أن تتهشم عليه !! لكن قدرة الله الواسعة وعنايته ورحمته ورأفته بعباده المؤمنين ، هيأت من وراء هذا السبب اليسير الخير الكثير ، فانفجرتْ من الصخر اثنتا عشرة عيناً ؛ على عدد أسباط بني إسرائيل ، لكل منهم عين خاصة بهم ﴿ قد علم كل أُناس مشربهم ﴾ صورهم القرآن وهم في لوعة إلى الماء ، فألجأهم الظمأ إلى رسولهم ، فلجأ موسى إلى ربه يستعطفه ويسترحمه أن يمنّ عليهم فيسقيهم . رسم القرآن صورتهم في زمانها وظروفها صورة حية شاخصة متفجرة العيون دافقة المياه ، قد اجتمع شمل كل من قبائلهم على عين ينهلون من مائها رياً وطمأنينة وبهجة .

لقد أمرهم الله أن يقابلوا انعامه العظيم وإحسانه الجزيل بالتقوى

---

(١) سورة السجدة : ١٢ .

(٢) سورة البقرة : ٦٠ .

والاحتراز عما تؤديه السعة في غير أهل الإيمان من كفران النعم وبطر وأشر وعصيان وتمادٍ في الفساد ﴿ **كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوْا في الأرض مفسدين** ﴾ .

فالآية استقبلتك بقوله تعالى : ﴿ **وإذ استسقى . . .** ﴾ فصار إيراد الظرف (إذْ) للتذكير بالحادث وتصويره في زمانه وأحواله . ولا يحصل نظير هذا لو استعملت بديلاً عنه مثل لفظ « لقد » .

و (إذْ) ظرف لماضي الزمان ، فهي ظرف متعلق بمحذوف تقديره : ﴿ **اذكر** ﴾ وهو الراجح عند المفسرين ، وعليه فإن تقدير الكلام في الآية : « واذكر حين استسقى موسى لقومه . . . » و (إذْ) قيدتْ التذكر والتصور في ظرف محدد وحال معينة ، وهي حال استسقاء موسى لقومه العطاش[1] . وفي التذكر تصور لأمر مضى من قبل .

وبنفس التحليل يمكنك أن تدرس صورة بناء إبراهيم وولده إسماعيل للكعبة ، وأن تلاحظ طيب النفس والاخلاص وحسن الطوية وسلامة القصد ومجافاتهما للغرور وحظوظ النفس ؛ في ضراعتهما أثناء تشييد البناء . قال الله تعالى في تصوير حالهما : ﴿ **وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ، ربَّنا تقبلْ منا إنك أنت السميعُ العليمُ ، ربنا واجعلنا مسلميْن لك ومن ذُريتنا أمةً مسلمةً لك وأرِنا مناسكَنا وتُبْ علينا إنك أنت التوابُ الرحيم** ﴾[2] .

وأنت ترى في هذه الآية أن (إذْ) وإن كانت ظرفاً لماضي الزمان فإنها تدخل على المضارع وتقلبه إلى الماضي : ﴿ **وإذْ يرفعُ إبراهيم القواعد من البيت . . .** ﴾ وقد تم رفع قواعد الكعبة من قبلُ بإبراهيم

---

(١) روح المعاني : جـ ١ ص ٢٠٠ و ٢٤٦ وجـ ٧ ص ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٨ .

وإسماعيل عليهما السلام .

وتساهم (إذْ) بحظٍ وافر في بعث الصورة حين تدخل على الجملة الاسمية ، كما دخلت على الجملة الفعلية . تأمل ذلك في قوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذِ الظالمون في غمراتِ الموتِ والملائكةُ باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسَكم ، اليومَ تُجزون عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولونَ على اللهِ غيرَ الحقِ وكنتمْ عن آياته تستكبرون** ﴾[1] .

وتكسو (إذْ) الصورة بطابع الغرابة ، وتلفت النظر إلى ما فيها من عجيب التدبير ؛ الجدير بالتأمل والاهتمام ؛ حين تقع بعد ﴿ **واذكر** ﴾ التمس ذلك في قوله تعالى : ﴿ **واذكرْ في الكتاب مريمَ إذِ انتبذتْ منِ أهلها مكاناً شرقياً** . . . ﴾[2] وفي قوله : ﴿ **واذكرْ في الكتابِ إبراهيمَ إنه كان صدْيقاً نبياً . إذْ قالَ لأبيه يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يُبصر ولا يُغني عنكَ شيئاً** ﴾[3] .

وقد كثرَ في القرآن المبين ورود (إذْ) الظرفية كأداة من أدوات التصوير ، لاستدعاء ذلك الزمان إلى الذاكرة ومثول أحواله في الذهن ، فتعين على رسم الصورة بظروفها الواقعية ، وعلى هذا فإن « إذْ » : ظرف يقيد الفعل المسند إليه بوقت معين ، وهو عائد إلى فعل ﴿ **ألم تر** ﴾ في قوله : ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل إذْ قالوا لنبي لهم** . . ﴾ فقيدت « إذْ » الرؤيةَ بهذا الوقت ، وهو وقت قول الملأ من بني إسرائيل لنبيهم[4] .

---

(١) سورة الأنعام : ٩٣ وانظر تفسيرها في روح المعاني : جـ ٧ ص ١٩٤ .

(٢) سورة مريم : ١٦ .

(٣) سورة مريم : ٤١ ـ ٤٢ . وانظر تفسيرها في الكشاف للزمخشري . وانظر البرهان : جـ ٤ ص ٢٠٨ .

(٤) انظر روح المعاني : جـ ٧ ص ١٩٤ .

وقيدت (إذْ) التذكر والتصور ـ وهو المتعلَّقُ المحذوف ـ بوقت استسقاء موسى لقومه ﴿ **وإذ استسقى موسى لقومه** . . . ﴾ لتتشكل في الخيال صورة الحادث بظروفها الزمنية المناسبة .

٣ ـ تعريف المسند إليه[١] **بآسم الموصول** : يقصد القرآن أن يرسم في الذهن صورة من يتحدث عنه ، ويثير الخيال بإيحاءاتها . ومن ذلك : أن الله لما وبّخ المشركين على عبادة الأصنام واعتقادهم ألوهيتها أشعر المشركين بفادح خطئهم ، إذْ عبر عن الأصنام بقوله : ﴿ **إنَّ الذين تدعون من دون اللهِ عبادٌ أمثالُكُم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إنْ كنتم صادقين** ﴾[٢] . أسقط الله عن معبوداتهم صفة الألوهية وأثبت عدم استحقاقها للعبادة ، إذْ عرَّفها بالاسم الموصول بقوله : ﴿ **إنَّ الذين تدعون من دون الله** ﴾ فرسم في الذهن صورتها فاستوعب معناها ، فهي من جملة مخلوقات الله المفتقرة إليه ، فأثار في النفس استصغار شأنها واستنكار عبادتها ، مع أنه لم يذكر اسمها صراحة ، فلم يقل « إن أصنامكم » وعول على هذه الطريقة في التصوير في آيات كثيرة ، فجاءت الصورة في الذهن تعاضد الاستدلال على صحة ما صححه القرآن وبطلان ما أبطله ، وحملت النفوس على قبوله والتسليم به ، لذلك ناسب أن يعقب ههنا عليها بقوله : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** ﴾ هي مملوكة لله خاضعة لعظمته مسخرة لسلطانه ؛ عاجزة لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

هذه التي زعمتم ألوهيتها هي مثلكم . لكنْ كيف شبهها بهم مع أن

---

(١) وهو المحكوم عليه أو المخبر عنه ، وله ستة مواضع : الفاعل ، ونائب الفاعل ؛ والمبتدأ الذي له خبر ؛ وأسماء النواسخ كان وإن وأخواتهما والمفعول الأول لظن وأخواتها ، والمفعول الثاني لأرى وأخواتها .

(٢) سورة الأعراف : ١٩٤ ﴿ تدعون من دون الله ﴾ : تعبدونهم أو تسمونهم آلهة . والدعاء : إما بمعنى العبادة ؛ تسمية لها بجزئها ؛ أو بمعنى التسمية .

عجزها أظهر وأقوى من عجزهم ؟؟ تلك نكتة لطيفة ، فإنهم يعترفون بعجز أنفسهم ، والـذي يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها توهمهم قدرتها على الخلق والهداية والتأييد والنصر . ولكن غاية المبالغة في شأنها بعد أن بين انحطاطها عن رتبة الألوهية ؛ أن يقال لهم عنها : إنها مثلكم ، فصار في ذلك من الاستدلال المفحم على بطلان عبادتها والعياذ بها ما لا قِبل لهم بردّه ، خاصة وأنه تعالى قرن عبدية الأصنام بتحدي المشـركين وتبكيتهم بقوله : ﴿ **فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾[1] .

٤ ـ وضـع الاسم الظاهر موضع الضمير : وهـو أسلوب قوي في استحضار الصورة جليةً إلى الذهن ، وهو كثير في القرآن المجيد ، كقوله تعالى : ﴿ **قد نعلمُ إنه لَيحزنـكَ الذي يقـولون ، فـإنهم لا يكذبـونك ، ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾[2] .

صورت الآية تجدد حزن الرسول لاستمرار عناد المشركين وتكذيبهم بدلائل النبوة وآيات الله الباهرات . وواستْ الآيـة رسول الله مفيـدة بلوغ الرسول من جلالة القدر ورفعة الشأن ما قضى بنفي التكـذيب له ، وأنهم إنمـا كـانـوا يكـذبـون آيـات الله . لكن الآيــة وضعت الاسم الـظاهـر « الظالمين » موضع الضمير ، إذْ قال تعالى : ﴿ **ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ ولم يقل « لكنهم » وهـذا فن من فنون القـرآن ، أحضر إلى ذهنك صورة المشركين ورسوخهم في الظلم بالتكبر والتجبر وجحود الحق المبين . فـاستقرَّ في النفس أن القـوم عتاة مـردوا على الضلال ومجـافاة أمر الله[3] .

ومن هذا القبيل أيضاً وضع اسم الإشارة موضع الضمير كما في قوله

---

(١) انظر روح المعاني : جـ ٧ ص ١٤٦ وجـ ٩ ص ١٢٧ .

(٢) سورة الأنعام : ٣٣ .

(٣) راجع روح المعاني : جـ ٧ ص ١١٦ ـ ١١٧ .

تعالى في مطلع سورة البقرة : ﴿ **الم . ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه هدىً للمتقين ، الذين يؤمنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصلاةَ ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنونَ بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئكَ على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

فقد صورتْ لنا الآياتُ صورةَ المتقين المستمسكين بالكتاب المبين . ثم أثارت الصورة مرة ثانية **واستحضرتها في الذهن باسم الإشارة** ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ فصاروا ماثلين في الخيال بصفاتهم المذكورة إيماناً بالغيب وإقامة للصلاة وإنفاقاً من أموالهم ويقيناً بشرائع الله المنزلة على المرسلين ، فأشعرت القارىء بكمال تميزهم عن الناس بهذه الأوصاف التي نقلها اسم الإشارة إلى الذهن من حيّز المعقول إلى نطاق المحسوس المشاهد ، إذْ أعانك اسم الاشارة على أن تتملاها بناظريك ثانية ، ونبهك إلى علو منزلتهم ورفعة مقامهم بالإشارة للبعيد ﴿ **أولئك** ﴾ .

وأراكهم في رحلة الحياة الدنيا لا يمتطون راحلة تتعثر ولا جواداً يكبو ولا سفينة تعصف بها الرياح وتتقاذفها الأمواج في لجج البحار ، ولكنهم امتطوا خيراً من ذلك ، إذْ تمسكوا بالهدى وتمكنوا منه واستقروا عليه . فصورتهم الآية كمن اعتلى شيئاً وامتطاه وحذفت المشبه به على طريق الاستعارة المكنية ، فأفادت رسوخهم في الهدى . وجاء اسم الإشارة ثانية يستحضر في الذهن صورتهم بأوصافهم ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ ليدل على استحقاقهم الفوز والظفر بنعيم الآخرة وجدارتهم به . فأثارت الآية في قلبك كوامن الحب والاكبار لهم ، وبعثت عزيمتك على سلوك سبيلهم والتحلي بخصالهم[1] .

---

(١) انظر تفسير الآية في روح المعاني : جـ ١ ص ١١٥ وما بعدها .

٥ ـ **التصوير بالاستعارة** : وقد سبر الأقدمون أغوار هذا اليم الخضم ، وفيه جوانب لم تزل بحاجة إلى التأمل والدراسة والاستنتاج ، فالبحث جليل ممتع متعدد الألوان ، نقتصر منه على هذا النموذج الموحي :

قال الله تعالى : ﴿ **فاصدعْ بما تُؤمرُ وأعرِضْ عن المشركين** ﴾[1] .

والصَّدْعُ : الشَّقُّ في الشيء الصلب كالزجاجة والحائط وغيرهما . وتأويل الصَّدع في الزجاج أن يبينَ بعضُه من بعض . وقوله تعالى : ﴿ **يومئذ يصَّدَّعون** ﴾[2] قال الزجاج : معناه : يتفرقون فيصيرون فريقين : فريق في الجنة وفريق في السعير . وعليه فإن الصدع يعني : الإبانة والتمييز . ومنه : صدع بالأمر ؛ أصاب به موضعه وجاهر به ، وصدع بالحجة : تكلم بها جهاراً .

فالله تعالى يأمر محمداً ﷺ في هذه الآية : **اجهر** يا رسول الله بما أمرك الله به من الشرائع المنزلة عليك في كتابه العظيم ، **أو فرِّقْ** برسالة الله بين الهدى والضلال ، وميِّز بها الحق من الباطل ، واعتمد على الله وحده ، ولا تُبال بالمشركين ، ولا تأبهْ لأقوالهم وتصرفاتهم . وقد ظل رسول الله ﷺ مستخفياً بالدعوة ، حتى أنزل الله هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه وأعلنوا الدعوة غير عابئين بالمشركين .

وقال ابن الاعرابي : (فاصدعْ بما تؤمر) **شُقّ جماعتهم بالتوحيد**[3] .

---

(١) سورة الحجر : ٩٤ .

(٢) سورة الروم : ٤٣ .

(٣) انظر روح المعاني : ١٤ : ٧٨ وإرشاد العقل السليم : ٣ : ١٥٩ . وانظر لسان العرب ؛ والمفردات للأصفهاني ؛ في مادة : صدع .

وذهب ابن أبي الأصبع المصري إلى بيان الاستعارة على النحو التالي :

(فاصدع بما تؤمر) فالمستعار منه الزجاجة ، والمستعار الصدع ، وهو : الشَّق، والمستعار له عقوق المكلفين ، والمعنى صرّحْ بجميع ما أُوحي إليك ، وبيِّنْ كل ما أُمرتَ ببيانه ، وإن شَقَّ ذلك على بعض القلوب فانصدعت ، والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصديع في القلوب ، فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبض والانبساط ، ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار ، كما يظهر ذلك على ظاهر الزُجاجة المصدوعة من المطروقة في باطنها[1] .

وهذا اللون هو من نوع استعارة المحسوس للمعقول ، **ويمكنك أن تقول** : إن المستعار منه : كسر الزجاجة ، وهو حسي ، والمستعار له : تبليغ الرسالة ونشرها ، وهو أمر عقلي . والجامع بينهما : التأثير الذي لا يمكن معه ردُّ الشيء إلى ما كان عليه سابقاً . فكسر الزجاجة وتفرق أجزائها لا يُجبر ولا يلتئم ، وتبليغ رسالة الله للناس وإعلانها عليهم وما ينجم عن ذلك أمر لا عودة بعده إلى الخفاء ، كما لا عودة لأجزاء الزجاجة المصدوعة إلى الالتئام . ويقال في إجراء الاستعارة : شبَّه نشر رسالة الله وتبليغها تبليغاً قوياً جلياً بالصدع ؛ بجامع التأثير في كل منهما[2] .

ولا ريب أن عماد الاستعارة « فاصدع » تلك الكلمة الموحية المعبرة ، التي ترف بالمعاني الغزيرة ، حتى اتسعت لهذه الأقوال في فهمها وتأويلها . والحق أنها تحتمل جميع الذي قالوه ، فإن كلًا من الأئمة قد أعطى المعنى من زاوية معينة .

فمقصود الآية : إنهاء عهد الدعوة السرية والجهر بالدعوة إلى الله ،

---

(١) بديع القرآن : ص ٢٢ .

(٢) انظر علم البيان : ص ١٤٠ .

غيـر أن الجهر بـالدعـوة سيفرق بين الحق والبـاطـل فتهتـدي قلوب بعـد ضلالها ، وآثار ذلك أن يتفرق جميع المشركين بدعوة الرسول إلى توحيد الله والاعتصام برسالته ، وتتمزق جماعتهم تمزق الزجاج بالصدع ، وهذا ما حصل بالفعل حتى تميز القريب عن قريبه والأخ عن أخيه والوالـد عن ولده ، ثم دارت بينهم في سبيل هـذه الدعـوة رحى المعارك الضـارية . فـالتعبير عن ذلـك كله بهذه الاستعـارة في ثلاث كلمـات ﴿ **فاصـدعْ بما تُؤْمر** ﴾ لهو أبلغ تعبير تصويري ممكن، وهو في رتبته من الجمال والجلال يثير الدهشة ويودي بنبوغ الإنسان الأدبي في غياهب العجز والقصور .

قال ابن أبي الأصبع المصري معقباً على هذه الاستعارة :

(فانظرْ إلى جليل هذه الاستعارة وإلى عظيم إيجازها ، وما انطوت عليـه من المعاني الكثيـرة ؛ التي ذكرنـا ملخصها ؛ في ثـلاث لفظات ، وكذلك أنَّ بعضَ الأعراب لما سمع هذه اللفـظات الثلاث سجـد ، فقيل له : لم سجدتَ ؟ فقال : سجدتُ لفصاحةِ هذا الكلام ، لأنـه أدرك منه بديهاً من غير تأمل كلَّ ما أدركناه بعد النظر والروية ؛ وتقدّم تحصيل مواد النظر في المدة الطويلة ، ومن هذا الموضع تبيّن لك أن العرب تيقنت من أول ما سمعت القرآن أنه غير مقدور للبشر ، فلم تشتغل بالمعارضة ولا حدثت نفوسها بها)[1] .

٦ ـ التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وبالعكس :

حين يحدثنا القرآن عن أمور مستقبلة ؛ فما أكثر ما ينبّه على تحقق حدوثها قطعاً ؛ بتصوير وقـوعها وانقضـائه سـابقاً ، إذْ يعبـر عنها بصيغـة الماضي بدل المستقبل . وربما يحدثنا عن أمر ماض فيصوره لنا حـاضراً يجري أمامنا لنتأمل ما فيه من عجب مدهش .

---

(١) بديع القرآن : ص ٢٢ ـ ٢٣ .

صوَّر الله حالة المشركين وموقفهم من دعوة رسول الله وتجافيهم عن رسالة الله إليهم ، فقال جلّ جلاله : ﴿ **ومنهم مَنْ يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكِنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاؤوك يجادلونك ، يقول الذين كفروا إنْ هذا إلَّا أساطير الأولين . وهم ينهوْنَ عنه وينأوْنَ عنه وإنْ يُهلكون إلَّا أنفسَهم وما يشعرون** ﴾[1] . هذه صورة كاملة لموقف المشركين من رسالة الله ودلائلها ومن رسوله الكريم . صورة بارعة لقبس من الحياة البشرية الكاملة بحواسها وحوارها وحركتها ؛ وركوب الإنسان متن الهوى إصراراً وعناداً ؛ على الرغم من انبلاج الصبح ووضوح الطريق . هذه الصورة لواقع المشركين في الدنيا قابلها الله بذكر صورة لواقع المشركين في الآخرة . ولئلا ينأى بك مستقبل الزمان عما سيحيق بهم ؛ عدل القرآن العظيم عن التعبير بصيغة المضارع الى الماضي ، فالعقاب واقع بهم لا محالة ، ها هو أمام ناظريك ، فتأمله ملياً : ﴿ **ولو ترى إذْ وُقِفوا على النار ، فقالوا : يا ليتنا نُردُّ ولا نكذبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين** ﴾[2] .

خاطبك النص القرآني إذْ وجَّه الخطاب إلى غير معين ، فوجهه إليك وإلى كل عاقلٍ أهلٍ لتلقي الخطاب ، فإن سوء حال المشركين قد بلغت من الشناعة مبلغاً مريعاً فاضحاً ، حتى صارت مكشوفة أمام الجميع لا يختص بمشاهدتها راءٍ دون آخر .

هلا نظرت إليهم ! ها هم بخيلائهم وكِبرهم ، بجبروتهم وتكذيبهم ؛ قد انقلبوا تماماً ، انظر إليهم وقد حبسوا على النار لا يستطيعون إفلاتاً ولا تحولاً ، وانكشفت لهم حقائق الأمور ، رأوا شدائد وأهوال العذاب ، فتملكهم فزع رهيب ، وبدا عليهم الخزي

(١و٢) سورة الأنعام : ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ .

والاستخذاء ، ونطقت أفواههم بالحسرات والندم ﴿ **ولو ترى إذْ وقفوا على النار . .** ﴾ هذا سر التعبير ومدلوله . وقد كان متوقعاً أن يقول : « ولو ترى حين يقفون على النار حتى يعاينوها . . » شتان شتان بين ما ينصرف إليه نبوغ البشر وما أنزله خالق البشر في قرآنه المجيد !!

لقد أورد القرآن التعبير عن المستقبل بصيغة الماضي إشعاراً بتحقق وقوع الحدث حتماً ؛ وتصويره للذهن بصورته الواقعية وظروفها المادية والمعنوية . وأورد البيان الرباني « لو » شرطية وأغفل ذكر جوابها لتذهب نفسك عن قراءتها كل مذهب في ارتقاب أمرِّ الأهوال ، فصار حذف جوابها أبلغ في ادخال الهول على النفس البشرية ، وتقديره : (ولو ترى اذْ وقفوا على النار . . . ﴾ « لرأيتَ هولاً رعيباً لا يحيط به نطاق التعبير »[1] . وقد استعار القرآنُ المبينُ لفظ الماضي للمضارع ؛ بناء على تشبيه المستقبل المحقق قطعاً بالحدث الماضي الواقع فعلاً ؛ بجامع تحقق الوقوع في كل منهما .

ويعبّر القرآن أحياناً عن الماضي بلفظ المضارع ، فقد أرى الله إبراهيم الخليل في المنام أنه قد ذبح ولده إسماعيل ، ورؤيا الأنبياء وحي ، فقابل إبراهيم ولده بأمر الله في اليقظة . صاغ الله خطاب إبراهيم لولده إسماعيل بقوله : ﴿ **يا بُنيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك !! فانظر ماذا ترى !؟** ﴾[2] .

فجاء التعبير بالمضارع ـ في كلا الفعلين بدلاً عن الماضي ـ بمزيد تنبيه للحدث المذكور ، حتى يجعل الصورة العجيبة الغريبة تجري أمامك

---

(١) انظر روح المعاني : جـ ٧ ص ١١٠ ـ ١١١ .
(٢) سورة الصافات : ١٠١ .

في ساحة الحادثة ، فتُريك والداً يذبح ولده . . براعة فائقة في التصوير ؛ أثارت الخيال واستحوذت عليه بغرابة الصورة المعروضة ، حتى يكاد المرء يحسب أنه يراها رأي العين .

وهكذا استعير لفظ المضارع للماضي ؛ بناءً على تشبيه غير الحاضر بالحاضر ؛ **لاستحضار صورته الماضية ؛ لما فيها من غرابة وعجب !**[1] .

---

(١) والتعبير عن المضارع بالماضي وعكسه هو من: استعارة الفعل ، ولم يذكره البلاغيون القدماء في بحوث الاستعارة، غير ان قواعدها تقبل ذلك ولا تأباه. واعتبره بعضهم من : إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ؛ بقصد التنبيه على تحقق الوقوع في الأول واستحضار الصورة الغريبة في الثاني ، ويكون عندئذ من علم المعاني لا من علم البيان . واعتبره آخرون : مجازاً مرسلاً ؛ علاقته الإطلاق والتقييد ؛ أو علاقته المجاورة . ومهما كان أمر تصنيفه فإنه من وسائل التصوير البارعة في القرآن العظيم . وهذا ما يهمنا ههنا .

خصائص أسلوب القرآن البياني

امتاز أُسلوب القرآن بخصائص عظيمة باهرة ، أزهتْ طابعة المعجز لغةً وبلاغةً ، وتعددت تعدداً كبيراً . لكن استقصاء مزاياه شأن بعيد المنال دونه خرط القتاد ، فإنه علم استأثر به مُنزِلُه الذي عنده علم أسرار الكتاب ، لكنا لن نحجم عن الادلاء بدلو يروي ظمأ المتطلع ويشفي غلته ، فما لا يدرك جُله لا يترك أقله . وها أنا ذا أذكر نُبذاً يسيرة منها على وجه التمثيل والتقريب ؛ فيما يلي :

١ ـ تميُّزُ النظم القرآني :

اشتمل القرآن على أفصح ألفاظ العربية وأعذبها . وإن هذه الألفاظ وإن كانت معهودة استعملها العرب قبل الإسلام وبعده ؛ فإن القرآن قد فاق جميع كلامهم وعلا عليه علواً شامخاً ، وما ذاك إلَّا لحسن السبك وروعة التأليف . فقد تحسُنُ الكلمةُ في مورد ويتألق فيه جمالها ، لتعانقها مع ما حولها ، بينما تبرز شوهاء شنيعة في موقع آخر ، ذلك أن تناسب الكلام عائد إلى دلالات الألفاظ ومزاياها ؛ وخفتها ورقتها أو فخامتها وجزالتها . إن مراعاة هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ على الوجه الأكمل الذي درج عليه القرآن من أوله إلى آخره أمرٌ متفوق تعجز عنه المَلَكات الأدبية والقدرات البشرية . وقد ضرب ابن الأثير لذلك مثلاً ، فقال :

(قد جاءتْ لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر ؛ فجاءتْ في القرآن جزلَةً متينةً ، وفي الشعر ركيكة ضعيفة ، فأثَّر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين ؛ أما الآية فهي قوله تعالى : **﴿ فإذا طَعِمتُم فانتشروا ولا مُستأنسينَ لحديثٍ إنَّ ذلكم كان يُؤذي النبيّ فيستحيي منكم**

والله لا يستحيي من الحق ﴾[1] .

وأما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبي :

تَلَذُّ لـه المروءَةُ وهي تُؤذي وَمَنْ يعشقْ يَلَذُّ له الغرامُ[2]

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة ، إلَّا أن لفظة « تؤذي » قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن ، فحطَّتْ من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحَسُنَ موقعها في تركيب الآية .

(فأنصفْ أيها المتأمل لما ذكرناه ، واعرضه على طبعك السليم حتى تعلم صحته ، وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة ؛ وإمعان نظر ، وما تعرض للتنبيه عليه أحد قبلي ، وهذه اللفظة التي هي « تؤذي » إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كقوله تعالى : ﴿ **إن ذلكم كان يؤذي النبي** ﴾ وقد جاءت في قول المتنبي منقطعة ، ألا ترى أنه قال : « تلَذُّ لهُ المروءَةُ وهي تؤذي » ثم قال : « ومن يعشق يلذ له الغرام » فجاء بكلام مستأنف)[3] .

إن الكلام إذا جاء شعراً منظوماً ؛ ورد زاخراً بالعواطف قويَ الإيقاع ، مما يعوقه في معظم الأحيان عن إبانة المعاني المقصودة تفصيلاً وسرد الحوادث إسهاباً ، وإذا كان الكلام نثراً فقدَ ؛ على الأغلب ؛ كثيراً من الحرارة ، فأبان عن المعاني بفتور ظاهر ، يحتاج معه الكاتب إلى الاستشهاد بآية من كتاب الله المجيد أو بيت من الشعر . أما القرآن العظيم فقد امتاز بنظمه الفريد المتسق مع المعاني والأغراض ببيان ساطع شافٍ

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٢) والغرام في هذا البيت : العذاب ، وتقول : لَذَّ لي كذا يلذ ، من باب طرب يطرب ؛ مثل ظل يظل .

(٣) المثل السائر : جـ ١ ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

كـافٍ . ولم يمنعْـه الاسهـابُ وحسنُ البيـان من الاشتمـال على الإيقـاع الملائم والقدرة على إثارة المشاعر الحارة وقوة التأثير في القلوب ، حتى راح الكتّاب والأدباء يفضلون الاستشهاد بآية من القرآن المبين ، لتزدان بها آثارهم الأدبية[1] .

لقدنقض النظم القرآني عادة العرب فيما ائتلفـوا عليه من ضـروب الكلام من شعر ونثر ورسائل وحِكَم وأمثال ، فإنه كما قال الإمام الرماني : (**فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة**)[2] .

٢ ـ إحكام سبك القرآن :

فالألفاظ القرآنية متعانقة متماسكة آخذٌ بعضها بأعناق بعض ، حتى تراها سلسلة رقيقة عذبة متجانسة أو فخمة جزلة متآلفة . فالكلمات متاخية متجاوبة جرساً وإيقاعاً ونغماً ؛ متلاقية منسجمة معنى ودلالة وتأثيراً نفسياً ووجدانياً ؛ على أروع مستـوى يطيق البشـر تصوره . وإنمـا قُصدت كـل كلمة فيه بذاتها لما تشع به من مغزى ؛ وتحققه من تجانس وائتلاف . فلو استبعدتها لم تقدر أن ترصف مكانها كلمةً أخرى تقوم مقامها . ويستحيل أن تستغني عن كلمة منه دون إخلال بالمعنى المقصـود من الآية ، فكـل كلمة تنبض في شرايين الكلام مغزىً جديداً لا تبثه غيرها . فمهما كررت تـلاوة القـرآن المجيـد فلن تقف فيـه على تـزيـد أو نقص أو تـرادف في الكلمات ، **فلا مترادف في القرآن . لقد اختيرت كل كلمة فيـه لمغزاهـا ومدلولها ولصفاتها الذاتية من رقة وسلاسة أو فخامة وجزالة ، وقُصـدت بصيغتها وحروفها لجرسها وإيقاعها ، فلا يتأدى معناها وإيحاؤها وجرسها**

---

(١) سيأتيك تبيان ذلك في : آثار القرآن العظيم في اللغة والأدب ص ٣٧١ .

(٢) راجع ص ١٨٧ .

إلَّا بها وحدها . وهذا سر من الأسرار الدقيقة التي تتجلى بها عظمة القرآن وأمجاده المعجزة .

إذا استطلعتَ كتبَ التفسير وجدتها ثرية ببيان المناسبات بين الآيات والسور القرآنية . فإذا لاحظت أن كلمات الآية الواحدة رائعة التجانس والتجاذب ؛ وأن آيات السورة الواحدة متينة التشابك والترابط ؛ وأن سور القرآن متناسقة متناسبة ؛ أدركتَ يقيناً أن الذكر الحكيم كتاب إلّهي كامل بديع السمت ﴿ **قرآناً عربياً غيرَ ذي عوج لعلهم يتقون** ﴾[1] وتجلى لك سبيكة واحدة ؛ تأخذ بالأبصار وتستحوذ على العقول والأفكار .

٣ ـ أسلوب القرآن مؤتلف مع معانيه :

اقرأ المعلقات الشعرية وغيرها من آثار الأدب الجاهلي تجد ألفاظها لا تنفك من غريب مستنكر أو وحشي مستكره ومن معان قاصية ، وكما تجد فيها الكلام البليغ والمتوسط تجد أيضاً الكلام الوضيع المبتذل ، الذي بلغ الغاية في تدني الرتبة . وقدْ قدم الإمام الباقلاني عليه رحمة الله تحليلاً لقصيدة امرىء القيس انتقده فيها نقداً مرّاً[2] ، يكشفُ عن الهفوات الشنيعة ، ويدل بالتالي على قصور القدرة البشرية عن مجاراة بلاغة القرآن ، فقد سهّل الله سبيله ، وبرَّأه عن حوشي الكلام ومنكر غريبه ، ونـزَّهه عن التكلف في الصنعة ، فجاء سلساً ، ينساب كالماء الزلال ؛ قريباً إلى الأفهام ، يسبق معناه اللفظَ إلى القلب فيستقر ، ويغزو النفس فيتمكن . احتوى المعاني الجمةَ العظيمة مع سهولته ويسره وعذوبته . فعزَّ مطلبُ مثيله على البشر وامتنع ، فلم يطمعْ أحد بالظفرِ

(١) سورة الزمر : ٢٨ .

(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلاني : ص ١٥٩ ـ ١٧١ .

بمداناته أو القدرة على مثله[1] .

وإنما يُنْبِيءُ الكلام عن مقام صاحبه ويدل على مكانة متكلمه . وأنت تتعرف على صدقه أو ريائه في كل غرض من أغراض كلامه . ألا ترى أن الشعر في الغزل إذا صدر عن محب مولّهٍ ؛ كان أرقّ وأصفى وأروى للنفس من السلسبيل ، وإذا صدر عن متعمل متصنع كان كافياً في الدلالة على مداجاته وكذب عاطفته . فهذا جرير عفُّ النفس يجيء شعره في الغزل رقيقاً عذباً مطرباً . فيدل على سمو عواطفه وإنسانية مشاعره . وذاك الفرزدق يكاد يُخبر عن نفسه أنه زير نساء ، ونظمه في الغزل فج لا يُستعذب ، فيدل على وضاعة مشاعره وبلادة أحاسيسه وتحجر فؤاده . فالفرزدق مع كل ما أبداه قد فضحه شعره وأثبت أنه لم يعرف للحب معنى ولم يذق له طعماً . وأنتَ تُحس لقول المتنبي :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والحربُ والضربُ والقرطاسُ والقلمُ

من الوقع في القلب ما تعلم به أنه أهل الفروسية والشجاعة . ولا تحس بمثله لقول البحتري :

وأنا الشجاعُ وقد بدا لك موقفي ... بعقر قسٍ والمشرفيةُ شُهَّدي

والقرآنُ أعلى منازل البيان ، وقد جمع وجوهَ الحُسن وأسبابه : من روعة النظم وحسنه وبهجته ؛ وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ؛ ووقوع ألفاظه ومعانيه في النفس موقعَ القبول والإجلال ؛ وتصوره تصور المشاهد حتى يحل محل البرهان والدليل ، إلى غير ذلك من المزايا ؛ مما لا ينحصر حُسناً وبهجة وسناء ورفعة . فسما بيان

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٤٦ ـ ٤٧ .

القـرآن فوق كـل بيان ، وسـرى إلى النفوس في مسـالك لـطيفـة ؛ وإلى القلوب في مداخل دقيقـة . فصار لـه من الوقـع في القلوب والتمكن في النفـوس ما يُـدهش ويبهج ؛ ويقلق ويؤنس ؛ ويُـطمع ويئيس ؛ ويُحـزن ويفرح ؛ ويُشجي ويطرب ؛ ويهز الأعطاف ويستميل الأسماع ؛ ويـورث الجـود والأريحية والعـزةَ ؛ ويبعث على بـذل المهـج والأمـوال شجـاعـة وجوداً . وهكذا ؛ فإنه ينفذ من كافـة أقطار النفس الإنسـانية ، ويتغلغـل في أعماق الأفئدة ، فيحملها على الخشوع والاخبات ؛ لما في طياته من قوة وهيمنة تدل على تنزله من عُلُو ؛ وصدوره عن عظمة الألوهية وشـرف الربوبية ؛ وقدرةِ الإله الحق ذي الجبروت . **فالقرآن بنفسه يدل على قدر متكلمـه ، ويخبر عن مقـام منزلـه ، كمـا ينبـه على عـظيم شـأنـه وقـوة إعجازه ، فيثبت لكل عاقل صحةَ رسالةِ محمد ﷺ وصدق نبوته .**

٤ ـ خطاب العقل والقلب بآن واحد :

لكـل أسلوب طريقتـه الخـاصـة ؛ فـالأسلوب العلمي أو الفلسفي يُعنى بخـطاب العقل وحـده ، والأسلوب الأدبي نثراً ونـظمـاً يغلب عليـه الاعتناء بخطاب القلب وإثـارة العاطفـة ، أو يخاطب القلب تـارة والعقل تارة أخرى .

لكن أُسلوب القرآن العظيم يتميـز بأنـه يخاطب الإنسـان كله عقلاً وقلبـاً ووجدانـاً ؛ بـآن واحـد. يعـرض القـرآن حقـائق الـوجـود الكـوني والإنسـاني واضحة جليـة يفهمها العلمـاء والعامـة كـل حسب مستـواه ، يعرضها جميلة مستطابة هادفة ، تعتمـل في العقل وتثيـر الخيال بصـورها الجذابة الرائعة ، وتستحوذ على القلوب والأفئدة . ترى القضية معروضة عليك سبيكة واحدة لا انفصام فيها بين الحقيقة العلمية والحقيقة الـدينية والهداية الـربانيـة . فلا تـرى الفكرة في عـزلة أو انفصـال عن التأثيـرات الـوجدانيـة والعاطفيـة ؛ كما تلحظ في الأبحـاث الفلسفيـة والمـواضيع

العلمية[1] . فها هي الآيات العلمية تعرض حقائق الكون وروعته ودقة قوانينه ونظمه وانضباط أجرامه واتساق أجزائه ومجراته ، لا لتعظمه وتؤلهه ، بل لتسمو بك إلى تملي عظيم قدرة الله وسعة علمه وباهر إبداعه في ملكوته الشاسع . تأمل هذا النص القرآني يعرض عليك حقائق كونية كثيرة متباعدة ، فينظمها في سلك واحد ، فإذا هي عقد واحد جميل جليل مدهش ، فإنها قد وردت في سياق واحد مؤتلف متشابك متعاضد متساند لتؤدي دورها في الفكر والوجدان والضمير والإرادة ، فترسي دعائم اليقين برب العالمين وعباده المرسلين والمثول بين يديه يوم الدين .

قال الله تعالى : ﴿ **قلِ الحمدُ لله وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمَّا يشركون !؟ أمَّنْ خلق السمواتِ والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجةٍ ، ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها ! أإلهٌ مع اللهِ !؟ بل هم قومٌ يعدلون . أمَّن جعلَ الأرضَ قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعلَ بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله !؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمَّن يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السوءَ ويجعلُكم خلفاءَ الأرض ! أإلهٌ مع الله !؟ قليلاً ما تذكَّرون . أمَّن يهديكم في ظلماتِ البرِ والبحرِ ومَنْ يُرسل الرياحَ بُشراً بين يديْ رحمته ! أإله مع الله !؟ تعالى الله عما يشركون . أمَّن يبدؤُ الخلقَ ثم يعيده ومَن يرزقكم من السماء والأرض ! أإله مع الله !؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين !! قل لا يعلم مَنْ في السموات والأرض الغيبَ إلاَّ اللهُ ، وما يشعرون أيَّانَ يُبعثون** ﴾[2] .

تحدث النص عن السموات والأرض ليلفت النظر إلى القدرة

---

(1) راجع ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(2) النمل : ٥٩ ـ ٦٥ يعدلون : ينحرفون عن الحق .

الإلَهية العظمى التي قامتا بها ، وحدثنا تعالى عن محكم تدبيره وجمال خلقه في إنزال المطر وإنبات الزرع والشجر لتتملى الأعين بهجة الحدائق ونضارتها . وانتقل بنا إلى تذليل الأرض وشق الأنهار . . . الخ .

حقائق كثيرة متعددة عَرضتْ بالبرهان العقلي الدامغ قضيةَ الإيمان بالله وضعف البشر وعبوديتهم ؛ وخضوع الكائنات وتسخيرها رحمة بالبشرية ؛ وما فيها من جمال وإبداع وإحكام . وعرضت لعالم الشهادة وعالم الغيب . ويشير ذلك كله إلى القدرة الإلَهية الخلاقة العظيمة العادلة الحكيمة ، التي قضت ببعث الموتى يوم الحساب . كل ذلك في نص واحد متصل متسق عذب كالسلسال .

وبهذا الامتياز المعجز حقق القرآن غاية عظمى من غايات الدعوة وأهدافها ، هي أن خاطب عقول العامة وامتلك نواصي أفئدتهم ، وخاطب الخاصة بإشراق ديباجته وحسن مَنْطقه وقوة استدلاله الملزم المفحم ، واجتذبهم بإشارته إلى بعيد مرماه وعميق محتواه ؛ ليجدوا فيه سمو الإعجاز في المستوى الفكري الرفيع الذي تتشوف إليه نفوسهم ، فجاء أثر القرآن ؛ بخطاب واحد ؛ عميقاً عاماً في ضمائر جميع العقلاء المنصفين من علماء وعامة، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم سبل السلام .

٥ ـ سمو الأسلوب القرآني في الأغراض العلمية :

إن البليغ المفصح والشاعر المفلق والخطيب المصقع ليختلف أسلوبه باختلاف الأغراض ، فبعضهم يجيد في الوصف دون الغزل ، وغيره يبرع في الحماسة والفخر ، وغيره عند الرغبة أو الرهبة[١] .

---

(١) راجع ص ٢٢٠ وما بعدها .

لكن القرآن الكريم قد تصرف في موضوعات عديدة متفاوتة ؛ من قصص ووعظ وحِجاج وحِكَم ووعد ووعيد ووصف وتعليم وأخلاق كريمة وتشريعات أبدية ، وتحدث عن الألوهية والعبودية والكون والإنسان ، ومع كل هذا فإن أسلوبه ظل في المنزلة العليا فصاحة وبلاغة . ولا يخفى عليك أن اختيار الألفاظ البارعة للمعاني الجديدة أعجب وألطف من إيراد اللفظ البارع في المعاني المتداولة[1] .

وحين يعرض نبغاء الكتّاب إلى بيان فكرة علمية تجد أسلوبهم اتجه إلى العقل يغذيه بالمعرفة ، وتمتازعبائرهم عندئذ بالتحديد والاستقصاء ، وتعول على المصطلحات العلمية وتعمد إلى السهولة والايضاح ، **لأن الأسلوب العلمي لغة العقل المدقق** . لذا يخسر هذا الاسلوب الجزالة والفخامة والقوة والإثارة العاطفية والأنغام المؤثرة الموحية . وقلما تجد فيه جمالاً فنياً أو استخلاصاً للعِظات والعبر .

يثير إعجابك ويأسر لبك الجمال والبهاء والروعة حين تقرأ نصاً تشريعياً من القرآن ، فتجده خالياً من جفاف الأسلوب العلمي أو جموده ، إذْ تتبدى لك في القرآن براعة الصياغة التشريعية المرهفة الهادفة ، حتى تعجز عن استبدال كلمة بأخرى أو تقديم فقرة على أختها ، فهو يربط الحكم التشريعي بالوجدان الديني ربطاً وثيقاً عميق الايحاء قوي التأثير ، ويبثك من خلاله نفحة روحية سامية ، تحفز همتك عن التزام حكم الله والسعي لمرضاته . وتجد النص متصلاً مترابط الأحكام لا ينتقل من مسألة إلى أخرى إلَّا بعد استيفاء حكمها التشريعي ، فلا يعود إلى الإشارة إليها إلَّا لاتصال جديد وثيق معها . ومع أن الغرض التشريعي غرض مرهف حساس دقيق يحرفه لفظ واحد

---

(١) راجع ص ٢٠٤ وما حولها .

عن مجراه المقصود ، فإن القرآن العظيم يبهرك بالجمع البارع بين الدقة التشريعية والجمال الأدبي الفذ على نحو فريد .

هذا نص تشريعي تحدث في شأن ماليّ هو الدَّيْن والرهن ، فتأمله ملياً ، قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَيْنٍ إلى أجلٍ مسمىً فاكتبوه ولْيكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدلِ ، ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتبَ كما علمهُ اللهُ ، فلْيكتبْ ، ولْيُمْلِلِ الذي عليه الحقُّ وليتقِ اللهَ ربَّهُ ولا يبخسْ منه شيئاً ، فإنْ كان الذي عليه الحقُّ سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيعُ أن يُمِلَّ هو فليُمْلِلْ وليُّه بالعدلِ** ﴾[1] .

تلحظ دقة الصياغة وتساوق النغم مع الفكرة التشريعية وتسلسلها إلى الخاطر . لاحظ مثلاً قوله : ﴿ **تداينتم بدين** ﴾ فإنك لا تستطيع أن تستغني عن كلمة ﴿ **بدين** ﴾ لأن الضمير سيعود عليها بعد قليل ﴿ **فاكتبوه** ﴾ فوجودها في مكانها في النص ضرورة حساسة .

ويتجلى التأثير الوجداني قوياً محرِّضاً ، فقد أمر الله الكاتب أن يكتب دون إباء أو تلكؤ ؛ طالما أن الله منَّ عليه ووفقه لتعلم الكتابة وأصول تدوين الحقوق ، فليكن وفياً لفضل الله عليه وليُلَبِّ مَن طلب إليه أن يكتب له . ثم تأمل كيف أخذ الله بناصر الضعيف وهو المَدين وجعله سيد الموقف فلا يُستضعف ولا يُهضم حقه : ﴿ **وليُمللِ الذي عليه الحق** ﴾ وحفظ بذلك حق الدائن ، لأن الإملاء من المدين إقرار صريح بالحق المترتب عليه دون لبس أو احتمال ، وفي ذلك حكمة تشريعية إلٓهية ظاهرة . وبعد أن جعل سلطة الإملاء للمدين حمَّله المسؤولية مثيراً في قلبه هيبة الله ليستشعر جلاله وعظمته ويستذكر حسابه ، فيكون ذلك

---

(١) سورة الصافات : ١٠١ .

حافزاً قوياًيحفزه على الصدق والأمانة ؛ وذلك بقوله : ﴿ **وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً . . .** ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإنْ لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتانِ ممنْ تَرْضَون مِنَ الشهداءِ أنْ تَضلَ إحداهما فتذكِرَ إحداهما الأُخرى ، ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دُعُوا ، ولا تسأموا أن تكتبوهُ صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسطُ عند اللهِ وأقومُ للشهادةِ وأدنى ألا ترتابوا إلاَّ أن تكونَ تجارةً حاضرةً تُديرونها بينكم فليس عليكم جُناحُ ألا تكتبوها ، وأشْهدوا إذا تبايعتم ، ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيد ، وإنْ تفعلوا فإنهُ فُسوقٌ بكم ، واتقوا اللهَ ويُعلِّمُكُم اللهُ ، واللهُ بكلِّ شيءٍ عليم** ﴾ .

أمر الله بإشهاد شهدين ، وبيَّن الحكمة من اشهاد اثنتين من النساء بما يتناسب مع الغريزة والاهتمامات المختلفة بين الجنسين ، حتى إذا وقعت إحداهما في النسيان ذكَّرتها الأخرى . وحذّر الله تعالى من الامتناع عن الشهادة بعبارة موجزة غزيرة المعنى ، ﴿ **ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دُعوا** ﴾ فإنها تشمل المدعوين لتحمل الشهادة واستحفاظها عند كتابة الحق ، كما تشمل المدعوين لأداء الشهادة حين يقع الخلاف بين المتعاقديْن . وهذه العبارة في الواقع نموذج من **إعجاز الإيجاز في القرآن** .

ويحثُّ المولى جلّ جلاله على كتابة الدَيْن صغيراً كان أم كبيراً بتحريض وجداني إيماني ﴿ **ذلكم أقسطُ عند الله** ﴾فإنه أعدل طريق يرضي الله في هذا الموضوع . وأثار أيضاً نوازع نفسية دينية فاضلة فعالة بقوله : ﴿ **وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا** ﴾ فهذه دعوة إلى التزام طريق الصواب والثقة والطمأنينة ؛ وإلى البعد عن الشك والوهم والاضطراب ؛ وتفادي ما ينتج عن ذلك من خلاف وتشاحن بين الناس .

وحذر تعالى من التسبب في ضرر الكاتب أو الشاهد ، فإن فعلتم ذلك فإنه خروج منكم عن طاعة الله ﴿ **وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم** ﴾ وختم هذه الآية الطولى بإثارة نوازع الإيمان وتربية القلوب على مهابة الله والتوجه إليه وكبح جماح النفس وخواطرها عن كل سوء وذنب ، لأن الله مطلع على العبد يعلم السر وأخفى ، فقال : ﴿ **واتقوا الله ويعلمكمُ الله ، والله بكل شيء عليم** ﴾ .

وعلى هذا النحو تأملْ تتمة النص في الحديث الرباني الشيّق عن الرهن ؛ تجدْه حديثاً يلامس شغاف القلوب ، ويثير نوازع الإيمان ، ويقوي مراقبة العبد لله تعالى في تصرفاته ، ويذكّره أن الكون كله والإنسان في الجملة في قبضة هيمنته وأنه آيل لا محالة إلى حسابه عن كل صغيرة وكبيرة وخفيّة وظاهرة . قال الله تعالى : ﴿ **وإنْ كنتمْ على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرِهانٌ مقبوضةٌ ، فإن أَمِنَ بعضُكم بعضاً فلْيُؤَدِّ الذي أؤْتمنَ أمانَتَهُ ، وليتّقِ اللهَ ربَّهُ ، ولا تكتموا الشهادةَ ومَنْ يكتمْها فإنهُ آثمٌ قلبه ، والله بما تعملونَ عليمٌ . للهِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ، وإنْ تُبدوا ما في أنفسكم أو تُخفوه يُحاسِبْكم به اللهُ فيغفرُ لمن يشاءُ ويُعذّبُ مَنْ يَشاء ، واللهُ على كل شيءٍ قدير** ﴾[1] .

٦ ـ جاذبية النغم القرآني :

تتجلى أنغام القرآن خلابة عجيبة في نظامه الصوتي الجميل . تأمل ائتلاف القرآن في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته ؛ تجدْ ائتلافاً رائعاً واتساقاً محبوباً ، يستصغي الأسماع ويسترعي الاهتمام ، ويوقظ المشاعر على نحوٍ لا يتأتى لكلام آخر نظماً كان أو نثراً .

---

(١) راجع النص متصلاً في سورة البقرة : ٢٨٢ ـ ٢٨٤ .

لقد جمع أُسلوب القرآن البياني بين مـزايا الشعـر والنثر جميعـاً ، وحين تخلص من قيـود القافيـة الواحـدة والتفعيلات المحـددة ترفَّـع عما يؤول إليه أمرها من التكلف والملل ؛ وخاصة عند الإطالة . فامتاز بذلك بحرية التعبير عن جميع أغراضه حرية كاملة مطلقة ؛ مع تمتعـة في نفس الوقت بأحلى خصائص الشعر ، وهي الأنغام الداخلية ، والألحان العامة التي تتملاها في الفواصل المتماثلة والمتقاربة وزناً وقافية ؛ وما تؤديه من تلاحم بالجرس والايقاع والنغم .

ومن هنا كانت جاذبية النغم القرآني خصيصة عـظمى من خصائص القرآن ، تبرز آثارها للعيان حين ترى تعلق الأعـاجم في عصرنـا بالقـرآن وحفظهم له وكثرة تلاوتهم دون أن يفقهـوا بيانـه ، ولهذه الخصيصـة دور كبيـر في زماننـا في استمالـة أسمـاع المتعقلين من أصحـاب الـديـانـات الأخرى وأفكارهم . ومن قبـل كان لهـا أثرهـا العظيم في اجتـذاب شبان مكـة حول أبي بكـر رضي الله عنه يستمعـون بشـوق إلى ألحـان القـرآن ومعانيه ، كمـا دفعتْ كبار رجـال الشرك أن يتسللوا ليـلاً خفيةً ليصيخـوا بـأسماعهم إلى تـلاوة سيدنـا رسول الله ﷺ ، كمـا هو مسـطور في كتب السيرة .

ومـا من لحنٍ موسيقي أو نغم شعـري إذا طـال أو تكـرر إلا أورث سـامعـه السـأم والملل ، وضُعف تـأثيـره فيـه . لكن قـارىء القـرآن أو المصغي إليه في نعيم منه وابتهاج بأنغامه المتنوعة المتجـددة ، تهتز لهـا أوتار قلبه . **فـالقرآن لا تنقضي عجـائبه ولا يَخْلَق على كثـرة الرد** ، كمـا أخبر الرسول الأعظم ﷺ . وهو أمر شهيـر عند أصحـاب الحِسِّ السليم والذوق الرفيع .

ولـدى تلاوتـك آيـات من الكتـاب المبين تلحظ بـوضـوح شـديـد انسياب ألفاظه على لسانك بيسر وسهولة ، ويتمتع سمعك بعـذوبة وقعـه

عليه لاتساق كلمه وانسجام نغمه ، بل إن كلاً من ألفاظه يدخل الأذن بغير إذنْ لحلاوة جرسه ونغمه ، وتلحَظ أن نغمة اللفظة الواحدة متآخية متلاحمة مع أنغام السياق . ففي كل آية تناغم داخلي بين كلماتها ، **وفي كل نص قرآني تناغم بين آياته وفواصلها .**

وتنوع الألحان القرآنية يتعلق بقصر الفواصل وطولها وجرس الألفاظ وإيقاعها ، فالنغم القرآني هو فيض النظم البياني الخاص في كل نص من نصوصه . **وإن بين النغم والنظم في القرآن من التآلف والاتساق ما جعل النغم يؤدي وظيفة بيانية هامة في أسلوب القرآن .**

فليست النغمة القرآنية مجرد صوت منسجم ، بل إن لها صلة بالمعاني ، وتشارك النغمة في جلاء المعنى حساً وفكراً ، حيث يأتي جرس ألفاظ القرآن ونغم سياقه مؤتلفاً مع معانيه متعاضداً معها في أداء الإيحاءات والآثار النفسية والوجدانية تآلفاً دقيقاً ، ستظل المواهب الإنسانية تعجز عن بلوغه .

● هاكَ نصاً قرآنياً يريك بجلاء تفاوت النغم فيه حسب المعاني المعروضة . فإن سيدنا موسى ولَّىٰ أخاه هارون على بني إسرائيل ومضى لمناجاة الله ، فلما عاد وجدهم ضلوا عن الله وعبدوا عجل الذهب الذي صنعه لهم السامري ، حكى الله قصته ، فأنعم النظر وأرهف السمع لهذا النص الكريم ؛ تجدْ حالة الغضب والأسف وما نجم عنها من لوم وتقريع قد أخذت نغمها اللائق بها . قال الله تعالى : ﴿ **ولما رجعَ موسى إلى قومه غضبانَ أسِفاً قال : بئسما خلفتموني من بعدي ! أعجلتمْ أمرَ ربِّكم !؟ وألقى الألواحَ وأخذَ برأسِ أخيه يجرّه إليه** ﴾ثم انظر استعطاف هارون وقد اكتسى كلامه حظه الوافر من الترجي واستثارة العطف ﴿ **قال : ابنَ أُمَّ إن القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تُشمتْ بيَ الأعداءَ ولا تجعلْني مع القومِ الظالمين** ﴾ ثم تأمّلْ رنة الأسى

والاستعطاف في دعاء موسى : ﴿ **قال ربِّ اغفرْ لي ولأخي وأدخلْنا في رحمتكَ وأنت أرحم الراحمين** ﴾ ولاحظْ بعدها مباشرة نغمة التهديد والزجر ﴿ **إنَّ الذين اتخذوا العجلَ سينالُهم غضبٌ من ربهم وذِلَّةٌ في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾ وتأمل جرس الترغيب والاستمالة في قوله : ﴿ **والذين عملوا السيئاتِ ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها لَغَفورٌ رحيم** ﴾ .

وتأمّل في ختام النص أنغام التوجع والأسى في الشكاية والتوبة إلى عظمة الله جلَّ جلاله من عباده الخاطئين على لسان موسى : ﴿ **ولما سَكَتَ عن موسى الغضبُ أخذَ الألواحَ وفي نسختها هدىً ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبونَ ، واختارَ موسى قومَهُ سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتْهمُ الرجفةُ قال : ربِّ لو شئتَ أهلكتَهمْ من قبلُ وإيايَ ! أتُهْلكنا بما فعلَ السفهاءُ منا !! إنْ هي إلَّا فتنتُكَ تُضلُّ بها مَنْ تشاء وتهدي من تشاء . أنت ولينا فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنت خيرُ الغافرين** ﴾[1] .

فإذا تفحصتَ عبارات الدعاء وما احتوته من مدود وإيقاع مسترسل متموج وجدتَ للدعاء لحناً خاصاً به يتناسب مع الضراعة والابتهال والرجاء ، فتهفو نفسك إلى إعادته والتنعم بما فيه من أنغام شجية طويلة خاشعة .

● وتأمل أنغام الهيبة والرهبة إذْ يفيض بهما سياق الكلام عن قيام الساعة وأهوالها الجسام ؛ وذكر قدرة الله القاهرة ومثول العبد للحساب عند ربه تجدها أنغاماً ذات سطوة وهيمنة تحطم كبرياء الجاحد أو العاصي ، وتقهر غُروره وتبدد اعتداده ووجاهته . وقال الله تعالى :

﴿ **يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم إن زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيمٌ . يومَ**

---

(١) راجع النص متصلاً في سورة الأعراف : ١٥٠ ـ ١٥٥ .

ترَوْنَها تذهلُ كلُ مرضعةٍ عما أرضعتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حمْلَها وترى الناسَ سُكارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ ، ومن الناس مَنْ يجادلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ويتبعُ كل شيطان مَريد ، كُتبَ عليه أنه مَنْ تولاهُ فإنه يُضلُّهُ ويهديه إلى عذابِ السعير ﴾[١و٢] .

٧ ـ براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام :

يورد القرآن المبين الغرض الواحد بألفاظ متعددة وطرق مختلفة ، ويتسم بيانه في جميعها ببراعة فائقة ، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء ، ولسنا هنا سبيل الاستيعاب والاستقراء ، ولكنها أمثلة تهديك ونماذج تكفيك :

منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية :

١ ـ الإتيان بصريح مادة الأمر نحو قوله سبحانه : ﴿ إنَّ اللهَ يـأمرُكم أنْ تُؤدوا الأماناتِ إلى أهلها ﴾[٣] .

٢ ـ والاخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين ؛ نحو ﴿ كُتبَ عليكُمُ الصيام ﴾[٤] .

---

(١) سورة الحج : ١ ـ ٤ .

(٢) في أمريكا دكتور مختص بالعقول الالكترونية ، وهو مصري مسلم ، وقد قام بعدد كبير من العمليات الحسابية بالعقول الالكترونية ، فوجد أن هناك علاقة حسابية بين حروف فواتح السور ؛ مثل ﴿ الم ﴾ وغيرها ؛ وبين كلمات السور المفتتحة بهذه الحروف ، فإن حروف فاتحة السورة تتوفر في كلمات هذه السورة بكثرة تتفوق غالباً على نسبة وجودها في السور الأخرى التي لا تتميز بنفس الفاتحة (انظر مجلة آخر ساعة المصرية ـ عدد ١٩٩٦ و ٢٠٤٠ سنة ١٩٧٣) .

وقد لفت النظر بعض العلماء إلى الدقة الحسابية في حروف القرآن التي تعجز عنها الخلائق ، وسمي هذه الظاهرة : الاعجاز الحسابي .

ونحن نلفت الانتباه إلى أن هذه النتيجة تؤكد ما ذكرناه آنفاً من تميز السورة القرآنية بنظام صوتي ونغم خاص .

(٣) النساء : ٥٨ . (٤) البقرة : ١٨٣ .

٣ ـ والاخبار بكونه على الناس ؛ نحو ﴿ **وللهِ على الناسِ حِجُّ البيتِ مَنِ استطاعَ إليه سبيلاً** ﴾[١] .

٤ ـ والاخبار عن المكلف بالمطلوب منه ؛ نحو ﴿ **والمطلقاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهن ثلاثةَ قُروء** ﴾[٢] أي مطلوب منهن أنْ يتربصن .

٥ ـ والاخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره ؛ نحو ﴿ **ومَنْ دخلَهُ كان آمناً** ﴾[١] أي مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم .

٦ ـ وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر ؛ نحو ﴿ **حافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى** ﴾[٣] أو بلام الأمر ؛ نحو ﴿ **ثمَّ لْيقضوا تَفَثَهم ولْيوفوا نذورَهم ولْيطوَّفوا بالبيتِ العتيق** ﴾[٤] .

٧ ـ والاخبار عن الفعل بأنه خير ﴿ **ويسألونكَ عن اليتامى ، قل : إصلاحٌ لهم خير** ﴾[٥] .

٨ ـ ووصفُ الفعل وصفاً عنوانياً بأنه بِرٌّ ، نحو ﴿ **ولكنَّ البرَّ من اتقى** ﴾[٦] .

٩ ـ ووصف الفعل بالفرضية ؛ نحو ﴿ **قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم** ﴾[٧] أي من بذل المهور والنفقة .

---

(١) آل عمران : ٩٧ .
(٢) البقرة : ٢٢٨ .
(٣) البقرة : ٢٣٨ .
(٤) الحج : ٢٩ .
(٥) البقرة : ٢٢٠ .
(٦) البقرة : ١٨٩ .
(٧) الأحزاب : ٥٠ .

١٠ ـ وترتيب الوعد والثواب على الفعل ؛ نحو ﴿ مَنْ ذا الذي يُقْرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفَهُ له وله أجرٌ كريم ﴾[1] .

١١ ـ وترتيب الفعل على شرط قبله ، نحو ﴿ فإنْ أُحصرتم فما استيسرَ من الهَدْي ﴾[2] .

١٢ ـ وإيقاع الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام ؛ نحو ﴿ أفمن يخلُقُ كمنْ لاَ يخلُقُ أفلا تَذَكَّرون ﴾[3] أي فليتذكروا .

١٣ ـ وإيقاع الفعل عقب ترجٍ ؛ نحو ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾[4] .

١٤ ـ وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل ؛ نحو ﴿ ومَنْ لمْ يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الكافرون ﴾[5و6] .

٨ ـ جمع القرآن بين الإجمال والبيان :

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه ، ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل ؛ وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس أو إلى اللغو الذي لا يفيد ، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد .

وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ؛ ما يتسابق به مغزاها إلى

---

(١) الحديد : ١١ .
(٢) البقرة : ١٩٦ .
(٣) النحل : ١٧ .
(٤) البقرة : ١٨٥ .
(٥) المائدة : ٤٤ .
(٦) الخصيصة السابعة مقتبسة من مناهل العرفان بتصرف : جـ ٢ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

نفسك دون كدِّ خاطر ولا استعادة حديث ، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة . وهكـذا يخيل إليـك أنك قـد أحطت بـه خُبراً ووقفت على معناه محدوداً . هذا ولو رجعت إليه كرة أخـرى لرأيتَـكَ منه بإزاء معنى جديد ، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك . . حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمةِ الـواحدة وجـوهاً عـدة ، كلها صحيـح أو محتمل للصحة ، كأنما هي فص الماس يعطيك كل ضلع منـه شعاعـاً ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع .

وهذا مثال موجز نقدم تحليله لإيضاح هذه الخصوصية ، وهو قـوله تعالى : ﴿ **واللهُ يرزقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حساب** ﴾[1] فانـظر هل تـرى كلامـاً أبين من هذا في عقول الناس !؟

ثم انظر كمْ في هذه الكلمة من مرونة ! فإنك لو قلت في معناها : انه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويَقْدِرُهُ على هؤلاء ؛ أصبت .

ولو قلتَ إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الانفاق خـوف النفاد ؛ أصبت .

ولـو قلت : إنـه يـرزق من يشـاء من حيث لا ينتـظر الإنسـان ولا يحتسب ؛ أصبت .

ولو قلت : إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله ؛ أصبت .

ولـو قلت : يرزقـه رزقاً كثيـراً لا يـدخـل تحت حصـر وحسـاب ؛ أصبت .

---

(١) سورة البقرة : ٢١٢ .

فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا ، وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء ، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، وفيه ما فيه من الهضم لنفوس المغرورين من المترفين . وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه . وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتحُ اللهُ لهم من أبواب النصرِ والظفر حتى يبدل عسرهم غنىً من حيث لا يظنون . وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أُجورهم أضعافاً كثيرةً لا يحصرها العد . ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء في آية آية رأى من ذلك العجب العاجب[1] .

واذكر دائماً أن فصحاء العرب قد شهدوا أن القرآن في نظمه وبلاغته لا يقاربه كلام آخر من شعر أو سجع أو نثر ، فنظمه فريد متميز يخالف كافة أنماط النظم الذي عهده العرب ، ينساب بإتساق عجيب وائتلاف رائع وإيقاع أخاذ يفيض روعةً وجلالاً يسترعي الأسماع ويستهوي النفوسَ ، فقد آمن أُنيس وقال : ﴿ لقد سمعتُ قولَ الكهنةِ فما هو بقولهم . وقد وضعت قوله على أقراءِ الشعر لم يلتئم على لسانِ أحدٍ أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون ﴾[2] .

وانصرف الجاحدون إلى العناد والتهرب من الإقرار بإعجازه والإيمان به ، فزعموا أنه شعر إذْ رأوه كلاماً منظوماً ، وزعموا أنه سحر إذ أيقنوا بإعجازه وعدم قدرتهم على معارضته ، لكنهم لما وجدوا له وقعاً في

---

(١) هذه المزية مقتبسة من النبأ العظيم بتصرف من ١١١ ـ ١١٢ .

(٢) رواه الامام مسلم في صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه جـ ٤ ص ١٩٢٠ ـ وقد مر بك نصه كاملاً ص ١٤٣ .

قلوبهم وقرعاً في نفوسهم لم يتمالك زعيمهم الوليد بن المغيرة نفسه من الإقرار بحقيقة وصف القرآن اقراراً تنجاب به عن العيون أغشية افتراءاتهم السابقة ، فقال : (فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ؛ ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني ؛ ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا . ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله . وإنه ليعلو وما يُعلى . وإنه لَيُحطم ما تحته)[1] .

فأنت ترى أنهم كانوا يتبينون بطباعهم ـ إذا خلوها وسوْمها ـ مواطن الإعجاز ، ويعرفون شرائط المعارضة ولوازمها ، فعلموا علم اليقين أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة لعجزهم ، ونفروا إلى الحرب الضروس لفرط جهلهم ؛ فراراً من الخزي ، فوقعوا فيما حذروا فألبسهم الله لبوسه بحربهم .

﴿ فوقعَ الحقُ وبطلَ ما كانوا يعملون ، فغُلبوا هنالكَ وانقلبوا صاغرين ﴾[2] .

* * *

(١) ارجع إلى أقوالهم فيما مضى ص ١٣٩ ـ ١٥٣ .

(٢) سورة الأعراف : ١١٨ ـ ١١٩ .

الوجه الثاني
الإخبار عن الغيب في القرآن

اشتمل القرآن على أخبار غيبية كثيرة لا سبيل لمحمد ﷺ ولا لقومه إلى تحصيلها ، إنما يتعين تحصيلها من سبيل واحدة هي التلقي والتعلم ، ولكنْ ممن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاَّ هو ، وهي أنباء تطرقتْ إلى كشف غيوب ماضية وأخرى حاضرة ومستقبلة أيضاً .

وان هذا الوجه من الإعجاز لا يتطلب ـ كالإعجاز البياني ـ ذوقاً بلاغياً مرهفاً ومعرفة لغوية عريقة ؛ مما لا يتوفر عند عامة المثقفين في عصرنا . فيمكن لكل إنسان عربياً كان أم أعجمياً أن يرى الإعجاز ماثلاً فيه ، فيتخذه دليل هدايته . لذلك آثرت أن أُعنى به وأُفصِّل أنواعه وأسهب في سرد نماذج منه . **فكل نموذج آية إلّهية ظاهرة ، ومعجزة ربانية قاهرة كافية بحد ذاتها لدلالة العاقل على إعجاز القرآن العظيم ونبوة محمد** ﷺ . فإنْ تضافرت النماذج القرآنية جميعها فقد انبلج صبح الهداية ، وأنار ضياء الإيمان عوالم النفس بأسرها .

أ ـ الإخبار عن غيب الماضي في القرآن :

وأنباء الماضي في كتاب الله كثيرة تتمثل في القصص الرائع الهادف عن سير المرسلين ومناهج المؤمنين ؛ ومواقف أعداء الرسل الكافرين . . فتجد لعرضه الحوادث من الجاذبية والتشويق ما يمسك بتلابيب الفؤاد ، فتتزاحم عندك منه المواعظ والعبر ، فتثير المشاعر وترتسم على صفحة الوجدان ، وتفتح الأعينَ على حقائق الهدى والإيمان ، وتحمل على التأسي والاقتداء في العمل والامتناع .

ولقد ذكر الله جل شأنه قصة آدم أبي البشر عليه السلام ، وفصَّل قصة نوح عليه السلام وقال في ختامها : ﴿ **تلك من أنباءِ الغيب نُوحيها**

إليكَ ، ما كنتَ تعلمُها أنتَ ولا قومُك من قبلِ هذا ، فاصبرْ إنَّ العاقبةَ للمتقين ﴾[1] .

فمحمد ﷺ أُمي لم يقرأ في حياته كتاباً قطُّ ولم يتلقَ من أحد من الناس علماً[2] ، بل إنَّ قومه الذين أمضى عُمُره بين أظهرهم أُميون لا يعلمون من حقائق التاريخ إلاَّ نُتفاً يسيرة تـوارثتها الأجيال وسارتْ بها الأمثال . **فأنى لرجل لم يدرس التاريخ ولم يتلق العلم أن يأتي بقصص الأولين بتفاصيل دقيقة لم يحط بها علماً إلاَّ علاّم الغيوب وإلاَّ الذين حضروها ؟ فهل** تلقاها محمد الأميّ ﷺ عن الله تعالى أم كان ممن حضرها !!؟؟

قال تعالى في ختام قصة موسى عليه السلام : ﴿ **وما كنتَ بجانب الغربي إذْ قضينا إلى موسى الأمرَ وما كنتَ منَ الشاهدين . ولكنا أنشأنا قروناً فتطاولَ عليهمُ العُمُرُ ، وما كنتَ ثاوياً في أهل مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتِنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنتَ بجانبِ الطُورِ إذْ نادَيْنا ولكنْ رحمةً من ربك لِتنذرَ قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾**[3] .

ولما كانت الآياتُ قد سبقتْ بتبيان إنزال الله التوراة على موسى ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب . .** ﴾ فقد ربط الألوسي بينها فقال : (﴿ **وما كنتَ بجانب الغربي** ﴾ شروع في بيان ان إنزال القرآن الكريم أيضاً واقع زمان مساس الحاجة إليه ، واقتضاء الحكمة له ألبتة ؛ متضمناً تحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله تعالى ببيان **أن الوقوف على ما فصَّل من الأحوال لا يتسنى إلاَّ بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها . وحيث انتفى كلاهما تبين**

---

(1) سورة هود : ٤٩ .

(2) انظر بحث أمية الرسول في : « نبوة محمد ﷺ في القرآن : ص ٢٥٧ ـ ٢٦٥ » فإنه يكمل ما ههنا .

(3) سورة القصص : ٤٤ ـ ٤٦ .

أنه بوحي من علاّم الغيوب ؛ لا محالة)[1] .

وأنتَ ترى أن السياق القرآني لم يراع ترتيب وقوع الأحداث ، لئلا يتوهم قارىء أنه أورد الكلَ دليلًا واحداً على نبوة محمد ﷺ ، لذا خالف بينها ، ولو راعى تسلسلها لأوردَ أولاً نفي إقامة الرسول في قوم شعيب أهل مدين ونفي استماعه وتعلمه منهم ، ولَنفى ثانياً حضور محمد ﷺ بجانب الطور حين نادى الله موسى : إني أنا الله رب العالمين ، وأرسله إلى فرعون وملئه ، ولَنفى ثالثاً حضور محمد عليه السلام قضاءَ أمر نبوة موسى وإيتاءَهُ التوراة[2] .

قال العلاّمة الآلوسي رحمه الله : (وتغيير الترتيب الوقوعي ـ بين قضاء الأمر ؛ بمعنى إحكام أمر نبوة موسى عليه السلام بالوحي ؛ وإيتاء التوراة وثوائه في أهل مدين المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **وما كنتَ ثاوياً في أهل مَدْيَنَ** ﴾ والنداء ـ **للتنبيه على أن كلًا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحي الإلّهي)**[3] .

وعقّب الله تعالى على قصة مريم بقوله : ﴿ **ذلك من أنباءِ الغيبِ نُوحيه إليك ، وما كنتَ لديهم إذْ يُلقون أقلامَهم أيُّهم يكفُلُ مريمَ وما كنتَ لديهم إذْ يختصمون** ﴾[4] .

وعقّب على قصة يوسف عليه السلام بقوله : ﴿ **ذلك منْ أنباءِ الغيبِ**

---

(١) روح المعاني جـ ٢٠ ص ٧٤ .

(٢) والمراد من قوله : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذا قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ وما كنت ـ يا محمد ـ حاضراً بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي تم فيه الميقات وأخذ فيه موسى ألواح التوراة : ﴿ إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ : أي عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحي وإيتاء التوراة .

(٣) روح المعاني : جـ ٢٠ ص ٧٧ .

(٤) سورة آل عمران : ٤٤ .

نُوحيهِ إليكَ وما كنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرَهم وهم يمكرون ﴾[1] .

ثم أحسنَ اللهُ عزاءَ نبيه بخطاب كريم : إنِ آيتكَ ـ يا رسول الله ـ بيّنة وحجتك قائمة دامغة . وليس فيما ههنا شبهة تحمل القوم على مخالفتك والصدِّ عن اتباعك فقد جئتهم بالحق الأبلج ، لا تبتغي به عرض الحياة الدنيا ، فتلقوك جاحدين بآيات الله . ولستَ أولَ من قامتْ حجته فلم يُتبع ، وليس جميع الناس إذا تبين لهم الحق أذعنوا له . فما أكثرَ ما يشهدُ الجاحدون من معالم الهداية في السموات والأرض ، فيزورُّون عنها معرضين قال تعالى : ﴿ **وما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنين . وما تسألُهم عليه من أجرٍ إنْ هو إلاّ ذكرٌ للعالمين . وكأيِّنْ من آيةٍ في السمواتِ والأرضِ يمرونَ عليها وهم عنها معرضون ! ﴾[2] .**

أمرٌ يثير الدهشة حقاً ، **رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ، يعيش أربعين سنة مشغولاً برزق نفسه وزوجه وولده راعياً أو تاجراً بالأجر ، لا يتصل إلى العلم والعلماء بسبب ، ولا يتطرق حديثه إلى شيء من أمر الغيب أو النبوة في يسير أو كثير ، ثم يطلع على العالم بأمر النبوة ويسرد عليهم قصص المرسلين السابقين وأممهم مفصلة موضحة .** ويمتحنه أهل الكتاب فيسألونه عما تيقنوا بأنه غيب بالنسبة إليه ، لا يقدر على تعلمه بوسيلة عادية ، فيسألونه اختباراً عن أصحابِ الكهفِ وعن ذي القرنين وعن الروح ، فيجيبهم على وجه الدقة والضبط بما لا سبيل إلى تخطئته أو تكذيبه . **فهل يمكن لذاك الرجلِ الأمي الذي بلغ في الأمية أربعين سنة ولم يزل عليها ؛ أن يأتي دفعة واحدة بما لا عهد له في سالف حياته ؛ من تاريخ دقيق مفصل وعلم يقيني وبلاغة معجزة ـ إلاّ أن يكون ذلك وحياً من الله يوحى !؟**

(١ و٢) سورة يوسف : ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٥ .

وأنى لـه العلم بأخبـار القرون الأولى فيسـرد على وجه التمحيص والتصحيح ما خفي وتشوه في قراطيس أهـل العلم إلَّا أن يتلقى من علّام الغيوب . . !؟ ﴿ قل لو شاءَ اللهُ ما تلوتُهُ عليكم ولا أدراكمْ بـه فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون !؟ ﴾[1] .

قال القاضي عبد الجبار رحمة الله عليه : (من دلائله وأعلامه ﷺ وهو إخباره عما في الكتب المنزلة وما تضمنته من خلق آدم ﷺ، وما كان له مع الملائكة صلوات الله عليهم ومع ولده ؛ ومع إبليس ؛ وما كان لنوح مع قـومـه ؛ ثم إبـــراهيم ؛ وإسحـاق ؛ ويعقــوب ؛ والأسبـاط ؛ وعيسى ؛ وأيـوب ؛ ومـوسى ؛ وهــارون ؛ وغيـرهـم من النبيين صلوات الله عليهم أجمعين . **وهو ما قرأ تلك الكتب ولا عرف ما فيها ولا اختلف إلى أهلها ولا اختلفوا إليه . فتعلمُ منه أنه ما علم ذلك إلَّا بوحي الله إليه وإطـلاعه عليـه ، وهي أخبار كثيـرة ، لا يقع الصـدق فيها إلَّا بـالوحي من الله عـز وجل)**[2] .

أوحى الله إلى رسوله محمد ﷺ هذا القرآن مصدقـاً لأصل التـوراة والانجيل في العقائد وجملة أصول الدين ؛ ورقيباً يشهد لأصليْهما بالصحة والثبات ، قبل أن يمتد إليهما تحريف الغالين الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . قال تعالى : **﴿ وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكمْ بينهم بمـا أنزلَ اللهُ و تتبعْ أهواءَهم عمـا جاءك من الحق ﴾**[3] .

---

(١) سورة يونس : ١٦ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٣) سورة المائدة : ٤٨ . وانظر تفسيرها في روح المعـاني جـ ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ . وانظر معنى (مصدقاً . .) فيـه جـ ١ ص ٢٢٣ . وانظر حـاشية الجمـل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٩٦ وتفسيـر أبي السعـود جـ ٢ ص ٣٣ ، وراجـع كتـابنـا : نبـوة محمـد ﷺ في القرآن ص ٢٩١ ـ ٢٩٦ .

وبيّن شاعر الإسلام الأول حسان بن ثابت رضي الله عنه أن القرآن شاهد ومصدِّق لمحمد ﷺ فقال :

إن الكتـاب مُـهيـمن لـنبـينـا ... والحقُّ يعـرفـه ذوو الألبـاب

وقد نبّه الله إلى عدم معرفة محمد ﷺ شيئاً من تلك الأنباء ، وامتن عليه بإيحائه القرآن الذي حواها ، إذْ لم تقرع تلك القصص قبله سمْعَ رسول الله ، ولم يستشرفها ولم يلق إلى تحصيلها بالاً[1] ، حتى أنزل عليه فيها ما أنزل . قال تعالى في تصدير قصة يوسف عليه السلام :

﴿ **نحنْ نقصُّ عليكَ أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ ، وإنْ كنتَ من قبلهِ لمنَ الغافلين** ﴾[2] .

قال الآلوسي : (والتعبيرُ عن عدمِ العلمِ بالغفلةِ لإجلال شأن النبي ﷺ)[3] .

وقال تعالى في آخر السورة : ﴿ **لقد كان في قَصَصهم عِبْرةٌ لأولي الألبابِ ، ما كانَ حديثاً يُفترى ، ولكنْ تصديقَ الذي بين يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون** ﴾[4] .

لا جرم أنّ تلك الأنباء الغيبية الدافقة على لسان النبي الأميّ دليل بالغ على نبوته وتلقيه عن علّام الغيوب .

كفاك بالعلمِ في الأميِّ معجزةً ... في الجاهلية والتأديب في اليُتْم

---

(١) وستعرف شاسع البون بين قصص القرآن وقصص التوراة والانجيل في الفصل الثالث إن شاء الله .

(٢) سورة يوسف : ٣ .

(٣) روح المعاني : جـ ١٢ ص ١٥٨ .

(٤) سورة يوسف : ١١١ .

ب ـ الإخبار عن غيب الحاضر في القرآن :

ومن الاخبـار عن الغيب الحاضـر كشف حقيقة المنـافقين وإبـراز دخيلتهم ، وإزاحة الستار عن خفايا نفـوسهم الخبيثة اللئيمـة. فقد ابتنى نفر منهم مسجداً بجـانب مسجد قُبـاء ، زعموا أنهم بنـوه للصلاة وإيـواء مساكين المسلمين ، ودَعوْا رسولَ الله للصلاة فيه .

ففضحَ اللهُ مؤامراتهم وعرَّف المؤمنينَ بخبيثِ أغراضهم ، إذْ أنـزل على نبيه : **﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنينَ وإرصاداً لمن حاربَ اللهَ ورسولَه من قبلُ ، ولَيَحلفُنَّ إنْ أردنا إلاَّ الحسنى واللهُ يشهدُ إنهم لكاذبون . لا تقمْ فيه أبداً ، لمسجدٌ أُسِّسَ على التقـوى من أول يومٍ أحقُّ أن تقومَ فيه ، فيهِ رجالٌ يُحِبُّونَ أنْ يتطهروا واللهُ يحبُّ المُطَّهِرين ﴾**[1] .

وفي سورة التوبة آياتٌ كثيرةٌ أماطتْ اللثـام عن وجوه النفـاق ، وقد أنـزل الله فيهم خصيصـاً السـورة الفـاضحــة التي ذكـرتهم بـأوصـافهم وأحوالهم وذكرت تحيُّنَهم فـرص الضُر بـالمسلمين وتوجسهم أن يبـطشوا بهم كل حين . تلك الفاضحة هي سورة المنافقين .

وليس الكشف عن سرائر الناس وخبايا نفوسهم مما يرتضي العاقل أن يبتَّ فيه بحكم ظني ؛ خاصة فيما يتصل بأصحابه وأنصاره . والعاقـل من يأبى أن يرجم بالغيب في هذا المضمار لئـلا ينفـر الأصدقـاء وينفض الأصحاب ويتألب الأعداء . **فالعلم بخبيئة النفس الإنسانية أمر اختص به بـارىء النسم وخالق الأنفس . فهـل يبسط أرجح القـوم عقـلاً الحـديث ههنا إلاَّ أن يأتيه اليقين من ربه !؟**

---

(١) سورة التوبة : ١٠٧ ـ ١٠٨ .

جـ ـ الإخبار عن غيب المستقبل في القرآن:

إن الرجل الكامل العقل السويَّ الفكر إذا تنبأ عن حوادث الزمن المستقبل اتخذ من تجاربه الماضية وخبراته السابقة دليلاً يتلمس به معالم المجرى العام للحوادث القادمة ، ثم يحيط أحكامه بكامل التحفظ والحذر فيعلن أنها مجرد توقع وشيك الحصول ، إنْ ظلت الأمور على سابق نهجها ولم تبد مفاجآت ليست في الحسبان . ولكن يستحيل أن يحدد الحكم تحديداً باتاً ويصدره قطعياً ، دون أن تشير إليه أمارة عادية أو ترشد إليه مقدمة علوية خلت ، اللهم إلَّا أن يكون أحد رجلين : رجل متهور يلقي أقواله جزافاً لا يعبأ أن ينكشف للناس أنه كاذب محتال ، وهذا ديدن العرافين والمنجمين الجهلة السفلة ، والمتزعمين الوقحين المتهورين ، أو هو رجل على يقين من أمره ، اتخذ عند الله عهد النبوة ووعد التأييد والنصر ، فلن يخلف الله عهده ، وتلك سنة أنبياء الله ورسله .

فأي الرجلين ترى محمداًﷺ ؟ لقد جاءه القرآن بجازم الاخبار عما سيقع بعد عام أو بعد أعوام ؛ وعن بعض ما سيكون إلى أبد الدهر وما لن يكون . وقد ثبت أنه ﷺ لم يتعاط فن العرافة والتنجيم ، ولم يصحب أهله ، وكان ينفر من الدعوى الزائفة ومن أن ينسب إليه ما ليس فيه ؛ خيلاءً وغروراً . كما كانتْ أخلاقه وأحواله على النقيض من أخلاقهم وأحوالهم . فلم يُعرف عنه خلط الصدق بالكذب والصواب بالخطأ ، إنما اشتُهر بالصدق والأمانة والعفة والترفع عن الدنايا ﷺ .

وقد كانَ قاعداً عن طلبِ علم الغيب أو تكلفه ، بل قد أعلن براءته من علم الغيب ذاتياً، وقد علَّمه ذلك ربه بقوله : ﴿ **قل لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضَرّاً إلَّا ما شاءَ اللهُ ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من**

الخير وما مَسَّنيَ السوءُ إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشير لقومٍ يؤمنون ﴾[1] .

ومع أنه أعلن أنه ليس عنده علم ذاتي بالغيب إلَّا إذا أيَّده الله باطلاعه عليه ، كما يؤيد رسله عادة بألوان المعجزات . فقد جاءه عفواً من أنباء الغيب ما تعجز صروف الدهر في أحقابه المديدة أن تنقض طرفاً من أنبائه مهما كان يسيراً لأن كلًّا من أنبائه حق صراح لا مردَّ له ، ولم يعول محمد ﷺ في استقائه إلَّا على الله علّام الغيوب ﴿ وإنه لَكتابٌ عزيزٌ لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا مِنْ خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾[2] .

وها نحن نسرد لك بعض النبوءات القرآنية حسب صلتها بالموضوع :

أولاً : اخبار القرآن عن مستقبل الإسلام ورسوله وكتابه :

وله أمثله كثيرة نورد منها .

١ ـ نجاح الإسلام وبقاؤه : لما كان العرب يقيمون على وثنيتهم بعصبية وعناد ، وكان المسلمون في مكة قلة مستضعفة يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم ، فإن المرء ليتوقع أن تثور عليهم حمية الملوك في الجزيرة ومن حولها من أصحاب الديانات الأخرى فيداهمونهم في عقر دارهم فيقتلون نبيهم ويستأصلون كتابه فتندرس معالم دينهم إلى الأبد . **فإنه لا ناصر لنبيه عن الخلق فإن أهله قد خذلوه وتمالؤوا عليه . وعلى الرغم من هذا فقد وردت نبوءات قرآنية تعلن عن جهة القطع واليقين بأن**

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٨ .

(٢) سورة فصلت : ٤١ ـ ٤٢ . وانظر النبأ العظيم ص ٣٣ ـ ٣٤ ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ . وراجع بحثنا : الرسول يبرأ من علم الغيب إلَّا بالوحي « نبوة محمد ص ٢٧٤ ـ ٢٧٩ » .

هـذا الدين سيبقى ، وأن الله قـد ضمن لـه النجـاح البـاهـر والمكث في الإنسانية إلى يوم الدين .

قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ **كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأما الـزَّبدُ فيـذهبُ جُفاءً وأمـا ما ينفـعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ ، كـذلكَ يضربُ اللهُ الأمثالَ** ﴾[1] .

إن الله تبارك وتعالى شبَّـه في هذه الآيـة الباطـلَ ـ وهو كـل معتَقَدٍ يخالف دين الإسلام ـ بالغثاء الذي يطفو على وجه الماء أو الخبث الذي يعلو وجه المعدن المذاب ، فإنه لا يفيد شيئاً بل يطرح بعيداً . وشبَّه جل شأنه دين الإسلام الذي بعث به محمداً ﷺ بـالماء أو المعـادن الثمينة ، فإنها غاية في النفـع والإفادة فتحفظ وتبقى . وكـذلك عقـائد المشـركين ستنحسر وتضمحل وستعلو راية الإسلام ، فإنه الحق ، والحق ثـابت باق على الدهر[2] .

لقد ضربَ اللهُ مثلاً لكلمة الإيمان يعبر عن رسوخها وبقـائها ومثـلاً لعقيدة الكفر والزور ينبيء بمحقها وتلاشيها ، فقـال في سورة إبـراهيم : ﴿ **ألمْ ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ ، تُؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس لعلهم يتذكرون ، ومثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثتْ من فوق الأرض ما لها من قرار . يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرةِ ، ويُضلُّ اللهُ الظالمين ويفعلُ اللهُ ما يشاءُ** ﴾[3] .

ألم تر أن هذه الآيات آيات مكيـة من سورة مكيـة ؟ أوَ تذكـر حال

---

(١) سورة الرعد : ١٧ .

(٢) فتح القدير للشوكاني : جـ ٣ ص ٧٥ ـ ٧٦ وتفسير ابن كثير : جـ ٢ ص ٥٠٨ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٧ .

رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم في مكة ؟ كان مع أتباعه المؤمنين مضطهداً مزعَجاً ، لم يذق للراحة طعماً ثلاث عشرة سنة . احتمل من ضروب المشقات وفنون العنت ما لا طاقة لبشر به ، يناله وينال أصحابه مرُّ الأذى ثم يُقاطَعُ وعشيرتُه اقتصادياً واجتماعياً ويُحاصَرون في شِعب من شعاب مكة أمداً غير يسير . وتحاكُ في الظلام مؤامرات لنفيه وقتله . فهل يلمح العاقل البصير في تضاعيف ليل حالك ـ امتد ثلاث عشرة سنة ـ بصيصَ أملٍ أو شعاعَ رجاءٍ بصبح يتنفس فيه المظلومون وترتفع أصواتهم وتنتصر دعوتهم وتعز نفوسهم ؟ **وان المصلح العاقل إذا انقدحت في نفسه بارقة أمل بانتصار دعوته على الرغم من تخلف الظروف ومصادمة الحوادث فإنه لا يملك أن يقلب الأمل حكماً قاطعاً يعلنه على مسامع الملأ ، فكيف يجعله ركناً في كتاب يُتلى ودستور يخلد !؟** فإنه بذلك يثير حنق القوم ويؤجج سخطهم ويكثِّر الأعداء ويؤلب عليه القرباء والبعداء . وكيف يجترىء على جعل عقيدتهم غثاء سيذهب جفاءً وشجرة خبيثة تُستأصل من فوق الأرض لا تقر عليها . ويعلن معها بجرأة قوية خارقة أن دعوته هي الماء السلسبيل الذي يروي والمعدن النفيس الذي ينفع ويبقى ؛ والشجرةُ الطيبة الراسخة الجذور السامقة الأغصان في السماء اليانعة الثمار في كل حين . وهي خالدة على مر الزمان باقية ما تتابع الجديدان . . **أيعمد إلى هذا الاستفزاز داعية وحيد شريد وقد كشرت الذئاب عن الأنياب . . !!؟؟ اللهم إلا أن يكون ذلك أمراً آلهياً قد أُلقي إليه من عند الله .**

٢ ـ انتصار الإسلام على الرغم من ضعف الرسول وقوة عدوه :

تُحدثنا السيرة المباركة أن رسول الله ﷺ قد بذل قصارى جهده في تبليغ رسالة الله تعالى . فكان يعرض نفسه على القبائل ليؤمنوا به ويتبعوه فيتخوفون أن يستثير اتباعهم الدين الجديد ـ المخالف لأديان الجزيرة وما

حـولها ـ حفيـظةَ الأقـوام فيستـأصلونهم ، وقـد أجـابهم الله عن ذلـك : **﴿وقالوا إنْ نتبعِ الهدى معك نُتَخطفْ من أرضنا، أوَ لم نُمكِّنْ لهم حرماً آمنـاً تُجبى إليـه ثمـراتُ كـلِّ شيءٍ رزقـاً من لَـدُنّـا ، ولكنَّ أكثـرَهم لا يعلمون ﴾**[1] .

فنبَّههم تبارك وتعالى إلى أن الذي حفظكم قبـل وحماكم في هـذا الحرم ويسَّر أرزاقكم وأقواتكم مع أنكم على الشرك والجهل هو القادر إنْ اهتديتم بهديه أن يديم حمايتكم ويمدكم بـأسباب القـوة والمنعة والنصـر والسيادة .

وكان يبشرهم بانتصار هذا الدين وانحسار كافة الأديان أمـامه ، فله الغلبة والعزة على أكاسرة الفرس وأباطرة الروم وعلى جميع المخالفين . قال تعالى : **﴿ هو الذي أرسلَ رسولَـهُ بالهـدى ودينِ الحقِّ لِيُظهـرَه على الدين كلهِ وكفى بالله شهيداً ﴾**[2] .

وقال أيضاً : **﴿ يريدون أن يُطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم ويأبى اللهُ إلَّا أنْ يُتمَّ نورَهُ ولو كرهَ الكافرون . هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظهرهُ على الدينِ كلهِ ولو كره المشركون ﴾**[3] .

فالإعجاز العظيم أن يقوم رجل وحيد فريد لا نـاصر لـه من الناس بدعوة جديدة ، يعلن فيها أن دينه هو المنتصر العزيز صاحب الصولـة ، وأن ما عداه مآله الانهيار . ثم تجده في فترة وجيزة يغلب بدعوتـه ملوك الجزيرة العربية والمتحكمين فيها حتى دخل العرب في دين الله أفواجاً ، ثم تغلب دعوته المملكتين العظيمتين في الأرض فارس والروم حتى انتشر الإسلام في معظم أرجاء العالم القديم من جبال الصين شرقاً إلى حـدود

---

(١) سورة القصص : ٥٧ وانظر روح المعاني جـ ٢٠ ص ٨٥ .

(٢) سورة الفتح : ٢٨ .

(٣) سورة التوبة : ٣٢ و ٣٣ وانظر سورة الصف : ٩ .

فرنسا غرباً . وهكذا تحقق صدق خبره على أحسن وجه وأكمل صورة . فهل لهذه الأخبار مصدر إلَّا الله تعالى ؛ عالمُ الغيب والشهادة الكبير المتعال . ؟؟

ولا نقولُ إنه نبي لأن دعوته قامتْ ودولته اتسعت حتى هيمنت على العالم القديم كله ، ولكنْ لحصول ذلك مع ضعف شوكته ووحدته في دعوته ، وأنه لم يكتف أن أظهر دينه بالحجة والمنطق حتى جعل لدعوته النصر ولأهلها العز وللمخالفين الهزيمة رغم الأنوف . فأورد نبأه منذ مطلع بعثته على وجه يغيظ ويغضب ، ويحمل العدو على الممانعة والتأهب للمغالبة فيُعد للأمر عدته . وامرؤ حازم عاقل مدبر لا يُنبه عدوه إلى الخطر الداهم عليه بهذا الاسلوب السافر ، وهذا يدل على أن الأمر فوق تصور البشر وتدبيرهم ، وأنه تدبير العزيز الحكيم[١] .

لقد فهم هذا من العقلاء منْ فهمه فانتفع منه . فهذا سهيل بن عمرو أحد أعداء رسول الله ﷺ في جاهليته ومن كبار عقلاء قريش وخطبائها ومن أصحاب الرأي الحصيف فيها وهو المفاوض عنهم يوم الحديبية وله تلك المناظرة والمجادلة ، أسلم بعد فتح مكة . فلما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب ، جال أهل مكة جولة وهمّوا بالردة ، فاستخفى عتاب بن أُسيد عامل رسول الله ﷺ على مكة[٢] . فقام سهيل بن عمرو فيهم خطيباً ونهاهم عن ذلك فقالوا : (محمد قد مات والناس قد رجعوا عن دينه) فقال لهم سهيل : (إنْ يكن محمد قد مات فإن الله لم يمت . وقد علمتم أني أكثركم قتباً في برّ وجاريةً في بحر ، فأقرّوا أميركم ، وأنا ضامنٌ إنْ لم يتم هذا الأمر أن أردَّها عليكم جذعة[٣] ، **وإنْ كنتُ أعلم أن هذا الدين**

---

(١) انظر تثبيت دلائل النبوة ٣١٤ وما بعدها .

(٢) العامل على مكة : الوالي عليها .

(٣) جذعة : قوية فتية ، يريد سيادة قريش .

سيمتد من طلوع الشمس إلى غروبها !

قالوا : ومن أين علمت !

قال : **إني رأيت رجلاً واحداً وحيداً لا مال له ولا عز ، قام في ظل هذا البيت فقال : إني رسول الله ، واني سأظهر ، فكنا بين ضاحك وهازل وراجم ومستهجر ، فما زال أمره ينمي ويصعد حتى دِنّا له[1] طوعاً وكرهاً . والله لو كان من عند غير الله لكان كالكسرة في يدي أي فتى من فتيان قريش** . وإنَّ هذا ؛ وأشار إلى أبي سفيان ؛ ليَعلم من هذا الأمر مثلَ ما أعلم ، ولكنْ قد ختم على قلبه حسد بني عبد المطلب) .

قال القاضي عبد الجبار : (فقد اعتبر العلماءُ وأهلُ التحصيل ، فما وجدوا أحداً جاءَ مجيءَ نبينا محمد ﷺ في الوحدة والفقر والفاقة ومنافرة الأمم كلها ومعاداتها. حتى ما اعتصم بمخلوق ولا صوب ملكاً ولا جباراً كان في زمانه . . ثم صار أمره في القهر والغلبة ما صار أمره إليه . فإن ظاهر الأمر وموجب التدبير والعقل أن ذلك لا يتم ولا يكون ، وأنه هو المغلوب المقهور المقتول **إلَّا أن يكون من قِبَلِ الله الذي لا يغلبه شيء** . فإن أمره ﷺ كان كريشة دفعت الجبال فسيَّرتها وطيَّرتها ، أو كزجاجة وُضعت على الجبال فطحشتها وسوتها بالأرض . **فتأمل هذه الآية العظيمة ، وكل آياته عظام**)[2] .

٣ ـ عجز البشر الأبدي عن معارضة القرآن :

أعلن محمد بن عبد الله أعظمَ الأمور وأجلَّها ، أعلن النبوةَ والعصمة ، وأن الله اصطفاه على العالمين وأوحى إليه ، وأرسله بدين

---

(١) دنا له : خضعنا له .

(٢) تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار أحمد الهمذاني المتوفى سنة ٤٥١ هـ ص ٣١٤ـ ٣١٨ ـ طبع دار العربية ـ بيروت .

الحق وجعل رسالته حجة على مَنْ أدركه ومن جاء بعده إلى يوم الدين ، وأنه مُحَكَّمٌ في الأنفس والأموال ، وأن الواجب على كل عاقل طاعتُهُ والانقيادُ لأمره ورسالته ، فمن حادَّه استأهلَ العقاب الدنيوي في دمه وماله ، وحلَّ عليه الخزي والغضب من الله في الدنيا والآخرة . وأعلن رسول الله ﷺ أن أقوى وأبلغ حججه على هذا الأمر العظيم والتكليف الجسيم ، هذا القرآن المجيد ، فإن أحداً من بلغاء معاصريه ، لا بل إن جميع معاصريه لا يقدرون على الإتيان بمثله ، بل إن جميع أهل الثقلين إنسهم وجنهم لو اجتمعوا على الإتيان بمثله في عصره أو بعده إلى آخر الدهر فلن يأتوا بمثله أبداً ﴿ **قلْ لئنِ اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً** ﴾[1] .

بل العجز ملازم للفصحاء كلهم عن سورة من مثله ﴿ **وإنْ كنتم في ريبٍ مما نزَّلنا على عبدِنا فأْتوا بسورةٍ من مثلِه وادعوا شهداءَكم من دون الله إنْ كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ أُعدَّتْ للكافرين** ﴾[2] .

أرأيتَ كيف علَّق أمرَهُ وأمر دعوته كلها على القرآن بتحدٍ جريءٍ مهيج !! هل يصنعُ هذا ، دونما تأييد إلّهي ؛ أي عاقل فضلاً عن أرجح الناس عقلاً ورزانة وحلماً !؟ وهل يأمن إلاَّ بتأييد الله مغبة هذا التحدي ، الذي يغيظ العرب ويُغضبهم ويبعث فيهم الحمية الأدبية مضطرمة عارمة ؛ عصبيةً لآبائهم وانتصاراً للآلهة والأديان ؛ وتخلصاً من عار الخزي والهزيمة والخسران . . !؟

بل كيف يخاطبهم مخبراً عن غيب الحاضر والمستقبل ﴿ **فإنْ لم**

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢١ ـ ٢٢ راجع ص ١١٦ ـ ١٢٣ .

تفعلوا ولنْ تفعلوا ﴾ إلى أبد الدهـر ، **وأن الجن والإنس لا يأتـون بمثله ولو اجتمعوا له في أي عصر وإلى الأبد .**

كيف يخاطبهم بهذا وهـو يعلم أن الفصاحـة والبلاغـة مبثوثـةٌ فيهم وغالبة على رجالهم ونسائهم ، وقد تعلمها هو منهم . . . !؟

وكيف السبيل إلى اليقين بعجزهم إلى أبد الدهر إلا أن يكون نبؤه إلَهيـاً ؛ وقرآنـه قولاً ربـانياً ؛ يُعجـز الخلائق لأنـه قـول خـالقهم أنـزلـه لإعجازهم وهدايتهم . وفي هذا أخبار غيبية كثيرة ، فإنه قال لكل فرد من الإنس والجن إلى قيام الساعة : إنك لا تـأتي بمثل هـذا القرآن ، وكـل واحد منكم عاجز عنه منفرداً أو مستعيناً بـالخلائق بـأسرهـا . وأنت ترى أنهم ما جاؤوا بمثله مع عنف حميتهم وشدة حرصهم عليه . وقد انقضى الآن على تنـزله أربعـة عشر قـرناً ، ولم يتفـوه أحد بمـا يعارضـه ، وهذا مصداق نبئه ويقين خبره . فقلْ : صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين . والحمد لله رب العالمين[1] .

وقد أوضح العلاّمة ابن كثير هذا المعنى فقال في تفسير الآية :

(﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ ولن : لنفي التأبيد في المستقبل ، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً . وهذه أيضاً معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً ؛ مُقْدِماً غيـر خائف ولا مشفق ، أن هـذا القرآن لا يُعـارَض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين . وكذلـك وقع الأمـر ، لم يُعارَض من لَدُنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ؛ وأنى يتأتى ذلك لأحد ؛ والقرآن كلام الله خالق كل شيء !! وكيف يشبه كلام الخـالق كلام المخلوقين . **ومَنْ تدبَّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى : ﴿ الر ، كتابٌ أُحكمتْ آياتُهُ ثمَّ فُصلتْ**

---

(١) تثبيت دلائل النبوة : ص ٨٥ وغيرها ، ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

من لَدُنْ حكيمٍ خبير ﴾)[1] .

ثانياً : إخبار القرآن عن مستقبل المسلمين :

لقد وردت في القرآن نبوءات تبين مستقبل المسلمين ، نقتبس منها :

١ ـ إخباره في مكة عن انتصار المؤمنين وهزيمة المشركين :

توعَّدَ رسول الله ﷺ في مكة قريشاً بهزيمتهم والنصر عليهم ، فاستخفوا بوعيده وهزؤوا منه . فكيف يأمل محمد ؛ ومعظم أتباعه يومئذ من الفقراء والعبيد الضعفاء ؛ أن يقهر أشاوس قريش الأقوياء الأغنياء ، والناس معهم والنجدة والبأس بجانبهم !؟ فتلا عليهم ما بيَّنه الله في سورة القمر من مصائر الأقوام السابقين : قوم نوح ؛ وعاد قوم سيدنا هود ؛ وثمود قوم سيدنا صالح ؛ وقوم سيدنا لوط ؛ والطاغية فرعون وجنده ؛ فقد أهلكهم الله جميعاً وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصر رسله وأتباعهم ، فما بالك بقريش وليسوا أشدَّ منهم قوةً ولا أكثر بأساً !؟

وأعقب تعالى ذلك العرضَ بقوله : ﴿ **أكفارُكُم خيرٌ من أولئكم أمْ لكم براءةٌ في الزُّبُرِ !؟ أمْ يقولون نحن جميعٌ منتصر !؟ سيُهزمُ الجمعُ ويُولُّون الدُّبُر** ﴾[2] .

وإذا كان الله تعالى قد أباد أولئك الطغاة أُمة بعد أمة ؛ فما الذي يحول بينكم أيها المشركون وبين بطش الله إنْ أراد أن يبطش بكم ؟ فهل كفاركم أعداء محمد خير من أولئكم الذين أهلكهم الله لتكذيبهم الرسل

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : جـ ١ ص ٦٠ والآية من سورة هود : ١ وراجع ص ١٢٧ ـ ١٥٠ .

(٢) سورة القمر : ٤٣ ـ ٤٥ .

وكفرهم بكتب الله ؟ أم أنكم حظيتم ببراءة من الله تضمن أن لا ينالكم منه عذاب ولا نكال ؟

ثم التفت عن الخطاب إلى الغيبة يحكي عنهم قولاً منكراً : ﴿ **أَمْ يقولون نحن جميع منتصر** ﴾ أم يزعمون أن جمعهم المتناصر يغني عنهم شيئاً إن أرادهم الله بسوء !؟ كلا ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ ليتفرقنَّ شملهم ولينكسرن جمعهم لا محالة . ولا يغيبنَّ عن بالك أن الجهاد إنما شُرع في السنة الثانية من الهجرة ، **فما نزول هذا النبأ الإلّهي في مكة إلا برهان دامغ إذ عاين العباد تحققه كما أخبر بعد حين !** روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن هذه الآيات قد نزلت على محمد ﷺ بمكة وهي جارية تلعب[1] .

لقد أنزل الله التنبؤ بهزيمة جموع المشركين ، في وقت لا مجال فيه للتفكير في الحرب ؛ فضلاً عن انتصار الضعاف المسلمين على حشود أصحاب الشوكة المشركين . روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ **سيُهزم الجمعُ ويولون الدبُر** ﴾ قال عمر : أيُّ جمعٍ يُهزم ؟ أيُّ جمع يَغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرعِ وهو يقولُ ﴿ **سيُهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ فعرفت تأويلها[2] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر : « أَنْشُدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ اللهم ، إنْ شئتَ لم تعبدْ بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبُك يا رسول الله ، ألححتَ على ربك . فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول :

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة القمر مختصراً ٨ : ٦١٩ رقم ٤٨٧٦ وفي فضائل القرآن مطولاً ٩ : ٣٨ رقم ٤٩٩٣ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٦ .

« سيُهـزم الجمع ويـولون الـدبر ، بـل الساعـةُ موعـدُهم والساعـة أدهى وأمرُّ »[١] .

(فهُزمت جموع المشركين يوم بدر ، وكانت العقبى لـه كما أخبـر وفصَّل ، وقد كان في ظاهر الرأي والحزم وموجب التدبير أن تكون العقبى لهم لا له ، وهم الغالبون لا هو ، لأنهم واليهود والنصارى وتلك القبائل يد واحدة عليه وفي العـداوة له . والكثـرة والثروة والبـأس والنجدة والكـراع والسلاح معهم لا معه ، **فلن يغلبهم إلَّا أن يكون من قبل الله ، ورسـولاً لله ، كما أخبر**)[٢] .

قلت : إن الشائع بين الناس في زماننـا أن الرسـول ﷺ لم يجابـه المشركين يوم بدر بالسلاح بنفسه ، وأنه اكتفى بالمكث بـالعريش الـذي بني له يسأل الله النصر . لقد أثارت روايةُ ابن هشام في السيرة هذا الوهمَ في الأذهـان . وأرى أن الصحيـح الـذي يـدل عليـه الجمـع بين كـافـة الروايات : أنه ﷺ فعل ذلـك قبل بـدء المعركـة ، فلما بـدأت كان يثب بـالدرع في مقـدمة المسلمين وهـو أقـربهم إلى العـدو ، وكـان شجعـان الصحابة أمثال سيدنـا علي رضي الله عنه يلوذون بـه ويحتمون . هـذا ما أفاده الحديثان المذكوران آنفاً ؛ وحـديث علي رضي الله عنه الـذي رواه أحمد والنسائي والطبراني والبيهقي[٣] .

٢ ـ إخباره عن تغلب الروم حين دحرهم الفرس في هزيمة ساحقة :

غَلب كسرى ملك الفرس واسمه سابـور ذو الاكتاف جيـوش الروم حتى استولى على بلاد الشام وما والاهـا من بلاد الجـزيرة وأقـاصي بلاد

(١) رواه البخاري كتاب التفسير ٨ : ٦١٩ رقم ٤٨٧٧ والنسائي في غير موضع .
(٢) بتصرف يسير من تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار ـ ص ٣٠٣ .
(٣) راجع نبوة محمد ﷺ في القرآن : شجاعته ص ١٢٦ .

الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم إلى التراجع حتى ألجأه إلى القسطنطينية وذلك أيام اشتغال رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الإسلام في مكة المكرّمة . فألقى ذلك انطباعاً مختلفاً لدى كل من المسلمين والمشركين . وروى القصة الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير الطبري بألفاظ مفادها : أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم على الشرك ، وقد حصل هذا فكان داعية لشماتة المشركين وتقوية أملهم بالقضاء على الإسلام والمسلمين . فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ **ألم . غُلبتِ الرومُ في أدنى الأرضِ وهم من بعدِ غَلَبِهِمْ سيَغلِبون . في بضعِ سنينَ ، للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون . بنصرِ الله ينصرُ مَن يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم . وعدَ اللهِ لا يُخلفُ اللهُ وعدَه ولكنَ أكثرَ الناسِ لا يعلمون** ﴾[1] .

فقال المشركون لأبي بكر رضي الله عنه : ألا ترى إلى ما يقول صاحبُك ، يزعم أن الروم تغلب فارس . .

قال : صدق صاحبي . قالوا : هل لك أن نخاطرك[2] ؟ ثم استشار أبو بكر رسولَ الله فأقره على ذلك ، على أن يجعل الأجل إلى بضع سنين ، فتم ذلك .

قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر وقيل : انه ما بين الواحد إلى التسعة . فانتصر الروم الكتابيّون على الفرس المجوس يوم وقعة بدر . وهو قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والسدي وغيرهم . وقد روى الترمذي وابن جرير بهذا حديثاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

---

(١) سورة الروم : ١ ـ ٦ .

(٢) نخاطرك : نراهنك ، والخطر : الرهن .

وهكـذا تم انتصار الـروم بعد نحـو سبـع سنين من نـزول الآيـات الكريمة . وأخرج الترمذي عن أبي سعيد وحسَّنه : أنه لمـا كان يـوم بدر ظهـرت الروم على فـارس فأخـذ أبو بكـر رضي الله عنه الخـطر من ورثة أُبي « بن خلف » وجـاء به إلى النبي ﷺ فقـال عليـه الصـلاة والسـلام : « تصدق به » .

وقـد فرح المؤمنـون بإحـراز الروم النصـر لما في ذلـك من الآيات الباهرات الشاهدات بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عزّ وجلّ ؛ ولما فيه من الإخبار عن الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله العليم الخبير .

ولقد ظهرت هذه الآيات الخارقة لأولي البصائر فأسلم ناس كثير . وهذا نبأ صحيح ثابت لدى أهل العلم .

أما قوله تعالى : **﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾** فقد اختلف المفسرون في المراد منه على أقوال :

أحدها : يفـرح المؤمنون يـوم يغلب الرومُ الفـرس بنصر الله يعني بتغليبه مَن لهُ كتاب على مَن لا كتابَ له ؛ وبإغاظة أصحاب الشماتـة من كفار مكة وبتقوية فأل المؤمنين بالنصر على المشركين .

وثانيها : نصر الله تعالى هو تحقق صدق القـرآن فيما أخبـر به من غلبة على فارس . وأرى أن هذا القول راجع للقول الأول ، فهمـا عندي وجه واحد .

ثالثها : مـا دل عليه حـديث أبي سعيد الخـدري رضي الله عنه أن نصر الروم على فارس قد وافق يوم بدر ، وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى .

وقـد ذهب الألوسي رحمـه الله تعـالى إلى تـرجيـح الأول فقـال :

(والأول أنسب لقوله تعالى : ﴿ **ينصرُ من يشاءُ** ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويُغلِّبه عليه) .

لكني أرى أن ترجيح الألوسي للقول الأول بقوله : (ينصر من يشاء) لا رجحان له به ، لأنه عام ويشمل هذا وذاك . فهو متسع للدلالة على انتصار الروم على الفرس وانتصار المؤمنين على المشركين في آن واحد ، إذ لا تمانع بينهما .

أقول وما توفيقي إلَّا بالله : إن أهل الكتاب والروم خاصة كانوا على تحريف عظيم لإنجيل سيدنا عيسى عليه السلام ، كما أقاموا على اعتقاد فاسد في صفات الله عزّ وجل وفي وحدانيته خاصة . فلا يكون تغلبهم على الفرس بمجرده نصراً إلّهياً للمؤمنين . . **إنما نصر المؤمنين فيما يحف بغلبتهم من معانٍ وما ينجم عنه من آثار وذلك بغيظ الكافرين وتفاؤل المؤمنين وتحقق صدق خبر كتابهم وصحة دينهم .**

ولا ريب بعد هذا أن انتصار المؤمنين في بدر يندرج حتماً تحت قوله : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾[1] لأنه نصر مادي ومعنوي على جهة الحقيقة المشهودة .

وتتجلى روعة الإعجاز في هذا النص بكشفه حجب الغيوب قبل سنين بما لا يتوصل إليه عقل بشري . . ذلك أن الفرس دولة منيعة وقد اكتسحت من بلاد الروم ذلك الجزء العظيم فألجأت هرقل إلى قسطنطينة وازدادت هيبة وهيمنة . وكان انكسار الروم ذريعاً مريعاً لا يتصور العقل أن تقوم لهم قائمة إلَّا بعد عشرات السنين . وقد اعتمد المشركون على دلالة هذا الواقع فتطاولوا وتفاءلوا وراهنوا .

فَلأن يتنبأ القرآن بوقوع نقيض ما تدل عليه الظروف والوقائع

---

(١) يوم : ظرف زمان متعلق بيفرح (بنصر) جار ومجرور متعلق بيفرح أيضاً .

الحاضرة مما هو مستبعد أشد الاستبعاد لدى أهل الخبرة من الناس ، ثم يتحقق خبره بنصر الروم على الفرس مقترناً بنصر الله المؤمنين مع ضعفهم واستكانتهم وشدة شوكة عدوهم ، وهذا في نظر المشركين أشد بعداً من الأول !! فذلك دليل بليغ على أنه نبأ إلّهي عظيم ووعد رباني صادق ﴿ وعدَ الله ، لا يُخلِفُ الله وعدَهُ ، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾[1] .

٣ ـ إخباره عن دخول المسلمين مكة :

وقف المشركون سداً منيعاً دون دخول رسول الله ﷺ والمسلمين مكةَ عام الحديبية . ولم يقصدوا من دخولها إلا أداء مناسك العمرة . فلما صدتهم قريش ؛ ولم يشأ الرسول والمسلمون أن يُعملوا سيوفهم في حرم الله الآمن ؛ ارتضوا بما اشترطته قريش في عقد صلح الحديبية على الرغم من قسوته وحيفه ، ومن ذلك أنْ لا يدخلوا العام مكة وأن يعودوا لزيارتها في العام القادم ، مجردين من السلاح إلَّا السيوف في قرابها فلا سهام ولا رماح ولا دروع . ولكنْ مَنْ لهم بحمل قريش على إنجاز وعدها ؛ وقد ألفوا منها نكث العهود وتقطيع الأرحام وانتهاك المحارم . . !؟ ومَن يكفل لهم أن لا تَغير عليهم قريش في مكة فجأة وتغدر بهم ؟ وحقد قريش وحلفائها لم يزل متأججاً ، فكيف السبيل إلى الأمن منهم بغير سلاح !؟ .

طمأن الله عباده بتنزيل قوله : ﴿ **لقد صدقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق ، لَتدخُلُن المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ الله آمنين مُحلِّقينَ رؤوسَكم ومُقصِّرينَ لا تخافونَ ، فعَلِمَ ما لَمْ تعلموا فجعلَ مِنْ دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾[2] .

---

(١) سورة الروم : ٦ وانظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧ وروح المعاني جـ ٢١ ص ١٥ ـ ١٩ ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ والنبأ العظيم ص ٤١ ـ ٤٢ وانظر أيضاً تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار ص ٥٩ ـ ٦٤ .

(٢) سورة الفتح : ٢٨ وانظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ والنبأ العظيم ٤٠ ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

فأنبأ الله أن تحقق الرؤيا وشيك الوقوع ، وهي التي رآها رسول الله قبل صلح الحديبية أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فلما كان ذو القعدة من العام التالي سنة سبع بعد الهجرة خرج الرسول ﷺ وأصحابه إلى مكة للعمرة . وقبل أن يصل مكة أبعد السلاحَ من قِسيّ ونبال ورماح إلى بطن يأجُج ، وخرج رؤوس الشرك من مكة ؛ لئلا يشاهدوا رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ غيظاً وحنقاً . ودخل المسلمون مكة وليس معهم إلَّا السيوف في القراب آمنين مطمئنين وقد حلق بعضُهم رأسه ، وقصَّر البعض الآخر من شعره . **ومكثوا ثلاثة أيام أدوْا فيها مناسك عمرة القضاء . وتحقق لهم نبأ الله الذي أنزل على رسوله ، ومن أصدق من الله حديثاً !؟ .**

ثالثاً : أخبار القرآن عن مستقبل المشركين :

١ ـ الاخبار بكشف الجدب عنهم وعودهم إلى عتوهم بعده : ومما يثبت إعجاز القرآن في إخباره عن غيوب المستقبل ويكون بالتالي آية على نبوة سيدنا محمد ﷺ ، نبأ هذه الآيات الكريمة ، قال تعالى :

﴿ بل همْ في شكٍ يلعبون . فارتقبْ يومَ تأتي السماءُ بدخانٍ مبين . يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليم . ربنا اكشفْ عنا العذابَ إنا مؤمنون . أنى لهمُ الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبين . ثم تولَّوْا عنه وقالوا مُعلَّمٌ مجنون . إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون . يوم نبطشُ البطشةَ الكبرى إنا منتقمون ﴾[1] .

فقد رُوي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أن هذا الدخان سيظهر قبل يوم القيامة . . وهو قول مرجوح ، كما يثبت حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

روى مسلم عن مسروق قال : كنا عند عبدِ الله جلوساً ، وهو

(١) سورة الدخان : ٩ ـ ١٦ .

مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن إن قاصًّا عند أبواب كِندةَ يقصُّ ويزعمُ أن آية الدخان تجيءُ فتأخذ بأنفاسِ الكفار ؛ ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام. فقال عبد الله وجلس وهو غضبان: يا أيها الناسُ اتقوا الله ، مَنْ علمَ منكم شيئاً ، فليقل بما يعلم ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عزّ وجلّ قال لنبيه ﷺ : ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين** ﴾[1] إن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدباراً فقال : « اللهم سبعٌ كسبع يوسف» قال: فأخذتهم سنة حَصَّتْ[2] كل شيء، **حتى أكلوا الجلودَ والميتة من الجوع ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان** . فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادعُ الله لهم . قال الله عز وجل : ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناسَ هذا عذاب أليم** . . ﴾ ـ إلى قوله ـ : ﴿ **إنكم عائدون** ﴾ قال : **أفيكشف عذابَ الآخرة** !؟ ﴿ **يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾ فالبطشةُ الكبرى يوم بدر . وقد مضت آية الدخان والبطشة واللزام وآية الروم[3] .

---

(١) سورة ص : ٨٦ .

(٢) حصت : استأصلت .

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب الدخان ـ حديث/ ٢٧٩٨ جـ ٤ ص ٢١٥٥ ـ ٢١٥٦ . ورواه الإمام البخاري ـ.

صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الدخان ـ جـ ٦ ص ٣٩ ـ ٤١ . وتفسير سورة الروم ـ جـ ٦ ص ٩ ـ ٢٠ كما رواه بنحوه في كتاب التفسير ـ تفسير سورة يوسف ـ باب وراودته التي هو في بيتها جـ ٥ ص ٢١٧ ، وفي كتاب الاستسقاء ـ باب دعاء النبي اجعلها عليهم سنين كسني يوسف جـ ٢ ص ١٥ ، وباب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط ج ٢ ص ١٩ . ورواه الإمام الترمذي بنحوه وقال : وهذا حديث حسن صحيح جامع الترمذي ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة الدخان ـ جـ ٥ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ ـ حديث ٣٢٥٤ .

=

رواه البخاري ومسلم واللفظ له ، وللحديث عندهما روايات متقاربة . قال ابن كثير في تفسيره : (وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به . **وقد وافق ابنَ مسعود** رضي الله عنه ـ على تفسير الآية بهذا وأن الدخان مضى ـ **جماعةٌ من السلف** : كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطيةَ العوفي ، وهو اختيار ابن جرير)[1] .

وفي بعض ألفاظ البخاري عن مسروق قال : قال عبد الله : إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام **فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد** . فأنزل الله تعالى : ﴿ **فارتقبْ يوم تأتي السماءُ بدخانٍ مبينٍ . يغشى الناسَ هذا عذاب أليم** ﴾ . قال : فأتي رسول الله ﷺ : فقيل : يا رسولَ الله استسقِ الله لمضر ، فإنها قد هلكت . قال : لمضر !؟ إنك لجريء ، فاستسقى فسُقوا ، فنزلت : ﴿ **إنكم عائدون** ﴾ . فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يومَ نبطشُ البطشةَ الكبرى إنا منتقمون** ﴾ قال ، يعني يومَ بدر[2] .

= وقول ابن مسعود : « أفيكشف عذاب الآخرة !؟ » استفهام انكار على من يزعم : أن الدخان يكون يوم القيامة ، فإنه زعم لا أساس له من الصحة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ ومعلوم أن كشف العذاب ثم عودهم إلى غيهم لا يكون في الآخرة ، إنما هو في الدنيا .

وآية (اللزام) : قوله تعالى : ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ : عذاباً لازماً . وهو ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر ، يوم البطشة الكبرى .

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ١٣٨ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب التفسير ـ الدخان ـ باب (يَغشى الناس هذا عذاب أليم) ـ جـ ٦ ـ ص ٣٩ .

وفي رواية أخرى عند البخاري أيضاً عن ابن مسعود أيضاً :

(. . فأخذتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد **حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئةِ الدخان من الجوع** ، قالوا : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . فقيل له : إنْ كشفنا عنهم عادوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فعادوا ، فانتقم الله منهم يوم بدر . فذلك قوله تعالى : ﴿ **يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾ إلى قوله جل ذكره ﴿ **إنا منتقمون** ﴾)[1] .

لقد فضح الله المشركين في تلك الآيات أنهم في شك عظيم من أمر ربهم ﴿ **بل هم في شك يلعبون** ﴾ وأنهم قدموا الهزء والعبث في موضع الجد والتعقل . فهم لا يقولون ما يقولونه عن الله تبارك وتعالى عن اعتقاد ويقين ، إنما هو خبث وهزء ولعب . لقد جاءهم الحق فلم يَلْقَ منهم إلا الشك والإمتراء . ثم التفتَ عن الحديث عنهم لفرط عنادهم وعدم انتفاعهم إلى خطاب رسول الله ﷺ : ﴿ **فارتقبْ يوم تأتي السماء بدخان مبين** ﴾ فرتب مجيء الدخان على كونهم بالله وآياته يشكون ويلعبون ، فإن هذا يستوجبه حتماً . فلا تستبعده أو تستغربه ، وكنْ في مثل هذا الحال منتظراً له . وقد أصابهم لأنهم يستحقونه فهو لهم متوقع مرتقب . وأراد بالدخان الجدب والمجاعة . فإن الجائع جوعاً شديداً يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ـ كما ذكره ابن مسعود ـ وإنما يتوهمه الرائي لشدة ضعفه وضعف بصره ، **فهو إذن مجاز** من باب ذكر المسبَّب وهو مشاهدة الدخان وإرادة السبب وهو الجدب والجوع . وقرينة التجوز فيه حالية كما علمتها من خبر ابن مسعود رضي الله عنه . فقد غشيَ هذا العذابُ كفار قريش فعلاً ، فنزلت الآيات تكشف هول الأمر وتحملُ ذوي الألباب على

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ الدخان ـ باب قوله تعالى : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ ـ جـ ٦ ص ٤٠ .

الاتعاظ والاعتبار ، غير أن المشركين لم يعتبروا به . فلو كانوا أهلاً للتعقل والنظر لاهتدوا بما وافاهم به الرسول العظيم ﷺ من دواعي التذكر وهو أعظم دلالة من هذا العذاب . فقد أظهر لهم مناهج الحق مؤيدة بآيات ومعجزات تخر لها صم الجبال ، فأعرضوا يتهمونه بالجنون تارة والتعلم تارة أخرى . لقد كشف الله عنهم العذاب وأنعم عليهم بأسباب الرفاه ، **وأخبر سلفاً أنهم سيعودون إلى غَيهم وضلالهم ، ولن يهملهم الله ، وإنما سينتقم منهم ببطشة هائلة مريعة تنالهم لا محالة . وقد تحقق صدق خبره فأصابهم وعيده يوم بدر . فمن أصدق من الله حديثاً !؟**[1] .

ظهر لك آنِفاً أن النص القرآني قد احتوى نبأين عن الغيب المستقبل :

أولهما : أن الله تبارك وتعالى أخبر بعد كشف العذاب عنهم أنه لم يحصل لهم اتعاظ واهتداء وأنهم سيعودون في الرخاء إلى عتوهم وطغيانهم .

ثانيهما : أن الله سينتقم منهم لانغماسهم في الضلال والمحادَّة ثانية ببطش مفزع مفجع ، وقد تم يوم بدر ، وهذا ما دلّ له ما ورد في حديث البخاري عن ابن مسعود : (فاستسقى فسُقوا ، فنزلت ﴿ **إنكم عائدون** ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **يوم نبطش البطشةَ الكبرى إنا منتقمون** ﴾ قال : يعني يوم بدر) .

لقد ذهب العلاّمة عبد العظيم الزرقاني والدكتور محمد عبد الله دراز

---

(١) روح المعاني : جـ ٢٥ ص ١٠٧ ـ ١١٠ وابن كثير جـ ٤ ص ١٣٨ ـ ١٤٠ والجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي جـ ١٦ ص ١٣٠ ـ ١٣٤ وانظر فتح الباري جـ ٨ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥ .

رحمهما الله إلى أن في النص من أنباء الغيب ـ إضافة إلى ما ذكرناه ـ ما يلي :

١ ـ أن الجدب سيغشاهم حتى يرى أحدُهم بسببه دخاناً في السماء .

٢ ـ أنهم سيتضرعون إلى الله حين تحل الأزمة بهم .
٣ ـ ان الله سيكشف عنهم هذا العذاب[1] .

وعندي أن النص القرآني لا ينبيء عن تلك الإضافة فإنه نزل بعد حصول الأمور الثلاثة المذكورة ، وأن قولهما ذاك خطأ ؛ ولم يحملهما عليه الا التسرع ـ جنبنا الله الزلل ـ فإن الحديث ينفي قولهما نفياً واضحاً فارجع إليه وتأمل !!

٢ ـ الاخبار في مكة بأن الرسول سيصير في عزٍّ وجند المشركين في خزي وذل :

قام رسول الله ﷺ في مكة بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى تلبية لأمره تعالى : ﴿ **وأنْذرْ عشيرتَك الأقربين** ﴾[2] فجمع قريشاً ووعظهم وحضَّهم على اتباع دين الله ومفارقة دين آبائهم الباطل ورغبهم بنعيم الله إنْ أجابوا ، وحذرهم من النار ومن عاجل العقاب إنْ أبوْا ، فإنَّ الله قادر أن يبعث عليهم جنداً من جنوده ينصرون دينه ويحاربونهم مع رسوله . فغضبوا ونفروا ومشوْا إلى أبي طالب يشكون ؛ ويتوعدون بأنهم أكثر جنداً وأقوى شوكة وأعز نفراً ، وتواصوا بالمثابرة على الغَيِّ مكابرة وعناداً . حكى الله ذلك عنهم بقوله :

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ والنبأ العظيم ص ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢) سورة الشعراء : ٢١٤ .

﴿ وعجبوا أنْ جاءهم مُنذرٌ منهم وقال الكافرون : هذا ساحرٌ كذَّاب . أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب . وانطلق المَلأ منهم أنِ امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لَشيءٌ يُراد ﴾[1] .

وتوعدوه مغترين بكثرتهم وعنادهم ، واجترؤوا عليه لما رأوا ضعفه ووحدته ، فاستخفوا بشأنه ووثقوا من التغلب عليه . وتوعدهم وهو في ذلك الضعف المكشوف المعروف ، فأنزل الله تعالى : ﴿ جُندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب ﴾[2] .

فظهر في هذا الموقف آيتان عظيمتان :

أولاهما : أن رسول الله ﷺ بوحدته وضعفه حين كان في مكة رهين قبضتهم وأسير أيديهم لم يجامل القوم فيما يخالف دين الله تعالى . فكل عاقل سمع أخباره علم يقيناً أنه ﷺ ساعة أعلن النبوة وبلغ الرسالة أكفرَ كلَّ مَن خالفه ، فأثارهم وأغاظهم ، وهم القوم الأجلاف الذين لا يصبرون على ضيم ولا ينامون على وتر .

وثنَّى عليهم القرآن بنبأ يُطير اللبَّ ويُطيش الصواب ، **فقد أخبر أن الرسول سيصير في جماعات وعساكر وأنه سيظهر عليهم ويقتل أعداءه ومخالفيه ويذلهم فتكون العقبى له والصولة لجمعه ودينه . ولم يكن ذلك وعيداً في ساعة سخط فيذهب أدراج الرياح ، أو تطويه أمواج النسيان إذا تطاول عليه الأمد ، إنما نزل قرآناً يتلوه الرسول وصحبه على مسامع القوم صباحَ مساء .**

فبالله عليك هل يصنعُ هذا إلَّا رسول اطمأن قلبه إلى وعد الله ووثق بنصره ؟؟ ﴿ إنّا لَننصر رسلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد ﴾[3] .

---

(١) سورة ص : ٤ ـ ٦ .
(٢) سورة ص : ١١ .
(٣) سورة غافر : ٥١ .

قال القاضي عبد الجبار رحمه الله : (فتأمل الأمر في ذلك تجدْه عظيماً ، لأنه توعدهم بالحرب قبل الحرب ، وقبل الجماعة وفي حال الضعف ، وهو معهم وفي أسرهم وفي قبضتهم ، فبعثهم على قتله واستئصاله ، وهيَّجهم على بذل المجهود واستفراغ الوسع في مكارهه ، **وهذا لا يقع من عاقل إلّا أن يكون واثقاً بالله ؛ ساكناً إلى تنزيله ووحيه .** وإذا وَفّيت النظرَ حقه لم تجد لرسول الله ﷺ في إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين نظيراً في الضعف والوحدة ؛ ومَن خالف قومه تلك المخالفة وهاجهم وأسخطهم ذلك الاسخاط . وأخبرهم بما سيكون من قوته وغلبة الجبابرة من الأمم قبل أن يكون ذلك ، أو يكون له إمارة تقتضي ، **فصارت الأمور في القوة والظهور إلى ما قال ، فابتدأ ابتداء الشمس وامتد امتداد النهار)**[1] .

ثانيتهما: إن رحى الزمن قد دارت فحققت جميع ما أنبأ به كتاب الله ، حتى ظهر صدق كافة تعابيره في خبره عن هزيمة المشركين واندحار دينهم وتبدد شملهم . وقد وقى الله رسوله شرهم وكيدهم وقصر عنه أيديهم. فتأمل أقواله تبارك وتعالى في مكة : ﴿ **جندٌ ما هنالكَ مهزومٌ من الأحزاب** ﴾[2] ﴿ **أم يقولون نحن جميعٌ منتصرٌ . سيُهزَمُ الجمعُ ويولون الدبُر** ﴾[3] ﴿ **فقد كذبتم فسوف يكونُ لِزاماً** ﴾[4] ﴿ **يوم نبطشُ البطشةَ الكبرى إنا منتقمون** ﴾[5] .

تجد أن هذا الوعيد قد حاق بهم يوم بدر يوم البطشة الكبرى ، إذ أذل الله بأيدي المؤمنين وبملائكة من عنده هؤلاء الجبابرة ، حتى قُتل

---

(١) تثبيت دلائل النبوة ص ٨٣ وانظر فيه ص ٣٥٦ ـ ٣٥٨ .
(٢) سورة ص : ١١ .
(٣) سورة القمر : ٤٤ ـ ٤٥ .
(٤) سورة الفرقان : ٧٧ .
(٥) سورة الدخان : ١٦ .

سبعون من صناديدهم وأُسر سبعون ـ كما ثبت في صحيح البخاري ـ **فكان هذا العقاب لازماً لهم لتكذيبهم وإصرارهم على حرب الله ورسوله وقد أحاط بهم كما أخبر الله وأنبأ من قبل في القرآن المجيد .**

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : مضى خمس : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام)[1] .

٣ ـ إخبار القرآن عن مصائر عدد من رؤوس الشرك :

إن الله تبارك وتعالى قد أنبأ عن مصائر عدد من علية المشركين حادُّوا الله ورسوله وصدوا عن الهدى، فكانوا كما أنبأ. ولهذا النموذج أفراد كثيرون، منهم:

أولاً : أبو لهب عم رسول الله ﷺ وأم جميل زوجة أبي لهب ، فقد نزلت سورة المسد تنبيء عن هلاكه وزوجه على الكفر وأنه لا يغنيه عن هذا المصير الكالح جميع ما اكتسب من مال وولد ووجاهة عند الناس .

قال تعالى : ﴿ **تبتْ يدا أبي لهبٍ وتبَّ . ما أغنى عنه مالُهُ وما كسبَ . سيصلى ناراً ذات لَهب . وامرأتُهُ حمالةَ الحطبِ في جيدِها حبلٌ من مَسَد** ﴾ .

أما ولده **عتبة** فقد افترسه أسد في طريق الشام . وأما أبو لهب نفسه فقد كبته الله وأخزاه بعد هزيمة جيش المشركين يوم بدر ـ وكان قد تخلف عنهم ـ ولم يلبث إلا ليالي حتى رماه الله بمرض كالطاعون يسمى العدسة فقتله . ولم يقربه أحد ثلاثة أيام حتى أنتنَ ، فاستأجروا بعض العبيد فدفنوه . وهكذا مات على الكفر ، كما نفقت زوجته عليه ، فطابق هذا الواقع خبر الغيب عن مستقبلهما أيام كانا بمكة حيين سليمين[2] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، واللفظ للبخاري من كتاب التفسير ـ الدخان .

(٢) انظر تفسير البيضاوي وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها .

قال القاضي عبد الجبار رحمه الله : (وهذه غيوب كثيرة لا يكون مثلها بالاتفاق ولا بالحدس ولا بالزرق ، ولا يتفق لحذاق المنجمين أقل القليل من هذا . ومن عجيب الأمور أنها نزلت بمكة وتلاها رسول الله ﷺ ، وسمعها أبو لهب وجميع أعداء رسول الله ﷺ من قريش والعرب وغيرهم ، وهم أعوان أبي لهب . فهاجهم هذا القول في عداوته ، وزاد في غيظهم وحنقهم ، واذكرهم بنفسه وهو معهم وفي أيديهم وفي قبضتهم ، فما ضرَّه ، ولا تم لهم أمر في الظفر بقتله ، ولا على زلة يتبين فيها كذبه وسقوط قوله ، وهذا لا يقدم عليه العاقل إلَّا وهو على غاية الثقة **بما يقول**)[1] .

ثانياً : ليست النبوءة القرآنية عن أبي لهب فريدة ، إنما لها نظائر كثيرة تفيض بالعظاتِ والدلائل والعبر .

لقد نزل بحق **أبي جهل** التهديد والوعيد : ﴿ **فلا صدَّق ولا صلَّىٰ ولكنْ كذَّب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى** ﴾[2] .

ثم حدد القرآن مصيره إلى النار إذ أنبأ عن موته مستقبلاً على الكفر والضلال . واعترض أبو جهل فقال : (ولِمَ يُهددني ربُّ محمدٍ وأنا أعزُّ أهل البطحاء وأكرمهم ؟) .

فقال تعالى : ﴿ **إنَّ شجرةَ الزقُّوم طعامُ الأثيم ، كالمُهْلِ يغلي في البطونِ كغلي الحميم ، خذوهُ فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صُبُّوا فوق رأسهِ من عذابِ الحميم ، ذُق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾[3] .

وأنزل الله في **الأخنس بن شُريق** ﴿ **ويلٌ لكلّ هُمزة لُمزة الذي جمعَ**

---

(١) الزرق : الخداع . تثبيت دلائل النبوة ص ٣٦ .

(٢) سورة القيامة : ٣١ وما بعدها .

(٣) سورة الدخان : ٤٣ وما بعدها .

مالاً وعدَّده ، يحسب أنَّ ماله أخلده ، كلا لَيُنبذنَّ في الحطمة ﴾ فمات على كفره .

وأما **النضر بن الحارث** الذي كان يصرف الناس عن القرآن بأحاديث عن اسفنديار وكان شديد الكيد والعداوة والارصاد للرسول والمسلمين . فأنزل الله فيه : **﴿ ومن الناس مَنْ يشتري لَهوَ الحديثِ لِيُضِلَّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ، أولئك لهم عذابٌ مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأنْ لم يسمعْها كأنَّ في أُذنيه وقْراً فبشره بعذاب أليم ﴾**[1] .

ومنهم **الوليد بن المغيرة المخزومي** ، وقد عرف الحق بنفسه وصرح به كما أسلفنا قصته . فألحَّ الكبراءُ عليه أن يقول ما يُنفر العرب عن رسول الله وكتاب الله ، فقال : إنه سحر يُؤثَر . فأنزل الله فيه وهو حي سليم يدب على الأرض :

﴿ ذرني ومَن خلقتُ وحيداً . وجعلتُ لهُ مالاً ممدوداً، وبنينَ شهوداً ، ومهَّدتُ له تمهيداً ، ثم يطمعُ أن أزيدَ . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ إلى قوله : **﴿ سأصليه سَقر ﴾**[2] .

فلم يزده الله مالاً ولا ولداً بعد هذا ثم ماتَ كافراً كما قال وأخبر . فالحمد لله الذي صدقَ وعدَهُ ونصر عبدَهُ وأعزَّ جنده وهزم الأحزاب وحده .

ثالثاً : وقد ظهر من عظائم الآيات يوم بدر ما يزداد به المؤمنون إيماناً . فقد أُجيبت دعوة رسول الله ﷺ في نفر معينين من كفار قريش

---

(١) سورة لقمان : ٦ ـ ٧ .

(٢) سورة المدثر : ١١ ـ ٢٦ .

كانوا قد بالغوا في إيذائه وصحبه . فصرعهم الله بأيدي المؤمنين في هذا اللقاء . روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : استقبل النبي ﷺ الكعبة فدعا على نفر من قريش ، على شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبي جهل بن هشام . **فأشهد بالله لقد رأيتهم صرعى قد غيرتهم الشمس وكان يوماً حاراً**[1] .

٤ ـ إخبار القرآن باندحار المشركين واليهود:

لقد أنزل الله في المدينة أيام ضعف المسلمين وقلتهم أنباءً عن مستقبل المشركين في صراعهم مع الحق وحشدهم الرجال والأموال لإطفاء نور الله. قال الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون. والذين كفروا إلى جهنمَ يُحشرون**﴾[2] وقد أنفقوا أموالهم واستنفروا جنودهم لحرب الرسول والمسلمين، فانعكست جهودهم وبالاً عليهم، إذ تبددت الأموال وقُهر الرجال واندحروا خائبين متحسرين، كما أخبر كتاب الله وأعلن.

وتحدث القرآن العظيم عن عاقبة اليهود ومآلهم حين كان المسلمون في قلة الرجال والمال والسلاح . روى أبو داود في سننه والبيهقي في الدلائل وابن جرير وابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما أصاب ما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع ، وقال : « يا معشر يهود ! أسلموا قبل أن يصيبكم الله تعالى بما أصاب قريشاً ! » فقالوا : يا محمد : لا يغرَّنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال . إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس ، وأنك لم تكن مثلنا ، فأنزل الله تعالى :

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي . راجع ص ٦٤ ـ ٦٧ .

(٢) سورة الأنفال : ٣٦ .

﴿ قـل للذين كفروا ستُغلَبـون وتُحشـرون إلى جهنم وبئس المهـاد . . . لعبرة لأولي الأبصار ﴾[1] .

أراد بـ ﴿ الَّذين كفروا ﴾ اليهـود ، وعبر عن قـرب تلبسهم بمصير الخزي والهوان بقوله : ﴿ ستغلبون ﴾فالسين أفادت القرب ، يعني تغلبون عن قريب في الدنيا .

وقد تحقق خبر كلام الله إذْ نصر رسوله والمؤمنين على بني قينقـاع وبني النضير من اليهود وأجلوهم عن ديارهم ، ثم نصرهم على بني قريظة بعـد أن استمرؤوا خيـانة عهـد المسلمين وميثاقهم ؛ وعـزموا مـع قريش وغطفان على استئصال شأفة المسلمين وإبادتهم عن بكـرة أبيهم . فنصرَ الله رسوله والمؤمنين ، فانصرفت قريش وغطفـان عن حصار المـدينة من وراء الخندق ، واتجه الرسول وصحبه إلى بني قريـظة ، فمكَّنه الله منهم أبلغ تمكين ، حتى قتل جميع رجالهم المقاتلين جزاءً وفاقاً . ثم فتح بنصر الله خيبرَ وأخضع يهودها . وهذا كله من بديع الشواهـد على نبوة سيـدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم[2] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٢ ـ ١٣ . والحديث أخرجـه أبو داود بلفظ قـريب ـ سنن أبي داود ـ كتـاب الخراج ـ بـاب كيف كان إخـراج اليهود من المـدينـة ـ جـ ٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ حديث ٣٠٠١ . وأخرجه الـطبري برقم ٦٦٦٦ ورقم ٦٦٦٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير : جـ ٢ ص ٣٠٧ وجـ١ ص ٣٥٠ وروح المعاني : جـ ٣ ص ٨٣ ـ ٨٤ ولباب النقول في أسباب النزول ـ للسيوطي .

الوجه الثالث

الوفاء بكل ما وعد الله به في القرآن

وعد الله المسلمين في قرآنه كثيراً من الوعود العظيمة . وهي بمقتضى العقل وبالنظر إلى ظروف المسلمين وأحوال عدوهم مستحيلة التحقق ، غير أن الله تبارك وتعالى المتصرف في ملكه بحكمته ومشيئته قد وفَّاهم بها جميعاً . فكان في ذلك إعجاز باهر يدل على أن القرآن تنزيل الله وأن محمداً رسوله وأن الإسلام دينه . وتلك الوعود على قسمين :

أولاً : وعود قرآنية مطلقة :

١) يزجي الله لنبيه وللمؤمنين ضماناً إلَهياً بالحفاظ على دين الإسلام بحفظ أصله القرآن المجيد . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إنا نحن نزَّلنا الذكرَ وإنَّا له لحافظون ﴾[١] .

نزلت هذه الآية في مكة . وما دام الرسول ﷺ يعاني من ظروف مكة الشائكة القاسية فمن يكفل له في حياته وبعد موته سلامة دعوته وحمايتها من لظى ألسنة الحقد المضطرم ولهيب العداء المتصاعد !؟

هل يعقل أن ينبثق هذا الحكم القاطع من ذات محمد ﷺ وهو على ما هو عليه من رجاحة العقل !؟ كيف وكل عاقل يعلم تلاشي أصوات المصلحين وذهاب دعواتهم أدراج الرياح !! فكم فيّ التاريخ من مدنيَّة وحضارة عفتْ ودرست آثارها ؟ وكم من نبي قُتل ! أو ليس كل كتاب سماوي قبله قد ضاع أو حُرِّف وغيِّر !؟

لقد علمنا بيقين أن محمداً ﷺ ليس ممن تستخفه الآمال والأحلام .

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

فلم يكن من قبل يطمع أن يكون نبياً يوحى إليه . قال تعالى : ﴿ **وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتابُ إلاَّ رحمةً من ربك** ﴾[1] ولم يكن بعد النبوة يثق بقدرته الذاتية أن تضمن له بقاء هذا الوحي محفوظاً لديه إلاَّ أن يشاء الله رب العالمين : ﴿ **ولئن شئنا لَنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك ثم لا تجدُ لك به علينا وكيلاً ، إلاَّ رحمةً من ربك إنَّ فضلَه كان عليك كبيراً** ﴾[2] .

فلا ريب أن هذا الضمان بانتصار الإسلام وخلود القرآن إنما صدر عن الذي بيده تصريف شؤون الكون وإليه يرجع الأمر كله . وهو الذي أنزل القرآن وتكفل بحفظه ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ وقد أنفذ الله كفالته وأنجز وعده فحفظ للأمة قرآنها ودينها على الرغم مما أنزله العدو بها في تاريخها القريب والبعيد من هدمٍ للمساجد والمدارس وإحراقٍ للكتب والمصاحف ؛ وحملاتٍ للصد عن الدين والقرآن بالتضليل والبهتان ، تنفق عليها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وعلى الرغم من محاولاتٍ لتحريف القرآن ، منها : ان الاستعمار الفرنسي طبع عدداً هائلاً من المصاحف ووزعها في الجزائر أيام تحكمه في مقدراتها ، وقد جاءت الآيات فيه صحيحة كاملة إلاَّ كلمة واحدة من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمر منكم ، فإنْ تنازَعتم في شيءٍ فرُدّوه إلى الله والرسول إنْ كنتم تؤمنون بالله واليومِ الآخر، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً** ﴾[3] .

فقد حُذفت من الآية كلمة ﴿ **منكم** ﴾ في نسخ المصحف الذي طُبع بأمر الاستعمار الفرنسي ، وذلك تآمراً من الكفار على الإسلام والمسلمين ؛ بغية حملهم على طاعتهم ، لقوله ﴿ **وأولي الأمر** ﴾ وترك حربهم باسم الدين وتنفيذاً لأمر رب العالمين ، وسرعان ما افتضح التآمر

---

(١) سورة القصص : ٨٦ .

(٢) سورة الاسراء : ٨٦ وما بعدها .

(٣) سورة النساء : ٥٩ .

وانكشف التزييف والتلاعب وجُمعت المصاحف وأحرقت فأصبحت أثراً بعد عين . . كذلك تبددت جميع المحاولات والحملات فصارت هباءً منثوراً ﴿ **وقلْ جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً** ﴾[1] .

﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهقٌ ولكم الويل مما تصفون** ﴾[2] .

٢) ومن الوعود القرآنية المطلقة : وعد الله تعالى بنصر الرسول ﷺ وأصحابه على أعدائهم وإذلال مَن أخرجوهم من وطنهم ، وتمالؤوا على حربهم . وإنما حظي الرسول بذلك في أوان ضعفه وتكالب الأمم عليه وسعيها إلى قتاله وقتله واستئصاله وصحبه واجتثاث دعوته . وهم في حسبان العقل هالكون غير ناجين . فوعدهم الله في كتابه بالنصر والظهور وأخبر أنهم يثبتون ويزدادون قوة وبصيرة ويقيناً في أمرهم .

روى الحاكم عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال : (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلاَّ بالسلاح ولا يصبحون إلاَّ فيه . فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلاَّ الله . فنزلت الآية :

﴿ **وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلفَ الذين من قبلهم ، وَلَيُمكِّنَنَّ لهم دينَهُمُ الذي ارتضى لهم ولَيُبدِّلَنَّهم من بعدِ خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومَن كفرَ بعد ذلك فأولئك همُ الفاسقون** ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٨ .

(٣) سورة النور : ٥٥ وانظر تثبيت دلائل النبوة ص ٤٤٦ و ٤٤٨ ومناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ وانظر تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٨٥ ـ ٨٦ . ط . دار الشعب .

إن ورود هذه الآية في تلك الحال مع ما فيها من وعد وبشارة لا يكون إلَّا من عند اللَّه المنتصر العزيز العليم بما كان وما سيكون. فقد روى ابن أبي حاتم عن البراء رضي الله عنه قال: (نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد). فأنى للمرء العاقل إذا كان يخشى أن يداهمه عدوه فيؤول أمره إلى الفناء وجمعه إلى التبديد والانقراض، وهمه أن يدفع ذلك ما استطاع إلى دفعه سبيلاً، **أنى له أن يفكر حينئذ في أن يصبح هو وقومه سادة أهل الأرض يستخلفهم الله فيها لتطبيق شريعته التي ارتضاها لهم؟ وأنى له أن يقول ذلك للناس ويجعل نفسه ودعوته قيد الحساب والموازنة؛ إلَّا أن يأتيه وحي من أقدر القادرين وأسرع الحاسبين؛ الذي بيده مقاليد الأمور كلها!!**

﴿ قل اللهم ما لك المُلك تؤتي المُلكَ مَنْ تشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ ممنْ تشاءُ وتُعزُّ من تشاء وتُذلُّ مَن تشاء بيدكَ الخيرُ إنك على كل شيءٍ قدير ﴾[1].

لقد حقق الله وعده واخباره بنصر المؤمنين ودحر المشركين منذ أول لقاء معهم يوم البطشة الكبرى يوم بدر. قد قتل المسلمون من كبرائهم وصناديدهم سبعين وأسروا سبعين. ثم قام رسول الله ﷺ على حافة البئر الذي قذف فيه المسلمون صناديد القتلى المشركين (فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلانُ بن فلان ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، **فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً؛ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟**

• قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها..

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦.

فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسُ محمدٍ بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)[1] .

وفي سيرة ابن هشام نحوه وفيه أن الرسول ﷺ قال :

« ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني » .

وقد أشاد حسان بن ثابت بذلك النصر الإلٰهي الخالد وبتحقق وعد الله وصدق كلام رسول الله ﷺ في قصيدة بارعة[2] .

وقد حقق الله وعده وأعزَّ جنده في أرهب معركة مرت في تاريخ الرسول وصحبه ، وهي غزوة الأحزاب (الخندق) إذ تكالبت عليهم قبائل العرب وأحاطت بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، كما نقض اليهود المجاورون للمدينة العهدَ مع رسول الله ﷺ وتمالؤوا مع المنافقين من داخل المدينة والمشركين من خارجها على حرب رسول الله وأصحابه الأبرار ، قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروْها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذْ جاؤوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغتِ الأبصار وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظُنونا . هنالك ابتليَ المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً . .** ﴾ .

﴿ **وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزلَ الذين ظاهروهم من أهلِ الكتابِ من**

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب قتل أبي جهل ـ جـ ٥ ـ ص ٨ . راجع الحديث بتمامه فيما مضى ص ٦٥ ـ ٦٧ .

(٢) سيرة ابن هشام : جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٢ .

صياصيهم وقذف في قلوبهمُ الرعبَ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيءٍ قديراً ﴾(١) .

ثابر الرسول ﷺ مع أصحابه على الجهاد في سبيل الله وهم يحرزون من الظفر الخالد ما يحقق وعد الله . ولم يمت رسول الله ﷺ حتى دانت له الجزيرة العربية كلها بالإسلام كما عاهده بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، والمقوقس صاحب مصر ، والنجاشي ملك الحبشة . **ولم تزل رقعة الدولة الإسلامية تتسع في عهد الخلفاء الراشدين ثم من بعدهم إلى أن تأسس الوطن الإسلامي الكبير من جبال الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً** . ولم يبق من العالم القديم شيء يُذكر إلَّا كان في حكمهم أو كان سالماً موادعاً مجتنباً مناوأتهم **فقد أورث اللهُ الأرضَ أصحابَ محمد وأتباعه كما قال وأخبر سبحانه وتعالى ويكفيك هذا دلالة على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ** .

وهكذا تجد أمر الله قد تحقق ، ووعده قد نفذ . ومن أوفى بعهده من الله ! ﴿ **ولقد كتبنا في الزَّبور من بعدِ الذِّكر أن الأرضَ يرثُها عباديَ الصالحون . إنَّ في هذا لبلاغاً لقومٍ عابدين . وما أرسلناكَ إلَّا رحمة للعالمين ﴾**(٢) .

ثانياً : وعود قرآنية مقيدة بشروط :

وعد الله المؤمنين عامة وفي كل زمان أن ينصرهم شريطة أن يكونوا

---

(١) سورة الأحزاب : ٩ ـ ١١ و ٢٥ ـ ٢٧ . ﴿ الذين ظاهروهم ﴾ : يهود قريظة ناصروا أحزاب الشرك. « صياصيهم » : حصونهم . « أرضاً لم تطؤوها » : خيبر ، وهي مدينة كبيرة محصنة . وقد تم فتحها فيما بعد في السنة السابعة من الهجرة .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٥ ـ ١٠٧ . وانظر اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٣ ـ ٣٤ .

متمسكين بدينه منتصرين له على من حاربه . فإذا أقاموا هذا الشرط أيدهم الله بنصره . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصرْكم ويُثبتْ أقدامَكم** ﴾ ﴿ **وَلينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ ، إنَّ اللهَ لَقَويٌ عزيزٌ** ﴾[1] .

فلما وفى المسلمون بعهد الله ولم ينقضوا ما أُخذ عليهم من ميثاق ، سدد الله أسلحتهم إلى نحور أعدائهم فأعزهم وخذل عدوهم . فتلك وعود بالنصر مستمرة أبد الدهر متحققة بشرطها ما طلعت الشمس من مشرقها .

فلم يُعرف أنها تخلفت قط ، واسأل التاريخ !!

وفي القرآن وعود كثيرة على هذه الشاكلة منها قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يتَّقِ اللهَ يجعلْ له مَخْرجاً ويرزقْه منْ حيثُ لا يحتسبُ ومنْ يتوكلْ على اللهِ فهو حسبُه** ﴾[2] .

ومن تحقق صادقاً بشروطها أنجزها الله له ، ونعَّمه بجني ثمارها وزاده بوعده ثقة ويقيناً .

---

(١) محمد : ٧ والحج : ٤٠ .

(٢) الطلاق : ٣ . وحسبه : كافية .

الوجه الرابع
سمو التشريع القرآني وشموله

إن تشريع القرآن العظيم يشمل كل جوانب الحياة الإنسانية ومشاكلها ، ويعم الناس جميعاً أبيضهم وأسودهم ؛ عربهم وعجمهم ؛ في زمن الرسول ﷺ ومَن بعدهم إلى أبد الدهر ، وقد جاء التشريع القرآني معجزاً للبشر في سموه ورفعته وعدالته . ولا غرو ! فقد تناولت أحكام القرآن جوانب الحياة جميعاً بما فيه صلاح البشرية وسعادتها ، فكان منها ما يتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع ونظام حكم الدولة والعلاقات الدولية في حالتي السلم والحرب ؛ وكل ما يخطر بالبال من نواحي الحياة الهامة . قال تعالى : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾[1] .

وعلى الرغم من ظهور هذه الشريعة في عصر الضلال والجهل والاغلال فإنها أسمى بما لا يقاس من شرائع المدنية في القرن العشرين . وعلى الرغم من تأثر الثقافات الأجنبية بالثقافة الإسلامية تأثراً كبيراً ، أقرَّ به أعلام أهل الفكر في العالم ، فقد جاء إعلان حقوق الإنسان العالمي قاصراً عن السمو القرآني قصوراً فاضحاً . فالقرآن هو الذي منح الإنسان حقوقه على أكمل وأسمى وجه عرفته الإنسانية حتى عصرنا الحديث .

وقد حفظ القرآن المرأة من الظلم الاجتماعي وصان عرضها وجعلها شريكة الرجل تعايشه وتساويه في الكرامة والحقوق والواجبات . وخصَّها بأحكام تتطلبها طبيعتها الأُنثوية ومكانتها كزوجة وأم وهكذا . . بعد أن كانت المرأة في جزيرة الجاهلية تُورث وتعطى لبعض أولاد المتوفى في جملة متاعه ، وكانت ابنةً تُحرم من الميراث ، وطفلةً تُوأد في التراب .

---

(١) سورة الانعام : ٣٨ .

ولم تكن أصقاع العالم حتى عهد قريب أقل جاهلية من تلك الجزيرة وأنقص عسفاً وجوراً في معاملة المرأة. بل كانت الزوجة تُحرق على قيد الحياة مع جثمان زوجها المتوفى في الهند ، وتعار وتؤجر بثمن بخس تحت حماية القانون في انكلترا . . الخ[١] .

أجل ! على الرغم من هذا كله ، فقد فرض القرآن للمرأة على المجتمع حقوقها وكرامتها وتأمين أسباب سعادتها بمستوى لم تبلغه أرقى الشرائع المعاصرة . ففي آياته :

أ ـ قرر أن المرأة كالرجل في الإنسانية والمنشأ والمصير : ﴿ **يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكمُ الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلقَ منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلون به والأرحامَ إنَّ الله كان عليكم رقيباً** ﴾[٢] .

ب ـ حمَّلها مسؤوليتها في الحياة تثاب إنْ أحسنت وتعاقب إنْ أساءت : ﴿ **فاستجابَ لهم ربُّهم أني لا أُضيعُ عملَ عاملٍ منكم من ذكرٍ أوْ أُنْثى بعضُكم من بعض** ﴾[٣] .

جـ ـ حرَّم وأدَ البناتِ والتشاؤمَ من ولادتهن : ﴿ **وإذا المَوْءودةُ سُئلتْ بأي ذنبٍ قتلت** ﴾[٤] .

د ـ جعل لها في الميراث نصيباً مفروضاً : ﴿ **للرجالِ نصيبٌ مما تركَ**

---

(١) ظل العمل بحرق الزوجة حية في الهند حتى القرن السابع عشر حيث تركت هذه العادة على كره من رجال الدين الهنود . وبقي القانون الانكليزي معمولاً به حتى عام ١٨٠٥ م .

(٢) سورة النساء : ١ .

(٣) سورة آل عمران : ١٩٥ وانظر سورة النحل : ٩٧ .

(٤) سورة التكوير : ٨ ـ ٩ وانظر الانعام : ١٤ والنحل ٥٨ ـ ٥٩ .

الوالدانِ والأقربونَ ، وللنساءِ نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثُر نصيباً مفروضاً ﴾[1] .

ومما ينوه بجلال التشريع القرآني ورقيه وضمانه المصالح البشرية في كل عصر ومصر ، أنه تنزل في عصر دامس الجهل وفي أمة عريقة الأمية ومع هذا فإنه أمرَ بكتابة الديون والاشهاد عليها ، ورتب أحكاماً للحفاظ على حقوق أصحابها . إقرأ في سورة البقرة آيتيْ المداينة والرهن . قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَيْن إلى أجلٍ مسمىً فاكتبوه . . . والله بما تعملونَ عليم ﴾**[2] .

وقد سبق الإسلام إلى حل المشكلات الإنسانية وعلى رأسها مشكلة الفقر على نحو لا نظير له . وذلك بتحديده نظام التكافل الاجتماعي ، وكذا مشكلة نظام الحكم ، وما إليها من المشاكل الاجتماعية والمدنية والسياسية والجنائية . **لقد جاء هذا التشريع الذي عجز عن مثله عظماء رجال القانون في عصرنا على لسان أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يتلق العلم من بشر قط . وهذا هو الإعجاز الذي تحار العقول في معرفة سببه إلَّا أن تُسلم بأنه تنزيل العليم الحكيم** . وستظل شريعة القرآن أسمى الشرائع طراً إلى يوم الدين ، لأنها صادرة عن الخالق العظيم ؛ العليم بدقائق الأمور وخفايا النفوس ومستقبل الزمان . **﴿ قلْ أنزلهُ الذي يعلمُ السرَّ في السمواتِ والأرضِ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾**[3] **﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾**[4] .

---

(١) سورة النساء : ٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ ـ ٢٨٣ راجع ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠ .

(٣) سورة الفرقان : ٦ .

(٤) سورة الإسراء : ٣٠ و ٩٦ .

الوجه الخامس
إعجاز القرآن الخلقي والاجتماعي

إن نظرة عابرة إلى أخلاق الجاهلية تعطيك صورة واضحة عن البون الشاسع بينها وبين ذروة النهضة الأخلاقية التي بلغها القرآن بأصحاب وأتباع رسول الله ﷺ ؛ وتظفر بالتالي بلوحة جمالية واقعية للتكوين الخلقي الذي أدَّاه القرآن في الأمة الإسلامية .

التكوين الخلقي بالقرآن :

ويكفيك ههنا أن تذكر القسوة التي نشأ عليها العرب في بيئة شاع فيها الإنحلال الخلقي وانتشر الزنى حتى اتجر بعضهم بفتيات يبعن اللذة للرجال ، مما دفعهم إلى وأد بناتهم في الصغر خشية العار . وتلك ـ لا جرم ـ قسوة همجية بالغة . ولا تنس استبداد الروح العدائية وهيمنة العصبية القبلية ، على جميع الأفراد مما أساغ لهم الارتزاق بالغزو والنهب والرضى عما يصحبه من قتل الرجال وسبي النساء والأطفال وسرق المواشي والأموال . ولكن فيمن يصنعون هذا كله ؟ في قبيلة عربية أخرى ينحدرون معها من أصل واحد ! فأفرادها ـ بهذا الاعتبار ـ أبناء عمومتهم ، فما كان هذا ليصرفهم عن تربص الدوائر بهم واجتياحهم عند غلس الفجر ، حين تثَّاقل الأجسام وتنطبق الأجفان ، ليبعثوا في أفئدتهم الفزع والذعر وينثروا في ربوعهم جثثَ القتلى ولهيبَ الحرائقِ وأكوام الدمار .

أنزل الله قرآنه جامعاً للفضائل الشريفة والخصال المنيفة ، وحلَّى رسوله بأجلى الكمالات الخُلقية ، كما وردت في كتابه الكريم . حتى تمثلت جميعها فيه ﷺ . قالت عائشة رضي الله عنها : (فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله

كان القرآن)[1] ولم يزل المسلمون الخُلص منذ الجيل الأول حتى زماننا هذا تشرئب أفئدتهم إلى ما احتواه القرآن من جليل الشيم وترنو بصائرهم إلى نهج رسول الله ﷺ في تطبيقها إذْ جعله الله قدوةً لهم ﴿ **لقد كان لكم في رسولِ الله أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ وذكرَ اللهَ كثيراً** ﴾[2] .

لقد ترسم الصحابة خطاه واقتفوا آثاره حتى ترى أمثل تعبير عن رتبتهم بين الأمم قولَ الله تعالى : ﴿ **كنتم خيرَ أُمةٍ أُخرجتْ للناسِ تأمرون بالمعروفِ وتَنْهونَ عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[3] .

وبعد ؛ فليس أدلَّ على رتبة أصحاب رسول الله ﷺ الخُلُقية من مركزهم الذي شغلوه بين جماهير الشعوب ، التي آنست بالإسلام نوراً . فقد وجدوا فيهم قبساً باهراً من أخلاق النبيين ، فتأسوا بهم فكانوا خير قدوة لهم بعد نبيهم عليه الصلاة والسلام .

ويكفيك أن تذكر الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وأُبي بن كعب ، ومن التابعين سعيد بن جبير ؛ وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن البصري وأبا حنيفة . . وأمثال هؤلاء كثير . وليس ههنا مقام الإسهاب في ذكرهم وسرد فضائلهم وتأثيرهم في التكوين الخلقي لجماهير الشعوب الداخلة في دين الله أفواجاً . . فكُتُبُ التاريخ والتراجم زاخرة بذلك .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين ١ : ٥١٢ رقم ٧٤٦ وغيره . انظر الحديث بتمامه في « نبوة محمد ﷺ في القرآن » ص ١١٧ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٣) سورة آل عمران : ١١٠ .

التكوين الاجتماعي بالقرآن :

اعتنى القرآن الكريم بإصلاح الفَرد وتهذيب نفسه وتوطينه على الأخلاق الرفيعة سراً وعلناً ظاهراً وباطناً ، وعوَّده على مراقبة الله وتقواه ، لتكون تصرفاته كلها في طاعته ورضاه ، وتحقيق هذا تأسيس للمجتمع الصالح . **فالمجتمع الذي يتكون من مجموعة من مرضى القلوب وأصحاب الأمزجة والنزعات الفاسدة والأخلاق الشاذة لا يمكن عدُّه مجتمعاً صالحاً ألبتة** . وأصلحَ القرآنُ الأُسرة ونظم علائق أفرادها ببعضهم وأعلن حقوق وواجبات كلٍ . . وقضى القرآن على العصبية القبلية ، وأحلَّ محلها روحاً إنسانية عامة ورابطة إسلامية قوية تتجلى في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن اللهَ عليم خبير** ﴾[1] .

توجه الخطاب الإلَهي إلى الناس جميعاً يعلن أنهم بلا استثناء من أصل واحد من آدم وحواء عليهما السلام ، ومنه انبثقت الشعوب وتفرعت القبائل . فهم في وحدة الأصل سواء ، فلا مسوغ للتفاخر بالآباء والتطاول بالأنساب فالأصل المشترك يقتضي تعرف بعضكم على بعض وصلة رحمه ومعونته[2] . وعندي أن في الآية حضّاً على صلةِ رحمٍ إنسانية عامة ، ترتبت لها حقوق في ذمة المكلفين . فدفع بتنمية هذه الصلة الإنسانية العامة كل نعرة جنسية أو عصبية قبلية ، ولم يفسح المجال للتسامي العرقي والتمييز العنصري ، إذْ قرر معيار الأفضلية بين الناس : ﴿ **إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

وفي مضمار التقوى فليتنافس المتنافسون وهي حال شخصية لا تتأثر

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٢) روح المعاني جـ ٢٦ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

بنَسب أو جنس أو لـون ، وإلى الله عائـد أمر تقـديـرهـا فهـو يعلم السـرَّ وأخفى .

وقضى القرآن المجيد بذلك على كـل تحجر قـومي ، فأصـلُ بني الإنسان واحد لا مجال للتفاضل فيه أو لافتخار قوم به دون آخرين . والله تعالى هو الخالق ، والسبيل الرشيدة التزام مراقبته وتقواه . فأرسى القرآن بذلك جذور صلة إنسانية عامة . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكمُ الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلقَ منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[1] .

وإلى جانب هذه الصلة الإنسانية أقام على أساس عُقدي رابطة بين قلوب المؤمنين بـالله ورسولـه ، فنظم في سلكهـا تلك القبـائـل العـربيـة المتناحرة والأشتات البشريـة المتناثـرة ، إذْ أعلن أن جميع المؤمنين على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأقوامهم إخـوة في الإيمان بـالله ، لكل منهم حقوق وواجبات ، قال تعالى : ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾[2] فأزال حواجز الجنس واللون واللسـان ولـطّف المشـاعـر القـوميـة والنَسبيـة ، وذهب بحدتها ، وأحل في الصدر الأول رابـطة الأخوة الإسـلامية ، وأقـام على أساسها من ذلك الشتات القبلي المتباين أمة مؤتلفة المشاعـر متفقة الأفكار والعقائد ذات نظام سياسي واجتماعي منضبط ، تكونت نواتها في الجزيرة العربية في سني الدعوة المحمدية . ثم تشعبت جذورها وامتدت أغصانها في فترة وجيزة من جبال الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً ، فهيمنت دعوة القرآن على معظم بقاع العالم القديم . **إن خروج المـواطنين عما كـانوا عليـه واعتناقهم هـذه الدعـوة وطواعيتهم لمبـادئها وائتـلافهم وتضامنهم جميعاً ـ برغبة ذاتية ولدها القرآن فيهم ـ في تكوين مجتمع واحد متين في**

---

(١) سورة النساء : ١ .

(٢) سورة الحجرات : ١٠ .

هذا الزمن اليسير ، إنما هو حدث تاريخي عظيم فريد تبرأ عن المثيل من قبل ومن بعد .

ويدلك على سمو أخلاقهم الاجتماعية ـ وكلُّ الأخلاق الإسلامية ذات صبغة اجتماعية ـ قولُ عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص والي مصر لما ضرب ابنُه مواطناً قبطياً بغير حق : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !؟) وقول علماء الغرب : (ما عرف التاريخ فاتحاً أرحمَ من العرب) والفضل ما شهدت به الأعداء .

ومثل هذا لا يتأتى عفو الخاطر ولا يكون وليد الصدفة ، إنما يعبر عن خُلق استقر في الضمير حتى غدا طبعاً تلقائياً ، تصدر تصرفات المسلم عنه دون عناء أو كلف . وفي هذا من تهذيب النفس وتصعيد الغرائز والتسامي بالنزعات ما لا يخفى . فإن الإنسان ـ بدون أخلاق أهل الإيمان ـ إذا اشتد بأسه وقويت سلطته واستكانت له الجموع حمله ذلك على التصرف في الناس بالجور والعسف . وهذا ما عمدت إليه الدول الكبرى في عصرنا ، وكذلك فعل اليونان والفرس والرومان في الشعوب بعد حروبهم الساحقة . . واسأل التاريخ !! وتأصلُ هذه النزعة في الإنسان ومعاناة الناس من خطرها الأهوال والمآسي حدا بالمشرعين للدساتير الحديثة في العالم إلى تقسيم السلطات وتحديدها ، كما هو معروف في الحقوق الدستورية . لقد ربى اللهُ بقرآنه الصحابة رضوان الله عليهم ونقَّى نفوسهم وضمائرهم من شوائب النقص ، ومنها حب السيطرة والتسلط ، وهو سبحانه يعلم ما صار في نفوسهم ، فأنزل يثني عليهم قبل أن يبلوهم بإتساع الدولة وإذعان الشعوب ، فقال جل شأنه : ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهوْا عنِ المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[1] .

---

(١) سورة الحج : ٤١ .

فقرر سبحانه أن حالهم قبل أن تدول الأرض وتدين لهم بالولاء شعوب كحالهم بعد تحقق ذلك . سيظلون على تواضعهم لله وطاعته بأداء الصلاة ودفع زكاة أموالهم للفقراء وعلى الأمر بالخير والعمل به ، والنهي عن الشر والبعد عنه . . فتلك سجاياهم المحمودة التي نشَّأهُمُ الله عليها بالنهج الرباني الذي رسمه في قرآنه المجيد .

وهكذا أثنى الله عليهم قبلَ أنْ يُحدثوا من الخير ما أحدثوا لعلمه بما انطوتْ عليه ضمائرهم من كرائم الخصال القرآنية ، فكان كما قال سيدنا عثمان رضي الله عنه : (هذا والله ثناء قبل بلاء)[1] .

﴿ **الذين إنْ مكناهم** ﴾ عائد على المهاجرين (الذين أخرجوا من ديارهم) وقال قتادة : هم أصحاب محمد ﷺ . وقال ابن عباس : المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان . وقال الحسن وأبو العالية : هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة .

أقول : ولا يذهبن بك الوهم أنهم إذا لم يفتح الله عليهم ولم يمكِّن لهم لم تكن الصلاة فرضاً عليهم . فهذا مناف للآيات والأحاديث التي فرضت فيها الصلوات . وهو مناف لدلالة هذه الآية بالنظر لما قبلها عن المهاجرين والأنصار وأن الله ينصر من ينصره ، وتارك الصلاة ليس مناصراً لله[2] ولا تنس أن الصلاة فرضت على المسلمين بمكة ، وحديث الإسراء والمعراج معلوم لعامة المسلمين فضلاً عن مثقفيهم .

ظاهرة فذة جليلة في القرآن :

أنعم النظر في مناحي القرآن تتجلى لك ظاهرة هامة جليلة ؛ عظيمة

(١) روح المعاني : ١٧ : ١٤٩ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٢ : ٧٢ ـ ٧٣ وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٤ : ١٥ .

(٢) انظر سورة الحج : ٣٨ ـ ٤١ .

خطيرة ، تعالج أغوار المشاكل الاجتماعية بسمو أخلاقي شاهق . **تلكمُ الظاهرة هي نُصرة الضعفاء ، فالقرآن يأخذ بناصر كل ضعيف ويشد أزره ، فترى ذلك الضعيف قد أضحى بالقرآن عزيزاً منيع الجانب حتى ينال حقه ويثبت في مكانة اجتماعية إنسانية حصينة .**

التمس أمثلة ذلك في حديث الذكر الحكيم عن المدين ؛ واليتامى والأطفال القاصرين بنين وبنات ، والطاعنين في السن وخاصة الأبوين ، والمرضى وأصحاب العاهات ، والنساء . . الخ .

إنما نزل القرآن في كل ذلك بمواقف اجتماعية أخلاقية فذة خطيرة أيام كانت الإنسانية ترزح تحت نير الظلم والعسف والتسلط في المجتمع الجاهلي في مكة ؛ وفي ظل الحكم الروماني والحكم الفارسي . **ولا تزال الإنسانية حتى أيامنا تعنو فيها جباه الضعفاء بالذلة والهوان أمام التسلط والعدوان والقهر والاستبداد والاستعباد ، يقع ذلك مباشرة جهاراً أو يقع منمقاً بتفلسفات مخادعة وحيل لفظية لا تغني عن الحق والعدل شيئاً .**

ارتقى القرآن ذُرى أخلاقية اجتماعية لا تزال الانسانية في قصور عن بلوغ سفوحها إلاَّ عند الاعتصام به والعمل بأوامره . وما ذاك القصور المتزايد ظهوره على مر الزمان إلاَّ امارات شاهدات على إعجاز القرآن وأنه تنزيل أحكم الحاكمين جل جلاله[1] .

مجتمع عالمي :

بثَّ القرآن الكريم في المؤمنين روحاً إنسانية شاملة ، ورتب في ذممهم حقوقاً إنسانية ، تعم كل محتاج من بني الإنسان مسلماً كان أو غير

---

(١) انظر « نبوة محمد ﷺ في القرآن » : ٣٤٣ ـ ٣٥٠ .

مسلم ، وتبعثهم على تقديم أنواع المعونة الممكنة له . وإلى جانب رابطة الاخوة الإسلامية يضع القرآن العظيم أسساً متينة لبناء مجتمع عالمي يضم المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب المعاهدين . إذ أباح الله التعايش معهم بل بذل المودة والبر لهم ؛ ومعاملتهم بالعدل الذي فرضه الله على عباده . قال تعالى : ﴿ **لا ينهاكُمُ اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إنَّ اللهَ يحب المقسطين** ﴾[1] .

وقد فرضَ القرآنُ نظام التكافل الاجتماعي لكافة المواطنين مسلمين ومعاهدين **ويدلك هذا على أن القرآن قد أسس مجتمعاً عالمياً لا قسوة فيه ولا إرهاب ، مجتمعاً تسوده الألفة والمودة والمساواة والحياة الكريمة ، وهو ما تصبو إليه النفوس . وقد أخفق في تحقيق مثله أصحاب الدعوات والمذاهب الاقتصادية والفلسفية المعاصرة .**

فالأحداث العالمية وأحوال المجتمعات الإنسانية المادية والخلقية وسيطرة القوة وفشو الظلم الدولي براهين قاطعة مفلقة تدمغ أصحاب تلك الدعوات والمذاهب وأنصارها المستغلين والمكابرين .

وهنا يوقن العاقل بأنه لن يجد للقرآن العظيم نظيراً ، فإنما صاغ نظامه رب العالمين ، الذي أحسن كل شيء خلْقَهُ ثم هدى ، تباركت أسماؤه وتعالت صفاته .

---

(١) سورة الممتحنة : ٨ .

الوجه السادس
الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

ولبيان هذا الوجه العظيم من إعجاز القرآن لا بد من الحديث عن أمرين هامين :

أولاً : أن القرآن لا يتعارض مع اليقيني من العلم : ان القرآن الذي نزل منذ أربعة عشر قرناً في عهد الجهل المطبق ، قد اشتمل على حقائق علمية كثيرة ناصعة ، أوردها الله تعالى ليدل الناس على وجوده ووحدانيته وقدرته وعظمته . وعلى الرغم من تقدم العلم في زماننا هذا فإنه لا توجد حقيقة علمية منافية لما ورد في القرآن الكريم مطلقاً . أما النظريات التي لم يبرهن عليها علمياً بشكل يُدخلها في نطاق الحقائق العلمية ، فلا داعي لمقابلتها بالقرآن ، لأن تقدم العلم قد يكشف في المستقبل عن خطئها أو عن صوابها . **والحقيقةُ أَنَّ اكتشافَ مزيدٍ من الحقائق العلمية يؤدي إلى التعرف على المزيد من المعجزات القرآنية العلمية . ويُثبت بالتالي أن هذا القرآن تنزل على محمد رسول الله ﷺ من علام الغيوب الذي** أحاط علمه بجميع مخلوقاته جملة وتفصيلاً . وذلك شأنه ووصفه ، تبارك الله رب العالمين .

ثانياً : جاء القرآن بحقائق علمية كشف عنها العلم الحديث : إنه لاعجاز للبشر أن يذكر القرآن حقائق علمية دقيقة ، كان الإنسان يجهلها ، فكشف عنها العلم في العصر الحديث عندما تطورت أجهزته وتقدمت وسائله وأساليبه . مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين . ثم جعلناه نُطفةً في قرار مَكين . ثم خلقنا النطفةَ علقةً ، فخلقنا العلقةَ مضغةً فخلقنا المضغةَ

عظاماً ، فكسونا العظامَ لحماً ، ثم أنشـأناهُ خلقـاً آخرَ فتبـاركَ اللهُ أحسنُ الخالقين ﴾[١] .

تذكر هذه الآيات مراحلَ خلق الإنسان وتطوره ، فتُبين أن أصله من الطين ، فالعناصر التي يتكون منها الجسم الإنساني هي عناصر تحتويهـا التربة الأرضية ، إذِ الطين من تراب وماء . وهذا ما برهنت عليه التحاليل العلمية وصرح به العلماء المختصون ، منهم (الكسيس كاريل) إذ أوضح **أننا مصنوعون من تراب الأرض بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة**[٢] .

وقـوله : ﴿ **من سـلالة من طين** ﴾ : من خـلاصـةٍ استُخـرجت من الـطين ، وهذا ينـطبق على الغذاء الـذي تنبته الأرض ، ثم تتشكـل منـه النطفة في الجسم الإنساني ، تستقر النطفة في الرحم وبعدهـا تتطور إلى علقة ثم إلى مضغة فتنشـأ منها العـظام ، فيكسوهـا الله لحماً . ثم تُنفـخ الروح في هذا الكائن فيصبح خلقاً إنسانياً راقياً بعد أن كان في طور طيني حيواني .

فالمراحل التي ذكرها القرآن هي المراحل نفسها التي حددها العلم الحـديث بعـد نشـوء علم الأجنـة التشـريحي وتقـدم وسـائله في القـرن الأخير[٣] .

فهل يُعقل أن يكون ظهور هذا الكشف العلمي الدقيق ـ منذ ثلاثـة عشر قرناً ـ على لسان رجل أمي لم يتلق العلم ، هل يعقـل أن يكون إلاَّ

---

(١) سورة المؤمنون : ١٢ ـ ١٣ .

(٢) انـظر تفصيل ذلـك في كتابـه : « الإنسان ذلـك المجهـول » ص ٧٦ ـ ٧٧ طبـع الـدار القومية ـ مصر ١٩٦٤ .

(٣) انظر كتاب : (اللب بين الإسلام والطب) للدكتور محمد موفق الشطي الاستاذ في كلية الطب بجامعة دمشق ـ وفي القرآن معجزات علمية كثيـرة تحدث عن طـائفة هـامة منهـا كتاب (روح الدين الإسلامي) للاستاذ عفيف طبارة فارجع إليه .

بوحي من الله خالق الإنسان !!؟؟ .

وإليك أيضاً كشفاً علمياً باهراً أورده القرآن قبل أن يتوصل إليه الإنسان بأكثر من عشرة قرون فقد كان الرأي السائد قبيل البعثة النبوية ونزول القرآن أن ماء المطر إنما يأتي هكذا من السماء . وكان الفراعنة من قبل يعتقدون أنه ينزل المطر من السماء عندما تفتح الآلهة أبواب خزانات مياه السماء وأن المطر لا بد أن ينفد يوماً ما ، وأن ماء النيل إنما يأتي من محيط الأرض الأعظم الذي لا ينضب . إلَّا أن القرآن الكريم كان أول كتاب ربط ظاهرة إثارة السحب ونزول المطر بإرسال الرياح . تأمل ذلك في قوله تعالى :

﴿ الله الذي يرسل الرياحَ فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً فترى الوَدْقَ يخرج من خلاله ﴾[1] .

وقوله : **﴿ وهو الذي يرسل الرياحَ بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلَّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾**[2] .

وهذه حقيقة علمية أثبتها علم الأرصاد الجوية في عصر النهضة العلمية الحديثة . كما كشف تبارك وتعالى في الكتاب المجيد عن مهمة أخرى للرياح غير إثارة السحاب وحمله ، وهي تلقيح السحاب ليجود بالمطر قال تعالى : **﴿ وأرسلنا الرياحَ لواقحَ فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾**[3] .

قال ابن كثير : (لواقح : أي تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح

---

(١) سورة الروم : ٤٨ و (كسفا) : قطعا و (الودق) : المطر .

(٢) سورة الأعراف : ٥٧ .

(٣) سورة الحجر : ٢٢ وانظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٤٩ .

الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها) .

وأثبت العلم الحديث أن الرياح تقوم بتلقيح السحاب ، وذلك في عملية تتضمن إمداده بأكداس من جسيمات صغيرة مجهرية تسمى : (نوى التكاثف) وهي التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتشكل نقط المطر الكبيرة . ثم يتساقط وابل المطر أو طلّه[1] .

وإنما أظهر الله هذه الكشوف العلمية منذ أربعة عشر قرناً في كتابه المنزل على نبيه المرسل ليوقن الناس على بعد العهد وتوالي الزمان أنه تنزيل الله العليم القدير .

وإن هذه الآيات وأمثالها في كتاب الله كثير لا يتسع المقام لاستقصائها وليست هي إلاَّ معجزات متعددة ممتدة امتداد الزمن ، تثبت بالدليل العلمي القاطع صدق محمد ﷺ فيما يبلغ عن ربه ، تبارك وتعالى ، كما تثبت قصور الإنسان وعجزه المطبق عن الاتيان بمثل هذا القرآن ، لأنه تنزيل علّام الغيوب .

---

(١) انظر كتاب : لماذا أنا مؤمن ـ الدكتور جمال الدين الفندي ص ٢٤ و ٤٠ ـ ٤١ طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر .

الوجه السابع
اتساق نظريات القرآن وأحكامه

طرقَ القرآن موضوعات متعددة اعتقادية وخلقية وتشريعية وعلمية وغيبية . وتجاوزت آياته ستة آلاف وستمائة آية نزلت في ثلاث وعشرين سنة ، وقد عرضت الحقائق الإلّهية والسمات النبوية ، وقررت حقائقَ كثيرة ، كونية واجتماعية ووجدانية ، وشخَّصت أمهات المشاكل الإنسانية وحددت لها أنجع العلاج ما تتابعت السنون وتوالت القرون . ومعلوم من حال علماء البشر أنه يستحيل أن ينتفي عن أحدهم في كلامه الطويل وتأليفه الكثير المناقضة أو الغلط ؛ مهما اشتد منه التوقي . وقد عُدَّت سقطات أهل الفضل والحزم فيما كانوا يتعمدون فيه التحرز الشديد والحذر البالغ .

هذا وإن الواحد من أهل الاختصاص في فرع من فروع العلم ليتدرج في البحث والكتابة زمناً مديداً ، حتى يتوصل إلى الحال الرفيعة في سلامة التأليف وحسن التصنيف ، التي لا تخلو من الزلات والسقطات فكيف ومحمد ﷺ قد ظهرت على لسانه في آيات الكتاب الكريم تلك العلوم العظيمة التي جعلت أهل كل علم يلتجئون إليه في أصول علومهم !! لقد عوَّل المتكلمون على ما فيه من توحيد وبعث ونشور ووجوب النظر والتفكير ، ومال الفقهاء إلى ما تضمنه من المعاني والأدلة والأحكام الشرعية الشاملة للعبادات وأنواع المعاملات وأحكام الأسرة والمواريث . . . كما عول عليه أهل اللغة والنحو والبلاغة فيما بسطوه من الكتب وشرحوه وأصلوه . وإذا ذكرتَ أن الرسول قد ظهرت عليه هذه العلوم القرآنية الجليلة دفعة واحدة دون سابق ممارسة أو معاناة ثبتت لديك إلّهية المصدر القرآني بوضوح أجلى من الشمس في رابعة النهار . ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم**

حميد ﴾(1) وإذا تأملتَ هذه المجموعة العظيمة من الحقائق الواقعية والأحكام الحصيفة في آياته الكثيرة فلن تجد معنى يقاوم معنى أو حكماً يناقض حكماً أو مبدأ يهدم مبدأ أو غرضاً لا يتفق مع آخر . فلو كان صادراً من عند غير الله ـ أفراداً أو جماعات ـ لما سلم من اختلال في سياقه وألفاظه واختلاف في بعض معانيه ، فالوقوع في ذلك طبيعة عقل الإنسان مهما نضج وكمل . **لكن اتساق معاني القرآن وعباراته وسلامته من التناقض والاختلاف والخطأ في لفظه ومعناه ـ مع روعة الأسلوب الخارقة وبلاغته المعجزة ـ أمر يخرق عادة البشر ويستعلي فوق قدرتهم وطاقتهم ، وفيه دلالة بليغة على نبوة محمد ﷺ وبيانٌ شافٍ على عظمة شأن القرآن ؛ الدالة لزاماً على أنه كتاب الله العليّ القدير ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾(2)** .

سئل الإمام الغزالي عن معنى هذه الآية فأجاب :

(الاختلاف لفظ مشترك بين معان ، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه ، بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن . يقال هذا كلام مختلف ، أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة ، أو هو مختلف الدعوى ، أي بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم ؛ فبعضه على وزن الشعر ؛ وبعضه منزحف ؛ وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة ؛ وبعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله مُنزَّه عن هذه الاختلافات . فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره ؛ وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، ومسوق لمعنى واحد ، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى

---

(1) سورة فصلت : ٤٢ .

(2) سورة النساء : ٨٢ وانظر المغني للقاضي عبد الجبار جـ ١٦ ـ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ و٣٤٢ .

وصرفهم عن الدنيا إلى الدين ، وكلام الآدميين تتطرق إليه هذه الاختلافات ، إذ كلام الشعراء والمترسلين إذا قيس عليه وُجد فيه اختلاف في منهاج النظم ؛ ثم اختلاف في درجات الفصاحة بل في أصل الفصاحة ، حتى يشتمل على الغث والسمين . ولا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان ، بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة وأبيات سخيفة ، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة ، لأن الشعراء والفصحاء في كل واد يهيمون ، فتارة يمدحون الدنيا وتارة يذمونها ، وتارة يمدحون الجبن ويسمونه حزماً ، وتارة يذمونه ويسمونه ضعفاً ، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صرامة ، وتارة يذمونها ويسمونها تهوراً .

ولا ينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات ، لأن منشأها اختلاف الأغراض بالأحوال والإنسان تختلف أحواله ، فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه ، وتتعذر عليه عند الانقباض ، وكذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخرى ، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة ، فلا يصادَف إنسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة ، وهي مدة نزول القرآن ، فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد . ولقد كان النبي ﷺ بشراً تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[1] .

(١) الاتقان : جـ٢ ص ١٢٤ .

الوجه الثامن
الإعجاز النفسي في القرآن العظيم أو تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة

إنَّ تأثير القرآن في القلوب قد بلغ مبلغاً عظيماً لم يُعرف قبله ولا بعده لكلام قط ، إذْ تلحق قلوبَ سامعيه وأسماعهم روعةٌ وخشيةٌ وتعتريهم هيبتُه وتُهيمن عليهم عظمته ، وترى آثاره على الجاحدين أبلغَ وأظهر ، إذْ يُقرِّعهم على ضلالهم ويقيم عليهم حججاً لا معقب لها ، فيستثقلون سماعه ويتولون عنه بنفور مدبرين ، كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ **ولقد صرَّفنا في هذا القرآنِ ليذَّكَّروا وما يزيدُهُم إلَّا نفوراً** ﴾[1] . وقال : ﴿ **وإذا ذكرتَ ربَّكَ في القرآنِ وحدَهُ ولَّوْا على أدبارِهم نفوراً** ﴾[2] .

وقد شعر بعض زعماء الشرك أن القرآن قد تملَّك قلوبَهم ، وأحسوا في أعماقهم هزةَ روعته ، فكانوا يستخْفُون من الناس ويسترقون السمع إليه ليلاً . ورأوا آثاره في أتباعهم الذين تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين والسورة والسورتين ، يتلوهما محمد ﷺ أو أحد أصحابه ، فتنقاد إليهم نفوس كانت متعصبة للأوثان فتهجرها ، وتتحلى بهدي القرآن علماً وعملاً ، أدباً وخلقاً . فأدرك زعماء الشرك شدة خطر القرآن على سلطانهم ونفوذهم ، فأوصَوْا أتباعهم أن يَحولوا بينه وبين أنفسهم . وقد حكى الله ذلك عنهم : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه لعلكم تَغلبون** ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء : ٤١ .

(٢) سورة الإسراء : ٤٦ .

(٣) سورة فصلت : ٢٦ .

وأنت تذكر شدة تأثر عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة بـالقرآن . وكيف احتال الوليد لصرف الناس عنه فقال : (إنْ هذا إلَّا سحرٌ يُؤْثَر) .

وقد حصل ما خشي هؤلاء . فهذا عمر بن الخطاب قد مضى متوشحاً سيفه ليقتل رسول الله ﷺ فلما قرأ في بيت أخته فاطمة بنت الخطاب قوله تعالى : ﴿ **طه . ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لِتشقى . إلَّا تذكرةً لمن يخشى . تنزيلاً ممن خلقَ الأرضَ والسمواتِ العلى** . . ﴾[1] لم يلبث أن آمن قائلاً : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

وما قصة إسلام زعيميْ الأوس : « سعد بن معاذ » و « أُسيد بن حُضير » عنك ببعيد .

وقد ورد في الصحيح عن جُبير بن مُطعم قال : « سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : ﴿ **أم خُلقوا من غير شيءٍ؟! أمْ همُ الخالقون ؟! أم خلقوا السموات والأرض !؟ بل لا يوقنون ! أم عندهم خزائنُ ربِّك أم همُ المسيطرون ؟!** ﴾[2] كاد قلبي أن يطير للإسلام »[3] وفي رواية أخرى : « وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي » وقد ذكرناها قبل[4] .

ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من المدينة آمنوا به ، وعادوا فأظهروا بها الإسلام . فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلَّا وفيه قرآن . **وقد غدا مشهوراً أن المدينة لم تفتح بشيء سوى القرآن** .

---

(١) سورة طه : ١ ـ ٤ راجع ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .
(٢) سورة الطور : ٣٥ ـ ٣٧ .
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة الطور ـ ج. ٦ ص ٤٩ .
(٤) راجع ص ١٣٩ ـ ١٤٥ .

وأما المؤمنون فلا تزيدهم هيبة القرآن وروعته إلَّا انجذاباً إليه ، فتهش قلوبهم له وتطمئن ، وتستبشر نفوسهم به وترتاح . قال الله تعالى : ﴿ **الله نزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيَ ، تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشونَ ربَّهم ، ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله ، ذلكَ هدى الله يهدي به مَنْ يشاءُ ، ومَنْ يُضللِ الله فما له من هاد** ﴾[1] .

ويزداد المؤمنونَ بسماع القرآنِ خشوعاً وخضوعاً. قال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أُنزلَ إلى الرسولِ ترى أعينَهم تفيضُ من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربَّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾[2] .

ويربو الإيمانُ لدى تلاوة القرآن العزيز في قلوبهم ويقوى ويتعاظم . قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكرَ الله وجِلتْ قُلوبهم ، وإذا تُليتْ عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[3] .

إن تأثير القرآن ونفاذه يستحيل أن تتحصن دونه القلوب ، فإنه لو أُنزل على صُم الجبال لفَلَقها وشققها ؛ بما يودعه فيها من هيبة الله وجلاله . قال تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾[4] ألا ترى أنه يعتري مَنْ لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره من العوام من الخشوع والسكينة وزيادة الإيمان ما لا يخفى ، وذلك كله من دلائل معجزاته وعظيم آياته الدالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ .

وهذا « الفضيل بن عياض » مسلم ، لكنه كان قاطع طريق ، يسلب

---

(١) سورة الزمر : ٢٣ راجع ص ١٣٢ .

(٢) سورة المائدة : ٨٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٢ .

(٤) سورة الحشر : ٢١ .

المال ويسفك الدماء ، استمع ذات ليلة إلى قارىء يتلو : ﴿ **أَلَمْ يأنِ للذين آمنوا أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكرِ اللهِ وما نزَل من الحق ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ من قبلُ فطالَ عليهمُ الأمدُ فقستْ قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقون** ﴾[١] .

فتابَ وحسنتْ توبته حتى أصبح من كبار الصالحين المقتدى بهم . فهل كلامٌ يُحدث جميع تلك الآثار يدعو به رجلٌ أميٌّ لا دولة له ولا سلطان . . هل يكون إلاّ كلام رب العالمين !؟

لقد غفل عن هذا الوجه من الإعجاز بعض العلماء ، وتنبه له البعض الآخر ، وأعلن الخطابي أنه قد سبق إلى معرفته وبيانه فقال :

(قلتُ في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلاّ الشاذُ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً ، إذا قرع السمعَ خلَص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ؛ ما يخلص منه اليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفَرَقُ ، وتقشعرُ منه الجلود وتنزعجُ له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاةً وكفرهم إيماناً . .)[٢] .

---

(١) سورة الحديد : ١٥ .

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي « ثلاث رسائل في الإعجاز » ص ٦٤ .

الفَصْلُ الثَّالِث
نقْضُ مَزاعِمِ المُسْتشرِقين

ندحض فيه شبهات زائفة للمستشرقين وردت على لسان كبيرهم « تسهر » :

١ ـ زعمه مشابهة القرآن كلام الكهنة .
٢ ـ زعمه ضعف بلاغة المدني من القرآن .
٣ ـ إنكاره معجزات الرسول جميعاً .
٤ ـ زعمه اقتباس الرسول قصص القرآن من العهد القديم .

والجواب :

أولاً : قدم هذا المستشرق زعمه بغير دليل .
ثانياً : الرسول أمي لم يقرأ ولم يكتب .
ثالثاً : أخبار القرآن صححت أخبار الكتب المشوهة .
رابعاً : اختلاف الأثر النفسي بين أخبار القرآن وأخبار الكتاب المقدس .
خامساً : فصَّل القرآنُ وأوضح ما كان مختصراً وغامضاً في الكتاب المقدس وأورد أخباراً لم ترد فيه .
سادساً : اتساق القرآن وتناقض نصوص الكتاب المقدس .

سادَ في الأعصر الأخيرة الجهلُ بالدين والعربية ، وفقد الناسُ السليقة العربية، وأضحى للفصحى بين أهليها مقام الغرباء، وغدا البونُ بينها وبينهم شاسعاً . وفي هذه الحال ترى أن من أظهر نعم الهداية الإلٓهية ما حفظه الله لهذه الأجيال من تراثٍ لغوي بلاغي ودراسات قرآنية ، مَن سلك سبيلها عرف بحق إعجاز القرآن معرفةً لا يُخالطها أدنى توهم أو شك . إن إنكار إعجاز القرآن ـ من غير اطلاع على المصنفات التي درست هذا الموضوع الجليل ، وأحكمت إقامة الشواهد اللغوية والعلمية العقلية على إعجازه وربانية مصدره ـ إنما هو ضرب من العبث بل هو ضرب من التصرف الأخرق الذي يحمل المرء على الحكم في مسألة تَبعاً لهواه . إن الدراسات القرآنية قدمتْ أبلج الأدلة وأنصع البراهين على إعجاز القرآن العظيم .

وإنك لَتعجب إن وجدتَ امرأً عربياً غير ضليع في هذه المعارف اللغوية يتصدى لإصدار الأحكام في إعجاز القرآن على ما ينقصه من كفاءة لهذا الأمر ، فكيف إذا وجدت الذي يُقدم على ذلك أعجمياً لم يقدر على الانفكاك عن عجمته ، ولم ينطلق لسانه في العربية انطلاق العاديين من أهلها ، ولم يزل محكوماً للعجمة في نطقه وفهمه !!؟؟ ذلك العجب العُجاب تجده في صنيع المستشرق اليهودي المجري الأصل : « اجنتس جولد تسهر » لقد تنطع يقول :

(لكنَّ حمية النبوة وحِدَّتها أخذت في عظات المدينة والوحي الذي جاء بها تهدأ رويداً رويداً . حيث أخذت البلاغة في هـذا الوحي تصبـح ضعيفة شاحبة ؛ كما أخذ المُوحَى نفسه ينزل إلى مستـوى أقل بحكم مـا كان يعالجه من موضوعات ومسائل حتى لقد صار أحياناً في مستـوى النثر العادي . . .

(ويجب ألا يفوتنا الإشارة إلى أن القوة الخطابية في القرآن أخذت تفتر حماستها برغم استعمال السجع في أجزاء القرآن التي نزلت بالمدينة كما في الأجزاء الأخرى المكية) .

(لقد كانت السور الأُولى في النزول على الشكل الذي تعوَّد الكهانُ القدماء وضع نبواتهم فيه ، ولو جاء في شكل آخر لما رضي أي عربي أن يرى فيه قرآناً موحى من الله ، على أن محمداً قد أكد أن جميع ما جاء به هو من الوحي الإلهي)[1] .

وخلاصة رأي هذا المستشرق :

١ ـ أن القرآن النازل في مكة كقول الكهان ، فهو ـ في زعمه ـ غير معجز لوجود ما يناظره قبل .

٢ ـ أن القرآن النازل في المدينة ضعيف البلاغة ، بل هو أحياناً في مستوى النثر العادي ، فهو ـ في زعمه ـ غير معجز أيضاً .

ولعلك بعـد أن اشمأزت نفسـك من ظـاهـرة التعسف في إصـدار الحكم على القرآن ؛ وإلقاء الكلام فيه على عواهنه من غير أدلة شاهدة ولا مبـررات سـائغـة ، تسـأل : كيف أُضيف وصف الإعجـاز إلى القـرآن الكريم !؟ وتجد الجواب ببساطة من غير عنـاء بحث عند دعيِّ التحقيق

(١) العقيدة والشريعة ص ٢١ ـ ٢٢ .

العلمي هذا ، فهو يقول : (لقد قرر محمد نفسه أن القرآن عمل معجز لا يمكن الاتيان بمثله)[1] .

١) زعمه مشابهة القرآن كلامَ الكهنة :

فهل راعى منزل القرآن أن ينزله على شكل كلام الكهنة ليتقبله العرب ؟ وهل العرب لا ترى فيه كلاماً إلٰهياً إلَّا أن يأتي على تلك الطريقة ؟

لقد نفى القرآنُ نفسه هذه الصبغة عن نفسه مزرياً بكلام الكهنة . فهل يصحُ القولُ فيه بعدئذ أنه التزم مجاراة منهجهم وحرص على رضاهم !؟ أم يكون ذلك القول ضرباً من الهوس الذي لا يقدم عليه إلَّا مرضى العقول أو الحاقدون من مرضى القلوب !؟

أنعم النظر في قوله جل شأنه : ﴿ **فذَكِّرْ فما أنتَ بنعمةِ ربكَ بكاهنٍ ولا مجنون . أمْ يقولون شاعرٌ نتربصُ به ريبَ المنون ! قلْ تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرُهم أحلامُهم بهذا أم هم قومٌ طاغون ! أم يقولون تقوَّله بل لا يؤمنون ، فلْيأتوا بحديثٍ مثله إنْ كانوا صادقين** ﴾[2] .

حضَّ الله نبيه على تبليغ رسالته غير عابيء بترَّهات القوم . فقد متَّعه الله بالعقل الراجح ، وأنعم عليه النعمة العظمى فاصطفاه لخاتمة رسالاته . فالذي متعه الله برجاحة العقل وأنعم عليه بالنبوة وأيده بالذكر الحكيم وقواطع الآيات ؛ ليس كاهناً يلقي نبوءات تذهب أدراج الرياح ، ولا مجنوناً مشوش الادراك مختلط الكلام ، وما هو شاعر تتربصون به صروف الدهر حتى يهلك . ولئن ظننتم ذلك فإنه يتربص هلاككم . وفي هذا من وعيد الله بإهلاكهم ما لا يخفى ![3] .

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٢٢ .
(٢) سورة الطور : ٢٩ ـ ٣٤ .
(٣) روح المعاني : جـ ٢٧ ص ٣٠ ـ ٣١ .

ونص سبحانه وتعالى على تميُّز القرآن عما سواه من كلام ، ككلام الكهنة والشعراء، فقال سبحانه: ﴿**فلا أُقسمُ بما تُبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسولٍ كريم ، وما هو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تَذَكَّرون . تنزيلٌ من ربِّ العالمين**﴾[1] .

إن المباينة بين القرآن وبين كلام الكهنة ظاهرة . فمعانيه تنافي معانيهم وتدحضها ! وهدايته تنسف ضلالتهم ! وأسلوبه الفذ المعجز لا يدانيه بحال أسلوبهم !! وأحوال رسول الله وخصاله على النقيض من أحوالهم وخصالهم !! وذاك كله واضح جلي لا يتوقف على تأمل قطعاً . فأنى لكم ادعاء مشابهته أو مماثلته!!؟[2] .

فهل يُعقل ـ بعد هذا ـ أن يكون القرآن قد جاء قصداً على نهج كلام الكهنة تملقاً للعرب وإرضاء لرغبتهم ليكون أدعى إلى إيمانهم !؟ كيف وقد تبرَّأ منهم ومن كلامهم وأزرى به !؟ وإنما قدَّم ذلك في نجوم قرآنية مكية متقدمة !

وبعد ، فهل ترى في تقوّل هذا المخلوق إثارة من البحث العلمي أو التحليل التاريخي الاجتماعي !؟ **فهل جاءك بجديد أم تجده سلك نهج سادته المشركين في البحث والتحليل والاستنتاج** !!؟ فقد روى مقاتل أن سبب نزول هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال : ان محمداً ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر . وقال عقبة : كاهن . فرد الله عليهم بقوله : ﴿ **فلا أقسم** . . . ﴾ الآيات . ألا يكفي المغرضين من المستشرقين وسيِّدهم هذا

---

(١) سورة الحاقة : ٣٨ ـ ٤٣ .

(٢) روح المعاني : جـ ٢٩ ص ٥٢ ـ ٥٣ وتفسير أبي السعود : جـ ٥ ص ١٩١ ـ ١٩٢ وحاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٤٠٢ .

ولا يغيب عن بالك أن آية التحدي في سورة الطور أسبق في النزول من آيات الحاقة المذكورة . فالإشارة في الحاقة إلى الإعجاز في أسلوب القرآن أمر ظاهر .

علماً وفهماً أنهم أتباع كل ناعق جاهلي قذف تقوّله حاقداً متعنتاً ؟؟

ومما لا يغيب عن بال عاقل أنَّ كلام الكهنة لا يحوي شيئاً من أوجه إعجاز القرآن في قليل أو كثير . وقد أدرك هذا فصحاءُ العرب من المشركين ، فبادروا إلى الثناء عليه ثناءً منقطع النظير ، لا يطمع أي كاهن بمثله على كلامه . فهذا **الوليد** بن المغيرة يُنزِّه القرآن عن كلام الانس والجن ، ثم يقول : (إنَّ لقوله الذي يقولُ حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدقٌ أسفله ، وإنه لَيعلو وما يُعلى ، وإنه لَيُحطم ما تحته) .

وهذا سيد آخر منهم : عتبة بن ربيعة ، ينطلق لاقناع الرسول بالعدول عن دعوته ، فيسمع منه آيات من القرآن فيرتد معظماً شأنه يربأ بنفسه أن ينسبه إلى الشعر أو السحر أو الكهانة ، فيقول : (إني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله ، **والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة** يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ . .) .

وهذا الشاعر أُنيس الغفاري أخو أبي ذر رضي الله عنهما آمن بمحمد ﷺ رسولاً وبالقرآن كلاماً إلّهياً . وقال : (**لقد سمعتُ قولَ الكهنة فما هو بقولهم** . ولقد وضعتُ قولَه على أقراءِ الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون) رواه مسلم[1] .

فهل بعد قرار فحول القوم وعقلائهم ـ من مسلمين وكتابيين ومشركين ـ قديماً وحديثاً ينخدع عاقل بتقوّل يهودي أعجمي مأفون جاهل ؛ لم يبلغ في معرفة العربية رتبة مسيلمة الكذاب !؟

ولماذا أغفل ذكر أوجه الإعجاز القاطعة التي تقلق جحوده

---

(١) راجع النصوص الثلاثة ص ١٤٠ ـ ١٤٣ .

ونكرانه !؟؟ وهل البحث العلمي النزيه هو الذي حدا به إلى تقوله ذاك أم حقده ولؤم قومه ؟؟

لقد كشف عن دافعه الأساسي للتشكيك بالقرآن بهجومه الأهوج ذاك حين أعقب قوله الأول بما يلي :

(إذاً ؛ القرآن هو الأساس الأول للدين الإسلامي ، وهو كتابه المقدس . .) .

لقد أراد أن يهدم بناء الإسلام الشامخ كله في نفوس المسلمين بتوهين يقينهم بأساسه الأول كتاب الله تعالى . ولكنَّ اللهَ خيَّب أمله وفضح تآمره وبدَّد جهوده أدراج الرياح .

٢) زعمه ضعف بلاغة المدني من القرآن :

وانطلق (تسهر) يسهم مع غيره من المستشرقين في الخبط فزعم أن السوَر المدنية قد انخفضت فيها البلاغة حتى صار بعضها نثراً عادياً . ويستدل لرأيه بأن حِدَّة الوحي قد هدأتْ وأنَّ البلاغةَ أصبحتْ شاحبة .

فأما زعمه أن القوة الخطابية للقرآن قد فترت حماستها في المدينة بحكم المسائل والموضوعات التي عالجها . فليس في هذا ـ إن سلمنا به ـ دليل على ضعف البلاغة . بل إن مراعاة مقتضى الأحوال هو عين البلاغة ولُبُّها . فلا يصلح قوله دليلاً على انخفاض مستوى البلاغة ، إلَّا أن يكون المتصدر للحكم من أمثال هذا المستشرق ، يُعوِّل على قوة إيقاع فواصل الكلم ، دون فهم لباب معانيه ومراميه وتأمل صوره وفنونه ﴿ **كَمَثَلِ الذي ينعِقُ بما لا يسمعُ إلَّا دعاءً ونداءً ، صُمٌّ بكمٌ عميٌ فهمْ لا يعقلون** ﴾[1] ذاك مثل البهائم لا تستوعب من الكلام الذي تسمعه إلَّا

---

(١) سورة البقرة : ١٧١ .

أصواتاً لا تدري لها معنى .

ولا يفوتنا أن نُنبه إلى أن في القرآن المدني آيات قوية قارعة فيها من حدة التهديد بعذاب النار ما يقضّ مضجع هذا الحاقد وأضرابه . قال تعالى في سورة النساء المدنية : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كلما نَضِجت جلودُهم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذابَ إن اللهَ كان عزيزاً حكيماً** ﴾[1] .

وفي القرآن المدني من القوة الخطابية الملهبة للحماسة ما حمل أصحاب محمد ﷺ على بذل أموالهم ومُهجهم رخيصةً في سبيل الله ولم تزل آيات الجهاد قائمة بالشهادة على ذلك .

وبعد فكيف توصل إلى اكتشافه الهائل عن شحوب البلاغة في القرآن المدني ؟ هل درسَ فنونَ البلاغة العربية ونظر فيها حسب معاييرها . . ؟ هلا جاءنا بمثال واحد يثبت صحة ما يقول . . ؟ والحقيقة أن مصيبة هذا المخلوق ليس في جهله وحقده فحسب ؛ بل في جهله كذلك أنه جاهل . . وتلك هي المصيبة العظمى ؛ مصيبة الجهل المركب الذي سارت به الأمثال . . !!

ثم كيف يُبقي الرسول ـ لو كان الأمر له ـ آياتِ التحدي تُتلى على مسامع القوم صباحَ مساء إذا نزل مستوى القرآن ـ كما زعم الحاقد ـ إلى النثر العادي ؟ كيف والعدو يُؤلب عليه القبائل ويتسقط هفواته ويتربص به الدوائر !؟؟

---

(١) سورة النساء : ٥٦ . وانظر الآية ٥٧ وما شاكلها من الآيات التي تضمنت وعد المؤمنين بجنات وارفة الظلال . . . وتوعدت الكافرين بعذاب أليم فظيع مريع . وهذا اللون من الآيات المدنية يكذب المستشرقين وزعيمهم « تسهر » في زعمه أن الرسول قد تحول عن الاهتمام بالدار الآخرة إلى الأماني الدنيوية . انظر العقيدة والشريعة ص ٣٨ ـ ٣٩ .

بل قل لي بربك أيستقيم في عقل عاقل لو نزل القرآن إلى مستوى الكلام العادي ـ حاشاه من ذلك ـ أن يأتي التحدي به قوياً قارعاً في المدينة يؤكد آيات التحدي السابقة ويقتصر في تحديهم على سورة واحدة !؟

أليس آخر آيات التحدي في سورة البقرة المدنية يفصح عن ذلك . قال الله تعالى : ﴿ **وإنْ كنتم في رَيْبٍ مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثلِه وادعوا شهداءكم منْ دونِ الله إن كنتم صادقين** ﴾ .

ويُصدر فيها الحكم عليهم بالعجز الأبدي ويكسوهم بثوب الخزي ﴿ **فإنْ لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ أُعدتْ للكافرين** ﴾[1] .

ثم كيف تغفلُ العرب عن معارضته لو استشعرتْ قدرة على ذلك ؟ فلماذا لم تنقض أمره بذلك متفادية تجشم عناء الحروب وبذل الأموال والدماء !؟ أيخفى على العرب هذا الأمر اليسير وهم في جلائل الأمور أهل الرأي والتدبير .

٣) إنكاره معجزات الرسول جميعاً :

لم يكف (تسهر) ذلك التسعفَ في نفي إعجاز القرآن ، بل استطالت عنقه بحكم المبادىء والوثائق العلمية التي لا يعلمها أحد غيره ، ليطلع على العالم بنتيجة لا نعلم أحداً قالها قبله !؟ وهي : أن محمداً ﷺ لم تكنْ له معجزة قط !؟ انظر إلى إقامته الدليل على ذلك إذ قال :

(ولقد كان « محمد » ـ على ما يبدو ـ مدركاً بإخلاص إدراكاً صحيحاً ضعفه الإنساني ، وكان يريد أن يرى فيه المؤمنون رجلاً له عيوب الانسان . ومن ثَمَّ كان عمله أعظمَ من شخصه . ولم يشعر في نفسه أنه

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤ راجع ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .

قديس ، ولم يرد أنه يعتبر كذلك . . . بل كان ضعفه البشري **هو ما جعله يأبى أن يكون صاحب معجزات** . على أن الزمان والبيئة قد سهلا له أن تكون له صفة القداسة)[1] .

ولا تعجبْ إن أعلنا ذلك ـ قبل أن نناقشه القولَ ـ أن أولَ نقضٍ لكلامٍ هذا البحاثة المدهش قد ورد على لسانه هو بالذات !؟ فقد أنشأ (تسهر) يقول :

(لقد قرر محمد نفسه أن **القرآن عمل معجز لا يمكن الاتيانُ** بمثله ، ولذلك ينظر المؤمنون إليه هذه النظرة . بل يعتبرونه جميعه معجزة إلٓهية حُققت بواسطة النبي ، ويرونها أكبر معجزةٍ تدل على صدق رسالته الإلٓهية)[2] .

ألا تراه اعترف ببداهة ظاهرة أن محمداً ﷺ قد أعلن أنه صاحب معجزات ، حين بيَّن أن القرآن معجزٌ ، بل بيَّن أن القرآن أجلُّ وأعظم معجزة شاهدة على صدقه عند المسلمين . وفي هذا إقرار ضمني بأن للرسول معجزاتٍ أخرى دون القرآن ، وأن ذلك مستقر في عقيدة المسلمين .

فهل رأيتَ في عمرك نقض كلامٍ أبلغَ وأوضح من هذا النقض !؟ فلو أنه صدر على لسان رجل عامي لكان مستنكراً مستهجناً ، فكيف إذا تنطع به من يدعي أنه علّامة باحث نزيه . . !؟

لقد مرت بك معجزات للرسول ﷺ كثيرة ، وعرفتَ أقسامها ، ورأيت أن القرآن قد نص على بعضها : كالإسراء وانشقاق القمر . . .

وقد تواردت الأحاديث الصحيحة بأنباء معجزات مادية كثيرة ، حتى غدا ظهور المعجزات على يده ﷺ أمراً قطعياً لبلوغ أنبائه مبلغ التواتر .

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٣٣ ـ ٣٤ .
(٢) العقيدة والشريعة ص ٢٢ .

بقي أن تقرر بنفسك ما إذا كان التواضع مع ظهور المعجزات هو من الضعف البشري !؟ أم أن الغرور والخيلاء وتعظيم الدعوى في تلك الحال هو الانقياد للضعف البشري !؟

إن التواضعَ قوةٌ أخلاقية عظيمة راقية ، لا يتحلى بها إلَّا كُمَّلُ الرجال. فإذا حلَّت في نفس امرىء محلَّ حبِ التسلط والتكبر والغطرسة حين يغدو زعيماً مطاعاً ، فتلك منه قوة خلقية نبيلة فائقة سار بها على هدى الأنبياء والمرسلين.

ومحمد ﷺ قد تجمَّل بهذه الخلة في أعلى مراتبها وأجلى صورها ، إذ قال لامرأة قد هابته (إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)[1] وقد تمسك بإعلان القرآن عن بشريته ، فقال : (إنما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكل العبد)[2] ولكنه بيَّن إلى جانب ذلك منزلته عند الله ومكانته بين الرسل ، فقال : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . .) الحديث[3] .

٤ ـ زعمه اقتباس الرسول من العهد القديم :

أبت النوايا الدفينة إلَّا أن تشرئب بأعناقها ، فبدت معلنة عن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢ : ١١١٠) وهناد في زهده (رقم ٨١٤تحقيق محمد أبو الليث الخير آبادي).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل والديلمي وابن أبي شيبة (١٣ : ٢٢٥) وهناد في زهده(رقم ٨١١ و٨١٢) .

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ـ حديث ٢٢٧٨ ـ جـ ٤ ص ١٧٨٢ . ورواه الإمام الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ـ جامع الترمذي كتاب المناقب ـ باب في فضل النبي ﷺ ـ حديث ٣٦١٥ ـ جـ ٥ ص ٥٨٧ . وفي كتاب التفسير ـ باب ومن سورة بني إسرائيل حديث ٣١٤٨ جـ ٥ ـ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ . ورواه أبو داود في سننه ـ كتاب السنة ـ باب في التخيير بين الأنبياء ـ حديث ٤٦٧٣ ـ جـ ٤ ص ٢١٨ . وابن ماجه في سننه ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر الشفاعة ـ حديث ٤٣٠٨ ـ جـ ٢ ص ١٤٤٠ .

نفسها ، تقطع السبيل على كل تبرير باسم البحث العلمي النزيه ، والرأي المتحرر من العصبية الحاقدة الهوجاء ، لقد خرج اليهودي « تسهر » من إهابه وكشفَ عن بعض أهداف بحثه في القرآن ، حين عزا ما فيه من قصص حقيقي عن الأنبياء وأقوامهم ـ مما يثير الاعتبار والاتعاظ البالغ ويبعث على التأسي والاقتداء اعتصاماً بالفضائل والقيم ـ أجل ! لقد عزا ذلك إلى كتاب اليهود إلى العهد القديم ، فقال : (لقد أفاد « محمد » من تاريخ العهد القديم ـ وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ـ ليُذكِّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة ؛ الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ووقفوا في طريقهم)[1] .

ليس عجيباً أن يرسم أعداءُ الإسلام في خطتهم للقضاء على الإسلام نهج التشكيك في القرآن ، فيزعموا أن أخباره اقتباس من الكتاب المقدس . ولكن العجيب حقاً أن تجد بيننا ببغاوات تردد هذا الزعم وتحاول نشره في بعض كتب التاريخ . وها هي الحقائق الناصعة تدمغ هذا الباطل وتزهقه :

أولاً : إن (تسهر) لم يأت على ذكر مثال واحد يثبت زعمه في اقتباس القرآن من العهد القديم . فقد قذف زيفه وتهرب كعادته من تقديم الدليل . **وإن مرد التشابه** ـ كما نعتقد ـ **في بعض جوانب قصص القرآن الكريم** مع ما في أسفار الكتاب المقدس إلى أنها تتضمن وحي الله إلى أنبيائه في الأصل ، وأنها وإنْ حُرفت لكنها لم تُمسخ كلياً ، بل بقي فيها بعضُ المعالم مما أنزل الله على رسله ، وإنه لمقدار يسير . وقد أورد الله في القرآن الكريم بعضه نقياً خالصاً من تحريف المغرضين وتضليل المضللين .

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٥ وانظر فيه ص ١٢ و ٢٠ .

ثانياً : إن النبي ﷺ أميّ لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلق من رجال النصرانية واليهودية شيئاً : وهذه حقيقة تاريخية قد استوفينا بيانها ودلائلها[1] . فلن يجد أي امرىءٍ منحه الله قدراً من الفهم والعلم مسوغاً للجدل فيها . وان قصص الأنبياء وأممهم موجودةٌ فيما نزل بمكة من القرآن ، قبل أن يلتقي الرسول ﷺ بأحد من أحبار اليهود . فلما قدم الرسول ﷺ المدينةَ عاداه أحبار اليهود ، وكتموا عنه كما كتموا عن غيره من قبل أخبار التوراة وتعاليمها ، حتى قرعهم الله على كتمانهم دينه على الناس . قال تعالى : ﴿ **يا أهلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تُخفون من الكتابِ ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين** ﴾[2] .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة القطعية الصارخة لم يتورع (تسهر) عن التعامي عنها واللجوء إلى سفيه المغالطات ، إذ قال : (كما صار رهبان المسيحيين وأحبار اليهود موضع مهاجمة منه وقد كانوا في الواقع أساتذة له)[3] .

فأنى له حين كان في منأى عنهم بمكة أو حين أقاموا بينهم وبينه حجاباً من حقدهم الأسود وعدائهم الصريح منذ دخل المدينة ، أن يتلقى عنهم أو يُذللوا له كتابهم !؟

فلو منحوه شيئاً من علومهم ـ فَرَضاً ـ ثم ناصبهم العداء أكانوا يستخزون لهجومه عليهم وتنديده بهم وفضحهم !! أم كانوا يطعنون في شخصه وفي رسالته بأنها قبس مما عندهم وأنه تلقى منهم ثم تنكر لهم ؟؟

---

(١) راجع : نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٢٥٧ ـ ٢٦٥ .

(٢) سورة المائدة : ١٥ .

(٣) العقيدة والشريعة ص ٢٠ .

فهل وجدتَهم تجاه كشف القرآن مخازيهم وُفضحهم إلَّا صاغرين !!؟؟

ثالثاً : إن أخبار القرآن عن غيب الماضي قد جاءت تصحح أخبار الكتب السابقة ، التي جعلها التشويه تنسب إلى الله من رديء الصفات ما يتنافى مع جلاله وكماله ، وتنسب للأنبياء ما لا يليق ، وتحط من مكانتهم . فجاء القرآن نقياً من تلك الشوائب ، وذكرَ ما اتصف به الرسل حقيقة من الكمالات التي نشأهم الله عليها ، ليكونوا خير قدوة للناس . وها أنت تقرأ أمثلة تشويههم وضلالهم :

أ ـ ضلال أصحاب العهد القديم في صفات الرسل :

١) قص الله علينا قصة نوح عليه السلام في القرآن مثالاً في الصبر واحتمال أذى القوم وسخريتهم منذ فجر الحياة الإنسانية ، وأنه أبو البشرية الثاني ، إذ نجاه الله ومن آمن معه من الطوفان .

بينما تجد لنوح في العهد القديم في سفر التكوين ـ الأصحاح التاسع ـ قصة فظيعة مدهشة ، فقد ورد فيه أنه : (شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فأبصر حام ـ أبو كنعان ـ عورة أبيه وأخبر أخويه : سام ويافث . فأخذا الرداء ووضعاه على أكتافهم ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ، فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمرة علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لاخوته) ثم فصَّل دعوته بأن يكون نسل كنعان عبيداً لنسل سام وعبيداً لنسل يافث . انتهى[١] .

فهل هذه صورة نبي معصوم قدوة ، سكر فعربد فتعرى ، ثم كافأ من

---

(١) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ـ الأصحاح التاسع ـ الفقرة : ٢٠ ـ ٢٧ ، بإيجاز ـ نشر جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى ـ ساحة النجمة ـ بيروت .

أحسن إليه بجزاء سنمار ، فجعل اللعنة والذلة والعبودية في عقبه إلى يوم القيامة . . ؟! فهل جزاء الإحسان إلَّا الإحسان !؟ إنه جزاء يستنكره الإنسان بطبعه السليم ولو لم يكن يعرف ديناً . قال الشاعر :

إذا أنت أكـرمتَ الكـريمَ ملكتـه   وإنْ أنتَ أكـرمتَ اللئيـم تمـردا

فحاشا نوحاً نبي الله ومصطفاه لهداية البشرية من فعل جهالة قبيحة نكراء .

٢) وهذا سيدنا لوط عليه السلام ، فقد قص القرآن على العالمين صموده ضد الفجور والعصيان ، فقد ذاق مر الأذى في سبيل قمع الفجور والشذوذ الجنسي ، بينما تجد في العهد القديم في سفر التكوين أيضاً أن ابنتي لوط ـ والمفروض أنهما رُبيتا على العفة والطهر ـ قد سقتا والدهما خمراً ، فاضطجعت البنت البكر مع أبيها لوط في الليلة الأولى ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، واضطجعت الصغيرة معه في الليلة الثانية . . فولدت البكر ابناً ودعته : مؤاب . وهو أبو المؤابيين إلى اليوم ، وولدت الصغيرة ابناً دعته : بن عمي . وهو أبو بني عمون إلى اليوم[١] .

٣) وتجد العهد القديم يحكي عن بعض الأنبياء ، كيعقوب عليه السلام ، اتباع اسلوب من المخادعة والتلاعب ، لا تجد له في مستوى ذوي المروءة من العامة نظيراً ، فكيف بمن يُعدهم الله ليكونوا أهلاً لتلقي وحيه والقيام بأعباء دعوته !؟[٢] .

انظر في الأصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين تجد فيه : (إن إسحاق لما شاخ وكلَّت عيناه عن النظر دعا ابنه الأكبر عيسو ، وأمره

---

(١) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ـ الأصحاح التاسع عشر ـ الفقرة : ٣٠ ـ ٣٨ بإيجاز .
(٢) سبق لنا البحث في عصمة الأنبياء بعد النبوة وقبلها في : (نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٢٤٩ ـ ٢٥٦) .

أن يتصيد له صيداً ويصنع منه طعاماً ليباركه قبل وفاته . فسمعت ذلك أمه رفقة ، فأمرت يعقوب ابنها الثاني أن يذبح جديين جيدين من الماعز ليأخذ بركة أخيه عيسو من أبيه قبل وفاته . وخشية من اكتشاف اسحاق الخدعة واستبداله اللعنة على يعقوب بالبركة ، فقد ألبسته أمه ثياب أخيه عيسو . ولكن عيسو رجل أشعر ويعقوب أملس ، لذا فقد ألبست أمه ـ أيضاً ـ ملاسة يديه وعنقه جلود الجديين . فقدَّم يعقوب الطعام لوالده إسحاق ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا عيسو بكرك ، فقال : تقدَّمْ لأجسّك يا ابني ، أأَنت هو ابني عيسو أم لا !؟ فلما جسَّه قال : الصوتُ صوتُ يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . فباركه ، ودعا أن تُستعبد له شعوب وتسجد له قبائل ويكون سيداً لإخوته ويسجد له بنو أمه .

ودخل عيسو على أبيه بعد خروج أخيه فقدم له الطعام مما اصطاد ، فلما اكتشفا الحيلة صرخ عيسو صرخة عظيمة ؛ مُرة جداً . وقال لأبيه : باركني أنا أيضاً يا أبي . فقال إسحاق : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : أما بقيت لي بركة !!؟ فقال إسحاق : قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع اخوته عبيداً . . فقال عيسو : ألك بركة واحدة فقط يا أبي !! باركني أنا أيضاً ، ورفع صوته وبكى . فأجابه إسحاق : يكون مسكنك بدون دسم الأرض ولا ندى السماء ، وبسيفك تعيش ولأخيك تُستعبد)[1] .

أرأيت كيف صار نيل البركة قنصاً وبالخديعة أيضاً بالأعمال الصالحة !؟

أم رأيت كيف حاز إسحاق الوصاية على بركات الله يمنحها للمخادع اللئيم !؟ أم رأيت كيف يكون الأنبياء ـ الذين اختارهم الله لرسالته ـ من

---

(١) سفر التكوين ـ الاصحاح السابع والعشرين ـ بإيجاز .

البلهاء الذين لا يفرقون بين جلد الماعز وجلد الإنسان ، ويكونون سُذجاً معاندين فيصرون على معاقبة المحسن ومكافأة المحتال المسيء ، ويفرقون بين الأخ وأخيه ، ويرتضون لأولادهم البررة الذلَّ والهوان !؟ وإذا كان الأنبياء كذلك ، فمَن هم الظلمةُ والسخفاء . . !؟ ولماذا اختارهم الله وبعثهم إذن . . !؟

٤) وحبذا لو طالعت بنفسك كيف عاش يعقوب قصة غرامه مع راحيل ابنة خاله ، فقد قبَّلها مذ رآها أول مرة ، ثم خدم خاله سبع سنين مهراً لها ، فقدم له ليلة زفافه أختها الكبرى ، فلم يشعر بها مع أنها كانت غير جميلة ومريضة العينين !! ثم تزوج من راحيل بسبع سنين أُخر[١] . .

٥) ويا ليتك قرأتَ بنفسك أيضاً كيف خدعَ نبي الله يعقوب خالَه « لابان » فاستولى بذلك على أكبر قسط من ماشيته . إذْ جعل ماشية خاله تقف أمام قضبان مخططه في أجران المياه وهي وحمى ، كي تنتج ماشيةً مخططة !! فيفصلها عن ماشية خاله ليُلحقها بماشيته ، فصار بذلك ذا ثراء واسع[٢] !!

النزعة العدوانية في الشخصية اليهودية :

هذه النصوص الملفقة في العهد العتيق لها نظائر كثيرة تستعصي على الحصر في هذا المقام . وهي تفسر لك مظهراً خطيراً في الشخصية اليهودية .

تأمل فيه موقف نوح الذي يقابل الإحسان بالإيذاء ! ثم تأمل مواقف اليهود من الشعوب الأخرى على مر العصور !؟ كذلك اليهود على الدوام !! واذكر فيه موقف ابنتي لوط ثم لاحظ مواقف بنات إسرائيل في

---

(١) التكوين ـ الاصحاح التاسع والعشرون .

(٢) سفر التكوين الاصحاح ٣٠ ـ ٣١ .

كل مكان وزمان . هل تجدها في أوج العفة والطهر !!؟ ولا تخفى عليك المخاتلة والخديعة في المواقف المنسوبة إلى يعقوب « إسرائيل » ـ حاشاه وحاشا الأنبياء جميعاً ـ ثم لاحظ كيف تثير التصرفات اليهودية عبر الزمان اشمئزاز الإنسانية ، لما استقر فيها من نزعة عدوانية .

وإن الدراسة الموضوعية لتكشف عن جذور هذه النزعة وبواعثها في التلفيقات الخبيثة في التوراة والتلمود ، وإن هذه التلفيقات في حد ذاتها خطيرة جداً ، إذ هي عدوان على الدين نفسه !

فتأمل أيها العاقل ! كيف عبث هؤلاء بدينهم وحرَّفوه واعتدوا على مكانة أنبيائهم بالذات ، فهل ترتقب منهم أمانة وموضوعية في دراسة أي دين آخر !؟ فضلاً عن الدين الإسلامي الذي ينسخ دينهم ويفضح حبائلهم !؟ وهل تنتظر منهم الأمم بعد هذا أمانة وتعاطفاً في رعاية مصالحها !؟ وهل يتوقع أحد من المسلمين أن يلقى منهم أمناً وفياً وسلاماً صادقاً مع وجود أمثال هذه النصوص في ديانتهم ؟ اللهم إلَّا أن يكون من الحمقى المغفلين !!

ب ـ **ضلالهم في معرفة الله تعالى** :

وهذا أمر يطول تقصِّيه ، وحسبك منه ما قد قرأت ، لكنّا نُطلعك على تصور مُحرفي الكتاب المقدس للصفات الإلّهية ، فقد نسبوا قوم أخوال يعقوب إلى الشرك ، فإن راحيل زوج يعقوب هي ابنة خاله لابان. وقد سرقت أصنام أبيها حِين هربت مع زوجها بعد أن عاش يعقوب لديهم عشرين سنة . كما يعطيك صورة أخرى عن (الله) بأنه الإله الخاص بإبراهيم وعَقبه ، فليس هو إله العالمين !؟ كذا قال يعقوب : ﴿ **لولا أن إله أبي إله إبراهيم وهيبة إسحاق كان معي** ﴾[1] .

---

(١) التكوين (٣١ ٢٠ و ٢٩ و ٣٠ و ٤٢) .

لا ريبَ أن الأدهى من ذلك والأفدح مرارةً ، تلك النزعة الوثنية التي تصور الله تعالى ذا جسم بشري أضعفَ من مخلوقاته : (فبقي يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب « الإنسان » حُقَّ فخذ يعقوب ، فانخلع حُق فخذ يعقوب في مصارعته معه . وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال « يعقوب » : لا أُطلقك إن لم تباركني . فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب . فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك **جاهدت مع الله والناس وقدرت**. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك! فقال: لماذا تسأل عن اسمي ! وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً : **لأني نظرت الله وجهاً لوجه** ونُجيت نفسي . . لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَّسا الذي على حُق الفخذ إلى هذا اليوم ، لأنه ضُرب حُق فخذ يعقوب على النسا)[1] .

وبعد ، فهل يقول امرؤ يتمتع بملكاته العقلية وسلامة مشاعره وأحاسيسه بأن القرآن يُحتمل أن يكون فيه اقتباس من هذه المفتريات!؟ فهل هذه الصفات تليق بالإله !؟ سبحانه وتعالى عما يصفون ! وهل بينها وبين صفاته في القرآن الكريم أدنى تقارب ؟ وهل ترى التشابه والاقتباس في قوله تعالى : ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾[2] وما أكثر ورود ذلك في القرآن .

فالله قوي قادر لا تغلبه قوة من قوى الكون ، فهو خالقها المهيمن عليها . وهو الغالب على أمره لا مردَّ لحكمه ﴿ **إنَّ الله عزيز حكيم** ﴾[3] وكل ما في الوجود مقهور له مغلوب لارادته ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو**

---

(١) سفر التكوين ـ الاصحاح : ٣٢ ـ فقرة ٢٣ ـ ٣٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٠ ومواطن كثيرة .

(٣) سورة البقرة : ٢٢٠ ومواطن كثيرة .

الحكيم الخبير ﴾[1] وهل ترى أي أثر في القرآن لتصوير الإله أنه ذو جسم انساني يصارعـه يعقوب أو يصـارعه داود فيمسـك به من خصيتيـه فيقهره ويخضعه لأمره ، كما نص الكتاب المقدس !؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيـراً ! يقولـون على الله الكذب ويخـرفون بمـا لا يعرفـون ، فيزعمـون اقتباس الحق من الباطل والنور من الظلام . . ! فهل وجدوا ذلك الاقتباس في القـرآن في قـولـه تعـالى : **﴿ ليس كمثله شيءٌ ، وهـو السميـع البصير ﴾**[2]!؟ إن المباينـة بين صفات الخـالق وصفات المخلوق جليـة ماثلة في القرآن ؛ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وما يقارن عاقل بين أخبار القرآن وأخبار الكتاب المقدس فيتمالـك نفسـه من الهتاف : أين الثـريا من الثـرى !؟ لكن تلك الزمـرة المتعصبة الحاقدة قد طمست على قلوبها نعرات لؤم وغيظ فأعمتْ عيونَها وأصمَّت آذانهـا ؛ لم تفهم ولن تفهم شيئـاً من هــذا الحق الصـراح **﴿ ومنهم مَن يستمعون إليه أفأنتَ تُسمع الصُمَّ ولو كانـوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظرُ إليكَ أفأنت تهدي العُمي ولو كانوا لا يبصرون !؟ ﴾**[3] .

رابعاً : إن قصص الكتاب المقدس يبعث في الصدر كآبة وضجراً :

وليس كـذلك كـلام الإله قـطعاً . . وإذا أردت حقيقـة قصص رب العالمين عن الغابـرين ؛ فاقـرأها في القـرآن الكريم تجـدْ صور الكفـاح والتضحية والفداء والصبر على المكاره في سبيل الله من غير طمعٍ في غُنم مادي ، بل احتساباً لما عند الله ، وتجد فيه قصصـاً ترقق القلب وتـرهف الحس ، وتبث في الفؤاد عـظات فاعلة مؤثـرة ، تحمـل على الاعتصـام

---

(١) سورة الانعام : ١٨ وانظر فيها الآية : ٦١ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

(٣) سورة يونس : ٤٢ ـ ٤٣ .

بالفضائل والقيم إيماناً بالله ؛ وتأسياً واقتـداءً بالهـداة إلى الله . وليس من داعٍ لِسوْقِ أمثلة على ذلك ، فكـلُّ القصص القرآني شـاهد عليـه . وقد اعترف به « تسهر » وأشار إليه في نصه الماضي .

فهل ـ بعد هـذا ـ يستوي الحجـر والجوهـر ﴿ **وما يستـوي الأعمى والبصيرُ ، ولا الظلماتُ ولا النورُ ، ولا الظلُّ ولا الحرورُ ، وما يستوي الأحيـاءُ ولا الأمواتُ ، إن اللهَ يُسمـعُ مَن يشاءُ ومـا أنتَ بمُسمعٍ مَن في القبور** ﴾[1] .

خامساً : لقد فصَّل القرآنُ الكريم ما ورد في تلك الأسفار مختصراً وأوضح ما كان غامضاً ، وذكر أخبـاراً لم ترد فيهـا وصحح مـا عبثت به أهواء المحرّفين . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتابَ الحق مصدقاً لمـا بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** ﴾[2] .

وقد ذهب ابن عباس ومجاهد وغيرهما إلى أن المهيمن : الأمين ، فـالقرآن أمينٌ على كـل كتاب قبله . وروي عنهمـا أن معنى (مهيمناً) : شهيـداً ، وقيل : حـاكماً على مـا قبله من الكتب . وهذه الأقـوال كلهـا متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمينٌ وشاهـدٌ وحاكمٌ على كل كتاب قبله . وقد جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب ؛ خاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها . تكفل الله تعالى أن يحفظه ، فقال : ﴿ **إنا نحن نزّلنا الـذكرَ وإنـا له لحـافظون** ﴾[3] ولم يتكفـل الله بحفظ الكتب السمـاويـة

---

(١) سورة فاطر : ١٩ ـ ٢٢ .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة الحجر : ٩ وانظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٥ .

السابقة ، فإنه تسامت حكمته ، قد جعلها مراحل انتقالية قبل نزول القرآن .

إن بين نسق القرآن وأسلوبه ومضمونه وبين نسق وأسلوب ومضمون غيره من الكتب السماوية أبعدَ مما بين السماء والأرض . ولهذا التباين الشاسع الجليّ الواضح ؛ انسابت قريحة الشاعر بحق فقال :

الله أكبرُ إنَّ دينَ محمدٍ	وكتابَه أقوى وأقومُ قيلا
طلعتْ به شمسُ الهداية للورى	وأبى له نجمُ الكمال أُفولا
لا تذكروا الكتبَ السوالف عنده	طلعَ الصباحُ فأطفىء القنديلا

سادساً : اتساق القرآن وتناقض نصوص الكتاب المقدس :

مهما قلَّبت النظر في كتاب الله المجيد فلن تجد حياة الرسول اليومية مدونةً فيه ، يحكيها أحد من أصحابه أو أتباعه من بعده ، كما أنك لا تجد فيه أخبار أصحابه وتنقلاتهم من بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فالقرآن كله كلام الله تعالى محفوظ من الدخيل والتغيير والتبديل . بينما تجد معظم الكتاب المقدس تاريخاً لبني إسرائيل من وضع وتعديل الذين دوَّنوا الكتاب المقدس وتناقلوه ، ففيه حياة رسلهم تكتب من بعدهم محكية على لسان بشري غير منسوبة إلى الله ، وفيه أخبار الأحبار والرهبان والملوك وحتى أخبار حواريي عيسى عليه السلام وأعمالهم من بعده . فكيف يكون هذا كله من وحي الله إلى أنبيائه في بني إسرائيل !؟ والواقع أنك لا تجد فيه من الكلام المنسوب إلى الله إلَّا جزءاً يسيراً لا يساوي نصف معشاره في تقديرنا !

لو أنك رتعت في رياض الذكر الحكيم لألفيت القصص القرآني متسقاً مؤتلفاً . فإن الله جل جلاله قد أورد القصص في سور متعددة . وإنك لتجد جوانب القصة الواحدة في عدة سور ؛ للعظات الكثيرة فيها ،

لكنك تلفيها متكاملة مؤتلفة على الرغم من تعدد مواطن ورودها وتباعد أزمان نزولها ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[1] .

وإذا قارنت بين قصص الكتاب المقدس تصاعدت منك الزفرات وتعالت الآهات واعتراك الضيق من التناقض الواقع فيها ، ولسنا نحب الاطالة عليك ، فهذه أمثلة يسيرة بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى كبير تأمل أو تحليل لاستبانة التضارب فيما بينها :

أ ـ التناقض بين العهد العتيق والعهد الجديد :

يفيد **العهد** الجديد أن سليمان بنى البيت للرب بعد خروج بني إسرائيل من مصر بنحو ٥٩٥ سنة . بينما نصّ العهد القديم على ما يلي : (وكان في سنة الأربع مائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني أنه بنى البيت للرب)[2] .

ب ـ التناقض بين نصوص العهد الجديد :

بل نسوق إليك نموذجاً للتناقض بين نصوص انجيل واحد من أناجيله . فهذا انجيل يوحنا ينسب إلى السيد المسيح أنه قال :

(إنْ كنت أشهدُ لنفسي فشهادتي ليست حقاً)[3].

ثم يسرد إنجيل يوحنا : (ثم كلمهم يسوع أيضاً قائلاً : أنا هو نور العالم ، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة ، فقال له

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .

(٢) انظر العهد الجديد : أعمال الرسل : ١٣ : ١٧ ـ٢٣ والعهد العتيق : الملوك الأول : ٦ : ١ .

(٣) انجيل يوحنا : ٥ : ٣١ و : ٨ : ١٢ ـ ١٤

الفريسيون : أنت تشهد لنفسك ، شهـادتك ليست حقـاً ، أجاب يسـوع وقال لهم : وإنْ كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي حق)[1] .

جـ ـ التناقض بين نصوص العهد العتيق :

وإليك أيضاً نموذجاً للتناقض بين نصوص سفر واحد من أسفـاره . فهذا صموئيل الثاني يقـول : (ولم يكن لميكال ابنـة شاول ولـدٌ إلى يوم موتها)[2] ويقول : (فأخذ الملك ابنيْ رصفة . وبنى ميكـال ابنة شـاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل بن برزلّاي المحولي)[2] .

فهل يعقل أن تصدر هذه الأقاويل المختلفة المتناقضة عن مقام الله العليم الحكيم !؟ وهل يمكن للقصص القرآني الفـائق المتناسق بعـظاته العميقـة البليغة أن ينبثق عن ذاك الخضم العكـر بالتنـاقض المتطاحن !؟ حاشا لله ، لا جرم أنهم يفترون على الله الكذب ساء ما يعملون .

فهل يصغي هذا الصنف من المستشرقين وأذنابهم لصوت الحقيقة ؟ وهل تتفتح أجفانهم لنور الحق الـرباني المبين ﴿ **أفـأنتَ تُسمع الصمَّ أو تهدي العُميَ ومَن كان في ضلال مبين** ﴾[3] .

وبعد فقد استبان لك زيف تقوّل الخصوم . فهل مع هـذه الحقائق جميعـاً يتشكك المتشككـون !؟ ﴿ **فـإنهـا لا تعمَى الأبصـارُ ولكن تعمَى القلوب التي في الصدور** ﴾[4] .

ولماذا الرد على المستشرقين ؟؟ إن تعريب ونشـر بعض كتبهم في البلاد العربية وانتشار مؤلفاتهم باللغات الأجنبية أيضاً بين الشبان المسلمين

---

(١) انجيل يوحنا : ٥ : ٣١ و٨ : ١٢ ـ ١٤ الفريسيون : طائفة وخيمة من اليهود .
(٢) صموئيل الثاني : ٦ : ٢٣ و : ٢١ : ٨ .
(٣) سورة الزخرف : ٤٠ .
(٤) سورة الحج : ٤٦ .

الذين يمموا وجوههم شطر تلك البلاد قد عرَّض الكثيرين منهم للفتنة وخاصة الذين لم ينشؤوا في بيئة علمية اسلامية ، فانخدعوا بترهات المستشرقين وتخاريفهم . **فصار الرد عليهم فرضاً شرعياً لا مناص من أدائه وواجباً تمليه الأمانة العلمية** . وهذا ما قصدنا أداءه . ونسأل الله أن يُلهم متقني اللغات الأجنبية المؤمنين القيام بواجبهم في هذا المضمار فيترجموا ما تدعو الحاجة إليه من أبحاث ومناقشات .

إن الموقف من آراء المستشرقين ـ الذين لم يعلنوا إسلامهم ـ موقف حساس دقيق . ومسلكنا أن نستشهد بالأقوال السليمة للمنصفين منهم ، وننتقد ما تورطوا فيه من أخطاء ، وبهذا نكشف فاعلية الدين الحق على الآخرين ، ولو لم يكونوا مسلمين « والفضل ما شهدت به الأعداء » . أما المخادعون من المستشرقين فلا هوادة في تقريعهم وفضح مكائدهم . لكن من عجيب المفاجآت المخزية أن تصطدم في بعض الكتب الإسلامية بنصوص لهذا المستشرق « تسهر » يستشهد بها مؤلفوها استحساناً وهم يكيلون له الثناء الحسن الجميل !! وايم الحق إنها لسذاجة بلهاء وجهالة نكراء ! ألم يطّلعْ أولئكم المؤلفون البسطاء على ما احتفره في كتبه من مجاري الشعبذة والدجل والمراوغة !!؟ أما رأوه يكيل التهم جزافاً بأسلوب من الطعن والشتم لا يرتقي إلى مستوى أحقاد أولاد الشوارع !!؟ ﴿ **ويلٌ لكل أفاكٍ أثيم يسمعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عليه ثم يصرُّ مستكبراً كأنْ لمْ يسمعهْا فبشِّرهُ بعذاب أليم** ﴾[1] .

---

(١) سورة الجاثية : ٧ ـ ٨ .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

آثَارُ القُرآنِ المجِيد في اللغة والأدَب وَالبَلاغة وَالنَّقد

- توحيد اللغة العربية ومد سلطانها في العالم .
- تهذيب ألفاظها والتجديد في معانيها .
- إرساء قيم جديدة روحية وفكرية وإنسانية .
- نشأة علوم اللغة ونموها وازدهارها .
- نمو النقد الأدبي واستقرار مقاييسه .
- حماية البيان العربي من التدهور .
- بحوث هامة في علم الجمال وعلم النفس الأدبي .

الأدب السامي الرفيع عامل هام من عوامل نهضة الأمة وعنصر فعال في توجيهها اتجاهاً قويماً وفي تقدمها وازدهارها وسلامة نظرتها إلى الحياة والمجتمع. والقرآن ـ إلى جانب صفته الدينية ـ هو النموذج الأدبي الأمثل الذي عمل بفاعلية رائعة في نفوس الصحابة وتابعيهم في القرنين الأولين ، ولا يزال تهوي إليه أفئدة الأدباء ويحط الرحال عنده المنصفون العقلاء . لقد قام القرآن العظيم بدور بليغ عميق في اللغة العربية وأدبها وبلاغتها وفي النقد الأدبي عند العرب . فإن المعجزة القرآنية الباهرة استعلت على جميع المواهب الأدبية العريقة ، ونشرت أنوارها في أرجاء الجزيرة العربية جميعاً ، وبزغت على شعوب العالم ، فأدت إلى انقلاب واسع في اللغة العربية وإلى رقي بارز في أدبها وبلاغتها وفي النقد الأدبي فيها . وإليك أهم آثار القرآن باختصار مفيد :

١) استنقذ القرآن المجيد العرب من شتات اللهجات القبلية الكثيرة ، فعمل على تقارب اللهجات وائتلاف ألسنة أهلها بالنطق بأفصح لهجات العربية ، فقد نزَّل الله القرآن بلهجة قريش ، وراعى أهم الفوارق اللغوية بين اللهجات العربية فأنزل القرآن على سبعة أحرف[١] ، فانتشرت العربية القرشية في مشارق العالم الإسلامي

(١) تعرضت لتبيان ذلك تفصيلاً في بحث (الأحرف السبعة في القرآن) ولعل الله ييسر نشره قريباً .

ومغاربه ، فإن تلاوة القرآن فريضة اسلامية على كل معتنق للإسلام . ولم يزل المسلمون يقبلون عليه بلهفة وحرص ، يتلونه أناء الليل وأطراف النهار ؛ صغاراً وكباراً ؛ نساءً ورجالاً ؛ في ردهات المدن والمساجد ؛ وفي أغوار الصحارى النائية وذُرى الجبال الشاهقة ، حتى صارت جماهيرهم - من عرب وعجم - حُفَّاظاً للكتاب العظيم ، فاعتصموا بطابعه اللغوي الرائق السلس . وأحلّوا لهجته محل لهجاتهم الأولى .

وهكذا جمع القرآن العرب على لهجة قريش مراعياً أكثر الفوارق انتشاراً بين القبائل العربية ، فأدى إلى وحدة اللغة العربية ، كما مدَّ سلطانها في آفاق القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأوروبا ، حتى شملت معظم العالم القديم . وحفظها من الضياع وأبقاها غضة طرية خالدة على مر العصور وكر الدهور فأقام بين الأجيال الإسلامية صلة وطيدة وثيقة ، لا تنحل عراها مهما تطاول بينهم الزمان . وتظهر لك في هذا المقام روعة فضيلة القرآن على العرب والعربية وعلى المسلمين قاطبة إذا ذكرتَ انقسام اللغة اللاتينية إلى عدة لغات مختلفة : الفرنسية والإيطالية والاسبانية ، وذكرت انقسام شعوبها ؛ وانقطاع حبل التفاهم بين أجيالها لتطور لغاتهم وتنائيها في كل جيل .

٢) هذَّب القرآن اللغة العربية من الحوشي والغريب فأحالها إلى لغة صافية شفافة جذابة . . فقد انتهج القرآن أسلوباً زاهياً أنيقاً جزلاً ، له حلاوة وعليه طلاوة ، يستصغي الآذان ويلامس شغاف القلوب ، فجاء سلساً مبيناً معجزاً ببيانه وبلاغته .

وإذا كانت الجيوش الإسلامية الباسلة قد فتحت أعتى القلاع واخترقت أمنع الحصون ؛ فإن القرآن العظيم قد افتتح مغاليق القلوب ، فجهش الناس في الآفاق نحو لغة القرآن مأخوذين بروعتها وجلالها ذاهلين عن لغاتهم الأصلية .

٣) أدخل القرآن على العرب معاني جديدة ما كانوا يعرفـونها ولا يعـرفون التعبيـر عنها : فهنـاك ألفاظ ابتـدأها القـرآن ابتداء : كـالإسلام والايمان والفرقان والشرك والكفر والنفاق ؛ والصوم والصلاة والزكاة . . .
وهناك المضامين الحسية الشيقة الخـالدة ، مثـل لفت النظر إلى ملكـوت السموات والأرض ، واشتقاق الأدلة العقلية الملزمة مثل البـراهين الدالـة على وحدانية الله وعظمته وقدرته ووجـوب عبادتـه وحده لا شـريك لـه ، واعتمد القرآن في ذلك على تفتيح الأفكار وإثارة الـوجدانـات والمشاعـر والأحاسيس ليرسي في حنايا الضمائر إيماناً صادقاً ويقيناً بالحق صادعاً .
وإذا تصـورت الحياة القبليـة البدائيـة المتشاحنـة قبل الإسـلام أيقنت أن القرآن المجيد قد وضع حياة العرب الاجتماعية وحياة المسلمين من كافة الشعوب أمام أمـور عظام لم تـرنُ إليها من قبـل أبصارهم ولم تستشـرفها خواطرهم . فهذا نظام حكم شوريّ عادل رصين ، وتلك أحكام سديدة للجهاد والمعاهدات والحرب والسلم ، وذاك نـظام المال « كي لا يكـونَ دُوْلـةً بين الأغنياء منكم »[1] وذاكم نـظام التكافـل الاجتماعي يستـأصـل الفقـر ويجتث الحرمـان ويزيـل الفـوارق ويحـل الحب والـوحـدة محـل البغضاء والانقسام ، وذاكم نهج سعادة كـل فتى وفتاة وكـل امرأة ورجـل يفيض به نظام الأسرة الذي أرسى قواعده القرآن المبين .

فـالقرآن العـظيم نزل في مـائة وأربـع عشرة سـورة أنـزلهـا عـلاّم الغيوب بياناً فريداً بديعاً معجزاً في عبائره ومعـانيه ؛ في شكله ومحتـواه على حد سواء .

٤) اعتـاد العرب على مـواسم وأسـواق يقيمـونهـا في مـواطن من جزيرتهم ، وكـانت وفودهم تلتقي في تلك المنـاسبات ، وأهمهـا موسم

---

(١) سورة الحشر : ٧ .

الحج ، وكانت تتخلله ثلاثة أسواق هامة تقام قريباً من مكة ، وهي سوق عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز . ائتلفت وفود قبائل العرب قاطبة على زيارة هذه الأسواق ، تحمل إليها تجارتها كما يحمل إليها فصحاؤها ما فاضت به قرائحهم وجاشت به مشاعرهم من خطب وقصائد وحكم وأمثال ، حتى صار كل سوق مجمعاً أدبياً لغوياً رسمياً ، له محكَّمون تُضرب لهم القباب من الأدم[1] . وكثيراً ما تنشب بين فرسان البيان منافسات حامية الوطيس ، ينقسم فيها أهل الأدب إلى جهات متخاصمة ، ينحاز إلى كل منها أنصار ومؤيدون ، وتتشابك فيها الحجج والدلائل . . . دون أن يقدم التحكيم قولاً حاسماً يفض المنازعات البلاغية ، إذْ كانوا يعتمدون على الذوق والفطرة السليمة ، ولم يكونوا مجمعين على نموذج أدبي أعلى يتخذونه مقياساً في تمييز الأفصح والأبلغ . وبالتالي لم تكن لديهم قواعد وضوابط بيانية يجديهم الرجوع إليها فتيلاً . فكانوا يذهبون في ذلك مذاهب شتى . وتهدأ المنافسات وتتبدد المناقشات دون أن تسفر عن حكم متفق عليه . فالباحث يقف بهذا على أن ألفاظ الفصاحة والبلاغة وجمال التعبير ؛ أُطلقت ولم تستقر على معاني ثابتة ، ولم يتخذ كل منها مدلولاً واضحاً تحط عليه آراء القوم ، بل كانت كل قبيلة ترجح ما تميل إليه نفوسها وتسوغه أذواقها .

فهل لهذا التفرق من تلاق !؟

لما فاجأهم القرآن بسلسبيل بيانه وعقدت الدهشة ألسنتهم من تفوق بلاغته وجلال مكانته ؛ خضعت له أعناقهم وأذعنت أذواقهم ، وأيقنوا أن لا سبيل إلى مجاراته أو الانتقاص من سمو شيء منه ، فانقادت إليه مَلَكاتهم وسجاياهم ، وسارعوا ينهلون من بحر بيانه ،

---

(١) انظر أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ـ للاستاذ العلاّمة سعيد الأفغاني ص : ٢٧٧ ـ ٣٥٥ .

وينحون على شاكلة مناحيه ، ولكن هيهات أن يقاربوا شأوه !! وأقبلوا على دراسة ملامح الجمال الأدبي فيه يستجلون أسرار إعجازه ، حتى استخلصوا منه قواعد البلاغة والفصاحة . **فكان القرآن لهم المثل النموذجي الأسمى ؛ والمقياس المثالي الذي أجمعت القلوب والأذواق على الركون إليه والاحتكام إلى بيانه .**

فصار لزاماً على كل دارس للعربية أن ينعم النظر في دراسات إعجاز القرآن العظيم ، ويرتشف من منهل أدبه السماوي الخالد .

٥) لا تزال آثار القرآن البليغة تترى في ألوان الأدب العربي ؛ شعراً ورجزاً وحكمة وخطابة ونثراً . **فقد تأثرت جميع فنون الأدب العربي بالقرآن العظيم شكلًا وموضوعاً** . إذ ظهرت فيها جميعاً تعابير وصور ؛ بعضها مقتبس من القرآن وبعضها يصطبغ بصبغته وينسج على منواله . أما الموضوعات فبعضها جديد بالكلية كالتصوف والزهد ، وبعضها دخله التجديد والقوة والحيوية كالحماسة ، **لكن جميع الموضوعات تأثرت بالقرآن تأثراً بيّناً لا مراء فيه ، إذ ظهرت فيها قيم جديدة كثيرة روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية مستقاة من القرآن بحرص مرهف وتقديس ظاهر .**

ذاكم أمر بدهي لا يماري فيه باحث، فالقرآن كلام الله العظيم يتبوَّأ في نفوس المؤمنين المقام الأول من القدسية بعد الله جل جلاله . وقد أورده عليهم في منزلة عالية من البلاغة ، تحدى به سلاطين البيان العربي ، فأذهلهم حتى أُسقط في أيديهم ولم يُحروا جواباً ، بل استأثر منهم بالعناية العظمى حتى صار أول كتاب مدون في تاريخ اللغة العربية . يعكف العلماء على دراسته وتدريسه ، ويغترف من فيضه عامةُ المسلمين ، يكثرون تلاوته ويستحفظونه أنفسهم وأبناءهم على نطاق واسع وبإقبال عجيب لم يقع مثله في تاريخ الإنسانية !! فطبيعي أن تسير

حركات التدوين والتأليف في أنواره ، متأثرة ببلاغته مذعنة لسطوة بيانه ، حتى اكتست من أشعته حياةُ العرب الفكرية والأدبية والاجتماعية .

٦) سيطر القرآن على الملكات الأدبية واجتذب اهتمامها وعنايتها ، إذ رأت فيه أبلغ الأساليب وأروع الخصائص الأدبية ، فاعتنى العلماء بلفظ القرآن من نواحي مختلفة . قاموا بدراساتهم لتحديد مدلوله ومعناه ، فقدموا بحوثاً في غريب القرآن خاصة وغريب اللغة العربية عامة ، فظهرت مصنفات قرآنية ولغوية متنوعة ، ودرسوا تركيب الألفاظ لتؤدي جملة ذات معنى ، فظهر علم النحو . وبحثوا في البناء الداخلي للفظ ذاته فقدَّموا علم الصرف . ثم درسوا أنماط التعبير الفني في القرآن فأنشؤوا علم البلاغة « البيان والمعاني والبديع » .

وهكذا انتشت هذه العلوم بذورها في كنف القرآن المجيد ، واستهدفت جميعها غاية أصيلة جليلة هي خدمة القرآن العظيم ، ليصار إلى حسن تفهمه ودقة الاستنباط منه واستجلاء مواطن الجمال والروعة البلاغية في بيانه المعجز ، ولهذا السبب أطلقوا عليه جميعاً اسم « علوم الآلة » . **فلا جرم أن الفضل في نشوء علوم اللغة ونموها وازدهارها عائد إلى القرآن المجيد ذاته** . فالقرآن هو الحاكم المهيمن على هذه العلوم ، والكلمة منه حجة لها أو عليها ، وليس لها من سبيل عليه ، وهذا أمر جلي واضح . ومن عجب أن يتوهم بعض الجهلاء غير ذلك ، فيتشدقون مفتعلين إشكالات بين نصوص القرآن العظيم وقواعد اللغة العربية !! وذاك لأنهم غفلوا أن ليس عليه من سلطان وأنه هو المهيمن عليها الحاكم فيها ! فالشاهد القرآني هو الحكم الفصل بين مختلف الآراء في كافة علوم اللغة . والعلماء الذين استخلصوا تلك العلوم وصنَّفوها يوردون الشاهد القرآني أولاً ، فإن له المنزلة العليا على الدوام .

٧) اقتصرت الدراسات القرآنية العربية في البداية على بيان معاني غـريب القرآن لاستنبـاط الأحكام الشـرعية منـه ، فانصبت العنـايـة على التفسيـر اللغوي تتخلله عَـرَضـاً اهتمـامـات بـأسـاليب التعبيـر الفني في القـرآن . استمر الأمـر على ذلك حتى ظهـر كتاب « مجـاز القرآن » لأبي عبيدة ؛ عام ثمان وثمانين ومـائة من الهجـرة . وقصد بكلمـة « المجاز » أساليبَ التعبير الأدبي التي تمتـاز عن التعبير العـادي بالتـأنق والجمال . فـالتعبير القـرآني هو أول مـا استرعى الانتبـاه إلى المجـاز في فن القـول واجتذب الاهتمام إلى دراسة ألوانه .

وتـوالت التصانيف بعدئذ من «نظم القرآن» للجاحـظ و«دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني ، وغير ذلـك كثير ، وهي دراسات لأسلوب القرآن وأنماط البلاغة العربية الرفيعة التي توافرت فيـه ، وتخللتها المقـاييس النقديـة . ثم انعكست عن هـذه الـدراسـات دراسات أخرى هي دعامة النقد العربي مثل « نقد النثر » لقدامة بن جعفر و « كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكري و « الموازنة » للآمدي .

وتبـدَّى أثر القـرآن في هذه الـدراسات البـلاغيـة بشكـل جلي في تعـويلها على الشـاهد القـرآني في المرتبـة الأولى ؛ وفي اعتمادهـا على الدراسات القرآنية السابقة في جميـع أبواب الـدراسة البـلاغية وفنـونها . وما أكثر النصوص التي استمدتها من الدراسات القرآنية المتقدمة عليها . وهـذا أبو هـلال العسكري يكشف لنـا عن الباعث الحثيث الـذي حفـزه إلى تأليف « كتاب الصناعتين » وهو أن يضـع الناس أيـديهم على حقائق الإعجاز القرآني وأسرار البيان الـرباني ، ويستعينـوا بذلـك على التماس سبيل البراعة في صناعة الشعر والنثر . قال العسكـري في كتابـه : (وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلَّ بمعـرفة الفصـاحة لم يقـع علمه بإعجاز القرآن ؛ من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعـة

التركيب ؛ وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ؛ وضمَّنه من الحلاوة ؛ وجلَّله من رونق الطلاوة ؛ مع سهولة كلمة وجزالتها وعذوبتها وسلاستها ؛ إلى غير ذلك من محاسنه ، التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها)[1] .

٨) يتضح لك ولكل باحث أن القرآن هو جذوة حركة النقد الأدبي عند العرب ، وأنه الباعث الرئيسي الموجه لها وللدراسات البلاغية كافة . فإن تأملتَ الدراسات النقدية ومقاييسها في فنون القول تجدها جميعاً قد خضعت للنهج القرآني الذي أظهرته دراسات إعجاز القرآن المبين ، كما احتكمت إلى الشاهد القرآني فهو المثل الأعلى والمقياس النموذجي الرفيع . ومن نهجه ومنحاه يؤخذ فصل الخطاب في التفاضل بين الأساليب .

٩) وقف البيان القرآني في القرن الرابع الهجري سداً منيعاً أمام تيار الغلو في الصنعة والتكلف . فقد أُدخلت الفلسفة ودراسات أرسطو في تقنين الشعر والنثر . وأسرف أصحاب المذهب البلاغي « مذهب البديع » في الصناعة البديعية ، وقدوتهم في ذلك أبو تمام ، بينما راح أصحاب طريقة العرب ينهلون من مورد القرآن الخالد . فقاموا برد فعل قوي أسس تياراً معاكساً « المذهب العربي » إذا استخلصوا طريقة العرب في البيان من القرآن المبين ومن الشعر القديم ، وأحلوا الطبع والسجية المقام الأول بدل الصنعة وتكلف الكثير من الزخارف اللفظية والمعنوية .

فالقرآن المجيد له الفضل الساطع في حماية البيان العربي من التدهور إلى التقعر والتعمل ، وحماية النقد الأدبي من المقاييس والموازين الدخيلة . والقرآن صاحب الفضل السابغ في الرجوع بالأدب

---

(١) كتاب الصناعتين : ص ٢ .

إلى طبيعته العربية الأصيلة .

١٠) لما نشطت دراسة تفسير القرآن ودراسة إعجازه البياني ، تعمقت الأبحاث في ألفاظ القرآن وخصائص أساليبه وبديع بلاغته ، فأسهمت هذه الأبحاث بحظ وافر في علم الذوق ، فتجلّى أثر القرآن في تربية الذوق الأدبي العربي . وانطلق علماء القرآن والبيانيون من النظر في جلال الربوبية وأثرها في القرآن إلى الطبع وأثره في الشعر ، وإلى ملاحظة صورة النظم في النفس قبل التعبير - كما أوردها الخطابي - **فقطعوا في علم النفس الأدبي شوطاً ، وإن لم يعرفوه باسمه الحديث .** تؤكد لك ذلك بحوثهم في الأثر النفسي للتعبير وما يعتمد عليه من صور . فالصور البيانية في علم البيان تعتمد على التشبيه والاستعارة والكناية ، وتتمتع فيها الألفاظ بخصائص حيوية تفيض بالإيحاء وترسم في الخيال صوراً تثير المعاني في النفس إثارة مؤثرة . وخذ باعتبارك أيضاً دراستهم في علم البديع خصائص الألفاظ في جرسها وإيقاعها في المحسنات اللفظية العديدة من نظم وسجع وفواصل . .

وهكذا عُنوا بتأمل سمات قوة القرآن في التصوير بتحريض جميع الحواس الانسانية من سمع وبصر وحس وذوق وشم ، حتى يُثبِّت الصورَ في الخيال والادراك والوجدان .

كل ذلك وغيره يبرهن لك أنهم قدموا بحوثاً هامة رئيسية في علم الجمال وعلم النفس الأدبي وهما ركنان وطيدان من أركان النقد الأدبي الحديث .

١١) كلما أمعنت في دراسة النقد العربي وجدت نفسك مضطراً إلى مطالعة دراسات الإعجاز القرآني ، وأدركتَ أن ملكة النقد إنما انتشت بذورها في صميم دراسات الإعجاز ونمت وترعرعت أغصانها في ظلال القرآن ورعايته . **فإن القرآن العظيم صاحب الفضل الكبير في تربية ملكة**

النقد الأدبي عند العرب وتطورها . وإن لأسلوبه الذي امتاز بالتفوق في روعة التعبير وجمال الأداء؛ أثراً بليغاً مبيناً في مقاييس الأدب وموازينه. فقد أصبح الشاهد القرآني هو الحَكَمُ الفصل بين فنون القول وأنماط الأساليب . فإن دراسات النقد العربي قد نهلت من القرآن المبين ، وما تزال تروي رياضها النضرة من ينبوعه الصافي الرقراق .

١٢) افْتُتِن أدباء العرب بأسلوب القرآن وإحكام نظمه ، وأجمعوا على الإقبال عليه قديماً وحديثاً . ولا عجب ! فإنك ترى العبارة منه أو الكلمة حين يقتبسها أديب تُشع في سماء كلامه كالكوكب الساطع . قال الجاحظ : (وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحَفْل وفي الكلام يوم الجُمع آيٌ من القرآن . فإن ذلك مما يورث الكلامَ والبهاءَ والوقار والرقة وحسن الموقع) .

(وقال الهيثم « بن عدي » : قال عمران بن حطان : « إن أول خطبة خطبتها عند زياد ـ أو عند ابن زياد ـ فأُعجب بها الناس ، وشهدها عمي وأبي . ثم إني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم : **هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن** ») .

(وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل ؛ ألا إن تكون إلى الخلفاء)[1] .

واشتهر أن عبد الحميد الكاتب كان ينصح الكتّاب بالتزود بآي الذكر الحكيم ليزينوا بها مقالاتهم .

فالخطباء والكتّاب يسعون بتذوق حصيف ليزدان جيد أسلوبهم

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٣ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ .

بقلائد الشواهد القرآنية المناسبة . وقد عكف علماء البلاغة في مصنفاتهم على تصدير كل فن من فنونها بالآية القرآنية ، فهي الشاهد القدوة المهيمن . وقد رأيتَ أن النقاد كانوا يستجيدون الخطبة إذا ازدانت بالقرآن ، بل كان أكثر الخطباء يعزفون في خطبهم الطويلة الهامة عن إيراد الشعر ، كما كان يعزف الكتاب في رسائلهم إلى الخلفاء . في حين أن جميع الأدباء كانوا في نفس الوقت مولعين بالقرآن استشهاداً واقتباساً ومحاكاة في كل ما كتبوا وخطبوا وأنشدوا . وكل ذلك تعبير علني قوي عن شعورهم بالنقص والضعف والعجز أمام جمال وجلال وسطوة البيان القرآني العظيم .

إن أسلوب القرآن البالغ الروعة ليس له نظير سابق ولا نظير لاحق في اللغة العربية . فعلى سنته حاول الأدباء أن يصوغوا آثارهم الأدبية من شعر ونثر وخطابة وحكمة وأمثال ، مهتدين بهدي ديباجته الكريمة وحاشيته الرقيقة وعباراته السلسة وحسن إيراده الكلمات في مواضعها من العبارات لتؤدي معناها وتفصح عن مغزاها مع الحلاوة والرصانة . وعكف عليه علماء اللغة العربية وفنونها فهيمن على عقولهم ومواهبهم ، وامتلكَ مقادة أذواقهم حتى أينعت ثماره في جميع فنونهم . **فظهرت للقرآن نتائج فريدة في اللغة والأدب والبلاغة والنقد ، لم يُحدِث كتاب قط مثيلها في لغة من لغات العالم .**

تلكم ظاهرة أدبية فذة رائعة ومزية عظيمة عجيبة ، امتازت بها العربية على سائر لغات العالم ، لأنها جميعاً لم تُشَرَّف بكتاب إلّهي مبين كالقرآن العظيم .

١٣) لقد آثرتُ ههنا أن أنوه بأهم آثار القرآن ودراسات الإعجاز في اللغة العربية وأدبها وبلاغتها ونقدها ؛ مكتفياً بالإلماح عن الإسهاب ، فإن دراستها بعمق وتفصيل أمر جليل وعبء جسيم لا يتسع له كتاب

كامل ، فكيف تُوفيه حقه صفحات معدودة !؟[1] .

ونرجو أن يجتذب هذا البيان اهتمام الشباب المسلم إلى العناية بالقرآن العظيم وبدراسات الإعجاز القرآني ، وأن نكون قد ضربنا فيها بسهم مفيد نافع بطريقتنا الخاصة في البحث والتحليل ؛ استجلاءً لروعة بلاغته وجلاله وإعجازه ؛ وإطماعاً لشبابنا أن ينهلوا من معينه الثرِّ ويستقوا من فيضه الغزير ، فيقوِّموا ألسنتهم ويجيدوا فن القول دون تكلف أو تصنع أو تمحل للألفاظ النائية عن المقاصد والمرامي .

وإنا لنأمل أن يجد الشباب في كتابنا دراسة أدبية موضوعية تهذب اللسان وتصفي البيان وتنمي فيهم الذوق الأدبي الرفيع وتنير لهم السبيل . والله ولي التوفيق .

---

(١) انظر للتوسع : أثر القرآن في تطور النقد العربي ـ دكتور محمد زغلول سلام ـ في عدة مواضع . وانظر العصر الإسلامي ـ دكتور شوقي ضيف ، وارتقب صدور رسالتنا : الأحرف السبعة في القرآن .

الخاتمة

- مجمل إعجاز القرآن .
- البون الشاسع بين إعجاز القرآن وبلاغة الحديث النبوي .
- مسؤوليتنا نحو القرآن الكريم .

١) قضت حكمة الله تعالى بتأييد المرسلين جميعاً بالمعجزات ؛ إثباتاً لصدقهم وإفحاماً لمعانديهم . وأهم المعجزات هي المعجزات العقلية التي منحها الله سيدنا محمداً ﷺ وأجلُّها طراً تلك التي عجز الزمان عن طيّها أو انتقاص شيء منها أو من دلالاتها اليقينية على نبوة صاحبها خاتم المرسلين محمد ﷺ . تلك هي معجزة القرآن الخالدة على كرّ العصور ومرّ الدهور .

ومما امتازت به هذه المعجزة الربانية أنها هي وحي الله النازل ودعوته لعباده وشرعه الملزم . وهي في نفس الوقت البراهين الدامغة على رسالة محمد ﷺ وعلى إلٓهية مصدر القرآن . فجاءت فريدةً بين سائر رسالات الله ؛ وخاصة بجمعها بين الدعوة والدليل .

٢) تحدى الله بالقرآن العالم عامة والعرب خاصة وفيهم فرسان البلاغة وأمراء اللسن . تحداهم أولاً أن يأتوا بحديث مثله . . فأمسكوا عن محاولة ذلك ضعفاً وعجزاً . ثم تنزَّل في مطالبتهم إلى عشر سور مثله ، فارتدوا على أعقابهم ناكصين . وأمعن القرآن العظيم في تحديهم ، إذ تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ، وينطبق هذا على أقصر سورة فيه . فازدادوا تهرباً عن المعارضة وإعلاناً للعجز . بل آثروا أن يتحولوا عن هذا الأمر إلى خطر جسيم عظيم وهو خوض غمار الحروب والتعرض للقتل وترمل النساء ويتم الأطفال وتبديد الأموال !! فلو كان بإمكانهم أن

يصونوا أنفسهم وأهليهم من هذا كله بمعارضة القرآن لما توانوا عنه طرفة عين . ولكن هيهات هيهات أن يدانوه أو يدركوا شأوه ! !

٣) أدهش القرآن مشركي العرب بروعته وجماله ، فلم يتمالك سادتهم وزعماء شركهم ؛ من البلغاء والفصحاء أنفسهم ؛ أن يرسلوا القولَ فيه على السجية العربية . فكان إقراراً عفوياً بريئاً من التكلف بعيداً عن محاولة طمس الحقيقة . وذلك كقول الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . وتأملَ القرآن عربٌ أقحاح من العقلاء الفصحاء فعرفوا قدره وأقروا بمنزلته وآمنوا به وبنبيه ، ومنهم أنيس الغفاري وعمر بن الخطاب وجبير بن مطعم . . وأبدى على مر الزمان أناس من الأجانب والنصارى إعجابهم بعظمة القرآن وإعجازه . أما المخادعون الذين حاولوا معارضة القرآن ابتغاء مصالح شخصية ؛ كمسيلمة الكذاب ؛ فلم يأتوا إلَّا بالضحك المزري ولم يزيدوا العقلاء إلا إيماناً ويقيناً بإعجاز القرآن وأنه مستعل على الطاقة البشرية .

٤) أكرم الله رسوله محمداً ﷺ فجعله أفصح العرب وآتاه جوامع الكلم ، غير أنك إذا تفحصت بيانه عليه الصلاة والسلام وجدت فيه نفْساً إنسانية وآثاراً كثيرة متنوعة من آثار النفس الإنسانية مصطبغة بظروفها وأحوالها ، من شدة وضيق ؛ وسعة وفرج ؛ وانقباض وحزن ، وانبساط وسرور ؛ و صحة ومرض . . فإذا قرأ حديثَه الأديبُ البليغ أحسّ أن بينه وبينه قرباً ، إذن فما الفارق بين كلام الرسول وبين كلام البلغاء ؟

إن إمعان النظر يدلك على أن كلامه ﷺ يفوق كلام البلغاء والفصحاء ، لكنه لم يبلغ حدَّ الإعجاز ، إذْ كلامه من جنس كلامهم . وقد يقع في كلامهم ما يشبه كلامه ، كما هو ملاحظ من أقوال كبار الصحابة الذين عُنوا بحديثه وبالتشبه به ، حتى لا يظن أحد أنه من كلامهم لولا تصريح السند الصحيح أن هذا من كلام أبي بكر ؛ أو عمر ؛ أو علي ؛ أو

عبد الله بن عباس ؛ أو غيرهم .

٥) أما نظم القرآن العظيم فقد جاء بريئاً من أي أثر من آثار النفس الإنسانية وتغيرات ظروفها وأحوالها . وطبيعة تركيبه مستعصية على أرقى المواهب البشرية . ولو لم يكن الأمر كذلك لوجدت الفرق بينه وبين كلام النبي ﷺ كالفرق بين خطبة وخطبة أخرى يُنشئهما رجل واحد . لكنك إذا وازنتَ بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور ﷺ وبين نظم القرآن ظهر لك الفرق جلياً ، لأنه البون الشاسع الواسع بين كلام الله الخالق عز وجل وبين كلام المخلوق ، وإن كانت بلاغة حديثه ﷺ في ذروة كلام سائر الناس .
قال العلّامة الأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله :

(على أن أعجب شيء أنك إذا قرنت كلمة من البلاغة النبوية مثلها مما في القرآن ، رأيت الفرق بينهما في ظاهره كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء . ورأيت كلامه على تلك الحال خاصة مما يُطمع في مثله ، وأحسست أن بين نفسك وبينه صلة تُطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المَطْمعة فيه، **بخلاف القرآن، فإنك تستيئس من جملته، ولا ترى لنفسك إليه طريقاً ألبتة**)[١] .

إن البليغ الأريب يُحسّ في أعماق نفسه أن مداناة أسلوب القرآن أمر متعذر عليه وعلى أبناء جنسه مهما نبغوا في فن الصياغة الأدبية الرفيعة .

قال الجاحظ في كتاب النبوة : (لو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم ـ يعني العرب ـ سورة قصيرة أو طويلة ، لتبين له في نظمها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها

---

(١) إعجاز القرآن ـ للرافعي ـ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ بتصرف يسير .

أبلغَ العرب لأظهر عجزه عنها)[1] .

٦) ونرى أن معاناة الشعور بالنقص والقصور عن مجاراة أسلوب القرآن وحده دون أسلوب النبي ﷺ ؛ يدل عليه أيضاً أمران :

أولهما : إذا سمعتَ الجملة الفصيحة البليغة تُروى لك منسوبة إلى رسول الله ﷺ يلتبس عليك هل هي حديث أم لا !؟ مما يحملك على الاستفسار والمراجعة والتثبت قبل إصدار أي حكم . أما أنْ تُتلى عبارة تنسب إلى القرآن على مسمع أي ذوَّاقة للبلاغة مطّلع على القرآن ؛ فإنه يُصدر حكمه سريعاً في نفي الدخيل واستبانة الأصيل .

ثانيهما : طمع الدساسون والمغرضون في التاريخ في بشرية أسلوب الحديث النبوي ، فبادروا غشاً وتآمراً إلى وضع عدد كبير من الأحاديث ، ونسبوها إلى رسول الله ﷺ . والتبس أمرها على الناس . فقام علماء أفذاذ ووضعوا ضوابط لتمييز الأحاديث الصحيحة الثابتة من الأحاديث الموضوعة المكذوبة على رسول الله ﷺ[2] . ثم صنفوا الأحاديث في مؤلفات عظيمة ، وهي اليوم مراجعنا الوثيقة في إصدار الحكم على ما يُروى عن رسول الله ﷺ[3] .

٧) اجتذب القرآن العرب بأسلوبه البياني الرائق الجميل السلس .

---

(١) إعجاز القرآن ـ للرافعي ـ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ بتصرف يسير .

(٢) وهي كتب مصطلح الحديث مثل : كتاب علوم الحديث ـ لابن الصلاح ، وهو مرجع لكل من جاء بعده ، وتدريب الراوي شرح تقريب النواوي ـ للسيوطي ـ ومن المؤلفات النافعة في هذا العصر : شرح المنظومة البيقونية ـ لأستاذنا العلاّمة الشيخ عبد الله سراج الدين ـ طبع حلب . ومنهج النقد في علوم الحديث ـ لشقيقي الدكتور نور الدين عتر ـ طبع دمشق .

(٣) وأهم مصنفات الأحاديث الصحيحة : صحيح البخاري وصحيح مسلم . وأهم مصنفات الأحاديث الموضوعة : تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ـ للحافظ ابن عراق . واللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ـ للسيوطي .

ولم يقف إعجاز القرآن عند الشكل فحسب ، بل جاء معجزاً بمضمونه بالأخبار الغيبية والوفاء بكل ما وعد الله فيه ؛ وسمو التشريع وشموله ؛ وبالتكوين الخلقي والاجتماعي ؛ وبالحقائق العلمية الكبرى التي وردت فيه ، كما جاء القرآن معجزاً بإتساق نظرياته وأحكامه على الرغم من كثرة وسعة ما تعرض للحكم فيه ، ومعجزاً بتأثيره وفاعليته في الأفئدة . وكل معجزة في هذه الوجوه تسمو على الطاقة البشرية وتبرهن أن الذكر الحكيم تنزيل علام الغيوب .

إن كل باحث مثقف واع مطلع الى القرآن ؛ إذا أحسن فهم معنى الإعجاز ومعرفة الوجه المعجز في القرآن ؛ فلسوف تغدو هذه الأوجه يقيناً راسخاً في أعماقه . **أما الذين عمدوا في زماننا إلى حصر إعجاز القرآن في أسلوبه البياني فقط ، فقد نظروا من زاوية ثقافية ضيقة جداً . وكلٌ يُقدم حسبما عنده من سعة أو ضيق .**

٨) إذا استوعبت وجوه إعجاز القرآن الآنفة الذكر وتعمقت في دراسة تفاصيلها وذكرت أن الرسول محمداً ﷺ نشأ أمياً وعاش أمياً في جزيرة الأمية ، لم يتلق من عالم شيئاً ، وكان في صحراء وثنية نائية عن العلم والعرفان ، لازددت يقيناً أن القرآن المجيد وحي من الله ؛ وأن مبلِّغه سيدنا محمداً هو رسولُ الله حقاً وصدقاً ﷺ تسليماً كثيراً .

مسؤوليتنا عن القرآن :

أحدث القرآن العظيم تغييراً جذرياً في الأمة العربية إلى جانب آثاره في اللغة والأدب . . فإن الأمة العربية قد خاضت في فرقة قبلية عميقة مريرة ، وغرقت في لجج وثنية جاهلية ، فنزل القرآن المجيد فأحياها من بعد موتها ، وبث فيها من القيم والمبادىء والروابط الايمانية ما وحَّد صفوفها وحفزها إلى ابتناء نهضة إنسانية كبرى حمل العرب ألوية دعوتها الأولى في كافة أرجاء المعمورة . ولا تزال الإنسانية عالة على الحضارة

الإسلامية ، يُقر بذلك الأقرباء والبعداء[1] .

ولولا القرآن ما خرج العرب من جزيرتهم ، ولا صاروا هداة للعالمين وبناة للحضارة الإسلامية الإنسانية الماجدة . فالقرآن الحكيم أحيا موات القلوب ، وأخرجها من ظلام الذل والخنوع والمهانة والخرافة والتخلف والجهالة ، فصار للعرب بفضل القرآن من الشرف العظيم والذكر الحسن والصيت الذائع ما لم يكن لهم ولا لغيرهم من الأمم في التاريخ كله !!

وقد نبَّه الله العربَ إلى شرف القرآن ، وحرضنا على معرفة عظيم قدره ، فقال تعالى :

﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون !؟** ﴾[2] .

تصدَّر الكلام عن القرآن بالتوكيد القسمي ﴿ **لقد** » إظهاراً لبالغ الاعتناء بمضمونه . وعبَّر عنه بصيغة التنكير ﴿ **كتاباً** ﴾ للتعظيم والتفخيم وبيان علو مرتبته . يعني : « كتاباً عظيم الشأن جليل القدر نيّر البرهان » .

﴿ **فيه ذكركم** ﴾ : أخرج البيهقي في شعب الإيمان وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس أن المراد بالذكر هو الصيت والشرف ، وذاك مجاز[3] . فإن في القرآن ما يوجب الشرف لكم فإنه نزل بلغتكم وعلى نبي منكم فأنتم حملة رسالته والمرجع في تأويله وتبيانه ، وسيرقى بكم بالعمل بما فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، حتى تصيروا بذلك قدوة للعالمين . وقد تحقق ذلك كله[4] .

---

(١) طالع كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » زيغريد هونكة .

(٢) سورة الأنبياء : ١١ .

(٣) والمجاز هنا من باب إطلاق المسبب على السبب .

(٤) وتفسيرنا الآية بهذا جمع بين رأيين وردا في تفسيرها .

وحفز الله همم العرب للتدبر في أمر القرآن الحكيم والاقبال على العمل بما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، فقال : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أي أفلا تتفكرون أن في القرآن شرفكم ومجدكم .

وأنت ترى أن الأمة الإسلامية ما تزال في تاريخها القديم والحديث ترقى معارج المجد بقدر عملها بكتاب الله المجيد وتنحط عنها بإهماله والأعراض عنه ، لذا فإن المسؤولية عليك وعلى الأمة جمعاء مسؤولية كبرى لا يُقبل فيها عذر لمعتذر . كيف وقد ظهرت لها الحقيقة ظهور الشمس في رابعة النهار !؟ وقد ذكَّرنا الله بهذه المسؤولية بقوله جل شأنه :

﴿ وإنه لَذكرٌ لك ولقومك وسوف تُسألون ﴾[1] .

ولا ريب أن أخطر مسؤولية عن القرآن هي مسؤولية العالم والأديب والمثقف المتذوق للغة العربية . وهذا تحذير أبي هلال العسكري ما تزال تتردد أصداؤه في ردهات معاهد العلم منذ ألف سنة ، فأصخْ إليه السمع وأنعم فيه النظر (وقبيح لعمري بالفقيه والقارىء والمتكلم وبالعربي الأصيل أن لا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلَّا من الجهة التي يعرفه منها الأعجمي ، وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي)[2] .

نزَّل الله القرآن بلغة العرب ، فهم أكثر الناس له فهماً ، فوجب أن يكونوا أشدَّ الناس إقبالاً عليه وعملاً بما فيه وتبليغاً لدعوته ، وكذلك كان خيارهم وصفوتهم المخلصون من المهاجرين والأنصار ومن تابعهم وسار على شاكلتهم . ويا ويْح أمتنا الإسلامية إن بقيت على بلادة الحس تجاه

---

(١) سورة الزخرف : ٤٤ انظر تفسير الآيتين في تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٧٤ وجـ ٤ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ وروح المعاني جـ ١٧ ص ١٤ ـ ١٥ وجـ ٢٥ ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) كتاب الصناعتين ـ للعسكري ـ بتصرف .

كتاب الله ، فإن المسؤولية عن القيام بحقوقه ؛ وتنشئة الأجيال على حب تلاوته والعمل به ؛ وحمل رسالته إلى شعوب العالم ؛ مسؤولية عظيمة خطيرة ، لها آثارها الدنيوية والأخروية .

وقد صرّح القرآن المبين بها ، ووقع مصداق تصريحه في حياة المسلمين ، انظر في قوله تعالى : ﴿ **ومَن أعرضَ عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكاً ، ونحشره يومَ القيامة أعمى ، قال : ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً !؟ قال : كذلك أتتْك آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنسى** ﴾[1] .

وحذَّرنا جل شأنه من عواقب الاعراض عن العمل بكتابه العزيز : ﴿ **ومَنْ أظلمُ ممنْ ذُكِّرَ بآيات ربه فأعرض عنها !؟ إنّا من المجرمين منتقمون** ﴾[2] وبشَّر الله جلت عظمته المؤمنين العاملين بشرعه ؛ في قوله الكريم : ﴿ **وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَستخلفنَّهم في الأرض كما استخلَفَ الذين من قبلهم ولَيُمكِّنَنَّ لهم دينَهُمُ الذي ارتضى لهم ولَيبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومَن كفرَ بعد ذلك فأولئك همُ الفاسقون** ﴾[3] .

وتعهد سبحانه وتعالى بحفظ حملة القرآن العاملين به ، إذْ لا يتم حفظ القرآن إلَّا بحفظهم وصيانتهم ، وهي بشارة عظيمة لمن تحقق بذلك ، قال عزّ وجل : ﴿ **إنَّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون** ﴾ « الحجر : ٩ » .

* * *

---

(١) سورة طه : ١٢٤ ـ ١٢٦ .

(٢) سورة السجدة : ٢٢ .

(٣) سورة النور : ٥٥ .

وأسأل الله الكريم من فضله العظيم إيماناً راسخاً ويقيناً صادقاً بالحق صادعاً ، وأن يحفظني في جميع ما قدمت من حب الظهور والسمعة والرياء ، ويهبني كمال الإخلاص في جميع حركاتي وسكناتي ويجعلني من عباده المخلصين ، وما توفيقي إلَّا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

كتبه

حسن ضياء الدين عتر

فهرست

١ ـ الآيات القرآنية(*)

٢ ـ سورة البقرة

رقم الآية

(*) عنيت في هذا الفهرس بايراد موطن الاستشهاد قدر الامكان .

٣ ـ سورة آل عمران

٤ ـ سورة النساء

٥ ـ سورة المائدة

٦ ـ سورة الأنعام

٧ ـ سورة الأعراف

٨ ـ سورة الأنفال

٩ ـ سورة التوبة

١٠ ـ سورة يونس

١١ ـ سورة هود

١٢ ـ سورة يوسف

١٣ ـ سورة الرعد

١٤ ـ سورة إبراهيم

١٥ ـ سورة الحجر

١٦ ـ سورة النحل

١٧ ـ سورة الإسراء

١٩ ـ سورة مريم

٢٠ ـ سورة طه

٢١ ـ سورة الأنبياء

٢٢ ـ سورة الحج

٢٣ ـ سورة المؤمنون

٢٤ ـ سورة النور

٢٥ ـ سورة الفرقان

٢٦ ـ سورة الشعراء

٢٧ ـ سورة النمل

٢٨ ـ سورة القصص

٢٩ ـ سورة العنكبوت

٣٠ ـ سورة الروم

٣١ ـ سورة لقمان

٣٢ ـ سورة السجدة

٣٣ ـ سورة الأحزاب

٣٤ ـ سورة سبأ

٣٥ ـ سورة فاطر

٣٦ ـ سورة يس

٣٧ ـ سورة الصافات

٣٨ ـ سورة ص

٣٩ ـ سورة الزمر

٤٠ ـ سورة غافر

٤١ ـ سورة فصلت

٤٢ ـ سورة الشورى

٤٣ ـ سورة الزخرف

٤٤ ـ سورة الدخان

٤٥ ـ سورة الجاثية

٤٧ ـ سورة محمد

٤٨ ـ سورة الفتح

٤٩ ـ سورة الحجرات

٥٢ ـ سورة الطور

٥٣ ـ سورة النجم

٥٤ ـ سورة القمر

٥٧ ـ سورة الحديد

٥٩ ـ سورة الحشر

٦٠ ـ سورة الممتحنة

٦٢ ـ سورة الجمعة

٦٥ ـ سورة الطلاق

٦٦ ـ سورة التحريم

٦٩ ـ سورة الحاقة

٧٢ ـ سورة الجن

٧٤ ـ سورة المدثر

٧٥ ـ سورة القيامة

٨١ ـ سورة التكوير

٨٩ ـ سورة الفجر

١٠٤ ـ سورة الهُمزة

١١٠ ـ سورة المسد

٢ ـ فهرس الأحاديث

٣ - أبرز الأعلام

٤ ـ ثبت المراجع

أ ـ القرآن الكريم وعلومه :

القرآن الكريم كتاب الله تبارك وتعالى .

جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ محمد بن جرير الطبري ـ طبعة مصطفى البابي الحلبي الثانية وطبعة دار المعارف ـ مصر .

مفاتيح الغيب ـ المشهور بالتفسير الكبير ـ الفخر الرازي ـ ط . عبد الرحمن محمد ـ مصر .

البحر المحيط ـ محمد بن حيان الأندلسي ـ مطبعة السعادة ـ مصر .

الجامع لأحكام القرآن ـ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ـ ط . دار الكتب المصرية .

الكشاف عن غوامض التنزيل ـ محمود بن عمر الزمخشري ـ الطبعة الثانية ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر .

تفسير القرآن العظيم ـ عماد الدين بن كثير ـ طبع عيسى البابي الحلبي ـ مصر .

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ أبو السعود العمادي ـ الطبعة الأولى طبع المكتبة الحسينية المصرية .

لباب التأويل في معاني التنزيل ـ علاء الدين علي بن محمد « الخازن » الطبعة الأولى ـ بولاق .

مدارك التنزيل وحقائق التأويل ـ عبد الله النسفي ـ المطبعة الأميرية ـ بولاق .
معالم التنزيل ـ للحسين بن مسعود البغوي ـ مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .
نظم الدرر في تناسب الآي والسور ـ حسن البقاعي ـ مخطوط .
فتح القدير ـ محمد بن علي بن محمد الشوكاني ـ ط . مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .
أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ عبد الله بن عمر البيضاوي ـ مكتبة الجمهورية ـ مصر .
الفتوحات الإلّهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ـ سليمان بن عمر العجيلي ـ طبع عيسى البابي الحلبي ـ مصر .
روح المعاني ـ محمود الألوسي ـ الطبعة المنيرية الأولى ـ مصر .
المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ طبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .
صفوة البيان لمعاني القرآن ـ حسنين مخلوف ـ ط . مصر .
تفسير جزء عمَّ ـ محمد عبده ـ مطابع الشعب ـ مصر .
تفسير القرآن الكريم « المشتهر بتفسير المنار » محمد رشيد رضا ـ الطبعة الرابعة مكتبة القاهرة .
محاسن التأويل (تفسير القاسمي) ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ ط . مصر .
التفسير الموضوعي ـ آمالي الشيخ الدكتور محمد السماحي ـ للدراسات العليا بكلية أصول الدين بالأزهر .
لباب النقول في أسباب النزول ـ جلال الدين السيوطي ـ ط . دمشق .
إعجاز القرآن ـ أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ـ دار المعارف ـ مصر .
الانتصار ـ محمد بن الطيب الباقلاني ـ مخطوط .

« ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ـ طبع دار المعارف ـ مصر » : بيان إعجاز القرآن ـ لأبي سليمان حمد الخطابي (٣١٩ ـ ٣٨٨ هـ) .
ـ النكت في إعجاز القرآن ـ لأبي الحسن علي الرماني (٢٩٦ ـ ٣٨٦هـ) .
ـ الرسالة الشافية ـ عبد القادر الجرجاني ـ (توفي ٤٧١هـ) .
دلائل الاعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ مطبعة المنار بمصر .
« مقدمتان في علوم القرآن ـ مطبعة السنة المحمدية بمصر » :
ـ مقدمة كتاب المباني .
ـ مقدمة ابن عطية .
تحرير التحبير ـ ابن أبي الأصبع المصري ـ نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر .
بديع القرآن ـ ابن أبي الأصبع المصري ـ طبع نهضة مصر .
البرهان في علوم القرآن ـ محمد بن عبد الله الزركشي ـ عيسى البابي الحلبي بمصر .
الاتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .
مناهل العرفان ـ محمد عبد العظيم الزرقاني ـ الطبعة الثالثة ـ عيسى البابي الحلبي ـ مصر .

ب ـ الحديث النبوي وعلومه :

صحيح الإمام البخاري ـ ط . عيسى البابي الحلبي ـ مصر .
صحيح الإمام مسلم ـ ط . عيسى البابي الحلبي ـ مصر سنة ١٩٥٥ .
جامع الترمذي ـ مطبعة الصاوي ـ مصر .
المجتبى « سنن النسائي » ـ المطبعة الميمنية ـ مصر .
سنن أبي داود ـ المطبعة التجارية ـ مصر .
سنن المصطفى ـ محمد بن يزيد بن ماجه القزويني ـ المطبعة التازية ـ مصر .

المستدرك ـ للحاكم النيسابوري ـ ط . الهند .
مسند الإمام أحمد ـ المطبعة الميمنية ـ مصر .
أخلاق النبي ﷺ وآدابه ـ أبو محمد عبد الله بن حيان الأصبهاني ـ مطابع الهلال ـ مصر .
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ علي بن أبي بكر الهيثمي ـ ط . مصر .
جامع الأصول من أحاديث الرسول ـ أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزري ـ مطبعة السنة المحمدية ـ مصر .
الجامع الصغير ـ جلال الدين السيوطي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر .
التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ـ منصور علي ناصيف ـ عيسى البابي الحلبي ـ مصر .
فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن حجر العسقلاني ـ المطبعة الخيرية للخشاب ـ مصر .
عمدة القاري شرح صحيح البخاري ـ للعيني ـ ط . المنيرية .
المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ـ النووي ـ المطبعة الأزهرية .
فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ محمد عبد الرؤوف المناوي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر .
النهاية في غريب الأثر ـ مبارك بن محمد الجزري بن الأثير ـ ط. عيسى البابي الحلبي ـ مصر .
الشفاء للقاضي عياض ـ ط. مصر .
شرح الشفاء ـ علي القاري ـ المطبعة العثمانية ١٣١٦ هـ .
الشمائل المحمدية ـ للترمذي ـ وشرحها ـ للبيجوري ـ المكتبة التجارية .
تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ـ السيوطي ـ نشر العلمية بالمدينة .
الفتاوي الحديثية ـ أحمد بن حجر الهيثمي ـ ط . الميمنية بمصر.

قبسات من نور النبوة ـ عبد الفتاح أبو غدة وأحمد عز الدين البيانوني ـ ط . حلب .

هـدي النبي ﷺ في الصلوات الخاصـة ـ الدكتـور نور الـدين عتر ـ ط . دمشق .

منهج النقد في علوم الحديث ـ الدكتور نور الدين عتر ـ ط . دمشق .

شرح المنظومة البيقونية ـ الشيخ عبد الله سراج الدين ـ ط. حلب .

جـ ـ العقيدة وعلم الكلام :

أعلام النبوة ـ أبو الحسن علي بن محمد الماوردي ـ المطبعة البهية ـ مصر .

المواقف في علم الكلام ـ عبد الرحمن الأيجي ـ مطبعة العلوم ـ مصر .

شرح المواقف ـ علي بن محمد الجرجاني ـ مطبعة السعادة ـ مصر .

الأربعين في أصول الدين ـ للفخر الرازي ـ ط . الهند .

لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثريـة ـ محمد السفـاريني ـ مطبعـة المنار ـ مصر .

النبوات ـ تقي الدين أحمد بن تيمية ـ ط . المنيرية ـ مصر .

الرد على المنطقيين ـ أحمد بن تيمية .

تثبيت نبـوة سيـدنـا محمـد ﷺ ـ الإمـام الهـادي يحيـى بن الحسين ـ مخطوط .

إثبات النبوات ـ لأبي يعقوب السجستاني ـ مخطوط .

تثبيت دلائل النبوة ـ القاضي عبد الجبار ـ نش ِ دار العربية ـ بيروت .

المسـامرة شـرح المسايـرة ـ الكمال بن أبي شـريف ـ المطبعـة الأميرية ـ بولاق .

شرح العقائد النسفية للتفتازاني ـ مطبعة كردستان بمصر سنة ١٣٢٩ هـ .

حاشية عبد الحكيم السيالكوتي على حاشية الخيالي على شـرح العقائـد النسفية .

تحفة المريد على جوهرة التوحيد ـ إبراهيم البيجوري ـ طبعة ثانية بالأزهر بمصر .
شرح جوهرة التوحيد ، عبد السلام بن إبراهيم اللقاني ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، ط . مصر .
إيثار الحق على الخلق ، ابن الوزير ، مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة .
إظهار الحق ، رحمة الله الهندي ، المطبعة المحمودية ـ مصر .
رسالة التوحيد ، محمد عبده ، الطبعة الرابعة عشرة ، دار المنار ، مصر .
مذكرات التوحيد للسنة الرابعة بكلية أصول الدين ، محمود أبو دقيقة ، مطبعة العلوم .
النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز ، مطبعة السعادة ، مصر .
موقف العقل والعلم والعالم . . مصطفى صبري ، ط مصر .

د ـ السيرة والتراجم :

سيرة ابن هشام ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ ط . مصر .
الروض الأنف ، عبد الرحمن السهيلي ، المطبعة الجمالية ، مصر .
شرح المواهب اللدنية ، للزرقاني ، المطبعة الأزهرية ، مصر .
تهذيب التهذيب ، ابن حجر ، ط . الهند .
الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر .
الاستيعاب ، ابن عبد البر ، ط . التجارية بمصر .
قصص الأنبياء ، عبد الوهاب نجار ، ط . القاهرة سنة ١٩٦٦ .

هـ ـ علوم اللغة العربية وآدابها :

لسان العرب ، محمد بن منظور الأفريقي المصري ، المطبعة الأميرية .
القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ، الطبعة الأميرية الثالثة .

تــاج العــروس من جــواهــر القــامــوس ، محمد بن مـرتضى الزبيدي ، ط . مصر .
كتـاب الصناعتين! أبـو هلال الحسن العسكـري ، ط . ثانيـة ، صبيـح بمصر .
مفتاح العلوم ، يوسف السكاكي ، ط. الأدبية بمصر .
المطول على التلخيص ، للتفتازاني ، مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ .
الجمان في تشبيهات القرآن ، عبد الله بن ناقيا البغدادي ، ط. الكويت .
علم البيان ، عثمان أبو النصر ، ط . مصر .
جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشمي ، ط . مصر .
فصول من علوم البلاغة ، دكتور محمـد الجنيدي جمعـة حسنين ، ط . مصر
من بلاغة القرآن ، دكتور أحمد بدوي ، ط. ثالثة. مصر
البيان والتبيين ، أبو عمرو الجاحظ ، ط . رابعة . التجارية بمصر .
الموازنة ، للحسن بن بشر الآمدي ، ط. ثالثة . السعادة بمصر .
المثل السائر ، ضياء الدين بن الأثير، ط. مصطفى الحلبي بمصر .
الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، طبعة خامسة بمصر .
العصر الإسلامي ، الدكتور شوقي ضيف ط. مصر .
أثر القرآن في تطور النقد العربي ، دكتور محمد زغلول سلام ، ط .ثالثة مصر .
في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ط . ثانية . مصر .
مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ط. مصر .
التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ط. مصر .
وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، ط. رابعة . مصر .
من وحي القرآن ، نقولا حنا ، ط. سورية .
الأسلوب ، أحمد الشايب ، ط. خامسة بمصر .

و ـ موضوعات متنوعة :

مقدمة ابن خلدون ، مطبعة التقدم بمصر .
أمالي أصول الفقه ، أحمد فهمي أبو سنة .
لمحات في وسائل التربية الاسلامية وغاياتها ، الدكتور محمد أمين المصري ط. دمشق .
النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، أبو الحسن الندوي ، ط. القاهرة .
القرآن والنبي ، الدكتور عبد الحليم محمود، ط. مصر.
الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي ، ط. مصر.
القتال في القرآن، محمود شلتوت ، ط . مصر .
محمد رسول الله ، هكذا بشرت الأناجيل ، بشرى زخارى ميخائيل، ط. مصر.
محمد رسول الهدى والرحمة ، مقال من كتاب الأبطال ، توماس كارليل ، معرّب .
ماذا عن المرأة ، الدكتور نور الدين عتر ، ط. حلب.
المرأة بين الفقه والقانون ، الدكتور مصطفى السباعي ، ط . دمشق .
روح الدين الإسلامي ، عفيف طبارة ، ط . لبنان .
اللب بين الإسلام والطب ، دكتور محمد موفق الشطي ، ط. دمشق.
لماذا أنا مؤمن ، جمال الدين الفندي، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصر.

ز ـ كتب أخرى :

الوحي المحمدي ، محمد رشيد رضا ، ط. خامسة. صبيح بمصر.
الإنسان ذلك المجهول ـ الكسيس كاريل ـ مترجم ـ ط. الدار القومية بمصر.

حياة محمد ـ محمد حسنين هيكل ـ طبعة سادسة ـ مصر.
الكتاب المقدس ـ نشر جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى ـ بيروت .
العقيدة والشريعة في الإسلام ـ أجناس جولد تسيهر ـ معرَّب ـ الطبعة الثانية بمصر .

٥ ـ مسرد الأبحاث

خطبة الكتاب

الفصل الثاني

الفصل الثاني

تبيان أوجه إعجاز القرآن

الفصل الثالث

الفصل الرابع

في اللغة والأدب والبلاغة والنقد

الخاتمة

الفهارس

من الإنتاج العلمي للمؤلف

(أ) في التأليف العلمي:

- ☐ نبوة محمد ﷺ في القرآن ـ ط. ثانية. دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.
- ☐ المعجزة الخالدة ـ ط. ثانية.
- ☐ الشورى في الإسلام ـ معد للطباعة.
- ☐ شَغَفُ الرسول وأصحابه بحفظ القرآن أساس تواتره ـ (بحث واسع في مجلة كلية الشريعة، العدد السادس، ١٤٠٣ هـ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة).
- ☐ مزايا القرآن العظيم.
- ☐ وحي الله، حقائقه، وخصائصه، نقض مزاعم المستشرقين، طبعة ثانية، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.
- ☐ التربية الإسلامية بالإشتراك ـ طبع وزارة التربية السورية ١٩٦٧ م.
- ☐ الأحرف السبعة في القرآن ـ ط. أولى. دار البشائر الإسلامية.

(ب) في تحقيق التراث الإسلامي:

- ☐ تفسير سورة الملك، لأحمد بن سليمان بن كمال باشا. ط. أولى. دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.
- ☐ تفسير سورة النصر، للإمام عبدالرحمن بن رجب الحنبلي. ط. ثانية. دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.
- ☐ فنون الأفنان في عيون علوم القرآن ـ للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ـ ط. دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.
- ☐ التيسير لحفظ مذاهب القراء السبعة ـ للإمام أبي عمرو عثمان الداني ـ تحت الطبع.